صنعاء القديمة:

صورة وصفية من الذاكرة ..!

بقلم د. عبدالعزيز المقالح

مدخل تاريخي :

لم يسقط الاهمال ولا النسيان في العصر الحديث على مدينة عربية كما سقط على مدينة صنعاء ، هذه المدينة التاريخية البديعة . المدينة التي عاشت كثيرا وكتب عنها المؤرخون الكثير ، وكان من حقها - وما يزال - ان تفاخر بنفسها كواحدة من أقدم المدن الباقية على وجه الأرض . وليس الذنب - في تقديري - ذنب المؤرخين والباحثين العرب والاجانب الذين طافوا ارجاء الوطن العربي والعالم بحثا عن المدن البائدة والمطمورة تحت الرمال بغية اكتشافها وتحديد زمن ظهورها ، ولكن الذنب - كل الذنب - واقع على ابناء اليمن انفسهم ، هؤلاء الذين قبلوا تحت عوامل القهر المختلفة ان تمر بهم افضل سنوات العصر الحديث دون ان يفيدوا من منجزاتها وقبلوا بالتالي ان تبقى مدينتهم التاريخية الجميلة بعيدا عن انظار الآخرين وبعيدا عن اهتمام العصر والعالم والآن ، وبعد أن بدأ اليمنيون الخروج من دائرة العزلة الشاملة ، وبعد أن بدأوا الاقتراب من العصر في محاولة للدخول في سياقه الاجتماعي والحضاري ، فان المنطق السليم للمسار الجديد لا بد أن يدفع بهم تلقائيا الى العناية بأشياء كثيرة ومهملة ومنسية ، وفي مقدمة هذه الأشياء المدن التاريخية القديمة سواء منها تلك البائدة او هذه القائمة ، ولا بد ان تكون صنعاء هذه الذكرى العطرة من ازمنة سحيقة في مقدمة هذه المدن تعرضا للبحث والاضاءة التاريخية . ولعل تاريخ اي مدينة في العالم لا يقتصر على تاريخ قصورها ومعابدها ودروبها واسوارها وقلاعها ، وانما هو تاريخ اهلها وتاريخ سكانها المتعاقبين ، تاريخ شامل لتطور الحضارة الانسانية على ارض هذه المدينة موضوع التاريخ ، ومن هنا فان علماء الاجتماع ينظرون الى نشأة المدن باعتبارها نقطة البداية في تكوين الحياة الاجتماعية ، ومن ثم تكوين الدولة ، وما يرتبط بها من تطور ، وهم يؤكدون ان انتصارات الانسان على الطبيعة

والبداوة لم تبدأ الا بعد أن قام الانسان بتأسيس المدن التي ادت الى اختراع القوانين والنظم السياسية والاقتصادية لحماية الجماعات الكبيرة التي لم تعد اعراف العشيرة والقبيلة في القرية كافية لحمايتها ورعايتها من صخب المدينة واضطرابها ، ولهذا فقد ارتبط اسم المدينة - اي مدينة - بالتمدن والتمدين .

وترتيبا على ذلك فإنه ما كانت الحضارات القديمة والحديثة لتكون بدور المدن حيث تتجمع الانشطة المختلفة والتنافس على الابداع والتطور . ولا ريب ان اليمن قد عرفت في عصور قديمة وربما قبل صنعاء مدن اخرى ، كانت الوعاء المدني الجامع للحضارة والعمران وللتجارة والصناعة وكانت لكل دولة من الدول اليمنية القديمة التي تعاقبت على حكم اليمن عاصمة او اكثر وقد اندثرت جميعا وما زالت الرمال تحتفظ بالكثير من أسرارها . وعند ظهور الاسلام لم يكن قد تبقى من المدن اليمنية التاريخية الذائعة الصيت سوى صنعاء التي كانت يومئذ مدينة كبيرة مزدهرة . اما متى ظهرت ؟ وفي اي عصر من العصور رأت النور ؟ فذلك ما يمكن أن نفيده من ابحاث المتخصصين ، ومن الجهود المثمرة لعلماء الآثار .

وتطيب لي هنا - الاشارة الى بحث جامعي لم ينشر بعد ، كنت قد حاولت فيه تفسير اختفاء الحياة الادبية في اليمن على النحو الذي شاع في بغداد والبصرة ودمشق والقاهرة وقرطبة وغيرها من المدن العربية في المشرق والمغرب ، وقد ارجعت ذلك الى غياب المدينة والى اتجاه الحكام اليمنين في العصر الاسلامي المفاخر الى تحطيم «فكرة المدينة» واللجوء الى القرى النائية او انشاء المدن الصغيرة لتكون عواصم مؤقتة لملكهم الذي لم يكن ليعمر طويلا في وجود المدن الكبيرة المليئة بالمؤامرات والثائرين وفقا لحساباتهم الضيقة وافتراضاتهم القاصرة . وقد نفذت من ذلك الى تفسير غياب «المدينة» بمفهومها المعاصر في اليمن ، والى ان ذلك الغياب قد شكل اهم الاسباب التي حالت بين اليمنين وبين التطور وفهم طبيعة التغير . وصنعاء التي صارت حاضرة اليمن في عهد الامام يحيى بعد خروج الاتراك قد اصبحت شبه مهجورة بعد اغتياله وحين ادرك خليفته ان «تعز» قد بدأت تأخذ طابع المدينة هجرها الى «الحديدة» ومنها الى «السخنة» وكأنه بذلك يهرب بنفسه من سطوة المدينة الكبيرة وما يستتبعها بالضرورة من مؤسسات اجتماعية وثقافية وعسكرية . لكن ذلك التحوط المبالغ فيه لم يمنع من ان يلقى ذلك الخليفة القصير النظر مصرعه بأيدي بعض شباب العاصمة الأولى التي نفر عنها خوفا من نفس المصير .

والخواطر التالية ليست من التاريخ والبحث العلمي في شيء وهي لا تعدو كونها نوعاً من التأمل الخالص الموقظ لذكرياتي الغافية حين اقتحمت هذه المدينة طفلاً ودخلت اليها شابا ، وهي كذلك نوع من الاسترجاع الحالم للحظات العلوية التي منحتني اياها صنعاء في محراب الجمال العفوي . أو إنها نوع من التسجيل او الإحياء الذهني - اذا جاز التعبير - لأشكال من الحنين المبعثر واشجان الروح التقطها القلب عبر ساعات من المشاهدات كنت انصت خلالها الى انغام تنبعث من النوافذ وتصدر عن المآذن وكأنها ابتهال علوي صادر عن حنجرة الزمن الساكن في اعماق المدينة ، وهو زمن حي

وناضج ويعرف كيف يفرح ويبكي ، وكيف يئن ويزمجر . ولعلها نفس الالحان التي جذبت «بازوليني» لكي يجسدها في فيلمه المشهور (الف ليلة وليلة) وهو الفيلم الذي حالت الرقابة العربية الجاهلة بينه وبين الجماهير العربية حتى لا تنفض من حول افلام البلاهة العربية وبذلك اصبح الفيلم واصبحت الالحان المنقولة فيه عن صنعاء من نصيب العواصم المتمدينة ومن نصيب الجماهير الأكثر ثقافة وقدرة على الاستمتاع بالفن الاصيل .

اللقاء الأول :

حين أرى الدهشة تعلو وجوه السياح والزائرين لمدينة صنعاء القديمة وحين الحظ العيون وهي تحاول ان تنفتح الى اقصى مدى لها لكي تلتهم بشغف مناظر الأحياء العتيقة في هذه المدينة العريقة ، اتذكر على الفور قصيدة «ايثاكا» للشاعر العالمي «قسطنطين كفافيس» وسرعان ما يتمثل لي هذا الجزء القديم من المدينة ـ بطابعه السوريالي ، وبسوره الطيني وبقبابه البيضاء ومآذنه السامقة ومنازله الراقصة ـ اقول سرعان ما يتمثل لي هذا الجز وكأنه ـ على نحو من الانحاء ـ ايثاكا المدينة اليونانية الاسطورة ؛ تلك التي كان لا بد ان يختم الانسان برؤيتها رحلة حياته على الارض . . وكما لا يفهم الناس ولا الشاعر قصيدة «ايثاكا» يقوم لها في ذهني وانا أتأمل صنعاء تفسير خاص يجعل من «ايثاكا» اجمل مدينة في العالم ، ولذلك تحرص العين على ان لا تراها الا آخر الرحلة حتى لا تفسد عليها الرؤية المبكرة متعة النظر الى المدن الأخرى الأقل جمالا والأقل حضورا في التاريخ . ولهذا تمنيت وانا اغالب الدهشة المتبقية في نفسي ، ثم وأنا اقرأها في عيون الآخرين ممن لم يعاشروا صنعاء في طفولتهم وصباهم وفي شبابهم وكهولتهم فيفقدهم طول المعاشرة الاحساس بحضورها الخاص وبايقاعها الجمالي المثير ـ تمنيت لو ان القدر كان رحيما بي فلا ادخل الى صنعاء الا بعد ان أكون قد طوفت . . بعشرات بل بمئات من المدن حتى تكون هي المدينة الاخيرة . ويكون مستوى التذوق عندي قد ارتفع الى درجة يكون قادرا معها على استيعاب جماليات صنعاء القديمة وجماليات الزمن على وجه صنعاء القديم فالمدن كالقصائد العظيمة وكقطع الموسيقى العظيمة لا يمكن فهمها او تذوقها الا بمستوى رفيع من الثقافة وبقدر كبير من الاحساس العقلي والروحي بتذوق الفن وبادراك العلاقات والفوارق البارزه بين الأعمال الفنية المختلفة كالشعر والمعمار والتصوير والموسيقى .

وحتى لا يقف اسم «ايثاكا» حائلا بيني وبين القارىء الذي لا يتابع رحلة الشعر العالمي ولا يستطيع ادراك المعنى الكامل لوضعه في هذا السياق من احلام اليقظة ، فانني اسارع لكي اضع القصيدة او الجزء الأكبر منها بين يدي القارىء لا لكي يكتمل ادراكه بمعنى ما ذهبت اليه وانما لكي يعذرني على نوع الامنية المستحيلة ، امنية ان لا أكون قد رأيت صنعاء من قبل ، او على أقل الاحوال امنية أن أرى صنعاء بعين من يراها لأول مرة ، عين مليئة بالتوتر والاعجاب والدهشة :

وانت تزمع الرحيل الى ايثاكا
فلتصلّ من اجل أن يكون الدرب طويلا
مليئا بالمغامرات والتجاريب .

ثمن ان يكون دربك طويلا .
ان تدخل في أسحار صيف عديدة
وبأي امتنان وأي فرح -
مرافىء ترى للمرة الأولى .
وان تتوقف عند مراكز التجارة الفينيقية
فتشتري بضاعة طيبه
اصدافاً ومرجاناً وعنبرا وابنوسا
وعطورا شتى . قدر ما تستطيع
ان تزور مدنا مصرية عديدة
وان تجمع معرفة العارفين

***

لتكن ايثاكا ، دوما معك
ان بلوغك اياها ، هو مصيرك
لكن ، لا تسرع الرحلة ، في الأقل
والخير ان تستمر الرحلة اعواما
كي تبلغ الجزيرة شيخا ،
غنيا بما كسبته في الدرب .
غير متوقع من ايثاكا أن تهبك الغنى .
لقد وهبتك ايثاكا الرحلة الرائعة
وبدونها ، لم يكن بامكانك الرحيل
وليس لديها ما تهبك سوى هذا .

***

ان وجدت ايثاكا فقيرة ، فهي لم تخدعك ،
اذا غدوت من الحكمة في هذه التجربة
بحيث فهمت ، فعلا معنى هذه الإيثاكات .
(من ديوان : وداعاً للأسكندرية التي تفقدها ،
ترجمة : سعدي يوسف)

هذه هي «ايثاكا» القصيدة واذا كانت - كما تشير الى ذلك السطور الأخيرة - قد تبدو لعيني المسافر اليها بعد ترحاله الطويل فقيرة أو مخيبة للآمال فان ما اكتنزه في الطريق اليها من معارف وتجارب سوف تعوضه عما فقده من المعطيات المتوقعة ، لكن «ايثاكا» صنعاء ، لن تخيب آمال زائرها ، وسوف تقدم اليه من جماليات المكان العربي ومن صور الابداع وتفاصيل فن الطين والحجر ما يثري خياله ويخصب مشاعره ، وهذا بعض ما رأيته مرسوما في عيون الزوار والسياح الحالمين ، وفيهم القادم من شرق الكرة الأرضية والقادم من غربها والذين زودتهم صنعاء بانطباع عميق يصعب التعبير عنه .

ولم تكن لي - بكل تأكيد - عندما دخلت الى صنعاء طفلا في السابعة من العمر تجارب زوارها الجدد ولا ثقافة اعينهم المدربة لاستقبال الدهشة ، ولم تكن صنعاء نفسها في هذا الحجم او بالاصح بمثل هذا الورم غير الطبيعي ، كانت صغيرة تحتمي جذورها العتيقة بالجبل الواقف لكي يحرسها من الشرق ، وكانت اقدامها تبعد كثيرا عن الجبل الصغير المواجه له لكي يحميها من الغرب ، ومع ذلك فقد كانت تبدو لعيني الصغيرتين اكبر منها الآن . وكأنها ما تزال تتراءى لي من وراء السنوات كعروس جميلة ليلة الزفاف ، لم تكن الوانها كثيرة ، وكان اللون الأبيض هو ازهى وأهم الوانها ، وهو ما كان يعطيها وبخاصة في ساعات الظهيرة ألقا فاتنا ، ولعل الصورة الأولى التي التقطتها الذاكرة لصنعاء كانت في الظهيرة حين لمحتها من على ظهر الجمل ، وعندما اقتربنا منها وبدأت نوافذ البيوت تتضح بجلاء هبطت من على ظهر الجمل وبدأت السير على ترابها الناعم بقدمي العاريتين .

كنت قادما الى صنعاء من الجهة الجنوبية ، وكان على القادم من هذه الجهة قبل ان يصل الى (باب اليمن) وهو اهم واجمل ابواب المدينة

السبعة ، ان يمر بمقبرة بيضاء تبدو قبورها المطلية بالجص الأبيض وكأنها بيوت صغيرة . دخلت المدينة من (باب اليمن) وسرت الى جوار السور ، ومررت بمبنى قصر غمدان الذي اصبح سجنا وثكنة عسكرية ومخزنا للأغذية ، ووقفت قليلا امام مسجد البكيرية العثماني بقبابه العديدة ثم واصلت السير الى ان توقف الركب امام منزل من اربعة طوابق قيل انه سيصبح بيتنا . كان كل شيء في المدينة فطريا وجميلا لكن الناس في المدينة لم يكونوا على ما يرام كانوا يعانون من الاصفرار والشحوب وهم يتحركون ببطء ، ولا يندفعون في السير كما يفعل اخوانهم في القرى لكأنهم ينتزعون اقدامهم من الأرض انتزاعا . وقد عرفت السبب بعد سنوات ، وبعد ان صرت اشاركهم الطريق ، انه الخوف ، ليس الخوف من المجهول وحده ولكنه الخوف من المجهول والمعلوم معا .

لم اكن منذ وقت مبكر احب شوارع صنعاء ولا أهوى اللعب في الحارات ، كنت احب اللعب في السطوح والتأمل في المآذن ، والانبهار بالنوافذ الزجاجية للمنازل العالية ، وعندما كان ابي يحملني معه الى زيارة بعض اصدقائه او لقضاء فترة المقيل في بعض هذه المنازل كنت افلت منه واتجه نحو السطح حيث اكتشف مزيدا من الملامح الفنية للمدينة ، وحيث تغمرني موجات متتابعة من الاعجاب والدهشة ، السحابة الزرقاء الصافية ، معركة الظل والضوء عبر ساعات النهار ، كان ذلك كله لعبة يومية مسلية لطفل ريفي يخاف شوارع المدينة مع ان حال الشوارع يومئذ لم تكن قد ساءت الى هذا الحد الذي هي عليه الآن في عصر النفط والاسمنت ، عدد السكان لم يكن كبيرا ، النظافة كانت قيمة دينية واجتماعية ، الفقراء يبذلون عناية فائقة في تجميل منازلهم من الخارج ، كما ان الاقدام والحمير هي وسيلة المواصلات داخل المدينة ، ولم تكن تثير من الأتربة والغبار ما تثيره السيارات الآن ، ولم تكن مخلفات المنازل يومئذ بمثل هذا الثراء الفاحش . ومن المستحيل ان ترى العين شيئا من هذه الأوراق المتناثرة ومن هذه العلب الفارغة والاكياس الطائرة ، حتى اوراق الاشجار لم تكن في الخريف تتساقط بمثل هذا القدر الذي تتساقط به الآن .

كانت صنعاء الاربعينات لا تأكل كثيرا وبذلك حافظت على صحتها وعلى نقائها ، ولم تكن بحاجة الى من يخرج احشاءها كل عام بقصد التنظيف ، وقد ساعد الطقس المعتدل من برد غير مؤذ ، الى دفء لطيف ، على حمايتها من تقلب الفصول وآثارها ، كانت تعيش في بساطة ورقة ، ولم يكن ينقصها سوى حكم عادل او حاكم امين ينهض بها من قاع التخلف ويرفض ان تبقى معلقة بين اوهام الانطواء القاتل واحلام الانفتاح المفسد ، وبحثا عن هذين الغائبين فقد رأت المدينة ان تقتل امامها الحاكم بأمره انتقاما لبقائها بعيدا عن الحياة الجديدة ، ونجحت المدينة في القتل لكنها لم تنجح في الدفاع عن الوليد الجديد ، وكانت النتيجة ان حكم عليها بالدمار شبه التام، لقد عشنا الاسابيع الثلاثة التي تنفست صنعاء خلالها الصعداء بعد رحيل امامها وتحلقنا في مطارها الترابي من حول اول طائرة تكسر جمود المكان والزمان لكن الحصار لم يلبث أن احاط بالمدينة من كل الجهات ، ها هو ذات الماضي الذي حاولت الخلاص منه يعود كأعنف ما يكون استبداداً

وغطرسة لقد سكتت المدافع وهؤلاء هم رجال القبائل يقتحمون ابواب العاصمة ويتسلقون اسوارها الطينية ، ثم يمضون الى قلبها حيث الاسواق فينهبون ويدمرون ثم يمضون الى المنازل الأهلة بالاطفال والنساء فينهبون ويسلبون ويقتلون ويدمرون ، ان هذا الذي حدث في مارس ١٩٤٨ للمدينة التاريخية كان كارثة من اقسى الكوارث التي مرت بها عبر العصور . وقد كان السبب الظاهر لوقوع تلك الكارثة يفسر بالانتقام لمقتل «الامام يحيى» لكن السبب الحقيقي لها لم يكن سوى الانتقام من المدينة ذاتها ، فقد تكدست الأموال في مخازن حكامها واغنيائها ، اموال الشعب الجائع . وفي تلك الايام السوداء . وحينما كانت القبائل الغاضبة تصول وتجول كنت أشعر بأن صنعاء ترتعد وان التاريخ يقف باكيا عند كل منعطف وعلى كل مدخل من مداخل المدينة المنكوبة .

الوداع الأول :

ودعت صنعاء لأول مرة بعد سبع سنوات من الصحبة العفوية . ولم اكن قد تجاوزت سن الصبا ، وحين ودعتها كنت قد حملت لها في داخلي بالرغم من سنوات البؤس المرير حبا عميقا وذكريات صغيرة بريئة لا حصر لها . كانت خارطة ازقتها الطينية قد صارت محفورة في روحي ، وعلى البعد ظل الحب الذي حملته لهذه المدينة يكبر ويتسع ، وحين بدأت الاقتراب من عالم الأدب ، كان اسم صنعاء هو اول ما يشدني في الكتب ، واول ما يهزني في الشعر لا سيما الشعر الشعبي الذي التقطه الفنانون وحولوا بعض روائعه الى اغاريد واناشيد انبثقت الحانها من اغوار الشعب واحاسيسه ، وهذا يجرني الى ذكر بعض الأبيات السقيمة التي كانت شائعة على الأفواه وتتردد كلما ذكر الناس صنعاء او تغنوا بجمالها وهي من الشعر الذي يسيء الى صنعاء والى الشعر كذلك وهي :

لا زال من عبق له يهديك
فياح نشر هب من واديك
صنعاء يا مهد الحضارة والعلى
ومقام كل سميدع ومليك
باريس دونك في الجمال ولندن
وعواصم الرومان والامريك
فجمال تلك مزخرف متكلف
وجمالك المطبوع من باريك
ما مأرب ما سده ما حمير
ما تبع كل اذاً يفديك
ما الهدهد السيار ما نبأ له
ان الذي في شرحه يغنيك

أي شيء في هذه الأبيات السمجة الضحلة المعاني والمتكلفة الاداء يجعلك تحب المدينة او تهوى الشعر؟ لقد كان نثر امين الريحاني ذلك الذي كتبه وهو يدخل صنعاء مبهورا بزحمة التاريخ وجلال الزمن ، كان ذلك النثر اكثر شاعرية واكثر تعبيرا عن التواصل النفسي مع المدينة مكانا وزمانا، وهذا جانب من ذلك النثر الشعري : «وما هي الا ساعة بعد ارتحالنا من حزيز حتى تراءت لنا رؤوس المآذن من تلك المدينة . ثم قباب مساجدها وهي بيضاء تتوهج في نور الشمس الذي يترجرج كالزئبق في الجاف الشفاف من الهواء . بينما نحن ندنو من «نُقُم» الذي اصبح على يميننا ، اذ بدت المدينة

نفسها وهي محاطة بالجبال تمتد شرقا وغربا ، كأنها وهي كلها بيضاء ، سلسلة من التلال الكلسية في سهل ذهبي منقطع الاخضرار . اثنا عشر يوما في المشقات . وهذه صنعاء تنسيك اضعافها . أي صنعاء مثلك لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان ، ومثلك لنا العلم فكنت يوما ربة العرفان، ومثلتك لنا الاساطير فكنت سيدة الانس والجان . اجل فكم من ليلة ، وفي اليد الكتاب والى جانب الكتاب نور شمعة ضئيل ، تغلغلنا في سراديبك . ووقفنا عند كنوزك ، وطفنا حول قصورك وسمعنا الشعراء . . »

اللقاء الثاني :

كان الوقت صيفا عندما رجعت الى صنعاء في اواخر الخمسينات ، وكان النهر الجاف المسمى «السائلة» يتدفق بالمياه بعد اسابيع من المطر الغزير على صنعاء وضواحيها وعلى المناطق القريبة منها . كان للتراب رائحة العطر وللمباني في الليل لون الظلال وكانت السيارة التي جاهدت يوما كاملا لتقطع خمسين كيلومترا ـ قد وصلت بعد لهاث عنيف الى باب المدينة ، لكن الليل كان قد سبقها وطوى المدينة في ثوبه الرمادي ، وكان الحراس قد سارعوا الى اغلاق الابواب ، ولا بد من الانتظار الى ما بعد طلوع الفجر. الباب الخشبي المطعم ببعض الصفائح الحديدية لا يمنع الدخول الى المدينة بعد هبوط الليل وحسب ، ولكنه يوحي للناظر اليه بالرعب ويجعله يسقط في بحر من المخاوف والتأملات .

لقد اعتادت المدينة التاريخية ان تنام بعد مغرب كل يوم ، والمهمة الليلية للحراس أن يغلقوا الابواب وان يناموا خلفها من الداخل في انتظار الفجر ، وعلى المسافرين القادمين من أي الجهات بعد اغلاق الابواب ، وبعد نوم المدينة ان يناموا ـ ان شاؤ وا او قدروا ـ خلف الباب المغلق من الخارج . لم انم ، كانت ذاكرتي ، تخترق الباب الخشبي المغلق وتجتاز الاسوار الترابية العالية ثم تمضي لكي تمسح الشوارع والدروب الخالية والمقفرة من أي لمعة ضوء ، كنت اسمع في صمت الليل ما يشبه الصراخ المكبوت ، هل هو صراخ المدينة السجينة خلف الأسوار والأبواب المغلقة يوشك ان ينفجر ؟ ام انه صوت النار القادمة ، النار التي توشك ان تلتهم هذه ا لأسوار وهذه الأبواب . لعل المواطن الذي يرتعش خلفها ويمتد الخوف حتى نخاع عظامه يشعر بالامان ، ولعله يعرف طريقه الى العصر من خلال الأبواب المفتوحة والنوافذ المشرعة على كل الجهات .

ارتفع صوت المؤذن عذبا جميلا بعد موجات هادئة من التراتيل الدينية والتسابيح القادمة من رؤوس المآذن القريبة ، لم تكن مكبرات الصوت قد ظهرت بعد ، الصوت وحده ، الصوت المجرد كان يمزق استار الظلام ويفتح الطريق امام الفجر ، وكأنه ليس صوتا بل شعاع من اشعة الفجر . صلى الناس وغادروا المساجد عائدين الى منازلهم وهب العساكر لفتح الباب ومرقت السيارة نحو المدينة محدثة ضوضاء وجلبة لم تتعودها الشوارع ولم تشهدها الا نادرا ، ومنذ وقت قصير .

لم يكن قد تطور شيء في صنعاء . كانت الحركة فيها ما تزال بطيئة وهادئة ، وكانت ما تزال قادرة على النوم في عز الظهيرة ، وعندما دخلت

اليها هذه المرة كنت مسلحاً بقدر لا بأس به من الثقافة الرومانسية . وقد استوعبت ذاكرتي عدداً من القصائد المخصصة في مدح الجداول والأزهار ، وكانت كتابات الرافعي وجبران وقصائد شعراء المهجر وبعض روايات عبد الحليم عبد الله قد أوجدت بيني وبين الطبيعة الخالدة نوعاً من الصلة العميقة حافظت على مشاعر الدهشة في نفسي إزاء المدينة وجعلتني وانا أدخل اليها للمرة الثانية احتفظ الى حد كبير بمشاعر الطفل الحالم . وعلى الرغم من هذا الاحساس الشاعري وما تركه المطر على المدينة من مظاهر جمالية إلا أن التعب البادي على وجه اهلها قد خفف من حدة الانفعال وأوهن من إيقاع اللقاء .

وقبل أن تصلبني هموم المدينة على خشبتها اليومية . وقبل ان يطويني التدريس بين اوراق الكتب تمتعت باجازة طويلة امضيت اغلب ايامها على تل يجاور السور الشرقي الشمالي من المدينة ويدعى الآن بظَهْر حِمْيَرَ كانت المزارع تحيط به من الجنوب والغرب والشمال ، وبالقرب منه تقوم ثاني اكبر مقبرة في صنعاء القديمة وتمتد الى القرب من باب شعوب وكان «المشهد» المخصص لصلاة العيدين يقف تحت تل «ظهر حمير» منفردا لا يؤنس وحشته سوى بيت من اللبن من الجهة الغربية وثلاثة او اربعة بيوت من جهة الشمال . كنت اقضي ساعات الصباح في هذا المكان اتملى وجه المدينة واستعذب بريق الزجاج الذي يعكس لمعان الشمس ، واظل في مكاني لا أتحرك الى ان ينتصف النهار وترتفع ألسنة الأدخنة من السقوف العالية للمنازل القريبة معلنة اقتراب وقت تناول الطعام .

ولم يكن التدريس وحده الذي انتشلني من هذه التأملات اليومية ، ومن هذا المكان الثابت ، فقد ساعدت حادثة طريفة على تغيير مكان التأمل بل على اختيار طريقة اخرى للاستمتاع بمنظر صنعاء ومحاولة احتواء جمالها الكلاسيكي النادر . كان احد المجانين «العقلاء» قد تعود ربما قبل ان يقع اختياري على هذا الموقع من التلال المحيطة بالمدينة ان يقف عليه لكي يفكر في اوضاع المدينة وليعد على طريقته اسلوب خلاصها المنتظر . كان هذا المجنون العاقل ـ كما عرفت فيما بعد ـ مدرسا سابقا ، وقد اوصلته مهنة التدريس الشاقة الى مرحلة من الجنون تصور معها أنه قد أصبح نبيا وان عليه ان يتحول من هداية الأطفال الى الحروف الابجدية الى هداية اهل المدينة الى العدل والحق . كان رجلا طيبا ، هادئا نقي الثياب يوزع نظراته بالتساوي على المقبرة والمدينة او على مدينتي الأحياء والأموات ـ على حد تعبيره ـ وبعد ان حدثني عن رسالته وكشف لي عن حقيقة نبوته طلبت منه البرهان على صدق ما يدعيه فأجابني ان البرهان الحقيقي على صدق نبوته «انه حي» وان حياته من وجهة نظره دليل لا يجحد على صدق نبوته فهو يعيش في هذا العالم المغلق الموحش دون أن ينتحر أو يموت أو يفقد ايمانه في ضرورة مواصلة الحياة ، وقد حاولت ـ فيما بعد أيضاً ـ ان اتفهم ابعاد المغزى الجليل والعميق للبرهان الذي اراد به ذلك «المجنون العاقل» ان يثبت حقيقة تنبؤاته وليس نبوءته انه واحد من عشرات المجانين الذين افقدتهم اوضاع مدينة صنعاء توازنهم ، وجعلتهم يتيهون هكذا بين الزحام المتخلف الراكد يفاخرون بقدرتهم على حياة وسط هذا الركام المقيت ، وهم

بذلك يشيرون ولا يفصحون الى ان الانسان لكي يعيش في هذا الواقع لا بد أن يكون نبيا او ان يكون له صبر الانبياء وقدرتهم على التحمل . ووفقا لهذا التفسير يكون كل ابناء الشعب باستثناء حكامه ـ انبياء .

لقد ايقظني المجنون العاقل ـ وأنقذني من الانجذاب الرومانسي نحو الطبيعة ، وربما خشيت أن اتحول الى مجنون من صنف آخر لذلك فقد انقطعت عن الذهاب الى ذلك المكان واخترت بدلا منه الطواف حول المدينة لا لكي اثبت ان المدينة كروية وانما لكي اشعر بالامتلاك النفسي لكل ما هو جميل ورائع فيها قبل ان تتداعى ويدركها الزوال . وكنت اخاف عليها من التداعي السريع نحو الانقراض ، واخاف عليها من التحول ، ان يتحول اللون الأبيض الى رمادي والأزرق الفاتح الى ازرق غامق او اسود . وكانت بهجتي ان اطوف المدينة مشيا على الأقدام ابتداء من باب شعوب وانتهاء بباب شعوب وكثيرا ما رافقني في جولتي تلك صديق أو اكثر ، وكنا نقترب من باب السَّبحْ او باب اليمن ربما نرطب الأفواه الظمأى ببعض المشروبات الشعبية كالقديد وهو ماء المشمش او ماء الشعير المحلى . وما زلت اتذكر قولا لأحد اصدقائي : لقد اصبحت الآن قادرا على التقاط اكبر الملامح المعبرة عن شخصية هذه المدينة التاريخية .

كانت صنعاء القديمة الى الخمسينات تحمل شكلا بالغ الخصوصية ليس في معمارها النادر ولا في دروبها وحاراتها وحسب وانما في نمط الحياة وفي اساليب التعامل ايضا وقد كان العدد القليل من الأجانب الذين سكنوا صنعاء قبل الثورة يعتبرون انفسهم من المحظوظين . واي حظ اكبر من أن تعود عشرات القرون لتحيا مع التاريخ وجها لوجه فتتحدث اليه ويتحدث اليك تتعامل معه في الشارع وفي السوق ؛ في ثياب الناس وفي معارفهم .

وكل ذلك يتم في اطار تاريخي يجسده شكل المدينة القائم على نمط يعبر عن درجة عالية من الفن والامتاع . ولن انسى ما حييت حديث ذلك الملحق التجاري التشيكي الذي لا اتذكر اسمه وربما لم اعد اتذكر ملامحه وهو يقف على سطح منزله يحكي عن جمال صنعاء ويمسك بالريشة ليضع اللمسات الأخيرة في لوحة بديعة لركن منها قبل الغروب . كنت وصديق لي قد ذهبنا الى منزله وبالأصح الى سطح منزله لنشاركه متعةالاستغراق الفني في محراب الغروب عند الطرف الغربي من «بير العَزَب» . قال لنا : إنه ليس فناناً محترفا ولا هاويا ، ولكن صنعاء قد جعلت منه في بضعة اشهر عاشقا لفن التصوير . واذا طالت اقامته من يدري فقد يصبح فنانا شهيرا . كنت اراقب الريشة في يده وهي تخلط الألوان ثم وهي تشكل اللوحة ، ثم انظر الى عينيه وهما تحاولان التهام المدينة فأشعر بالغيرة منه ومن عينيه النهمتين وعندما هبط الغروب كعادته وبدأ يلف المدينة بظلام شفاف لا يبدده سوى بعض الأضواء الخافتة المنبعثة من وراء زجاج العقود الملون اخذ الفنان المسحور يطوي معدات الرسم ، وقبل ان يغادر سطح منزله افترقنا ، وقد غمرتني حالة من الوجد الفني اسلمتني الى حلم جميل بأن يكون لي ولمن يرغب من ابناء هذه المدينة ـ نفس الريشة ونفس الاحساس ، وان نقف ذات يوم على سطوح

البيوت او على رأس اكمة من الأكمات المحيطة بالمدينة في محاولة لتجسيد الجمال الذي يذهب هدرا ويتبدد كطاقات البشر المهدورة في هذه الارض . وعندما اتاحت لي الأيام بعد ذلك السفر بعيدا عن صنعاء عدت اليها حاملا الريشة والألوان ، لكن الوقت كان قد فات . والعين لم تعد قادرة على التقاط كل الألوان بنفس الدهشة والصفاء .

ولست انسى ما حييت ايضا ، يوما ذهبت فيه مع عالم لغوي من القطر العربي السوري الى مكتبة الجامع الكبير ، كان ذلك العالم الجليل الذي لا اعلم ان كان ما يزال باقيا على قيد الحياة - يعرف بمجنون «ليس» وقد جاب الاقطار العربية قطرا قطرا وزار بعض الأقطار الاسلامية وذهب الى الاندلس بحثا عن الاحكام المتعلقة بهذا اللفظ واشتقاقه ، انهينا تقليب الكتب ، وغادرنا مقر المكتبة في الطابق الثاني من المسجد الجامع واتجهنا لاداء فريضة صلاة المغرب ، كان الجامع يومئذ يضاء بالزيت شأن بقية المساجد وشأن كل المنازل في المدينة التي كانت الى اوائل الستينات تضاء بالجاز او الزيت . رأيت العالم الجليل يختار الركن الخلفي من الجامع ، وهو ركن يغمره الظلام ولا تضيئه المصابيح الزيتية ، وكان مئات من المصلين قد اختاروا هذا الركن لأداء صلاتهم بعيدا عن الأضواء وعلى مقربة من البخور المتصاعد والذي يشكل دخانه الخفيف دوائر واشكالا فنية بديعة على سطح الأبواب الزجاجية .

كان المصلي في هذا الركن يطيل الصلاة كما يشاء . تستغرق الركعة الواحدة اكثر من صلاة كاملة ، لا يشغله شيء من المرئيات سوى خيوط الدخان المتصاعدة الذي سرعان ما تتلاشى ويتلاشى معها كل الصور المحسوسة ، ولا يبقى في العين والقلب معا سوى رؤ يا النور والهداية . كل شيء صار مضيئا بالحياة ومشعا بالأمل ، وعاطرا بالمحبة . ومنذ تلك الليلة واظبت كل مساء على الحضور على أداء الصلاة في ذلك الركن المضاء بنور الإيمان وحده .حتى جاءت الكهرباء ودخلت المدينة وغزت ذلك الركن من المسجد الجامع ، واختفى عنه الهدوء وصار كل شيء واضحا وشاغلا للعين والقلب . واصبح المصلي يشعر وهو واقف تحت الاضواء المبهرة انه في حفل استقبال . وان الناس يرقبونه وهو يؤ دي صلاته بل لقد رافق الكهرباء شيء آخر هو مكبرات الصوت وقد نال الجامع الكبير منها الكثير فتحولت اوقات الصلاة الى ساعات من ساعات الحشر المنتظر ، وما يكاد صوت مكبر الصوت يدوي الا ويظن من في الجامع انه قد نفخ في الصور .

مقارنة متحيزة :

قامت ثورة سبتمبر ، ومع قيامها بدأ ايقاع الحياة في المدينة العتيقة الجميلة يتغير ، وكما اتاحت الثورة للمدينة العتيقة شرعية التغيير فقد اتاحت لي ولغيري من ابناء هذه البلاد فرص الاسفار المتعددة الى مدن عربية واوربية كثيرة . وخلال الاربعة الاعوام الاولى من قيام الثورة زرت عددا كبيرا من المدن العربية والاوربية ، فقد زرت القاهرة وبيروت ، ودمشق وبغداد والجزائر والكويت وتونس والرباط والخرطوم . كما زرت اثينا ، وروما ، وباريس ، وبرلين ، وبون ، وجنيف ، وبراغ ، وفيينا ، وبودابست ، وبوخارست وصوفيا وبلغراد وغيرها وغيرها .

ولم تقدر عاصمة من هذه العواصم الكثيرة عربية كانت أو أوروبية ، لم تقدر على انتزاع اصبع من المساحة التي تحتلها صنعاء المدينة القديمة في القلب والعين ، ولا انكر ان اصغر وأصعف مدينة في قائمة هذه المدن ارقى من صنعاء وأحفل منها بالجديد والمثير ، وان عددا من هذه المدن قد بهرني وربما سحرني ، ومن منا لم يأسره جمال القاهرة ، واناقة دمشق ، وشموخ الجزائر ، ورقة تونس ، ومن منا لم يشده عطر باريس ، ولا بحيرات جنيف . ولم تلعب بعقله آثار روما وأثينا ، ولم تلعب بقلبه شوارع براغ وحدائق فيينا . لكن رائحة التاريخ في شارع الأبهر من صنعاء ، وعبق الزمن الذي يفوح من شوارع الطواشي والفليحي ومن ازقة صلاح الدين . والمنظر السوريالي الذي رسمته منازل بروم والسايلة ، كل ذلك يجعل المرائي المختلفة هنا وهناك تأخذ شكل التناظر او التقابل في القلب والعقل بين جماليات الماضي والحاضر وتكون الغلبة في النهاية للقلب الذي يختار جماليات الماضي ممثلة في صنعاء . في هذه البقية الباقية من صفحات تاريخية حية تقوم في المكان الراهن وفي الزمن الراهن ، لا في الكتب ولا في اخيلة الكتاب والشعراء .

واعترف ان مدينة عربية واحدة ، ليست عاصمة ، وان كان لها شهرة العواصم الكبرى ، هذه المدينة كادت تأخذ في القلب والعين مساحة مساوية للمساحة التي تأخذها صنعاء ، تلك المدينة هي الاسكندرية ذلك الشريط البحري الأبيض المتعرج الراقص . دخلت الاسكندرية شتاء فسحرني صمتها ونقاؤها ، وزرتها صيفا فسحرني كذلك صخبها ومرحها . جئتها قادما من البر فاستقبلني اريج التاريخ مع نسمات حقول كفر الدوار ، وجئتها قادما من البحر فاستقبلني بريق الوان منازلها البيضاء . شيء ما يجمع بين المدينتين ، ما هو ؟ لا ادري على وجه التحديد ، لكنه قد يكون الايغال في التاريخ ، التآكل البادي على الاحجار . في شاطىء الاسكندرية الطويل كنت اتوقف طويلا لكي اتذكر صنعاء . ليس في صنعاء بحر وبالتالي ليس لها شواطىء ، لكنها مدينة ابحرت كثيرا في التاريخ فصارت شوارعها شطآنا للتاريخ ، وعندما اعلنت هذه المدينة وشوارعها الثورة على الجمود وعلى الخوف من العصر لم تكن تعلن الثورة على نفسها وعلى تراثها الفني العظيم . والفن لا قديم فيه ولا جديد ، وليس في الفن العظيم ما يكون قديما وحديثا وسلفيا معاصرا ، الفن هو الجمال الخالد . هو المعاصرة المتجاوزة لكل الأزمان والعصور . وصنعاء القديمة نموذج فريد وعظيم من الفن الخالد . الفن المتجاوز ، الفن الذي لا يتقيد بزمان عابر ومكان عابر وكانت قد ثارت في عام ١٩٦٢ لأنها سئمت الجمود وسئمت النوم في عز الظهيرة . وثارت لأنها كانت قد افتقدت الحركة وافتقدت معها العافية والاشراق . وكان انسانها قد اشرف على الانقراض ، وبدأ جمالها في الذبول فالانطفاء . لذلك ثارت وعقدت العزم على ان لا تظل خامدة نائمة وان تخوض غمار الحياة الجديدة على ان لا تفقد طابعها وجذورها الموصولة النسب باحدى أقدم حضارات التاريخ ، وعلى ان تظل هي نفسها ولا تكون سواها مهما كانت حدة المؤثرات وعنف الرغبة للتجديد . ان التجديد والتجدد هما امل الانسان وملاذه في مناخ محاصر بالتخلف

والجمود ، وماذا يتبقى من معالم ابداعات قديمة فرغت من المحتوى الانساني سوى اشكال باهتة ، لكن التجديد والتجدد كلاهما لن يتولد عنهما رؤ ية جديدة ، رؤ يا تكون ملء السمع والبصر ما لم تكن مستنيرة ومستبصرة بقبس من ابداعات الماضي ، وما لم تقم على جذور عريضة عميقة تتحدى عناصر الاستلاب والاغتراب وتتوهج بائتلاق تتجمع في اشعة ابداعه ملامح الماضي والحاضر والمستقبل ، وتتعانق على صعيده الواحد جماليات كل العصور في تناسق وتناغم وانسجام .

فراق طويل فحنين ثم لقاء :

عشر سنوات مرت وانا بعيد عنها ، بعيد عن صنعاء ، فمنذ عام ١٩٦٧ الى عام ١٩٧٧ لم ازرها سوى في الشعر ، ولم التق بها سوى في الاحلام ، وعندما كان الحنين يشتد ويتحول الشوق الى حريق يومي كان الشعر هو الملاذ ، وكانت صنعاء رغيف الخبز وفنجان القهوة ، والصورة المرئية عبر كل المناظر والألوان ، وكانت الروح معلقة على الشطر الأخير من هذا البيت :

يوماً تغنّى في مَنافينا القَدَرْ

ـ لا بُد منْ صنعا و إنْ طالَ السَّفَرْ ـ

وقد طال السفر ، وامتدت سنوات النفي الاختياري ، وطالت اشجار الحنين وتحول الشوق الى انفجارات تأكل القلب وتمزق اللحم والعظم ، وتولد عن ذلك الشعور عشرات القصائد منها الكلاسيكي الذي يأخذ طابع المعمار الصنعاني العريق ، ومنها الجديد الذي يأخذ ملامح الثورة وصدى ايقاعها السريع ، ولأن الحديث عن صنعاء ، وعن مبانيها واحيائها العتيقة التي تتناغم مع موسيقى القصيدة الكلاسيكية فسوف اكتفي من رسائل وبرقيات الشوق الى صنعاء بنموذج قصير من قصيدة «البكاء بين يدي صنعاء» . والقصيدة كاملة منشورة في ديوان (هوامش يمانية على تغريبة ابن زريق البغدادي) ويرجع تاريخ كتابتها الى عام ١٩٧٢ م :

للحب فوقَ رمالها طللُ
من حولـه نبـكي ، ونحتفِلُ
نقشَتْهُ كفُّ الشوقِ في دمنا
وطَوتْـهُ في أعماقنـا المُقلُ
هو حُلمنا الباقي ومعبدنا
وصلاتنـا ، والحـب والغزلُ
من أجلها تصفو مودَّتُنا
ولحُبهـا نشقـى ونقتتلُ
شابتْ مآسينا وفرحَتنا
وتمزَّقـت في دربهـا الدولُ
وشبابها الريانُ ما بَرحت
ازهـاره تنـدى وتكتملُ

. . .

صنعاءُ يا أنشودةً عَبَقتْ
وأجـادَ في إنشادهـا الأزلُ
إن أبعدتني عنكِ عاصفةٌ
وتفرّقـت ما بيننـا السبلُ
فأنا على حبي وفي خجلٍ
روحـي إلى عينيك تبتهلُ
القالكِ منتصراً ومنكسراً
وعلى جناح الشعـر أرتحلُ
يجتاحني شوقٌ . ويسحقُني
شوقٌ ، وفي التـذكار اشتعلُ

ما نجمةٌ في الأفقِ عابرةٌ
الاّ هتفت بها متى نصلُ ؟

. . .

إني الى صنعاء يحملني
وجهُ النهارِ وترحل الأصلُ
فمتى تظلّلني مآذنها
ويضيء من أحضانها الجبلُ
لم يبقَ في الأيام من سعةٍ
حانَ الرحيلُ ونوّر الأجلُ
أأموت يا «صنعاي» مغترباً
لا الدمعُ يُدنيني ولا القبلُ ؟
اوراق أيامي أبعثرها
وأعيش لا يأسٌ ولا أملُ

وعدت إلى صنعاء ، ومسحت على ترابها الندي اوجاع الغربة الطويلة ، كانت قد امتدت واتسعت وصار لها مرافقها الجديدة ومؤسساتها المختلفة ، توسعت اوجه النشاط التجاري فيها على نحو لم يسبق له نظير ، المتاجر البنوك . وكأن نزعة التحضر والتجديد المقترنة باليقظة من النوم الطويل لا تريد الخروج من كهف العزلة وحسب ، وانما تريد ايضا ان تقفز على الزمن نفسه ، لكن شيئا ما لا يعجبني في هذا القفز وفي هذا التجديد . انه في هذه البيوت المدهونة بالألوان غير الطبيعية ثم هذا الانحراف عن تراثنا المعماري الأصيل وطمس معالمه ثم نبذه على انه قديم مندثر أو على انه متخلف ، وقد ظهر هذا الانحراف كأسوأ ما يكون في هذه المباني الخرسانية الملونة التي تشوه وجه المدينة وتعكس صورة التشوه النفسي والفكري للإنسان العربي المعاصر .

ان مقاومة الجهود الرامية الى الحفاظ على الطابع العربي الاسلامي لصنعاء لا يقل خطرا وخطأ عن مقاومة تحديث اليمن والانتقال بها الى رحاب العصر . والمعادلة الدقيقة المطلوب من ابناء اليمن القيام بها للحفاظ على ملامح المدينة الجميلة هو اخضاع كل جديد نافع للتعبير عن روح الشعب والحفاظ على الشخصية المتميزة للمدينة من خلال المحافظة على الخصائص الأصيلة لفن المعمار الانساني الرفيع الذي نشأ وتطور في هذا الجزء من العالم القديم . فهل تكفي هذه الصرخة الجانبية لوقف موجة التشويه وحملات العدوان المستمر .

خاتمة تاريخية :

ما الذي يصنع الدهشة في عيون زائري مدينة صنعاء القديمة ، هل هو عطر التاريخ أم شيخوخة الأحجار ؟ هل هو نظام البناء ، أم مادة البناء ؟ وهل هو توهج الأيام الغابرة ام طريقة التخطيط والترتيب ؟ كانت صنعاء القديمة تضم اربعة انماط من المباني ومن الاحياء . أولاً : المباني العربية التي ترجع هي ذاتها او اشكالها الى النمط العربي الذي كان شائعا قبل الاسلام ، فالنمط الاسلامي الذي انتشر وشاع بعد ظهور الاسلام ومن ابرز معالمه المساجد والمآذن ، ثم النمط العثماني . واخيرا النمط اليهودي ، وكان الزائر العادي الى ما قبل الثورة يستطيع ان يتبين الفوارق بين هذه الانماط أو الاشكال ، وكما كانت صنعاء القديمة تحتفظ بكل هذا القدر من التنوع الذي لا يحمل اي نوع من المغايرة والاختلاف بل يؤدي الى الانسجام فانها من حيث التكوين الجغرافي قد كانت تنقسم الى ثلاثة اقسام يفصل بينها حاجز او سور ولكل

قسم منها طابعه الخاص ونمطه المتغير . وهذه الأقسام هي :

اولا :

القسم الشرقي من المدينة ، وهو القسم الأكبر والأهم الذي يضم الأحياء القديمة والأسواق والمساجد والمآذن ، وتمتاز مباني هذا القسم بالفخامة والزخرفة وتعدد الطوابق . ويتجلى فيها أهم خصائص المعمار اليمني القديم ببساطته وجمالياته .

ثانيا :

القسم الأوسط من المدينة ، وهو ما كان يسمى الى ما بعد قيام الثورة بـ (بِير العَزَب) وهو مجموعة من الحدائق يتوسطها بعض قصور الامام والامراء والحاشية وبعض البيوت ذات الطابع العثماني التي تحل الشبابيك الخشبية فيها محل النوافذ والعقود الزجاجية الملونة ولا يترك للحريم سوى خصاص المنافذ الصغيرة للشبابيك للنظر او الفرجة .

ثالثا :

القسم الثالث ، وكان يضم مدينة اليهود بأحيائها الكثيرة وأزقتها الضيقة وبسوقها الصغير الذي يقسم هذه المدينة الى قسمين كبيرين احدهما شمالي والآخر جنوبي . ويفصل بين مدينة اليهود و «بير العزب» او القسم الأوسط من المدينة سور ترابي يتواصل مع السور العام للمدينة وكان له منفذان او بابان يغلقان مع الغروب فيعزل اليهود عن بقية سكان المدينة طوال الليل ولا يفتحان الا مع الفجر شأن أبواب المدينة الأخرى المؤدية الى خارجها .

اما عن الاسلوب او النمط الذي بنيت به منازل الاحياء اليهودية فهو نمط مغاير لكل الاساليب العربية والاسلامية والعثمانية الشائعة في المدينة ، فهي من الارتفاع لا تزيد عن طابقين الا نادرا ، وتبدو السطوح متلاصقة وكأنها سطح بيت واحد ، ويتوسط سطح كل بيت فتحة واسعة رصفت ارضيتها بالاحجار كما يتوسط سطح اهم غرف البيت فتحة صغيرة خاصة بالطقوس الدينية وهي مغطاة ولا تفتح الا في الاعياد او مناسبات معينة . وظاهر بيوت اليهود يطلى بالطين ويترك الى أن يتقشر بعضه ليوحي للمشاهد بالبؤس وسوء الحال حتى لا يطمع الآخرون بما في داخلها من متاع وأموال ، وعادة ما تكون من الداخل نظيفة وانيقة ومليئة بأندر المفروشات والمقتنيات .

وقبل ان يرحل اليهود من اليمن باعوا منازلهم وحوانيتهم من بعض أهالي المدينة ومن بعض الفلاحين فلم يحافظوا على طابعها القديم ، وقد قام بعضهم بهدم البناء السابق ومعظمه من اللبن البني واستبداله ببناء من الحجر او الطوب المحروق ، ولم يمر سوى وقت قصير بعد رحيل اليهود من البلاد حتى كان طابع البناء اليهودي قد اختفى أوكاد. وأصبحت صنعاء مدينة إسلامية بطابعها العربي البارز وبما تبقى من طابعها العثماني المحصور في بعض المنازل القليلة في الجزء الأوسط من المدينة وفي بعض الثكنات العسكرية والمخافر او بعض دوائر الأمن العام .

وفي الخمسينات تناقل الناس في صنعاء على نطاق واسع اخبار السيدة الأمريكية التي طلبت من

الإمام أحمد ـ آخر من حكم اليمن من الأئمة ـ أن يبيع لها مدينة صنعاء بأربعين مليون دولار بعد أن يقوم بإخلائها من سكانها . على أن يبني لهم مدينة في مكان آخر من الوادي الذي تنهض صنعاء القديمة على جانب صغير من جوانبه الواسعة . وقد تضمنت تلك الحكاية الطريفة أو الإشارة إلى ضرورة العناية بالمدينة العريقة ذات الطابع المميز والخصوصية الفريدة .

* * *



صنعـاء حاضرة اليمـن «الخضراء» ، كما اسماها اجدادنا القدامى قال شاعرهم :

هي الخضراء فانظر في رباها
يخبـرك اليقيـن المخبرونا
ويمطرهـا المهيمـن في زمان
به كل البـرية يظمؤونا
وفي اجبالهـا عز غزير
يظل لهـا الـورى متقـاصرينا
واشجـار منـورة وزرع
وفاكهـة تروق الناظرينا

وعاصمة البلاد السعيدة كما أسماها مؤ رخو اليونـان ، وعـروس الجـزيرة العربية والجوهـرة اليتيمة في بلادالعرب واحدى جنان الأرض باجماع الناس كما قال لسان اليمن والمؤ رخـون القدامـى ومملكة بني حمير ومقر عز الملوك النبابع ، ومحط كل سميدع ومليك .

وأطيب ارض الله هواء وارقها نسما واعذبها ماء وكل ما ذكره لسان اليمن في الجزء الثامن من الاكليل في اوله ، وفي كتابه المنقطع النظير «صفة جزيرة العرب ص ٨١ ، وص ٣٥١» .

وصنعاء بكسر الصاد المهملة والف ممدودة آخره ، والنسبة اليها صنعاني على غير قياس ومن قبائل التحف من يقول صنعاوي على القياس .

وفيها لغة ثانية وهي صنعـان بالنـون آخره وهي لغة الـكلاع بلاد إب وبـلاد حجة وذكر هذه اللغة ابو نصر الأزدي في معجمه الذي ذكره ياقوت الحموي في معجم البلدان وفيها ايضا لغة ثالثة هي صنعاء بكسر الصاد والامالة في اخره وهـي لغة بعض قبائل خولان العـالية وبعض مخـلاف ذي جرت : سَنحان .

نسبت الى صنعاء بـن ازال بـن يقطـن بن العبير بـن عابر بـن شالـح قالـه ابـن الكلبـي والهمداني والإمـام نشوان بـن سعيد الحمـيري وغيرهم .

وهي قديمة الاحتطاط ازلية البناء يقال انها اول مدينة بنيت بعد الطوفان والباني لها سام بـن

نوح عليه السلام ولا تزال تسمى الى هذه الغاية مدينة سام : «ابن نوح» وقد شرح كيفية ذلك لسان اليمن في الجزء الثامن من الاكليل وفي ذلك يقول احمد بن عيسى الوداعي الخولاني الموجود حوالي سنة ١٣٠ ثلاثين ومائة من الهجرة في ارجوزته المشهورة التي اثبتها الهمداني اخر كتابه صفة جزيرة العرب :

صنعاء ذات الدور والاطام
والقدم القدام ذي الاقدام
والعز عن ذي السطوة الغشام
اسّت بعلم لابن نوح سام
بعلم رب ملك علام
إذ رادها سام بلا توهام
يرادها من قبل الفي عام
مابين سفحي نقم النقام
وبين عيبان العبير السام
فأسّها في سالف الايام

وقال لسان اليمن الهمداني :

ارض تخيرها سام واوطنها
واس غُمدان فيها بعدما احتفرا
ام العيون فلا عين تقدمها
ولا علا حجر من قبله حجرا

وقال ايضا :

ما زال سام يرود الأرض مطلبا
للطيب خير بقاع الأرض يبنيها
حتى تبوأ غمدانا وشيدها
عشرين سقفا يناغي النجم عاليها
فان تكن جنة الفردوس عالية
فوق السماء فغمدان يحاذيها
وان تكن فوق وجه الأرض قد خلقت
فذاك في القرب منها او يصاليها

وكما سميت بمدينة سام سميت ايضا بمدينة «ازال» باسم ازال بن يقطن المتقدم الذكر ولا زالت تسمى مدينة ازال الى يومنا هذا وقد جاء مصرحا به في مسند محفد قرية «حاز» من ضواحي شبام اقيان الذي يشتهر بشبام كوكبان .

وقال الشاعر ولعله من اعيان القرن الحادي عشر الهجري :

لي في ازال وديعة خلفتها
اودعتها يوم الوداع مودعي
واظنها لا بل يقيني انها
قلبي لأني لم اجد قلبي معي

ويبدو ان صنعاء تخطت ثلاثة أطوار : **الطور الأول** : دول التكوين وتسمت باسم بانيها سام بن نوح . **والطور الثاني** تسمت بازال محتفظة باسمها الأول والطور الثالث باسم «صنعاء» محتفظة بالثلاثة أسماء الى عصرنا هذا .

ولقدم صنعاء جاء ذكرها في اكثر من مسند ففي كتاب أخينا الفاضل يزيد بن علي عنان المسمى «تاريخ حضارة اليمن القديم» ذكرت صنعاء باسم «صنعو» في ثلاثة أو أربعة نقوش من مجموعة مقرونة بالملك «الى شرح يحضب» . كما جاء ذكر صنعاء

ايضا بمسند محفد حدقان الشهير من بلحارث شمال صنعاء .. ومنها ما عثرنا عليه في قرنه «رُخمة» من ضواحي مدينة ذمار وقدمناه هدية للمتحف . ولو نقب على أماكن قرب قصر غمدان لعثر على عجب العجاب ولكن واني يتأتى ذلك والبنايات الضخمة والبيوت العامرة جاثمة على انقاض قصر غمدان الشاهد على عظمته الاحجار والاسطوانات التي في جامعها المشهور بالجامع الكبير . ولعل الولد الأديب البحاثة المطهر بن علي الأرياني قد افاض بسرد المساند التي جاء ذكر صنعاء بها ثم ضرب عليها حائطا سوراالملك شعرم أوتر وجعل لها تسعة أبواب لم يصل من هذه الرواية اسم باب واحد كما ان أعلى السور كانت تمشي فيه ثمانية خيول مجتمعة كما شاهد ذلك الرحالة الايطالي في القرن التاسع الهجري .

وعرفنا بصنعاء التي يحتويها السور اربعة ابواب هي :

١ ـ «باب اليمن» الذي ينفذ منه الى الجهة الجنوبية وما كان جنوبا يسمى يمنا في عرف اليمنيين واصلحه الوالي احمد فيضي التركي في اوائل القرن الرابع عشر .

٢ ـ الباب الثاني «باب شعوب» وينفذ منه الى ضاحية شعوب والجهة الشمالية القبلية الى بلد بلحارث وبلد همدان حي حاشد وبكيل واسماه احمد فيضي باب الشرلان الشريجي من قبله في زعمه .

٣ ـ الباب الثالث «باب السبحة» وينفذ منه الى الحقل حي بئر العرب وهو قديم مذكور في التواريخ .

٤ ـ الباب الرابع «باب القصر» ويقال له باب ستران وهو مذكور بين اخر القرن العاشر الهجري .

أما بقية الأبواب مثل باب خزيمة وكان بابا الى الجنوب وباب الشقاديف ومنفذه شمالا وباب البلقة ومنفذه جنوبا وباب الروم ومنفذه الى الشمال الغربي وباب القاع فهذه محدثة حينما احدث حي بئر العزب ولعل ذلك في القرن الثاني عشر او قبله بيسير .

وتتكون بيوت صنعاء القديمة من طابقين الى خمسة طوابق اعلاه منظره وسميت عن قرب بالمفرج له لهوج : نوافذ كبيرة .

ومواد البناء من الحجر الهندي الموقص واللبن والآجر الطوب المحرق : القرميد وكل البيوت مزخرفة ومبيضة بالكلس: الجص . ولو اردنا شرح ذلك على جهد التفصيل لطال الكلام فاقتصرنا رعاية للاختصار .

تعداد نفوس صنعاء قديما

لم يكن المؤرخون يهتمون بإحصاء النفوس . ولكن المؤرخ الرازي المتوفى سنة ٤٦٠ او ٤٦٤ هـ ذكر في تاريخه ص ١٠٦ انها كانت تجري صدقة لمساكين صنعاء لسبعين الف نسمة ايام الخليفة هارون الرشيد وهم ربع صنعاء فاذا اضفنا الثلاثة ارباع بلغ نفوس صنعاء مائتي الف وثمانين الفا .

بينما يقول ان بيوت صنعاء في أيام هارون الرشيد بلغت مائة وعشرين الفا . فاذا فرضنا على

اقل تقدير ان كل بيت يحتوي على اسرة قوامها خمسة اشخاص بلغ عدد النفوس ستمائة الف نفس .

اما في العهد المباد فحدثني الشهيد محمد بن الحسين عبد القادر شرف الدين ان نفوس صنعاء لا تتجاوز الخمسين الفا ، لأن والده كان عاملا لصنعاء مشرفا على البلدية . واما بعد الثورة فتقدر بثلثمائة الف تقريبا ، ولو يتأتى لحكومتنا الموقرة حصر منازل صنعاء القديمة .

قال الهمداني في الجزء الثامن (ص ٣٧) : وعلماء صنعاء يرون انه لا بد ان تعمر بعد خرابها وتملأ ما بين جبليها وتصير سوقها في بطن واديها . وقد تحقق خرص علماء صنعاء بقيام الثورة المباركة فهي اليوم ملأت ما بين عيبان ونقم وأزيد من ذلك .

وكانت شوارع صنعاء مبلطة ، مصلولة بالحجر الصلد كما عثر على بعض شوارعها اذ اجتحف السيل الاتربة وشاهدها الرحالة ابن بطوطة في القرن السابع الهجري .

قال في ص (٥) مدينة صنعاء وهي قاعدة بلاد اليمن الأولى مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص كثيرة الأشجار والفواكه والزروع معتدلة الهواء طيبة الماء . والغريب ان المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل في ايام القيظ واكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الاوان فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لأن أمطارهم وابلة متدفقة . . الخ.ومدينة صنعاء مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع ازقتها وانقاها.وجامع صنعاء من احسن الجوامع، راجع تفسير الدامغة .

مساجد صنعاء

وقال الرازي ان مساجد صنعاء مائة مسجد وستة مساجد . انظر كتاب مساجد صنعاء للعلامة محمد بن احمد الحجري يغنينا عن تعدادها .

وقال الرازي ان حمامات صنعاء كانت اثني عشر حماما وهي اليوم بما فيها حي بئر العزب وحي قاع العلفي كما يلي :

حمامان في قاع العلفي .

ثلاثة حمامات في حي بئر العزب وهي حمام علي وحمام البونية وحمام المتوكل .

وفي صنعاء القديمة كما يلي :

١ ـ حمام السلطان ٢ ـ حمام شكر ٣ ـ حمام القزالي ٤ ـ حمام سبا ٥ ـ حمام الأبهر ٦ ـ حمام الطوشي ٧ ـ حمام ياسر ٨ ـ حمام الميدان . ٩ ـ حمام القوعه فجميع حمامات صنعاء القديمة تسعة حمامات والجميع بما في ذلك حي بئر العزب وحي القاع اربعة عشر حماما .

أنهار صنعاء

كان في صنعاء القديمة اربعة غيول كبيرة اشتهر منها او حفظ لنا منها التاريخ غيل درداع وكان قرب الجامع الكبير في سكة الحدادين في ايام عمالة محمد بن مبرك البرمكي ايام الخليفة هارون الرشيد ادخل الى صنعاء غيله المشهور بالغيل البرمكي وقد انقطع اليوم ، وكان هناك الغيل الأسود يأتي من سواد حزيز وانقطع بعد الثورة ، وكان يمر فيما بين باب السبحة وشارع التحرير

اليوم . وكان هناك أيضاً غيل الاف يشق حي بئر العزب وقد انحسر .

وهذا عدا الآبار التي كانت توجد في كل بيت من بيوت صنعاء وربما بئران وقد انقطع كل ذلك ولم يبق غير المشروع الحديث المتدفق .

طباع صنعاء وطباع اهلها

ولا نطيل الكلام في هذا البحث وان كان شيقا ومرهفا للاسماع ولكن من يريد التحقيق نحيله الى الجزء الثامن من الاكليل الذي اشبع الموضوع . ونورد هنا مقطوعة الملك التبع اسعد فانها تصور بعض تلك الطباع قال :

دارنا الدار ما ترام اهتضاما
من عدو ودارنا خير دار
ان قحطان اذ بناها بناها
بين برية وبين بحار
نطقت بالكروم والنخل
والزرع واصناف طيب الاشجار
وتسيح العيون فيها فما تسمع
الا تسلسل الأنهار
ليس يؤذيهم بها وهج الحـ
ـر ولا القر في زمان اقترار
طاب فيها الطعام والماء والنوم
وليل مطيب كالنهار
ان آثارنا تدل علينا
فانظروا بعدنا الى الآثار

ولعراقة وقدم صنعاء جاء ذكرها في حديث الشاعر المشهور امرىء القيس بن حجر الكندي الذي كان موجودا في اوائل القرن السادس لما جاءه خبر نعي قتل أبيه وهو في صنعاء فقال : اليوم خمر وغدا امر .

وكما جاءت أخبار صنعاء في حادثة الأحباش والملك سيف بن ذي يزن وخبر وهرز القائد الفارسي .

وجاء ذكر صنعاء في شعر فارس العرب عمرو بن معدي كرب الزبيدي .

وممن مدحها واثنى على جمالها الفاتن الشاعر المشهور عدي بن زيد الحيري العبادي وهو شاعر جاهلي . قال :

ما بعد صنعاء كان يعمرها
ولاة ملك جزل مواهبها
رفعها من بنى قزع المز
ن وتندلى مسكاً محاربها
محفوفة بالجبال دون عر
ى الكائد ما يرتقي غواربها
يأنس فيها صوت النعام
ام جاوبه بالعشي قاصبها
ساقت اليها الأسباب جنـ
ـد بني الأحرار فرسانها مواكبها
وفوزت بالبغال توسق بالـ
ـخشف وتسعى بها توالبها
حتى راها الأقوال من
طرف المنقل مخضرة كتائبها
يوم ينادون آل بربر والـ
ـيكسوم لا يفلحن هاربها

وكان يوم باقي الحديث وزا
لت أمة ثابت مراتبها
وبُدل الفيج بالزرافة والايا
م جون جم عجائبها
بعد بني تبع نخاورة
قد اطمئنت مرازبها

وكنا نود ان نفسر الغريب في هذه المقطوعة ولكن لم يسمح لنا الوقت فليرجع الى سيرة ابن هشام السيرة النبوية وشرحها .

وقدم اليها في الجاهليةيزيد بن عمرو بن الصعيق ورأى اهلها وما فيها من العجائب فلما انصرف قيل له : كيف رأيت صنعاء فقال :

ومن يرَ صنعاء الجنود واهلها
وجنود حمير قاطنين وحميرا
يعلم بأن العيش قسم بينهم
جلبوا الصفا فانهلوا ما كدرا
ويرى مقامات عليها بهجة
يأرجن هنديا ومسكا اذفرا

وقال الحافظ معمر بن راشد البصري الصنعاني : وطئت أرضين كثيرة شاما وخراسان وعراقا فما رأيت أطيب من صنعاء .

وقال امية بن ابي الصلت الذي قدم صنعاء في وفد قريش الذين وفدوا ليهنئوا سيف بن ذي يزن بعد جلاء الأحباش من اليمن :

جلبنا المدح تحفيه المطايا
الى اكوار اجمال ونوق
تأم بنا ابن ذي يزن وتفرى
ذوات بطونها أم الطريق
مغلغلة مرابعها ترامى
الى صنعاء من فج عميق
ولما وافقت صنعاء صارت
بدار الملك والحسب العريق

وممن مدحها الشاعر والأديب الضليع النحوي ابو محمد الحبي اليزيدي العدوي المتوفى سنة ٢٠٢ اثنتين ومائتين من الهجرة لما خرج مرافقا للأمير الكبير يزيد بن منصور الحميري خال الخليفة المهدي العباسي واليا على اليمن سنة ١٥٥ هـ قال :

قلت ونفسي جم تأوهها
تصبو الى أهليها وأندهها
سقيا لصنعاء ولا ارى بلدا
اوطنه الموطنون يشبهها
خفضا ولينا ولا كبهجتها
ارغد ارض عيشا وأرفهها
يعرف صنعاء من قام بها
اغذى بلاد غذى وارهبها
لا أنس لا أنس ما فجعت بها
يوما بنا إبلها تجهجهها
وصاح بالبين ساجع لغب
وجاهرت بالسهات أمهها
ضعضع ركني فراق ناعمة
في ناعمات تصان أوجهها
كأنها فضة مموهة
احسن تمويها مموهها

نفس ببين الأحباب والهة
وشحط الأنها يولهها
نفى عزائي وهاج لي حزني
والنفس طوع الهوى يفهها
كم بين صنعاء سملقا جددا
ينبو عن رامها معوهها
أرض بها العين والظباء معا
فوضى مطافيلها وولهها
كيف بها كيف وهي نازحة
مشبه تيهها ومهمهها

وقال ابو نواس الحسن بن هاني الحكمي في قصيدته العصماء التي جاء في أولها :

فنحن ارباب ناعط ولنا
صنعاء والمسك في محاربها

ووصف صنعاء من قبل الرحل العرب مثل ابن خرداذبة والبشاري وابن حوقل وغيرهم يطول بنا الكلام . كما ان في صنعاء مقاطيع كثيرة لم يحضرني منها غير بيتين للأديب اليمني عبد الرحمن ابن محمد الخيمي الصنعاني وهي :

صنعاء ان كنت معشوقا بمسكنها
فاعدد لها من ذوات الحاء ما رسما
حِبٌّ وحَبٌّ وحمام مع حطب
حصيرة وحمار حرفة وحما

كما ان هناك مفاخرة بين صنعاء وبين حي بئر العزب ، ومفاضلات بينها وبين مدينة ذمار تركناها للاختصار .

وأحسن من مدح صنعاء من الرحالة المعاصرين السائح العراقي ولعله عبد الهادي الجوهري وهي :

لا زال من عبق له يهديك
فياح نشر هب من واديك
صنعاء يا دار الحضارة والعلى
ومقام كل سميدع ومليك
باريس دونك بالجمال ولندن
وعواصم الرومان والامريك
فجمال تلك مزخرف متكلف
وجمالك المطبوع من باريك
قد هجت بلبالي بحسن مناظر
وجذبت قلبي جذبة المنهوك
اوكل هذا كي تهيجي خاطري
قد جاء من عيب النوى يشكوك
قد كنت مصداقاً لقول معاشر
في سالف الايام قد وصفوك
يا منية الشرف الأثيل وربة الـ
ـروض الجميل وجنة المضنوك
كيف السبيل اليك ثاني مرة
هيا اعلمي صبا تشبث فيك
لا ارتضى عنك البديل ولو اتت
بلقيس في عرش لها وابيك
اني احن الى ربـاك ويعتلي
قلبي خفوق ذاكراً هاتيك
هذي صحائف مجدك الماضي فما
أيدي الطروس تناولت ماضيك
هذي القصور الشامخات وقد علت
هام السماك يلوح في عاليك
هذي المدارس في بنيك تزاحمت
ما غيرت غير الزمان بنيك

خلدت مجدك في صحائف بضة
من غير قول مفترى وسلوك
ناديك ملآن بجم علومه
وكذا سمعنا قبل عن ناديك
ظنوك خائرة العزيمة والقوى
خاب الذين بمثل ذا ظنوك
رجعوا الورى وساورتهم حسرة
اذ ليس فيا املوا وجدوك
ورجعت واضحة الجبين مهيبة
لما لقيت غير ما يرضيك
فحذار يا أم الجهال من العدى
وحذار ثم حذار من شانيك
لا زلت يا صنعاء رائدك المنى
دوما ولا برح الهنا أهليك

والقصيدة اطول من هذا .

وللأمير الكبير عبد الله بن الامام شرف الدين المتوفى سنة ٩٧٣ هـ مقالة شعرية في مفاخر صنعاء او ارجوزة كبيرة نقتطف منها بعض مقاطيع لأن خط الأصل ضعيف يحتاج الى نظر وفضل وقت ازف . واولها :

اختار سام عقيب الغرق
على البلاد عند كل الفرق

الى أن قال :

وفضلها على الدنا غير خفي
بما لها من قدم في الشرف
وذكرها في منزلات الصحف
مزلز بنا وان بنا اللطف
وانها محفوظة محروسة
ولا تزال ابدا محروسة
محاسن معقولة محسوسة
جامعها عينه خير الرسل
في امره به معاذ بن جبل
وكم بها جوامع جوامع
ومسجد وساجد وراكع
وقارىء ومقرىء وسامع
وخاشع وخاضع وجامع

الى أن قال :

اعجب بذاك السفح من صنعاء
ما بين حدين الى الحمراء
وعطر الروضة الغناء

وهي طويلة وعذرنا من ايرادها ما ذكرناه .

معالمها :

ان اعظم معالمها واشهر آثارها في العصر الاسلامي هو جامعها الداثري الذي وضع حجر الأساس فيه الصحابي الكبير معاذ بن جبل الأنصاري ثم تتابع الاصلاح فيه الى ان وسعه وعمره على هيئته الراهنة أمير اليمن وملكها محمد بن يعفر الحوالي المتوفى سنة ٢٧٠ هـ وكان ابتداء عمارته سنة ٢٦٦ هـ . واوقف له اوقافا جسيمة في ضلع وغيل الرسة ولا زالت تدر عليه بالخيرات وسجل اسمه على جنباته واحجاره حتى جاء بعض المهووسين من الأئمة فحاول ازالتها فلم يقدر غير انه شوه صورتها كما خلف سبة الدهر وما الأحجار في الجدار الخارجية من الجامع المذكور الا مثل لتلك

التشويهات اما آثاره القديمة فكفى فخرا قصر غمدان الذي وصفه لسان اليمن الهمداني في الجزء الثامن من الاكليل فاغنانا عن اعادته هنا .

من انجبت من الملوك فمن دونهم

تعتبر منجبة ومصنع الرجال الكملة ويطول تعدادهم في هذا البحث الوجيز السريع ففي الجاهلية مثل الملك الى شرح يحضب وشعرم اوتر وسيف بن ذي يزن .

قال لسان اليمن في صفة جزيرة العرب : ولم يزل بها عالم وفقيه وزاهد وحكيم ومن يحب الله عز وجل المحبة المفرطة ويخشى الله الخشية اليقظة على نحو ما ذكره بطليموس في طباع اهل هذا الصقع وهم مع ذلك اهل تمييز لعارض . . ثم عدد من كل صنف مما ذكر . فمن العلماء حافظ الدنيا عبد الرزاق بن همام الصنعاني المتوفى سنة ٢١١ هـ ووهب بن منبه المتوفى سنة ١١٠ هـ ومن الخطباء مطرف بن مازن الصنعاني المتوفى ٢١١ هـ وابو يعفر ابراهيم بن محمد الحوالي المقتول سنة ٢٧٩ هـ ومن الشعراء الشاعر النواحة علقمة بن ذي جدن ووضاح اليمن وغيرهم كثير . ومن الفلاسفة ابو محمد لسان اليمن الحسن بن احمد الهمداني المتوفى سنة ٣٦٠ او قبلها بيسير وهو ثاني فلاسفة العرب . وفي العصر الأخير شيخ الاسلام الحافظ المجتهد محمد بن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠ هـ ومثل الحافظ محمد بن اسماعيل الامير والمجتهد المطلق محمد بن ابراهيم الوزير وفي عصرنا الكاتب القدير عبد الكريم بن احمد مطهر ومحرر اليمن ومنقذها ابو الاحرار محمد بن محمود الزبيري .

هذا بعض ما سنح لي ايراده في هذا البحث الذي جاء على عجل ولما ارتقبه واعمل الفكر اما صنعاء الحديثة فبعد ان فكت حصار السور وحصار الاستبداد والسياج الحديدي وانطلقت بعد الثورة المجيدة مرحة مسرورة فالحديث عنها يكثر فالى مقال اخر باذن الله

٦ ذي الحجة ١٤٠٣ هـ ٢٣/ ١٠/ ١٩٨٢ .



حاراتها وآبارها وشوارعها ومساجدها وأسواقها والعابها..

بقلم الأستاذ حسين بن علي عثمان

بسم الله الرحمن الرحيم

لقد سبق ان تكلمنا عن مدينة صنعاء الاثرية في مجلة اليمن الجديد ووصف قصر غمدان ومكانه بالتفصيل ثم كان آخر بحث تاريخي كامل للأخ القاضي اسماعيل الاكوع في العدد الخامس من مجلة الاكليل . وسأتكلم عن صنعاء القديمة لا من حيث قدمها وما جاء عنها في كتب التاريخ بل في وصف صنعاء الحالي بعد أن اختفت الدروب وحل محلها الحارات . وأبدأ بحارة الباشه .

تقع حارة الباشة في الشرق الجنوبي . قريب قصر السلاح . توجد في حارة الباشة عدة قصور ضخمة هي قصر الحاج حسين بن يحيى الشامي وقصر بيت الحيمي الذي يقولون عنه إنه البيت الوحيد في صنعاء لان في اعلاه ثلاثة مناظر متصلة ببعضها البعض في كل منظر جرف عدني واحد . والعادة في مناظر صنعاء ومفارجها أن تكون في أعلى طبقة من البيت . وما جاء في بحث الأخ اسماعيل الاكوع ان في بعض البيوت مناظر في عدة طبقات فلا وجود لذلك في جميع البيوت . ولا يطلق على المنظر أو المفرج إلا اذا كانت في اخر طبقة وهناك فرق بين المنظر والمفرج . فالمناظر عادة تكون صغيرة وغالباً وسط الجُبا ونوافذها صغيرة أيضاً . وتفتح إلى أي جهة ولا تتسع لاكثر من خمسة إلى عشرة أشخاص . أما المفارج فتكون كبيرة وقد تتسع لاكثر من عشرين شخصاً ولها عدة جرف (نوافذ كبيرة) وتسمى مفرج عدني أو شرقي نظراً لاتجاه الجرف والمفضل الجهة العدنية . إلا ان مفارج صنعاء المتجهة جروفها إلى الجهة القبلية جميلة نظراً لاشراف الجالسين على منطقة شُعوب الجميلة بمزارعها واتلها ومناظر الروضة والجراف .

ومن البيوت الكبيرة في حارة الباشه بيت الحاج حمود حجيرة وبيت الصادق وبيت صدقة . وفي هذه الحارة «مسجد الحيمي» الذي غلب عليه

اسم مسجد الباشه وكذلك اسم الحارة وقديماً تسمى هذه الحارة وحارة نصير صوح النعيم ومسجد نصير فيها ايضاً ولا توجد في حارة الباشه صرحة (محل واسع للعب الأطفال كما سيأتي في وصف الحارات الأخرى) . ويتصل بحارة الباشه الحافة وفيها عدة بيوت كبيرة نوعاً ما وليس فيها صرحة وتكون الحافة جنوب سور قصر السلاح وقد عمرت معظم بيوتها في بستان الحيمي . وهذه الحافة الرحيدة في حارات صنعاء عدم وجود آبار في بيوتها وكذلك قلة الآبار في بيوت حارة الباشة . وكانت حارة الباشه والحافة تعتمد على بئر الباشه المشهورة ولكل بيت تنكات محددة ومن احتاج إلى زيادةفبالأجرة. وهي يسيرة: نصف بقشةأي فلس وربع لكل صفيحة . وكان ماء بئر الباشه اعذب واخف ماء في صنعاء على الاطلاق حتى ان بعض البيوت في أكثر حارات صنعاء تأخذ منه ماء للشرب فقط من هذه البئر وكذلك بيوت الأمراء والإمام يحيى وأولاده أيضاً ومعظم أسواق صنعاء بواسطة سقايين يعطون في كل شهر مبلغاً حسب الإناء الذي يملأه بالماء . وكذلك السبول في سوق صنعاء . وقد يأخذ ماء بئر الباشه بعض أهل الولائم خصوصاً أهل الثروة وذلك بواسطة السقاء . وفي صنعاء آبار يقرب ماؤها من ماء الباشه مثل بئر حمام ياسر ، وبئر مسجد محمود ، وبئر المتوكل،وهناك آبار في بعض الحارات (سبيل) لمن ليس له بئر في بيته أو للشرب . وماء الآبار في كل بيوت صنعاء يستعمل للأكل والشرب وغسل الضروري من الملابس وبمناسبة ذكر الغسيل نذكر الآتي . كانت بيوت صنعاء تعتمد في الغسيل والصابون على الغيل الأسود المار من مسجد المتوكل الى ضواحي شُعُوب لسقي المزارع وخصوصاً مزارع البر المسمى بالسمري وكذلك مزارع القضب . فتخرج نساء صنعاء من بعد طلوع الشمس الى قرب العصر الى شعوب ولهن محل بعيد عن الرجال الذين يغسلون بالاجرة . ثم ان المرحوم الحاج احمد محمد السنيدار عمر لهن حوى خاصة وان كانت لا تستوعب كل النساء . وقد انتهى ذلك بعد اختفاء الغيل الأسود بعد قيام الثورة وسيأتي الكلام عنه ان شاء الله . ويلي حارة الباشه حارة نصير وفيها من المباني الكبيرة بيوت آل الاكوع ؛ وهي اقرب الى حارة نصير منها الى حارة الباشه . ومن مباني حارة نصير بيت حمود بن غالب والشونة وكانت في أيام الاتراك للحبوب (غير الحبوب التي في قصر السلاح) وبيت البليلي وان كان اقرب الى حارة موسى منه الى حارة نصير . وتوجد في حارة نصير صرحة صغيرة أمام بيت حمود بن غالب . ومن البيوت الكبيرة في هذه الحارة بيت احمد سعد يسن وحالياً بيت علوس .

حارة موسى وفيها من البيوت الكبيرة بيت جلاعم وبيوت بيت البليلي الآخرين . وفي هذه الحارة صرحة واسعة أمام بيت جلاعم .

حارة الابزر وفيها من البيوت الكبيرة بيت حمود شميلةوبيت القاضي أحمد عبدالعزيز وبيت زايد وبيت عبد الحق يسر ، ولا توجد صرحة كبيرة في هذه الحارة وقد عمرت بجانب هذه البيوت بيوت قاطن وبيوت آل دهمان وذلك بعد قيام الثورة .

حارة غرفة القليس وليس فيها من البيوت

الكبرى سوى بيت الرداعي وبيت صالح الحثرةوان لم يكن من البيوت الكبيرة المشهورة . وفي هذه الحارة صرحة واسعة حفر في وسطها غرفة القليس المذكورة خاصة بصرف ماء المطر لانخفاض هذه الحارة عن مجاوريها .

حارة صلاح الدين . ومن البيوت الكبيرة المشهورة بيت فايع وبيت السراجي وبيت الغفاري وبيت محمد عبد الرحمن الرباعي ، وما بين حارة غرفة القليس وحارة صلاح الدين بيت زبارة وأمامها صرحة واسعة أصبحت محلاً للسيارات : ومن البيوت الكبيرة في سوق الملح (الملح بكسر الميم وفتح اللام وينطق الآن بسكون اللام والحاء) بيت العبنسةومباني القلوب بن عمارةالاتراك . حارة ياسر ومن بيوتها المشهورة الضخمة بيت القاضي عبدالرحمن السياغي في نهاية حارة صلاح الدين وابتداء حارة ياسر وبيت السُّلال وفي هذه الحارة صرحة واسعة أمام حمّام ياسر وهو من الحمامات القديمة ربما قبل الاسلام . والمسمى باسم الملك الحميري ياسر بهنعم . وبئر هذا الحمام مشهورة بعذوبة ماء الباشه يغترف منها بعض الناس للشرب . وفي هذه الحارة حوش الوقف وكان قبل الثورة وبعدها بقليل مقر وزارة الأوقاف . ومن البيوت الكبيرة في حارة ياسر بيت الذماري وأهله يصنعون المدايع الجميلة حتى الآن ، وذلك داخل حوش البيت وهو آخر بيت مجاور لحارة عقيل . حارة عقيل ومن البيوت المشهورة فيها لكبرها بيت الخميس وبيت صالح قصي وبيت الحافي وليس في هذه الحارة صرحة لا تصالها بسوق عقيل . حارة الطواشي في هذه الحارة عدة بيوت كبيرة وثلاث صرحات واسعة وفي حارة الطواشي من البيوت الكبيرة بيت ساعد وهو الآن بيت المرحوم عبد الرحمن بن حسين الانسي وبيت مصطفى وبيت اليماني وبيت الوتاري وبيت الثور ، وهو غير بيت محمد عبد الله الثور الذي سيأتي ذكره في حارة المدرسة ، وبيت الكدس وبيت المبنن وبيت الذهباني وبيت شرف الدين وبيت الحاج محمد العافي وبيت الضوراني وبيت الحايك . وهذه الحارة كبيرة وتجاور حارة خضير وحارةالزمر وحارة عقيل وفيها أيضاً بيت القاضي عبد الله صبرة وهو من البيوت الكبيرة الضخمة ، وبيت أحمد الطيش الساكن الآن في الروضة وبيت قاطن والبيت الذي يسكن فيه سيدنا ثابت بهران . وفي حارة الطواشي حمام الطواشي باسم بانيه هو والمسجد . وهو رجل جاء من الهند حسبما سمعت . وفي هذه الحارة عدة بيوت كبيرة .

حارة خضير . وفي هذه الحارة بيت والدي المرحوم من البيوت الصغيرة ، وقد عشت في هذه الحارة منذ ولادتي حتى سن الأربعين سنة ورغم اني الآن في بيت أوسع من بيت أبي إلاّ اني ما أزال أتذكر البيت الذي ولدت فيه وقضيت فيه أيام الطفولة والشباب (كم موطن في الأرض يألفه الفتى : وحنينه أبداً لأول منزل) وهي أول بقعة مسّ جسمي ترابها . (اذا ذكروا أوطانهم ذكرتهم : عهود الصبا شوقاً فحنوا لذلك) ومن البيوت الكبيرة المشهورة بيت الحاج سيف حنيش وبيوت الآنسي العلماء وبيت السمه؛ وهو الآن بيت الحاج المرحوم محمد عواض وبيوت آل شبيل وبيت الكبوس وهو الآن بيت الطايفي شرف بن

علي واخوانه وبيت الاسطا المرحوم صالح زلعاط وهو الآن بيت أولاد حسين النهمي وبيت الشريف عبد الله الضمين وكان هذا المحل مدرسة أيام الاتراك . وقد سبق في مؤلفي «اللهجة اليمانية في النكت والأمثال الصنعانية» أول دراستي لهذا البيت . وفي هذه الحارة بيت عامر وبيت الشبامي وبيت الشرفي وبيت الحاج حسين الرداعي وبيت لطف حمزة ، وهو غير لطف حمزة المشهور بالطب والفلك وهو الآن لآل عوفان . وفي حارة خضير صرحات ثلاث للألعاب . وسيأتي ذكر الألعاب في صنعاء لكل شهر .

حارة الزمر وسميت بهذا الاسم بناءً على المسجد الذي بناه ازدمر باشا الوالي التركي في الدور التركي الأول ، ولا أدري ما كان اسم هذه الحارة قبل بناء هذا المسجد الذي وسعه الإمام المنصور . كما ان حارة خضير تسمى حارة القعاشمة وغلب عليها اسم مسجد خضير وهو من المساجد القديمة المباركة . مع ان أكثر مساجد صنعاء سميت باسم الحارات . وبعضها غلب عليها اسم باني المسجد مثل مسجد صلاح الدين وحارة مسجد الباشة إلى آخره . أما بعض أسماء المساجد فباسم الحارة الموجود فيها . مثل مسجد الأبهر ومسجد الخراز ومسجد باب اليمن كذلك ومسجد النهرين . الى اخره . ومن البيوت الكبيرة في حارة الزمر بيت النهي الحدادين وهو بيت علم قديماً ، وبيت المنصور وبيت تقي وبيت المتوكل (نسيت في حارة الطواشي بيت المتوكل وفيه حوش العنملي ويقال ان سيف بن ذي يزن قبر فيه والله اعلم وهو بيت ضخم). وبيت الأنسي،

واعتقد ان اسم حارة الزمر قبل مسجد ازدمر باشه المذكور . وتسمى المحوكة بدليل أن الشارع من باب شُعُوب الى مسجد الزمر اسمه المحوكة كما سمعته من والدتي رحمها الله . وفي هذا الشارع بيوت كبيرة مثل بيت البرطي وبيت الهيجة وبيت الجنداري ، وهو غير الجنداري الذي في دار الطواشي ، وبيت سيدنا أحمد مهدي رحمه الله وهو من العلماء المشهورين في مسجد خضير . وفي حارة الزمر صرحة الوادي صرحة كبيرة وهي الصرحة الوحيدة في هذه الحارة .

حارة المفتون بجانب حارة المدرسة الآتي ذكرها وهذه الحارة سميت باسم مسجدها الصغير الذي كان يجلس فيه علماء للفتوى ، وغلب على اسم هذه الحارة فتح الميم مع ان الصواب كسرها نسبة الى العلماء المتصدّرين للفتوى . وفي هذه الحارة بيت مرزاح تركي(وكان في مفرجه الأرض) معلامة يدرس فيها المرحوم سيدنا محمد زيدان وكنت ممن تعلم فيها بعضاً من سور القرآن ، ودرس فيها العلامة الصفي أحمد عبد الرحمن محبوب . وأول معرفتي به في هذه المعلامة .

حارة المدرسة وفي هذه الحارة بيوت كبيرة ضخمةمثل بيت محمدمحب عامروبيت العنسي وبيت الناشري وهو غير بيت الناشري الذي في صرحة زبارة . وفي صرحة زبارة بيت يسمى عمران ضحم ويسكنه بيت الناشري العطارين . وفي حارة المدرسة بيت محمد عبد الله الثور ، وبيت القريطي وهو الآن للضبي التاجر وبيت عسلان وبيت سنهوب وبيت مطر وهو الآن لاولاد حسن

العنسي . وفي حارة المدرسة صرحة صغيرة أمام بيت عامر وبيت الجرافي ، وهو غير بيت القاضي أحمد الجرافي الآتي ذكره في حارة الخران وهناك عدة بيوت كبيرة مثل بيت الدكتور عبد الله سهيل وبيت أحمد علي زبارة وبيت الناشري بايعي الزبيب .

الميدان وفيه جامع البكيرية والولايه مقر والي الأتراك وقد صارت وزارة للداخلية أول الثورة والآن وزارة الشؤون الاجتماعية والعمل . وكانت في أيام الإمام يحيى للمدرسة الحربية ودار المعلمين ومكتب الكتاب والمخابرة بالمراية أول دخول الإمام صنعاء . وكانت المخابرة بالمراية من جبل نقم إلى جبل كوكبان المشهور . ثم صار البناء المذكور مدرسة صناعية وبجانبها مدرسة الأيتام . وكانت في أيام الاتراك محل رئيس الاستئناف وفي الميدان بناء كبير كان يستعمل للمخابرة السلكية أيام الاتراك ثم صار مدرسة ابتدائية ثم خرب وبني في مكانه مدرسة للبنات ستنتهي قريبا . ويسمى هذا الميدان ميدان اللقيه وفيه مركز للشرطة بني حديثاً أمام وزارة الشؤون الإجتماعية ويستعمل مبنى مدرسة الأيتام سابقاً لموظفي لواء صنعاء التابع لوزارة التربية والتعليم . كما يوجد في الميدان حمام الميدان وهو أكبر حمام في صنعاء بناه الوزير حسن عندما بنى جامع البكيرية ، واوقفه عليها . وهذا الوزير هو الذي حفر بئر الباشه المذكورة منزعة وجامع صغير متصل بجامع الحيمي وفي الميدان كان احد ولاة الأتراك قد فكر في شق شارع يبتدىء من الميدان وينتهي في باب السبح . وبدأ بالقلوب من أول الميدان . وبدأ ايضاً من باب السبح ببناء المحل الموجود الآن . وهو البناء الظاهر عليه البناء التركي ولحسن الحظ انه توقف العمل في هذا الشارع بالبيوت الضخمه والمساجد والأسواق . وكان سيشوه معالم صنعاء الأثرية ثم انه فكر أيضاً ببناء شارع من باب شعوب الى باب اليمن . ولم يبدأ كما بدأ في الأول من غرب وشرق الشارع الأول .

حارة الفليحي . في هذه الحارة مسجدها المشهور وبيوت كبيرة ضخمة منها بيت القاضي حسين مطهر وكان مدرسة قبل دخول الإمام يحيى صنعاء وبعد دخوله . وكانت هذه المدرسة أرقى من المعلامة حيث كان يدرس فيها آل تقي المشهورين في صنعاء ، ثم معلامة أمام المسجد وصرحة كبيرة . وبيت المحفدي وبيت الحاج حمادي الروفي وبيت دلال وبيت غالب المشعبك وأمثال هذه البيوت كثيرة في هذه الحارة . كما توجد صرحة واسعة أمام بيت أحمد عبد الرحمن اليمن وبيت قاسم العزي أبو طالب وبيت الصفي محبوب . وهذه الحارة تضم عدة علماء يدرسون في مسجد الفليحي . وبعد الثورة قام المرحوم قاسم غالب عندما كان وزيراً للتربية بنقل رفات الإمام الشوكاني ، حيث بنى في مكان هذه المقبرة نادي ضباط القوات المسلحة .

حارة العلمي وفي هذه الحارة عدة بيوت كبيرة منها بيت العلامة المؤرخ محمد زبارة وبيت الأمير وبيت محمد بن محمد المنصور وبيت علايه وغير ذلك .

حارة القزالي ومن أكبر بيوتها بيت أحمد محمد الشامي وبيت الزارقه وبيت علي المحفدي وبيوت آل العرش وفيها صرحة صغيرة .

حارة معمر وفيها عدة بيوت كبيرةمنها بيت العلامة القاضي عبد الله السرحي وبيت محمد حسن الحورش والمقدم عبد الله الجايفي وبيوت آل هادى سالم وفيها مسجد النور وبستان الميري وهو متصل بباب شعوب ودائر صنعاء من الجهة القبلية ومتصل ببستان الهبل القريب من الخندق القبلي .

وقد بنيت في بستان الميري عدة بيوت حديثه . وفي هذه الحارة بيوت آل ابي الرجال المتصلة ببستان نعمان . وفي بستان نعمان بيوت آل أحمد بن قاسم حميد الدين . ومن الزمر الى صرحة الفليحي عدة بيوت كبيرة مطلة على مِقْشَامَة الزمر وسيأتي الكلام على المقاشيم ان شاء الله .

حارة داود وفيها صرحة واسعة . ومن البيوت الكبيرةفيها بيت القاضي أحمد الآنسي رحمه الله وبيت سويد وبيت المؤيد وبيت علي لطفي .

حارة طلحة . وفيها البيوت الضخمة مثل بيت القاضي فضل الاكوع وبيت قشاشه وبيوت آل مطهر وبيوت آل عبد القادر وبيت تلها . وفيها مسجد طلحة ومسجد الطاوس وفيها بيت محمد بن محمد السنيدار الى غيرذلك من البيوت المشهورة .

حارة الأبهر وفيها من البيوت الكبيرة جداً بيت الحاج عبد الله بن محمد السنيدار رحمه الله وبيت محمد بن غالب بن عبد القادر وبيت احمد بن محمد السنيدار وبيت صالح السنيدار وبيت العلامة القاضي حسين بن احمد السياغي وبيت العلأمه المرحوم القاضي علي اليدومي وبيت احمد بن احمد السنيدار وهو أعلى بيت في صنعاء حيث يبلغ تسع طبقات وفيها صرحة مصلو له بعد الثورة بالاحجار وفيها حمام الأبهر ومسجد الابهر وما بين الابهر ومسجد القاسمي بيت الأخ حسين بن علي الوتاري وهناك بيوت كبيرة جداً ما بين القاسمي وطلحة منها : بيت الأخ محمد العبادي وبيت الأخ علي عبد الله العمري وبيت محمد حمود اليماني ودار الجديد وبيوت كثيرة اخرى . وعلى السايلة مسجد بروم وبيت الشهاري وبيت المرحوم محمد حمود المُتَرَّبْ وبيت العمري وبيت عسلان .
وبيت الوزير وبيت أحمد حمادي وبيت القرماني وبيوت اخرى حتى الخندق القبلي .

حارة الجامع الكبير وباب اليمن : وأكبر بيت في حارة الجامع الكبير بيت عسلان وبيت الرقيحي ومابين حارة معاد بيت الرماح وبيت شرهان . وأمام مسجد الابهر بيت الشيخ معيض الذي حكم صنعاء وهو الآن للشيخ سنان أبو لحوم . وكل البيوت التي ذكرت تعد قصوراً نظراً لكبرها . وفي حارة باب اليمن بيوت آل الحباري وآل الخباط والشامي وبيت سويد المشرف على باب اليمن . وعلى الشارع العام من باب اليمن الى سكرة بيت الشهاري وبيت حسن الوتاري وبيت محمد عبد الله زايد . ويوجد في باب اليمن مسجد الرضوان وكان في مقابله «مجزرة صنعاء» قبل الثورة ومن بناء الهيئة العامة للآثار ودور الكتب ملاصقة للجامع الكبير دار المخطوطات وستفتح رسمياً بعد اشهر .

حارة الخراز : في هذه الحارة صرحة واسعة أمام بيت المنصور ابو الإمام يحيى وبيت القاضي أحمد الجرافي وبيت غمضان ودار الذهب لبيت دلال وبيت سبنه وبيت محمد بن زيد . وفي نهاية

شارع الخراز قريب السايلة صرحة حوابج . وفيها بيت العلامة القاضي احمد بن قاسم العنس ومحيي الدين العنس واخوانه ، وبيت الحكيم ، وكان هذا يعمل أجمل قصيب المدايع . وما بين طلحة والخراز مسجد الجديد وقريب منه عدة بيوت منها بيت القاضي محمد الخالدي وعلى شارع طلحة المؤدي الى السايلة بيت الأخ عبد الله عتيق

حارة الجلاء : وفيها حمام «الجلاء» وفيها من البيوت الكبيرة بيت المطاع الذي تولى الأوقاف وكانت هذه الحارة يسكنها اليهود قبل إجلائهم الى قاع العلفي .

حارة مسجد محمود وفيها بيوت كبيرة منها بيت سويد المصلح في الحطب وبيت الرحمن وغربيها بيت الأستاذ الرحمي عبد الله كباس وفيها شارع الى صرحة الفليحي وبئر مسجد محمود يغترف منها للشرب

■ آبار المساجد الكبيرة : بئر مسجد خضير ومسجد الزمر ومسجد الطواشي ومسجد عقيل ولكل مسجد بئر ومقشامته . وعلى ذكر المقاشيم فانه حدث في أيام الإمام يحيى شرف الدين المعاصر للملك عامر عبد الوهاب مرض في مدينة صنعاء قبل دخوله حتى خلت منه بيوت كثيرة . ولما دخل الإمام المذكور أحدث في المساجد المطاهير للوضوء . وجعل لكل مسجد مقشامة بزرع فيها على ماء المسجد البصل والثوم والقشمي والكراث وغير ذلك . وما تزال هذه المقاشيم باقية حتى الآن ما عدا مقشامة مسجد نصير حيث بني فيها بعد الثورة البيوت الحالية بجانب باب السلام الذي فتح في داير صنعاء الجنوبي بعد الثورة . وتطل على هذه المقاشيم البيوت التي حولها وتعطي مناظر جميلة لهذه البيوت وللشمس والهواء ونرجو المحافظة عليها وعدم البناء فيها . ويا حبذا لو يبنى جدارها المطل على الشوارع من الشبك بدل الجدار الطين لتعطي مناظر جميلة لهذه الشوارع مثل المقشامة الى جنوب بيت غمضان وهي على شارع واسع . والمقشامة التي جنوب بيت القاضي أحمد الجرافي في نفس الشارع . ومقشامة مسجد محمود والزمر وخضير . ومقشامة بروم . أما مقشامة حارة المدرسة وحارة الجامع الكبير ومقشامة الباشه فقد حجبتها عن الشوارع البيوت المحيطة بها . وهناك عدة مقاشيم ليست على الشوارع مثل : مقشامة الحميدي ومقشامة البكيرية ومقشامة مسجد ابن الحسين* وبستان الهبل ؛ وهو بستان واسع تزرع فيه الحنطة وانواع الأشجار المثمرة مثل التوت الأحمر والمشمش وغير ذلك . وعلى جوانبه بيوت جميلة كبيرة يعطيها منظراً لطيفاً

• • •

■ شوارع صنعاء : الشوارع التي تخترقها من الغرب الى الشرق وتمر فيها السيارات هي :

(١) السايلة ـ العلمي ـ الفليحي . ومن الفليحي شارع الى الزمر فصرحة الوادي فشارع بيت الثور وبيت العنس فالرصدة الى باب شعوب أو قصر السلاح . والشارع الثاني من صرحة الفليحي فصرحة بيت الشيخ علي الزبيدي فشارع عقيل فصرحة بيت زباره فالميدان .

(٢) السائلة ـ القزالي ـ الفليحي ثم الطريق الأول الى الميدان .

(٣) الخراز ـ طلحة ـ سوق البقر ـ عقيل ـ صرحة زبارة ـ الميدان .

(٤) بروم ـ الأبهر ـ باب اليمن ـ الباشه ـ الميدان .

(٥) الشوارع التي تخترق صنعاء من الشمال الى الجنوب (١) باب شعوب المحوكة الزمر سوق المدر فسوق الحطب فسوق السراجين فسوق العنب فالجامع الكبير فباب اليمن .

(٢) باب شعوب الزمر عقيل المبساطة سوق القشر سوق النحاس باب اليمن هذا وان ٩٠٪ أو أكثر من السيارات تصل الى كل بيت . ولا توجد إلأ شوارع قليلة لا تساعد على مرور السيارات نسميها زقاوق مفردها زقاق ـ أما الشوارع المتفرعة من الشوارع المذكورة فتمر فيها السيارات وبعد الثورة أصبحت كل شوارع صنعاء مملوءة بالسيارات . كما ان السيارات الكبيرة وسيارات الحمل تدخل إلى كثير من شوارع صنعاء الا النادر ويا حبذا لو أمكن ان يقوم تعاون صنعاء برصف الشوارع الرئيسية بالحجارة كما كانت سابقا كما حكى ذلك الرازي وابن بطوطة .

■ الأسواق : (١) سوق البقر (٢) سوق الحمير . وهذان السوقان يستعملان في الأسبوع مرتين فقط . وقد وضع سوق في نقم للبقر والغنم وأهمل سوق الحمير لعدم الحاجة اليه بسبب وجود السيارات التي حلت محلها حتى لدى القبائل . حيث أصبحت كل المواصلات بالسيارات وتركوا كثيراً من الحمير تهيم على وجهها تدعو الى الرحمة بها . (٣) سوق الحطب نقل الى محل اخر (٤) سوق القضب نقل الى محل البقر في نقم (٥) سوق المحدادة: قائم (٦) سوق المنجارة : قائم (٧) سوق المنقالة : قائم (٨) سوق البشامن : غير قائم ـ سوق الحلقة : قائم (٩) سوق السراجين : قائم (١٠) سوق العنب : قائم (١١) سوق الكوافي : قائم (١٢) سوق الاقطاب (اقطاب المدايع) : قائم (١٣) سوق المرافعة كان يعمل فيه دلاء لابار البيوت حل محله سوق المنقالة لعمل دلاء من عجلات السيارات لا لنزع الماء بل لاغراض اخرى (١٤) سوق المدايع وقصباتها : قائم (١٥) سوق القص : غير قائم حل محله ما جل الأخير غرب فندق شرتون وذلك في سيارات الحمل . (١٦) سوق السلب : وكان السلب يأتي من وادي شرس وغيره ثم يصنع السرات للمسنى وابار صنعاء وعمل الشبيك والفدامات للجمال قائم لكن من الحبال المستوردة من النيلون ولم يبق للسلب وجود . (١٧) سوق المبساطة . قائم (١٨) سوق البز : قائم (١٩) سوق المعطارة : قائم (٢٠) سوق الحب : قائم (٢١) سوق اللقمة (الخبز) : قائم (٢٢) سوق السمن : قائم صغير (٢٣) سوق القات : قائم وسوق المصباغه : قائم .(٢٤) سوق المخلاص (الفضة) قائم (٢٥) سوق الزبيب : غير قائم (٢٦) سوق النظارة : قائم يباع فيه السليط والقاز ـ وبجانبه سوق الحنا والقرض : قائم (٢٧) سوق الفتله : قائم ويسميه بعض القبائل سوق الحرير . وهو سوق واحد فقط . (٢٨) سوق المدر والاوطفه : واختفت صناعة الاوطفه لعدم استعمال البغال والحمير في صنعاء حيث كان لكثير من أهالي صنعاء حمار أو بغلة وخصوصاً الذين لهم منازل الخريف في الروضة والوادي .

وكذلك أهل الأملاك في القرى من أهل صنعاء حيث يضطر للذهاب للاطلاع على مزارعه . كل ذلك حلت فيه السيارات محل الحمير والبغال . وبهذه المناسبة اذكر للأخ عبد الله هادى عامر في قصيدة شعبية قالها عقب نهب صنعاء في ثورة (٤٨) قال مخاطباً الإمام أحمد :

اعطف علينا كما دشهان
دخل بالجلافه ومغرسه وزن طن
خرب وشل الضهار لا مسافة
وزد رجع الكنن
وافتح لنا الحر وقال هذا الحمار ون وطافه
نشتى نسافر عدن .

(دشهان بالتركيه العدو) (المغرس المعول) . (الحر اسفل البيت خاص بالحيوانات) . (اللكنن المعروفة التي توضع فوق نوافذ البيوت) .

■ تربية البقر الحلوب . في أكثر بيوت صنعاء توجد بقرة أو اثنتان عادة ما يستعمل سمنها ولبنها . وقد تكون البقرة للفقراء مصدراً لرزقهم في بيع اللبن . وكانت هناك بيوت تستعمل الحليب ويوغرت يسمى (زبادي في مصر) ويوغرت كلمة تركية . ولم يبق الآن الا النادر من أهل صنعاء عنده بقر . كما ان أهل صنعاء حتى الآن يقتنون الماعز ويربون غنم الأضحية . وبعض بيوت صنعاء الفقيرة تعلف اثنين أو ثلاثة «أطلا» فتبيع من هذه الغنم ما تصرفه لعيد الأضحى وقد يبلغ قيمة الخروف المعلوف نحو (٢٠٠٠) ريال يمني .

■ وصف بيوت صنعاء من الداخل : من حيث الزينة في الأماكن والمناظر .

يعتني أهل صنعاء بزينة الأماكن فيوضع في كل مكان صفيف فوق كل نافذة وفي عرض المكان . ويكون الصفيف من القص والبعض يخرش باشكال جميلة . وتوضع في كل صفيف المزاهر النحاسية والمرشات الخاصة بماء الورد وكذلك المباخر المستعملة لاحراق العود وكذلك المتافل وحق البخور الى غير ذلك . . وتعتني المرأة بجعل هذه الأشياء النحاسية لماعة وهي من النحاس الصفر . كما تعلق في الأماكن الصور الحديثة والواح كتب عليها بعض آيات من القرآن الكريم . كما توضع في وسط المكان معشرة من النحاس وتوضع وسطها المدايع . وتفرش هذه الأماكن بالسجاد الجميل وخصوصاً في بيوت أهل الثروة كما توضع الوسائد على جدار المكان ، وتوضع فوق كل وسادة مايسمى «بنت الوسادة» من القماش الجميل ثم «المداكي» وخصوصاً أماكن الجلوس للمقيل . أما أماكن الأولاد والأقل فيكون فراشها بسيطاً ولاتوضع فيها الأشياء النحاسية المذكورة . ويوجد في أكثر الأماكن خزانة اما داخل الجدار أو في إحدى زوايا المكان . وتحفظ فيها الوثائق وتسمى «البصاير» وفصول قسمة الورثة وغير ذلك مثل النقود والحلي وتكون الخزانة التي داخل جدار المكان كبيرة ومرتفعه حتى لا ينالها الأولاد وتحفظ اشياء كثيرة مما يحتاج اليها وبابها كبير يتسع لدخول الشخص . أما الخزائن التي في الزوايا فتكون صغيرة لا يتجاوز بابها (٢٥) سنتمتراً ولكل خزانة مغلقة وتوضع فيها النقود ويذكرنا الاعتناء بالزينة ما وصفه استرابون عند

زيارته لمأرب . قال والملك الحميري راكب على عربة تجرها الفيلة وعليه ازار محوك بالذهب وبرد كذلك وفي يده رمح وترس وحوله جماعة يتغنون باطرائه وهو الزّامل المعروف الى الآن . وقال عن زينة بيوت السبئيين ، وللسبئيين في منازلهم ما يفوق الوصف من الموائد الفضية والأسرة ويعلقون على أبواب منازلهم الأفاريز من الذهب كما جاء ذلك في كتاب العرب قبل الاسلام لجرجي زيدان .

■ **أبواب الأماكن** : وخصوصاً الدواوين والمناظر والمفارج . إن نجارة هذه الأبواب تكون في غاية الدقة والجمال ويكون الباب مزيناً باشكال مخرمة توضع داخلها صفيحة رقيقة من النحاس الاصفر تظهر من وراء التخريم مع القلابات والخطافات الجميلة المبيضة وضعها جيد وأنيق وتستعمل الفارعةلجعل الباب لماعا والفارعة أحسن من الدمليكة المستعملة الآن . ولا توجد هذه الأبواب والنوافذ الأنيقة إلاّ في بيوت الأمراء وأهل الشراء . والوصف المذكور يشمل كل البيوت الكبيرة التي سبق ذكرها . أما الآن فقد ماتت صنعة النجارة الجميلة من خشب الطنب المشهور في اليمن . وتدهن هذه الأبواب والنوافذ بالسليط وقد يخلط معه القطران لمنع الوقزة ولا وجود الآن للقطران . ونوافذ البيوت كانت من النجارة الجميلة . ومن المفارج تكون النوافذ.من الداخل من الزجاج ومن الخارج من النجارة وقد تركت الآن النوافذ الخشبية واكتفوا بالنوافذ الزجاجية المغطاة بالستائر (البردات الكلمة تركية) . وما تزال النوافذ الخشبية في معظم البيوت حتى البيوت الصغيرة . وتوضع من الخارج فوق كل طاقة كنة جميلة منفردة لكل نافذة وبدأ الآن استعمال الكنة الشاملة لعدة نوافذ وهذا مغاير لعادات بيوت صنعاء . والكنن المنفردة أجمل وفي بعضها تخريم لطيف .

وفي معظم البيوت الكبيرة عدة مطاحن للحبوب في أسفل البيت وتسمى في البيوت الكبيرة «طبقة المطاحن» . وفي البيوت المتوسطة والصغيرة مطحن واحد . وقد اختفت هذه المطاحن لوجود الطواحين حتى في القرى مع الأسف وفي كل بيت من البيوت الكبار محل للحبوب ولها احقب عدة لأنواع الحبوب من بر وشعير وذرة لها أحقب مقفقة وتفتح لها عدة نوافذ صغيرة للتهوية وتسمى «طبقة الحبوب» . ويدخر الحب فيها لسنة كاملة . وفي البيوت الكبيرة «سماسر» يوضع فيها الحطب لسنة كاملة في بيوت أهل الثروة ومايزال القليل منها موجوداً .

والمطاهير في البيوت الكبيرة توجد في كل طبقة ويشمل الجميع مخرج واحد إلى بالوعةواحدة (قوعه) ويسيل الماء من هذه المطاهير في ساحل واحد وذلك لعدم تطاير الماء إلى الشارع واصابة المارة وهذه السواحل من «القضاض» ويعمر سنين كثيرة. وقد اختفت هذه الصنعة الجميلة المتينة وحل محلها القصيب وبعض السواحل من الاسمنت الآن . وفي البيوت الصغيرة والفقيرة يستعمل «الميزاب» من الخشب وهذا بسبب تطاير ماءالمطاهير. (مرشخص فأصابته قطرات من الميزاب فصاح نجستيني . فقالت : نجسته بسؤالك وكل مغيب طاهر (فقال قد

سمعت ..... ؟ لا عندي) .

الديم (المطابخ) تكون عادة في أعلى طبقة في البيت لعدم تسرب الدخان الى البيت وله نافذة تسمى السية . ظاهرة . وفي بعض البيوت الكبيرة تكون الديمة في أي طبقة ولكن توضع لها سية(*) منفردة محكمة يصعد منها الدخان الى أعلى البيت ولا يتسرب إلى داخل البيت وفي كل بيت «تنور» واحدة في البيوت الفقيرة أو اثنتان. أما في البيوت الكبيرة فثلاث أو أربع «تناوير» . وفي كل البيوت توجد بئر لنزع الماء . وفي بعض البيوت الكبيرة توضع فتحة للبئر الى المطبخ بدلاً من حمل الماء الى فوق تخفيفاً على المرأة التي تقوم بكل أعمال البيت من نزع الماء وطحن الحب وعجنه وخبزه . وقد قام مشروع المياه مقام الآبار واهملت هذه الآبار ونضب ماؤها . وهذا حقاً مؤسف خصوصاً وقت الحصار والحروب .

العقود التي فوق النوافذ كانت تستعمل في أكثر البيوت بدل العقود الزجاجية . وهي الواح من القمري الناصع البياض . وكان له صنعة اختفت الآن وحل محلها العقود الزجاجية . والقمري يعطي ضوءاً كافياً ويمنع دخول الشمس بخلاف الزجاج حتى تضطر اكثر البيوت لوضع عقد خارجي ويكون عادة من زجاج ابيض يمنع دخول الشمس والغبار الى العقد الداخلي «الملاون» الجميل . ويلاحظ في بعض البيوت القديمة بعض عقود القمري خصوصاً الجهة الغربية

ادوات المطابخ : كانت كل اعمال المطبخ في أوان من المدر مثل «البُرمة» و «المقلى» وبعض المقالي من الحرض . وهو يحفظ الحرارة . وما يزال مستعملا للحم والمرق و «الحلبة» و «السَّبايا» و «السوسي» و «الفَتُوت» . وكانت أدوات الشرب من المدر مثل المدلات و «الكعد» و «الجرار» الكبيرة وتسمى «قلة» . أما اليوم فقد حل المعدن في المطابخ والثلاجات محل المدلات والكعد وكان محل صنع الكعد الجميلة في «سعوان» .

السراج . كان أهل صنعاء وغيرهم يستعملون السليط «زيت الخردل» ويوضع في مسارج جميلة مصنوعة من الحرض الصلب . وتوضع في وسطها سلسلة من الحديد تعلق في سقف المكان ولها خدود دائرية توضع فيها فتائل من العطب (القطن) وتغمر في السليط وضوؤها جميل ومريح . وما تزال نماذج منها في الاسواق والمتحف . ويرغب السياح في شرائها . وكذلك استعمال الشمع وكان يصنع في صنعاء. وكل شمعة يبلغ طولها نحو (٧٥) سم وقد يوضع عدة منها في مفرز من النحاس له عدة محلات يركز الشمع عليه . ولا يستعمل المغرز الا في المواجب والموت والمناسبات . ثم ظهر القاز واللنبات ثم ظهر اول «اتريك» منذ خمسين سنة فقط . ثم ظهرت الكهرباء وكانت خاصة بدار الامام يحيى فقط . وكان يعمل بواسطة «البتاريات» تشحن في النهار بواسطة «موتر» . وكان أثاث البيوت من صوف الماعز والغنم تصنع منه بسط وفريد لفرشها في الاماكن والمساجد وقد حل محلها السجاد وخصوصا في وقتنا الحاضر بسبب رخصها بعد ان توسعت صناعاتها في اوروبا وعمت البيوت على اختلاف ابنيتها وكذلك المساجد . ولم يبق من

البسط السود المتين الصنعة الا القليل في بعض البيوت . وقد انتشر السجاد في القرى ويوجد في بعض بيوت صنعاء الكبيرة انواع من السجاد العجمي النفيس ويتوارث عند القسمة بين افراد الاسرة . وكان في كثير من حارات صنعاء محلات لصنع «المصاوِن» ونوع من القماش ويسمى محل الصنع (سقيف) وقد اختفت وحلت الستارة والشرشف محل المصون . وما يزال يعمل منه في «وصاب» .. وكان له سوق يسمى سوق المصاون تابع لسوق «البزّ» .

الحمامات : توجد في صنعاء القديمة عدة حمامات عامة وهي حمام الميدان وحمام الطواشي وحمام ياسر (وهو من الحمامات القديمة جدا يقال انه قبل الاسلام وياسر ينهعم من ملوك حمير) وكذلك حمام سبأ قديم. ومن حمامات صنعاء حمام الحميدي وحمام السوق و حمام الابهر وحمام الجلا وحمام شكر . وكل هذه الحمامات داخل صنعاء التي يحدها من الغرب السايلة . وكان وقود هذه الحمامات من فضلات الانسان تجمع من كل حارة التابع لها الحمام فقط ، ثم تساق الى خارج صنعاء وراء الدائر محل المؤسسة الآن . وفي أيام الامام المهدي عبد الله غضب على شيخ من برط من بيت الشايف فقتله وامر بدفنه في محل جمع هذه الفضلات فغضبت قبيلته وتعيرت فهجمت على صنعاء وتم الصلح بينها وبين الامام علي بناء قبة على قبر الشايف ورفع فضلات الانسان من قبل الحماميين من ذلك المكان وما تزال آثار القبة باقية ، وكل حمامي استعمل محلا خاصا قرب الحمام لتجفيف هذه الفضلات وجعلها وقوداً للحمام .

وقد قل استعمال ذلك في الحمامات الا القليل ويوقد للحمامات الآن بسليط الديزل مع عظام المذبوحات . وعليه فان بعض اهل صنعاء حولوا المراحيض الى افرنجية للتخلص من الفضلات وحفروا لها بواليع عميقة جدا قد تصل الى عمق (١٠ الى ١٥) مترا او الى ان ينتهي الطين وتظهر الطبقة الرملية (النيس) . ومن العجيب ان بواليع بيوت صنعاء العادية التي قد لا يتجاوز عمقها المترين او الثلاثة لا تحتاج الى فتح وتنظيف لعشرات السنين . والدولة تتبنى الآن مشروع المجاري في صنعاء . وقد بدأ في تعز والحديدة وغيرها(*) .

مساجد صنعاء : سأتكلم عن عددها فقط اتماما للبحث فقد سبق أن تكلم عنها القاضي محمد الحجري في كتابه المساجد . كما تكلم عنها الأخ القاضي اسماعيل الأكوع في العدد الخامس من مجلة الاكليل . فليرجع اليهما . (١) مسجد الحيمي المعروف بمسجد الباشه (٢) مسجد نصير (٣) مسجد موسى (٤) مسجد الابزر (ويدعى قديما مسجد الأبرار) (٥) مسجد القلعة (٦) مسجد مراد (٧) مسجد خارج القلعة ـ والقلعة تطلق على السجن المشهور . وهذه المساجد الثلاثة في قصر السلاح (٨) مسجد الحميدي بضم الحاء المهملة (٩) مسجد الجناح وبجانبه مسجد المذهب في سوق الملح (١٠) مسجد صلاح الدين (١١) مسجد البكيرية (١٢) مسجد المفتون صغير (١٣) مسجد المدرسة (١٤) مسجد الطواشي (١٥) مسجد خضير بضم الخاء المعجمة (١٦) مسجد الزمر (١٧) مسجد عقيل (١٨) مسجد علي (١٩) الجامع الكبير (٢٠) مسجد الرضوان / باب اليمن

(٢١) مسجد الأبهر (٢٢) مسجد معاذ (٢٣) مسجد طلحة (٢٤) مسجد الطاوس (٢٥) مسجد الخراز(٢٦) مسجد ابن الحسين (٢٧) مسجد الجلا (٢٨) مسجد العلمي (٢٩) مسجد الفليحي (٣٠) مسجد غزل الباش (٣١) مسجد النور (٣٢) مسجد بروم (٣٣) مسجد القاسمي (٣٤) مسجد الوشلي (٣٥) مسجد الجديد (٣٦) مسجد جمال الدين . (٣٧) مسجد محمود (٣٨) مسجد داوود(٣٩) مسجد الشهيدين. هذه المساجد كلها عامرة بالجماعات في الفروض الخمسة وقد زيد في بناء الكثير منها واصبح في كل مسجد حنفيات للوضوء . واختفت في بعض المساجد المطاهير مثل الجامع الكبير . اما المساجد التي بنيت بعد قيام الثورة والجمهورية فقد بلغ عددها اكثر من مئة مسجد للجمعة والجماعة وللنساء . وفيها الحمامات الحديثة وليس فيها مطاهير للوضوء بل حنفيات وفرشت بالسجاد الجميل . ولم يبق مسجد في صنعاء القديمة بالفراش الأول من البسط بل مفارش بعضها فوق بعض . وفي مسجد الباشة ثلاث طرحات من السجادوفي أكثر المساجد ايضا .

السماسر في سوق صنعاء : (١) سمسرة محمد بن حسن بضم الميم والحاء وكانت تعتبر بمثابة بنك لتجار صنعاء توضع فيها البضائع والفلوس من الذهب والفضة (٢) سمسرة سوق العنب لبيت عامر (٣) سمسرة سوق النحاس (٤) سمسرة الميزان وتسمى سمسرة الجمرك (٥) سمسرة دلال في سوق القات (٦) سمسرة الحوايج (٧) سمسرة سوق القص (٨) سمسرة كبيرة في سوق السراحين لم يحضرني اسمها الآن (٩) سمسرة سوق الحب (١٠) سمسرة في سوق الحلقة (١١) سمسرة في سوق البز عمر مكانها دكاكين . هذه السماسر توضع فيها البضائع من كل جنس . وبناؤها فخم ولها دوارات ومعظمها مستعمل . وهناك سماسر للمسافرين والدواب مثل سمسرة البوعاني وهي قديمة جدا . سمسرة وردة خمس او ست سماسر لا اعرف أسماءها وأكثرها على طريق باب اليمن وقد اختفت وبني منها سوقان جديدان جميلان ايام كان القاضي حسين السياغي وزيرا للأوقاف . اما بقية سماسر المسافرين فقد صارت محلات للتجارة . وتوجد الان محلات كثيرة للمبيت لمن ليس له مبيت وذلك في قعايد بفرش وبصورة جميلة وبعد الظهر يقيلون فيها مع القات والمدايع . . .

بئر العزب: أصبحت بئر العزب جزءاً من العاصمة صنعاء منذ مئات السنين . وأحياء بئر العزب تشمل الاحياء الاتية : بئر العزب (وقد قرأت في مخطوط في الجامع الكبير ان «فلان عاصم» اوقف بئر العزب مقبرة لصنعاء والمخطوط قديم) . بئر خيران وفيها قصر الامام احمد . بئر البهمة . بئر الشمس . قاع العلفي وفيها من المساجد : (١) مسجد توفيق (٢) مسجد الرحمة (٣) مسجد الهادي (٤) مسجد القضاة (٥) مسجد النزيلي وفيه قبر معمر أول من دون الحديث الشريف في نصف القرن الثاني الهجري (٦) مسجد البهمة (٧) مسجد حنظل (٨) مسجد قارش (٩) مسجد عدل (١٠) مسجد باب البلقة (١١) مسجد المحاميد والصياح . المساجد التي في غربي السايلة الى باب السبحة (١٣) مسجد التقوى (١٤) مسجد النهرين (١٤) مسجد قبة المهدي (١٥) مسجد قبة

المتوكل (١٦) مسجد حجر نقل الى الصافية وبني مكانه بنك الانشاء والتعمير (١٧) مسجد محسن نقل الى الطبري (١٨) مسجد فايع (١٩) مسجد الحرقان وفي هذا الحي حمام السلطان وحمام المتوكل وفي بئر العزب حمام البونية وحمام علي . وفي قاع العلفي مسجد السلام وحمام الفيش . وفي بئر العزب عدة بيوت كبيرة مثل قصر البشاير والقصر الجمهوري ووزارة الداخلية ووزارة الصحة ووزارة التربية والتعليم ووزارة المواصلات . وكان لبئر العزب والقاع سور وله عدة «نُوَب» وليس له مسعى كما كان في سور صنعاء وقد خرب معظمه بعد الثورة . ومسجد باب القاع . والابواب التي في بئر العزب وهي : باب الروم وباب القاع وباب البلقة وباب شرارة وكان جميلا مسقوفا من بناء الأتراك وباب خزيمة وكان ملاصقاً لسور صنعاء ، وباب الشقاديف ملاصق لدار السعادة وهو عادي وغير مسقوف . وقد ذهبت هذه الابواب بعد قيام الجمهورية . وقد اصبحت صنعاء نقطة في وسط دائرة ؛ حيث اتصل البناء بجبل عَصرٍ وجبل نُقُم ومنتزه حَدَّة والجراف والروضة وفتحت شوارع واسعة جدا مزفتة وعدة شوارع من جبل عصر الى طريق تعز بعرض ستين مترا . هذا وان البناء الحديث في صنعاء وغيرها يحتاج الى كتاب خاص . فسبحان محول الأحوال ومع اني ابن صنعاء أعرف كل ضواحيها فاني أمر من شوارع آهلة بالسكان في مبانٍ جميلة جدا . ولا أستطيع ان أميز المكان الذي أمر فيه .

العاب الاطفال

كانت في صنعاء عدة العاب لها مواسم مخصوصة[1] «العاب الكعوب» : وهي تستخرج من أرجل الغنم وتكون اللعبة بين اثنين يدفع كل واحد عدداً من الكعوب ، وتجمع في يد الاول الذي تخرج عنده القرعة فيرميها الى الارض . فاذا وقف أحد الكعوب على هيئة مخصوصة قمش الكل . وتستمر اللعبة عدة مرات حتى ينتهي مع احدهم ، أو يترك أحدهم قبل أن يخسر كل ما لديه وتستمر هذه اللعبة نحو شهر . (٢) لعبة الدوام «وتصنع» في سوق مخراطة اقطاب المدايع ويوضع في اسفلها مسمار ويلف عليه الى نهاية الدوامة جديلة من الفتلة وترمى الدوامة فتستقر على المسمار وتدور عليه عدة ثوان نظراً لمهارة الطفل عند رميها وشد الجديلة عليها قبل الرمي . وقد يجتمع عدة اطفال . فالطفل الذي يرمي دوامته ولا تدور على المسمار يقال له كعكعت فتوضع في دائرة ويقوم الاطفال بضربها بدواماتهم . وقد يحدث فيها خدش او ثلم ولا يستطيع صاحبها اخذها الا اذا خرجت بسبب احدى الضربات وتستمرهذه اللعبة نحو شهر . (٣) «لعبة الخرز» وتسمى لعبة «المدارج» جمع مدرج ويفرش لها يلق (صدرية) من جلود الغنم . ويبدأ الأول حسب القرعة فيدحرج مدرجه وقد يكون من الخرز او من الملك الأحمر بشكل دائرة . فاذا كان الثاني فوق الأول في اليلق المذكور قمش مدرج الأول وهكذا تستمر اللعبة الى أن يخسر أحدهم فيرفض الاستمرار في اللعبة ليحتفظ بما بقي . وقد يشترط في أول اللعبة وقبل الابتداء بقول احدهم تمنى ولا تمك اي حتى يخلص ما عندي أو عندك ويصبح الشرط نافذا . وقد تكلم القاضي محمد بن علي الأكوع عن هذه اللعبة في مدينة ذمار . (٤) «لعبة الكرت» بضم الكاف

وسكون الراء بعد تاء . وهذه اللعبة تصنع بأخذ قطعة صغيرة من العطب أو الخرق وتلف بالفتلة المبرومة حتى تصبح في حجم الرمانة المتوسطة او الكبيرة ثم توضع فيها خطوط الطول كما في الكرة الأرضية تماماً ثم دائرة الاستواء ودوائر ثلاث حتى القطب . وتكون هذه الدوائر من الفتلة الملونة أي لكل دائرة لون وتخاط هذه الدوائر حتى لا تخرج من الكرت (الكرة) . ولها عدة العاب منها لعبة تسمى اول «تفيقف» فيوضع من الحجر هدف يسمى «نصع» ويقف وراءه احد اللاعبين ويرمي «الكرت» الى الوراء ، ويقف لاعب اخر على مسافة مناسبة فاذا «لقفها» هذا من الهواء بطل اللاعب الأول وحل محله الثاني . اما اذا لم يتمكن من اخذها وسقطت الى الارض فانه يدحرجها الى الهدف فإن اصابه بطل الأول وحل محله والا استمر اربع مرات . فاذا لم يستطع اللاعب الثاني إصابة الهدف او لم يتمكن من اخذها من الهواء فإن اللاعب الاول يرميها بقوة وراءه فإن سقطت الى الارض فإن اللاعب الثاني يتحمل الاول على ظهره من محل سقوط الكرت الى الهدف ثم يلعب الثاني وهكذا مرتين او أكثر . أما اللعبة الثانية فإنهم يجتمعون وينقسمون الى فريقين : كل فريق يرمي الكرت الى فريقه فإذا تمكن الفريق الثاني من اختطافها من الهواء على الفريق الأول يلعب بها مع فريقه وهكذا . وتكون هذه اللعبة نشيطة لكثرة حركة الفريقين . (٥) «لعبة الأقواس» : والقوس قطعة خشبية تحفر لها ساقية ويفتح في اعلاه خزق (ثقب) تدخل فيه سنارة رفيعة ويربط طرفاها بجديلة والية ثم توضع فيها نشابة في رأسها ابرة ويتبارون في اصابة الهدف

(٦) «لعبة الزنب» (نواة التمر) : يعمون بها دارات مفردها دارة . وتكون طويلة او قصيرة بحسب مهارة الطفل وكل واحد يبني عدة دارات يتفق على عددها بالتساوي بينهما ومع كل واحدة زبنة كبيرة تسمى «منبل» وتعمل القرعة ويبدأ أحدهم برمي الدارات من مسافة مناسبة وما أصاب من الدارات «قمشها» أي أصبحت ملكه وهكذا الى أن تنتهي كل الدارات . وللزنب عدة لعب (٧) «لعبة القوقع» (بذر البرقوق اي المشمش) : وتحفر أربع غرق صغيرة ومثلها موازية لها وكل واحد يملأ غرقه بالقوقع بعدد متفق ثم يبدأ الأول حسب القرعة فيأخذ باقي أحد الغرق ويفرقه على الغرق الأخرى . وكلما انتهى من غرقة أخذ الثانية . وهكذا الى أن تنتهي الحبات المغرقة على الغرق فاذا صادف انتهاء الحبات في الغرق وكان بجانبها غرقة عاطلة اخذ الملأى التي بجانبها بالاضافة الى لعبة تسمى المجايتة فيأخذ أحدهم كمية من القوقع في يده ويخفيها بين اصابعه ويقول جيتك فيقول بالفرد ثم يفتح يده ويعدهن فاذا صادف العدد فرداً اخذه الثاني وان صادف العدد بالزوج دفع لخبيره بعددهن .

الألعاب الرياضية : (١) «من لطمك يا ملطوم» وذلك ان يقف اثنان وراء الثالث ويضربه احدهم بيده ويهز الاثنان أيديهم فيلتفت ويقبض احدى الايدي فاذا صادف اليدالتي ضربته حل محل الأول وهكذا (٢) « قص المقص » ينحني احدهم ويقفز الثاني من فوق ظهر الأول وينحني هو ايضا ثم يقفز الثالث من فوق الاثنين وينحني وهكذا الى اخر واحد ويقوم الأول ويقفز من فوق

الجميع وهكذا (٣) «تحت من طار الـذي طار» : وذلك أن يجلس اللاعبون على الأرض بشكل دائرة ويقـوم أحدهـم وفي يده كوفية أو خرقـة ويلـوي عليهم من القفا ويضع الكوفية وراء أحدهـم فان أحس بها اخذها وجرى بعده فاذا لقيه قبل أن يقعد في المحل الفارغ ضربه بالكوفية وهكذا يتناوبـون هذه اللعبة مدة مناسبة . (٤) «شاطر شطير الطير كم هولا» (هؤلاء) : وذلك أن يركب احدهم على ظهر الثاني ويمد قسما من اصابع يده ويسأل رفيقه عن عددها فاذا أصاب العدد مع انه منحن لا ينظر الاصابع قام وركب فوق الثانـي وتجـري العملية هكذا فترة حسب الرغبة في الاستمرار . (٥) «لعبة عشر وعشرين» : وذلك أن يوضع هدف على بعد عشر خطوات من احدهم وعشرين من الثاني ثم يبدأ الاثنان بالجري نحو الهدف : فصاحب العشر خطوات عندمـا يصـل الى الهـدف يأخـذه ويعـود بسرعة الى محله ، فاذا رجع الى محله قبل أن يصل صاحب العشرين فهو فائز واذا أمسكه الثاني قبل ان يعـود الى محلـه فهـو فاشـل ويكون صاحـب العشرين اسرع منه في الجري . وهذه اللعبة تشبه «سباق المسافات» ليظهر القوي في الجـري . (٦) القـاحِش (بـكسر الحـاء المهملـة بعـد شـين معجمة) : وهذه اللعبة لا تكون الا في ليالي شهـر رمضـان المبارك ، وذلك ان تصنـع كرات كبـيرة اصغر من كرة القدم يحشى داخلها بالخرق .

وتغشى بالجلد . وينقسم اللاعبون الى فريقين ومع كل واحد «جِيْل» من عود الاثـل طولـه أكثـر من (٧٥) سم واسفله معكوف أو خمخمـة في أسفلـه (بضم الخاء المعجمـة وسكون الميم وضـم الخـاء الثاني وكسر الميم بعدها ساكنه) ويعينـون هدفـين يسمى كل هدف (ولاج) ثم يكون ضرب الكرت بالعمل كل فريق يريد ايصالهـا الى ولاجـه وهـي لا تختلف في شدتها وجلادها عن كرة القدم حيث يصرف كل فريق جهوداً كبيرة .

(٧) لعبة الوقل (بفتح الـواو والقـاف بعدهـا لام ساكنة) :

وذلك ان يقوم أحد الأولاد ويرسم مستطيلاً طوله ثلاثة أمتار ثم يقسمه الى مستطيلات أربعـة يسمى الأول وقـل والثانـي وقلـين والثالـث شنتـر (وعرضه صغير يتسـع لوقـوف قدم واحـدة فقـط) والرابع جبل ويكون واسعاً عرضه متر . ويعمـل من المدر دائـرة في حجـم الـريال الجمهـوري المعدني . ومن خرجت عنـده القرعـه بدأ اللعبـة وتكون القرعة هكذا ، يأخذ الدائرة المذكورة من المدرأحد اللاعبين ثم يبل أحدوجهيها بالـريق من الفم ثم يقول لصاحبه (ما تشتى خضار أو يباس) فيختار أحدهما ثم يرمي الدائرة الى الهواء وتقع على الأرض وينظر الى الدائرة المذكورة هل وقعت على السطـح الأخضر أو اليابس ثم يأخذهـا من فاز بابتداء اللعبة .

يبدأ الأول فيقف على رجـل واحـدة ويبـدأ يعكل أي يتحـرك برجـل واحـدة ويرمـي الدائـرة المذكورة الى المستطيل الأول ثم ينط (يقفز برجـل واحدة) ويضرب بها الدائرة المذكورة وهي من المدر برجله الواحدة فقط . واذا استطاع اخراج الدائرة من المستطيل الأول الى خارجـه اخـذ الوقـل (أي الدائرة المذكورة) ورماه الى المسـتطيل الثانـي فاذا ثبت فيه ضرب برجل واحدة الى المستطيل الثاني . ولابأس ان ينط الى المستطيل الأول ثم الثاني طبعاً

برجل واحدة ويحاول بها خرب الدائرة لتخرج الى خارج المستطيلين وينط لأخذها اذا خرجت الى خارج المستطيلين ، ثم يأخذها ويرميها الى المستطيل الثالث . وما يزال «يعكل» والا بطلت لعبته . والمستطيل الثالث اصعب ما يكون لانه ضيق جداً لا يسع الا القدم الواحدة بشرط ان تكون اصابعها مقابلة لعرض المستطيل الضيق ويحاول خرب الدائرة لتخرج الى خارج المستطيلات الثلاثة وما يزال يعكل برجل واحدة فاذا تمكن من اخراج الدائرة الى خارج المستطيلات ذهب برجل واحدة لأخذها ورميها الى المستطيل الاخير الواسع المسمى «جبل» وينط اليه مجتازاً المستطيلات الثلاثة برجل واحدة . ولو وقعت رجله الثانية الى الأرض ولو قليلاً جداً بطلت لعبته . ثم يحاول اخراج الدائرة برجل واحدة كما في الأول بضربة قوية وبرجل واحدة ايضاً .

وما يزال «يَتْنبعْ» برجل واحدة فاذا خرجت الدائرة الى خارج المستطيل الكبير وطوله كما سبق ثلاثة أمتار يعد الولد شاطراً وفائزاً وليس فيها جزاء وإنما لبيان المتفوق ويفتخر بنجاحه . فاللعبه صعبة ومجهدة وقد لا يفوز الا بعد فشل عدة مرات . وعندمايفوز يأخذ اللعبة الولد الثاني أو اذا فشل الأول ولو في أول اللعبة فان الثاني يأخذها وهي لعبة شيقة وجميلة .

***

الحرب بين أولاد الصرمات أو الحارات المختلفة

قبل الكلام على الحرب بين أولاد الحارات هناك ثلاث ألعاب تدل على التمرين في الحرب وهي لعبة القوس والنشابة وسبق شرحها ، ولعبة البنادق المعاس (وهو عبارة عن انبوبة نحو ١٥ سم من شجر المعاس . وهذه تسد من احدى فتحاتها وتملأ بنوع خاص ولها مرجز ثم قارح وقد تكلم عنها القاضي محمد الأكوع بشرح واف وانما ذكرنها هنا لأن لها قارحاً فهي لعبة حرب . كذلك لعبة المدافع وهي ان يوضع في قطعة من الخشب انبوبة صغيرة من الحديد أسفلها مسدود .

مجوفة تملأ بالبارود أو من حت رؤوس الكبريت ثم يدخل فيها مسمار غليظ يتناسب مع التجويف ويضرب رأس المسمار في الحجر فيعطي صوتاً أشبه بالطلقة وغير ذلك من هذا النوع .

■ **الحرب بالحجارة بين اولاد الحارات المختلفة** : تجتمع عدة حارات وتكون حلفاً ضد حارات اخرى ويختار محل مناسب للطرفين ويبدأ الأولاد برمي الأحجار ضد الآخرين وقد يتقدم أولاد حارات الى حارات الأولاد الآخرين . مثلاً يهجم اولاد حارة الفليحي والعلمي وداو ودعلى أولاد حارة الزمر وخضير ويكون اللقاء في صرحة الوادي مثلاً او غيرها . وقد تحصل جروح بعضها خطرة ولا يلتقون بالضرب بالأيدي . وهكذا في الحارات الأخرى وقد حدث حادث كبير لأحد الأولاد واشيع انه مات وذلك في بستان شارب وحبس جماعة وهذا كان في اخر أيام الأتراك . وفي أولاد الحارات شباب قد يبلغ بعضهم البلوغ ويكون لكل من المتحاربين شيخ قوى كالقائد . واتذكر ان العلامة الصفى احمد محبوب كان قائداً لحارة الفليحي وكان قوياً وشاباً جلداً وبعد الحادث المذكور انتهت هذه الظاهرة الغريبة . وتدل على أن الشعب اليمني شعب مقاتل حتى ان الولد

عندما يبلغ سن الرشد من أولاد القبائل أول ما يحاول اقتناء بندقية ويذهب يتعسكر في مناطق اخرى . واتذكر «زاملا» يكون بمثابة التفاؤ ل عندما يذهبون الى المناطق الأخرى . وهذا هو الزامل :

(يارب نسألك تجعلها لنا سايرة . . . وفي المطاريش تجعل نجمنا السنبلة) . ومن جملة العبارات التي يقولونها لبعض الشباب اذا لم يكن شاطراً جداً أو يخطىء في بعض تصرفاته البسيطة يقولون له : (ما قد تعسكرتش) لان الانخراط في الجندية يربي الرجولة ويعوّد الشخص على احتمال مشاق العسكرة وبهذه المناسبة اتذكران أسعد أيامي هي السنون الخمس التي قضيتها في المدرسة الحربية وكلما أمر الآن أمامها أتذكر - وهي الآن وزارة العمل والشؤ ون الاجتماعية - انظر اليها واستعيد تلك الأيام العزيزة . واتذكر اعز الأصدقاء أثناء دراستي معهم : محي الدين العنسي ، السيد محمد علي أبو طالب ، السيد محسن السراجي ، وممن سبقونا في هذه المدرسة وربطتنا بهم صداقات هم : المرحوم السيد احمد بن محمد المطاع الذي كان شعلة ذكاء ، الأخ محمد حسن غالب ، المرحوم محمد عبد الرحمن البصراوي شفيق عبد الله المرحوم محمد بن قاسم العنسى شقيق محي الدين الذي اعتبره فيلسوفاً لا تمل مجالسته ، المرحوم أحمد الحقي من خفة همدان ، وغيرهم بالعشرات من هذه المدرسة . والكل يعرف أدوار المذكورين في الوطنية والتضحية بدمائهم مثل : المطاع والعنسي وغيرهم . وقد رأيت التنويه بالتربية العسكرية لأهنىء شبابنا المندفعين في الدفاع عن الوطن . ومن الكلمات التي تعني الاعجاب بالشاب «المقطوب» في عمله يقولون «عسكور» يعني كامل الرجولة .

الغيل الأسود

كان لهذا الغيل أهمية كبيرة وفوائد عظيمه في سقي مزارع شُعُوب والصّابون والغسيل لصنعاء . ومن المؤسف انه اختفى الآن نظراً لاهمال مجاريه بعد قيام الثورة حيث دفنت عدة كظايم بسبب الأعمال الحربية وخصوصاً في حرب السبعين يوماً . كما ان ساقيته تمر من وسط شارع علي عبد المغني ودخوله قبة المتوكل ودار السعادة حيث ادخله الإمام يحيى الى بستانها وخروجه منها الى شعوب للأغراض المذكورة . وهذا الغيل معروف من مئات السنين ويسمى «غيل البرمكي» لان العامل من قبل الدولة العباسية هو الذي اخرجه واعتنى به وبسواقيه . وأصل منبعه من سواد حِزْيَزْ . وإن ماءه يأتي من قرية بيت عقب جنوب شرقي صنعاء . وكان لأهل صنعاء من المالكين اراض في شعوب ولهم دول أي ملك يقدر بعدد الطيسان والطاسة وهي من النحاس مثقوب أسفلها مملوءة بالماء ويخرج قطرات من ذلك الثقب فمن يملك طاسة أو أكثر يستمر الغيل في أراضيه حتى ينتهي ماء الطاسة . وهذا تقدير دقيق لان انتشار الساعات فيما سبق كان محدوداً . وتذكرنا هذه العملية بالساعة المائية في قصر غمدان الأثري (وتسمى القطّارة) . ومن المالكين من يملك ثماني أو عشر طيسان الى اخره . والذي يشرف على هذا يسمى الدايلي وهو الذي يحول الماء من مزرعة الى اخرى حسب ما ذكر وذلك بفراغ الطاسة أو

الطيسان من الماء . وما تزال هذه القاعدة معروفة في المحلات التي توجد فيها الغيول الكبيرة مثل غيل حدة والوادي وغير ذلك . والأمل ان تهتم الدولة بإصلاح مجرى هذا الغيل وصرف مائه الى اي ناحية حيث أصبحت منطقة شعوب مباني وقصوراً شامخة في مكان هذه المزارع . ومثل ذلك في الصافيه العدنية . وكل الأراضي المحيطة بصنعاء من كل الجهات . وهذا يذكرنا بما جاء في كتاب الرازي قبل الف سنة . قال في ص (١٠٥) : ولن تمر الأيام والليالي حتى يرى أهل المسعى أهل الطواف وقد كان كما يعرف ذلك كل حاج وقال ولن تمر الليالي والأيام حتى يعاد سد مأرب على يد رجل من العرب ، ولن تمر الليالي والأيام حتى تبلغ صنعاء جبالها ويباع هواؤها . هكذا يقول الرازي قبل الف سنه فسبحان الملهم ، أما الغيب فلا يعلمه من في السماوات والأرض إلا الله . ولكن كما جاء في الحديث اتقوا فراسة المؤمن فانه يرى بنور الله أو كما قال . دخل شاب على الخليفة عثمان بن عفان رضي الله عنه فانتظر حتى خرج من كان لديه فقال للشاب أيدخل على أمير المؤمنين من في عينيه الزنى . فقال الشاب أو حي بعد رسول الله (ﷺ) يا أمير المؤمنين . فقال : لا ، ولكن المؤمن يرى بنور الله . فقال الشاب والله يا أمير المؤمنين لقد مررت من أحد الشوارع فرأيت فتاة ما يزال جمالها يصرفني عن كل تفكير . أما أخبار الانبياء بالمستقبل فانه وحي من الله كما قال رسول الله (ﷺ) أو يثبت القرآن . فقد قال له أصحابه في مكة : يا رسول الله (ﷺ) لو سألت الله يخفف عنا ما نلقاه من قريش . فقال (ﷺ) : لقد كان من قبلكم يوضع في حفرة ويشق بالمنشار نصفين وتمشط لحومهم بأمشاط من حديد وهم صابرون على كلمة التوحيد ، ليصيرن الرجل من صنعاء الى حضرموت لا يخشى الا الله والذئب على غنمة . وفي غزوة الخندق ضرب بيده الكريمة مروة فلمعت فقال اضيئت لي قصور فارس . وفي رواية قصور فارس وقصور صنعاء وقد تحقق كل ذلك . واختم هذا البحث بتقدير الوقت عند أهل صنعا ونسائها .

■ **الوقت** : (١) غداً رمضان قبل الفجر بساعة (٢) فجر (٣) ضوء ظلام (٤) ضوء بارح (٥) بزغة شمس (٦) وقت خروج الراعي / ويكون بعد طلوع الشمس بساعتين (٧) وقت العجين (٨) ركزة أي قرب الظهر أو وقت الوقيد (الوقيد للغداء) (٩) وقت الغداء أي قبل الظهر وقبل تناول الغداء (١٠) بعد الغداء (وهذا يتناول الوقت الى الغروب اذا لم يحدد في الأوقات الآتية) (١١) بين الصلاتين / أي الظهر والعصر (١٢) بعد العصر الداني (١٣) عصر (١٤) بعد العصر الداني / وكلمة داني تقدر بساعة (١٥) غربه أو غربة شمس (١٦) مغرب (١٧) بين مغرب وعشاء أي بين صلاة المغرب وصلاة العشاء (١٨) ضربة مرفع وتسمى التمسية . وتكون الساعة الثالثة . ومن أقوال أهل صنعاء : سمرة لا مرفع ومزداد سهر ودوره للماجل ومزداد سفر (١٩) هيه بفتح الهاء وكسر الياء المثناه التحرية بعدها هاء . أي مضى أكثر من ثلاث ساعات . (٢٠) هجعة بفتح الهاء وسكون الجيم المعجمة وفتح العين المهملة بعدها هاء ساكنة . ومعنى هجعه استغراق الناس

في النـوم . قال تعـالى : (قليلاً من النـوم ما يهجعون) وكان في صنعـاء إلى ما قبـل الثـورة بخمس سنين ثلاثة تسابيح من منـارات المساجـد الأولى : نصف الليل والثانية : بعد ساعة ونصف أو ساعتين . والثالثة : قبل اذان الفجر وما تـزال هذه الأخيرة جارية في كل مساجد صنعاء . وتعتبر مقام الأن الأول لصلاة الفجر الذي كان يؤ ذنه عبد الله بن أم مكتوم أيام النبي ﷺ) . وفي القاهـرة تذكير ودعاء إلى اذان الفجر . وفي دمشق أيضاً . وسبق ان ذكرت السمرة والدورة .

ومن عادة أهل صنعاء خصوصـاً أصحـاب الدكاين أن يذهبوا الى ضواحـي جبـل نقـم ومـن مرتفعاته قبل الظهر بقليل وذلك كما يقولون يحرك (بضم الياء المثناة التحية وسكون الحـاء المهملـة وكسر الـراء المهملـة وسـكون الـكاف) حرارة للقات . وبهذه المناسبة اذكر نكتة للمرحوم أحمـد المطاع والعزي صالح السنيدار ذهبا للـدورة وبينما هما بجانب قبر الهبل وكان أمامهم احد الجـزارين السعدني وينطق الضاء والذال كما ينطق حرف في الانكليزية . وهو يعتقد ان المذكورين غير مشيعين في الهبل . فقال العزي صالح للأخ أحمـد المطـاع بصوت يسمعه الجزار دقل ياخـي من قصص قبـر الهبـل فرجـع الجـزار من مسافـة ووقف أمـامهما وقال . (الذي رضى له ارحم الراحمـين) . فكان العـزي صالـح والأخ أحمـد المطـاع عندمـا يقـول احدهم للاخر أو لمن يوثق به دقلوا من عينوا مولانا الإمام عامـل في المحـل الفلانـي فيقـول احـدهما (الذي رضي له ارحم الراحمين) على جهة النكتة . الى هنا وقف شوط القلم والحمـد لله رب العـالمين وسبحان الله العظيم .

١٩ شهر محرم / ١٤٠٢هـ - ١٦/ ١١/ ١٩٨١م

(*) هذه المقشامة على شارع القزالي من الشوارع التي تمر منهـا السيارات حي الميدان ولهـا جدار ضخـم حجـر منظرها .

(*) السية بكسـر السين والياء فتحة في أصل جدار البيت اذا كانت الديمة في أسفل البيت أو وسطه وتسمى سرابة

***

ثورة صنعاء ١٩٤٨م

ومارافقها من الخلاف بين الأحرار

بقلم: علي محمد عبده

منذ العام الذي تأسس فيه (حزب الأحرار اليمني) في التواهي عام ١٩٤٤ نشأ الخلاف بين رجاله الوافدين من الشمال من المشايخ والسيدين زيد الموشكي وأحمد الشامي من جهة والأستاذين أحمد محمد نعمان ومحمد محمود الزبيري من جهة ثانية . . وأسباب ذلك الخلاف الذي تمخض عن عودة المجموعة الأولى إلى الشمال قد تحدثنا عنه فيما سبق عند قراءتنا للرسائل المتبادله بينهم والمتعلقة بتلك الفترة . . كما تحدث عنها الأستاذ محمد علي لقمان في كتابه عن ثورة (٤٨) . متعلقة ومرتكزة على محاولة التعرف على مصادر أحوال أو تمويل الحركة (حزب الأحرار اليمني) - ومطالبتهم بنصف المالية وتكتم الأستاذ أحمد محمد نعمان على مصادر التمويل ورفضه اطلاعهم عليها أو تلبية مطالبهم باستثناء الأستاذ محمد محمود الزبيري الشيء الذي أثار ثائرتهم ضد الأستاذ نعمان .

وعادوا على أثر ذلك الخلاف الى الداخل قبل تأسيس (الجمعية اليمنية الكبرى) وقبل وصول الأمير سيف الحق إبراهيم إلى عدن وانضمامه الى حركة الأحرار كما أسلفنا حقا إن تنظيمات الأحرار السياسيه حملت اسم ومعنى الحزب وكان لها هيئاتها الادارية وأنصارها والمشتركون فيها لكن هؤلاء جميعا كانوا من (المداكنة) وبسطاء العمال الذين يقتطعون من دخلهم الشحيح ومن رواتبهم الضيئلة ومصاريف ذويهم في القرى (الربيه) و(الربيتين) والعشر الربيات ليقدموها اشتراكا أو تبرعاً للحزب . وقد عملت مجموعة منهم كما تحدثنا عنها فيما سبق على تكوين لجنة مالية من بينهم تجمع الاشتراكات والتبرعات المطلوبة من المقيمين في عدن والمهاجر وتشرف على أوجه الصرف بطلب يتقدم به الأستاذان نعمان والزبيري (أمين عام ورئيس الحزب) . وقد بقيت أسماء اللجنة المالية

وأسماء المشتركين لإنفاق ذلك على الأحرار المقيمين في القاهرة وعدن وأجور العمال والبريد للمهاجر والداخل وعلى جريدتي (الصداقة) و (الرابطة العربية) . وقد ذكرنا أسماء أعضاء هذه اللجنة مع نسخ من قوائم الدخل وأوجه الصرف .

وبعد وصول الأمير إبراهيم إلى عدن وانضمامه إلى الأحرار ، حرّضه البعض على إثبات حقه كزعيم للأحرار في معرفة الأمور المالية للجمعيه فراح يطالب بذلك وهو لا يعرف أو لم يكن لديه علم بمن يدفع تكاليف معيشته وانهما إثنان من الأحرار المهاجرين في الحبشة أحمد عبده ناشر . وعبد القوى مدهش الخرباشي كانا يتقاسمان ذلك فيما بينهما . فلم يلب طلب الأمير حتى لمعرفة من يدفع تكاليف معيشته . . لأن العلاقة بين المشتركين وحركة الأحرار كانت علاقة شخصية بين المشتركين وبين الأستاذ أحمد محمد نعمان وحده . ونتيجة الثقة به وحده ولكونه الوحيد الذي يعرفونه تعاملوا معه شخصيا على أن تبقى أسماؤهم مكتومة خوفا على أنفسهم وعلى ذويهم في الداخل من بطش الإمام وولي عهده . لذا أصر الأستاذ نعمان على تكتمه حول ذلك .

ولكن هذا الخلاف الذي نشأ بينهم منذ العام الأول لتأسيس حزب الاحرار بعدن وعودة من عاد منهم إلى الداخل لا يعني نهاية معارضتهم لحكم الإمام يحيى أو حدوث انشقاق في حركتهم أو إنفصال عنها . فقد استمروا يعملون معا في صف واحد وجبهة واحدة ويتشاورون في كثير من المواقف . وقد كانت مسودة (الميثاق الوطني المقدس) المرسلة من صنعاء إلى عدن مكتوبة بخط السيد أحمد محمد الشامي أحد العائدين من عدن إلى صنعاء . لكنه نتيجة ذلك الخلاف ساد بينهم جو من عدم الثقة . واستمر قائماً حتى يوم قيام الثورة ومصرع الإمام يحيى في حِزْيَزْ يوم ١٧ فبراير ١٩٤٨ م . وعكس أثره على مواقفهم من بعض إذ برزت يومها بأبشع صورها وتحكمت في مواقفهم وتصرفاتهم وقراراتهم وكان لها نتائجها المأساوية . أما بالنسبة لما حدث بينهم قبل ذلك يوم انتشار الإشاعه الكاذبه عن موت الإمام يحيى وتوزيع نسخ من المثياق فقد تحدثنا عنه في مكان اخر قبل هذا .

اجتمع الأحرار المتواجدون يومها في عدن بعد قيام الثورة في (دار الجمعية اليمنية الكبرى) وخيم عليهم جو من الشك والريبة وعدم الثقة ببعضهم . . وهم الحورش ، البراق ، الفسّيل ، الموشكي نعمان ، الزبيري، الأمير إبراهيم . إذ اجتمعوا للتشاور حول الخطوات التي يجب عليهم اتخاذها بعد أن آل الأمر إلى الأحرار واستلمت حكومة باسمهم السلطة في صنعاء وفقا لما جاء في الميثاق الوطني المقدس) .

كان الموقف في الداخل غامضا بالنسبة إليهم جميعا ؛ لا يعرفون موقف الأمراء من الثورة وبالذات موقف ولي العهد السيف أحمد الذي استطاع الإفلات من الكمين المكلف باغتياله في تعز والحديدة لأن خبر مصرع والده وصله قبل أن يصلهم . فغادر تعزاً لتوه متخفياً ومتنكراً في اتجاه حجه . . ومن الطريق ارسل البرقية التالية لأخيه السيف عبد الله إلى لندن :

«الأخ سيف الاسلام الفخري / لندن .
تلك الاشاعة الكاذبة السابقة تحققت الآن

بالاغتيال . . وهذا من الطريق نحو العاصمة وما كان التأخير إلا بموجب أمر . . ليكن إكمال أعمالكم كما يلزم وتنفيذكم بعد هذا إن شاء الله . ٩ ربيع الثاني ٦٧هـ .

إلى جانب ذلك كان الأحرار المتواجدون بعدن لايعرفون مدى صدق حلفائهم المتواجدين في صنعاء من أبناء البيوت الكبيرة في تأييدهم للثورة ولا مدى التأييد الذي تتمتع به بين القبائل ولا ما هو موقفهم منها . . كانت كل هذه الأشياء والمواقف مجهولة لديهم جميعا وان بقيت غالبيتهم معتمدة على الثقل الروحي أو المكانة الدينية التي يتمتع بها الإمام الجديد عبد الله بن أحمد الوزير في المحيط القبلي المجاور لصنعاء . أو متوهمين ذلك الثقل والتأييد . أثناء النقاش والمداولات طرح رأي يشير بطلوعهم جميعا إلى صنعاء وقوبل بالاستحسان والموافقة ؛ إلا أن الأستاذ أحمد محمد نعمان عارض ذلك وأشار عليهم بالتريث والبقاء في عدن ليتابعوا التطورات التي تحدث في صنعاء ريثما ينجلي الموقف وليكونوا قوةَ احتياطية تقدم المساعدة للثورة إذا اقتضى الأمر من المناطق الجنوبية .

قوبل رأى الأستاذ نعمان هذا بالمعارضة وراح بعضهم يفسره على عكس ما قصد الأستاذ . لأنهم نظروا الى رأيه من زاوية الشك والريبة وسوء الظن فعملوا على تصعيد الموقف ضده واتهموه أنه لا يرمي من وراء البقاء في عدن إلا فصل المناطق السفلى عن المناطق العليا وحرّضوا الآخرين ضده ، وقد استطاعوا أن يوهموا الأستاذ الزبيري والأمير ابراهيم أن الاستاذ نعمان يريد تمزيق البلاد بفصل المناطق الجنوبية

ولأول مرة منذ ربط نعمان والزبيري مصيرهما ببعض يساور الأستاذ الزبيري بعض الوساوس ضد رأي الأستاذ نعمان في بقاء الأحرار في عدن ، فأصر الأستاذ الزبيري مع من اصر من الأحرار على طلوعهم جميعا إلى صنعاء معارضاً بقاء أي منهم خارجها إلا ان الأستاذ نعمان تمسك برأيه وأصر على موقفه وعندما لمس الأستاذ الزبيري اصرار الأستاذ نعمان على موقفه وتمسكه برأيه ازداد تصديقا لأقوال المحرضين فبكى بحرقةَ وناشد الأستاذ نعمان الطلوع معهم إلى صنعاء . فصعب على الأستاذ نعمان موقف زميله وصديقه وأخيه الزبيري فأشار بتحكيم الشيخ محمد سالم البيحاني الذي كان يتمتع بثقة الجميع . وقد تحدثنا عن دوره في حركة الأحرار قبل الثورة وبعدها في أماكن أخرى .

أوضح الأستاذ نعمان وجهة نظره وما يهدف اليه من بقائهم في عدن للشيخ البيحاني وللجميع أن ذلك بسبب الغموض السائد على الموقف في الداخل . ابدى رأيه ذاك الذي احيط بالشوشرة والتشويه وسوء التفسير عن قصد ، وتحدث عن بقاء مركز ولي العهد السيف أحمد شاغراً في تعز . التي وطد مركزه فيها وزرع هيبته والرعب منه في نفوس المواطنين فكان رأي الشيخ البيحاني وفتواه أن يطلع كل الاحرار المتواجدين بعدن إلى تعز برئاسة الأمير إبراهيم ليثبتوا بوجوده وبوجود قادة الأحرار بتعز أن السيف أحمد انتهى شخصياً ومعنويا ، وليطمئن بذلك كل من في تعز من مواطنين وجنود وموظفين وليثبتوا سلطة العهد الجديد .

وافق الجميع على هذا الرأي فطلعوا إلى تعز في ٢٤ فبراير ١٩٤٨ وبرفقتهم مئة وتسعة وأربعون شخصاً من بينهم بعض الشخصيات العدنية المساندة لهم والمشاركة معهم في الحركة، مثال محمد علي لقمان، ومحمد حسن خليفة. طلع الجميع في رتل من السيارات .. وفي تعز عاودوا نقاشهم من جديد حول بقائهم في تعز أو طلوعهم إلى صنعاء إذ كان رأي الاستاذ نعمان البقاء في تعز بدلا من عدن ريثما ينجلي الموقف في صنعاء .. ولكن الغالبية أصرت على طلوعهم جميعا إلى صنعاء فوافق الأستاذ نعمان بعد أن هزم اقتراحه وأوكل أمر ترتيب سفرهم إلى صنعاء إلى كل من السيد محمد أحمد باشا والسيد زيد الموشكي وإبراهيم الحضراني واتفقوا على توزيعهم إلى ثلاث فرق ويكون سفرهم من ثلاث جهات.

● الأمير إبراهيم والأستاذ الزبيري وجماعة من الأحرار يعودون إلى عدن بالسيارات ليستقلوا منها الطائرة إلى صنعاء.

● الأستاذ أحمد محمد نعمان مع جماعة من الأحرار يسافرون عن طريق إب ذمار إلى صنعاء.

● القاضي عبد الله عبد الاله مع جماعة من الأحرار يسافرون عن طريق الحديدة لملاقاة وفد الجامعة العربية الذي سيصل إلى هناك في طريقه إلى صنعاء حكماً بين الأحرار وولي العهد للتعرف على الأوضاع حسب طلب الأحرار.

اتفق الجميع على هذا التوزيع على أن يلتقوا جميعا في صنعاء.

تحرك ركب سيف الحق إبراهيم من تعز إلى عدن في سيارتين ضم كلاً من الأستاذ الزبيري والبراق ومحيي الدين العنسي الذين استقلوا سيارة واحدة كان يسوقها الحاج عبد الله عثمان وبقية الوفد استقل السيارة الثانية .. وفي صبيحة اليوم التالي من وصولهم عدن استقلوا الطائرة إلى صنعاء وتخلف عنهم الحاج عبد الله عثمان تاركا مقعده للأستاذ محمد علي لقمان رئيس تحرير جريدة (فتاة الجزيرة) لأن المقاعد المحجوزه كانت محدودة.

وما ان وصل الأمير إبراهيم والأستاذ الزبيري إلى صنعاء في ٢٨/٢/٤٨ حتى وجدا الموقف فيها على عكس ما كانا يتوقعان وان الثورة مهددة بالخطر لأن السيف أحمد ولي العهد أخذ يجري اتصالاته من حجة بواسطة أخيه السيف عبد الله الذي انتقل من لندن إلى القاهرة مع ملوك الدول العربية يحرضهم للوقوف ضد الثورة إذ جاء في برقية من هذه البرقيات مرسلة في ٢٥ ربيع الثاني مايلي:

«يجب عليكم تأييد العرش بالاستعانة بالحكومات الغربية .. فقد ايد ملك شرق الأردن .. يمكن من بقاء صنعاء محصورة جداً ابن سعود لابأس» هذا إلى جانب اتصالاته الداخلية مع رؤساء القبائل الذين اباح لهم نهب صنعاء وما بداخلها فتحركوا حباً في المال لا في الآل.

وحين وجد الأستاذ الزبيري الموقف في صنعاء على عكس ما كانوا يتوقعون أرسل برقية شفره للأستاذ نعمان الذي كان قد وصل مع صحبه إلى يريم يطلب منه التوجه من هناك إلى الحديدة لملاقاة وفد الجامعة العربية مع القاضي عبد الله عبد الأله بدلا من مواصلة السفر إلى صنعاء .. إلا أن

الأستاذ نعمان رفض الطلب في التوجه إلى الحديدة ، واصر على مواصلة السفر إلى صنعاء حتى لا يستمر الاخوه الذين اختلف معهم في عدن وتعز في تفسير مواقفه بصورة عكسية ، وأن توجهه إلى الحديدة نوع من العدول عن الاتفاق في الوصول إلى صنعاء للقاء معهم هناك . فواصل سفره إلى ذمار حيث اعتقل هناك .

بعد وصول الأستاذ الزبيري والأمير ابراهيم إلى صنعاء لحقهم في اليوم التالي كل من الحاج عبد الله عثمان والحاج محمد سلام حاجب والحاج محمد علي الأسودي ، والأستاذ سلام فارع ومحمد حسن عوبلي . . ومكثوا في صنعاء ليلة واحدة فقط التقوا خلالها بالشيخ عبد الوهاب نعمان والأستاذ الزبيري ويقول الحاج عبد الله عثمان في مذكراته المخطوطه : (كان الشيخ عبد الوهاب نعمان صريحاً معنا حيث قال إن القبائل تهاجم سور صنعاء ليلا . . وتقرر رجوعنا عدت بأمر من القاضي محمد محمود الزبيري حالاً لانقاذ الموقف . . وفي صبيحة اليوم التالي خرج الأستاذ الزبيري إلى المطار لوداعنا وسلمنا رسالة لنبعثها إلى . . . مصر ورسالة أخرى إلى السيد حسين الويسي لصرف ما نحتاج إليه من ملابس لأكبر مجموعة من الشباب الفدائي وارسالهم إلى صنعاء)

عادت المجموعة التي سافرت إلى صنعاء عقب سفر الأستاذ الزبيري والأمير ابراهيم الى عدن ولم يتخلف عنها سوى الأستاذ سلام فارع الذي اعتقل بعد فشل الثورة مع من اعتقل من الاحرار . . وقد صحبهم في رحلة العودة هذه السيد أحمد حسين المروني يحمل منشورات قام بتوزيعها ونشرها فوق المدن التي مرت الطائرة عليها : وهي ذمار ، يريم ، البيضاء ، لحج ، حتى وصولهم عدن .

وفي عدن فتحوا في دار (الجمعيه اليمنية الكبرى) مكتباً للمتطوعين من الشباب وتجهيزهم بملابس الكاكي وارسالهم في دفعات على طائرة خاصة إلى صنعاء وقد ساهم في تجهيز الشباب المتطوعين ودفع تكاليف سفرهم كل من : الحاج عبد الله عثمان ، الحاج محمد سلام حاجب ، الحاج محمد علي الأسودي عبد الرحمن عبد الرب ، الحاج عثمان قائد سلام ، وتبرع لهذا الغرض الأمير اللحجي عبد القوي فضل بمبلغ أربعة آلاف رُبِيَّة . وقد عاد آخر فوج من الفدائيين والطائرة تهم بالهبوط في مطار صنعاء حيث أبلغت أن القبائل خربت المطار ولا يمكنها الهبوط فيه فعادت بالفدائيين إلى عدن . وقد وجهت جريدة (صوت اليمن) الناطقة باسم (الجمعية اليمنية الكبرى) حزب الأحرار ، وجهت إلى هؤلاء الشباب الفدائيين المتطوعين للدفاع عن الثورة والعاصمة كلمة في عددها ٦٩ الصادر في ١١ مارس ١٩٤٨ كلمة توجيه واشادة كتبها عبد الله عبد الوهاب نعمان وان لم تحمل توقيعه تحت عنوان :

إلى فريق الشباب المسلح في صنعاء

جاء فيها :

أنتم العدة والعمدة وان هذه السواعد القوية الفتية هي التي ستسحق كل من يريد أن يصمد أمام الأمة ويعترض إرادتها . . إن التاريخ ليضع على عواتقكم اليوم مهمة الانتقام من طغاة أذلوها

وقساة أهانوهـا وخونة استبدوا بها وانذال ساموهـا العذاب .

إن دماءً زكيه في عروقكم لا بـد أن يسيل منها على أرض الوطن شيء يشعر به الوطن بان له شباباً يثأرون له من ظالميه وأذنـاب ظالميه أنشـدوا الإخاء فمن اراد الانشقـاق فدقـوه وايدوا الحـرية فمن شاء إلا العبودية فاحرقوه وانصروا أمتكم على ظالميها فمن فكر في الحنين اليهم فاسحقوه .

ياشباب :

إن القاعدة المعتبرة في تاريخ الحريات هي أن يريق شباب كل أمـة للحـرية ما أراقتـه أمـة هذا الشباب من دمـوع في العبـودية وأن بنـاء الحـرية لا يشيد إلا إذا تكون طوبـه من شيئـين : رميم عظام الظالمين ونطـاف دم الشهـداء وبـدون ذلك لا يستقيم بناء حرية في الوطن .

ياشباب :

إن أمتكم لتطمع أن ينصب في بلادها تمثال لشهداء تفاخر به بين الأمم وتقول :

(هـذا تمثـال شهيد من شبابـي أراق دمـه في سبيل حريتي) فمن ذا الـذي لا يطمـع منـكم ان تنصب له أمته هذا التمثال ايها الشباب) .

وفعـلا أراق كثـير من هؤلاء الشبـاب الفدائيين دماءهم واستشهـدوا دفاعـاً عن الثـورة واستبسلوا في صمودهم دفاعاً عنها .

ومثلما انزعج الأستـاذ الزبـيري من الحالـة والأوضاع التي لـم يكن يتصورها في صنعاءوخاف على زميله وأخيه الأستاذ نعمان مواصلة السفر إلى صنعاء فأرسل له برقية الشفره التي اسلفنا ليتوجه إلى الحـديدة . إلا أن الاستـاذ نعمان أصر على مواصلهَ السفر حتى اعتقل في ذمار هو ومن معه من الأحرار على يد عاملهـا (السيد علي بن أحمـد أبـو طالب) كذلك انزعج لنبأ هذا الاعتقال السيد محمد احمد باشا عامل تعز يومهـا والمكلف مع ابـراهيم الحضراني وزيد الموشكي بتسيير الأحرار من تعز في الاتجاهات الثلاثـة التـي أشرنـا اليهـا فطلـب من مشايخ ورؤساء النواحي والقضوات في لواءي تعز وإب حشد المواطنين وتجميعهـم للتوجـه إلى ذمار لإنقاذ الأحرار الذين اعتقلهم عاملها . . وقد تجمعت يومها جماعات كثيرة من صبِرْ والعُدَيْن ، وبَعْدان لهذا الغرض وتولى قيادتهم علي بن محسن باشا في اتجاه ذمـار وقبـل تحركهـم أرسـل كل من الأستـاذ ابـراهيم الحضرانـي والقـاضي اسماعيل الربيع وانضم اليهم الأستاذ عبد الرحمن المعلمي أرسلوا إلى ذمار للتفاهم مع عاملها لاطلاق سراح الأحرار المعتقلين بالحسنى قبل ان تصل القوات من إب لانقاذهم إلا ان خبر سقوط صنعاء بيد القبائل والحسن والعباس اللذين أباحا نهبها وصل إلى كل من ذمار وإب قبل أن تتحرك قوات علي بن الحسن من إب فتفرقـت من هناك وعاد علي بن الحسن إلى منطقته ليتحصن فيها رافضا الاذعان لسلطه الامام احمد والاستسلام له في بادىء الأمر .

إلى جانب هذه المواقف التي اتخذها الأحرار في الدفاع عن الثورة وعن العاصمة صنعاء اتصل الأستاذ محمد محمود الزبيري بامام العهـد الجـديد عبد الله الوزير وطلب منه ان يرسل كلاً من السيد علي بن عبد الله الوزير والشيخ عبد الوهاب نعمان إلى تعـز لحشـد قوات من المنطقـة لضمان صمودها فلم يوافـق الامـام عبـد الله الـوزير على ذلك . وقـد روى الأستـاذ الزبـيري بعـد ذلك

بسنوات ما حدث يومها قائلا ؛ انني في فجر الثورة عام ٤٨ جئت الى الشهيد عبد الله بن أحمد الوزير واقترحت عليه اصدار الأمر السريع بانتقال الشهيدين علي بن عبد الله الوزير وعبد الوهاب نعمان إلى منطقة الجنوب ليضمنا صمود المنطقة ضماناً أكيداً فرأيت الشك في عيني الشهيد عبد الله الوزير وعرفت انه يظننا متآمرين ضده وأننا نريد أن نركن في الجنوب قوة مناوئة له فتلكأ عن الموافقة وما طل حتى حلت الكارثة بالجميع[١]) أي أن الأستاذ الزبيري بعد وصوله إلى صنعاء اقتنع بوجهة النظر التي طرحها الأستاذ نعمان في عدن وتعز الرامية إلى بقاء كل الأحرار أو بعضهم في عدن أو تعز التي عارضها مع المعارضين وأراد تلافي ذلك بارسال البرقية للأستاذ نعمان إلى يريم للتوجه إلى الحديدة وبطلبه من عبد الله الوزير ارسال السيد علي الوزير والشيخ عبد الوهاب نعمان إلى تعز ولم يوافق على ذلك ويقول الأستاذ الزبيري على لسان عزيز يحيى يصف موقف السيد عبد الله الوزير بعد الثورة بقوله : (كان قد تغير عند نجاح الثورة تغيراً أدهشني وأفزعني وأنا الصق الناس به فقد كان يصارحني بأنه سوف يتخلص من الأحرار وقد أفضيت بهذا السر للبعض منهم ولما أصبحت في السجن صارحتهم بالحقيقة كاملة وعزوت الفشل إلى ما عرفته من الشكوك والنوايا الخطرة المبيته[٢])

أثناء ذلك كان قد وصل إلى صنعاء وفد من القاهرة يضم كلاً من عبد الحكيم عابدين وأمين بك وأحمد فخري عالم الآثار المعروف .

وفي يوم ٢٥ ربيع الثاني أي بعد ١٨ يوما من قيام الثورة اجتمع مجلس الشورى وقرر إرسال وفد إلى جده مكون من الأستاذ محمد محمود الزبيري ، الفضيل الورتلاني السيد عبد الله بن علي الوزير لملاقاة وفد الجامعة العربية أو لاستعجاله بعد أن استوقف هناك للتشاور مع الملك عبد العزيز . . والذي كان الأحرار قد أرسلوا من تعز وفداً برئاسة القاضي عبد الله عبد الاله في ٢٥ فبراير ٤٨ أي بعد أسبوع من قيام الثورة لملاقاته في الحديدة . . وعند سفر الوفد إلى جده أسندت وزارة المعارف بالوكالة أو النيابة (لمحمد البدر نجل ولي العهد السيف أحمد) لينوب الأستاذ الزبيري في غيابه بجده . . وقد بقي الوفد في جده زهاء اثني عشر يوما بدلا من ٢٤ ساعة التي حددها مجلس الشورى لأسباب خارجة عن ارادته .

خلال هذه المدة أخذت القبائل تزحف على صنعاء والموقف فيها يتأزم يوما بعد يوم حتى سقطت بأيدي القبائل .

وتم خراب صنعاء ونهبها تحت اشراف الأميرين الحسن والعباس واعتقل كل من فيها من الأحرار ، وبالتالي اعتقل الاحرار في كل من الحديدة وتعز وإب وأخذت العكفه في ملاحقتهم إلى خارج الحدود .

وما ان استتب الأمر للإمام أحمد حتى راح يرسل برقيات الشكر التالية للأمراء والملوك العرب الذين ساعدوه في إحباط الثورة وأعاقوا وفد الجامعه العربية من الوصول إلى صنعاء .

سقوط صنعاء
وبرقيات الشكر من الإمام أحمد للملوك الذين أيدوه

■ برقية من الإمام أحمد للملك عبد الله

ملك شرق الأردن جاء فيها :

(لقد تأخر كتابنا هذا لجلالة الأخ المعظم حفظه الله وكان يجب المبادره إلى تقديمه قبل أيام وشهور اعترافا بالجميل الاخوي الذي كان من جلالتكم أيام المحنه مما خلد بكم أجمل الذكرى عندنا خاصة وعند اليمانيين عامة في صفحات المجد الهاشمي والنبل والوفاء والعواطف المتصله بالسبب والنسب النبوي . وإنا إذ نقدم لجلالتكم شكرنا وثناءنا على ماللمسناه من أعمالكم الخالدة نستميح جلالتكم قبول عذرنا بالتأخر والتواني عن المبادرة الى ذلك في حينه للأعمال التي أوجبتها تلك الحالة التي وقفتم على تفاصيلها في حينه فازرتم أخاكم وقاومتم الاعلاج الاجلاف التي طوحت بهم خيالاتهم المقبوحة المفضوحة التي استنكرها العالم وكنتم في مقدمة من آزر ونصر وكان لكم الفضل الأكبر والاجر الاوفر . . .)

■ وإلى عبد الاله ابن علي ابن الحسن الوصي على عرش العراق :

(إن الباعث لهذا هو الشكر لموقف سموكم النبيل الاخوي في حادثة اليمن المشئومة التي قضي عليها بعناية الله ومؤازرة الاخوان أمثال سموكم ولن ننسى لسموكم ما أبديتموه من عطف وعناية ولا يستغرب ذلك من مثل سموكم اذ هي عاطفة النسب التي تمت إلى أصل واحد وبيت واحد يجب عليهم دائما التكتل والاجتماع على ما فيه خيرهم وصالح بلادهم التي نعدها بلداً واحداً وإن نأت مسافاتها)

■ من سيف الاسلام عبد الله لأخيه الإمام أحمد .

(عدت من شرق الأردن وقد أبلغت الملك شكر ومحبة جلالتكم والترحيب بولي عهده وكا المراجعة لأشياء مهمة ساوضحها شفاها أو تحريراً وقد أوضحت له معاملة الانكليز ووعد تحسين السعي . . .)

ما ان وصلت الأخبار إلى عدن بسقوط صنعاء بيد القبائل حتى هاجت الغوغاء في شوارعها واخذوا يتجمعون في الشوارع المؤدية إلى (دار الجمعية اليمنية الكبرى) زحفوا بعدها على الدار لاقتحامها . وكانت عائلة الأمير ابراهيم تقيم في الطابق الأعلى منها فتصدى لهم خالدحارس الأمير ابراهيم في اعلى السلم المؤدي إلى الطابق الثاني وأطلق النار من مسدس على المقتحمين فقتل أحدهم وهرب الآخرون فاعتقلت السلطات البريطانية التي وقفت موقف المتفرج من كل ما يجري . اعتقلت خالد لتقديمه للمحاكمة فتقدم الأستاذ محمد علي لقمان لضمانته فأطلق سراحه ولم يقدم للمحاكمة .

وفي اليوم الثالث من فشل الثورة وصل الاستاذ محمد محمود الزبيري والفضيل الورتلاني وعبد الله بن علي الوزير إلى عدن من الرياض حيث كانوا في ملاقاة وفد الجامعة العربية واستصحابه إلى صنعاء . إلا أن الثورة فشلت أثناء اقامتهم الطويلة في الرياض وسقطت صنعاء بيد القبائل لذا وصلوا إلى عدن بدلا من صنعاء . وقد طلبت السلطات البريطانية بعدن يومها مغادرة عدن خلال ثلاثة أيام لأن بريطانيا على وشك الاعتراف بحكومة الإمام أحمد . فاختفى الأستاذ الزبيري والوزير في منزل الحاج محمد سلام حاجب بالتواهي واختفى الفضيل الورتلاني في

منزل الحاج عبده حسين الادهل في الشيخ عثمان ، وقد فجر بعض أعوان الإمام قنبلة أمام منزل الحاج الادهل لارهابه . وأثناء ذلك وصل إلى عدن السيد محمد الوريث والسيد احمد محمد باشا وعبد الوهاب الشامي . وكان السيد محمد الوريث قد اعتقل في الشيخ عثمان مع الحاج عبد الله عثمان الذي خرج إلى لحج لاستقبال السيد الوريث اعتقلا لمدة يومين توسط بعدها الأمير علي عبد الكريم لأطلاق سراحهما ، فسافر الوريث والشامي والباشا إلى نيروبي. ومن عدن اتصل الأستاذ الزبيري بالشيخ عبد الله عثمان بصبر يطلب منه اعلان التمرد في لواء تعز تضامنا مع الشيخ علي بن محسن باشا المتمرد في العدين وقد حمل الرسالة الأخ عبد الكريم عبد القادر وهو من الشباب الذين كانوا همزة وصل بين عدن وتعز قبل الثورة إلا أن الرسالة وصلت للشيخ عبد الله عثمان والإمام أحمد قد وصل إلى القاعدة واستقر فيها يتابع نتيجة الحملة والوساطة اللتين قام بهما معا لاستسلام علي بن محسن باشا . وتم استسلامه في في ٢١ جمادى الأولى اذ أن الإمام أحمد أبرق يومها من القاعدة لأخيه السيف عبد الله في القاهرة يقول له :

(هدأت الأحوال كلها على ما نريد ولا بد لنا من أسلحة جديدة فاتصلوا ببعض الدول الصغرى*) .

سافر الأستاذ الزبيري والسيد عبد الله بن علي الوزير على ظهر باخرة إلى باكستان يعمل فيها بعض البحارة اليمنيين الذين راحوا يمطرونهما سبا وشتما طيلة الرحلة . وقبل سفرهما من عدن اتفق الأستاذ الزبيري مع الأحرار المقيمن في عدن على أن يعملوا قدر استطاعتهم لأنقاذ الأحرار الذين وقعوا في قبضة الإمام أحمد من الاعدام . . ووعد الأستاذ الزبيري الحاج عبد الله عثمان بأن يرسل له عنوانه فور وصوله إلى باكستان بالشفرة واتفقا على أن اخباره لا يطلع احد عليها سواه وعبد الله عبد الوهاب وعبده حسين الأدهل ، والشيخ البيحاني ومحمد سلام حاجب . وما ان وصل الأستاذ الزبيري إلى باكستان حتى أرسل رسالة إلى عدن يطمئن فيها الأحرار بوصوله . وقد أخذ يتنقل بين المدن الباكستانيه بغير عنوانه مابين وقت وآخر حتى استقر في عاصمتها .

أما الفضيل الورتلاني فقد سافر من عدن على ظهر باخرة مصرية إلا أنه منع من النزول في كل البلاد العربية التي رست الباخرة في موانيها . وعند رجوعها إلى عدن وهو على ظهرها طلع الحاج عبد الله عثمان والحاج عبده حسين الادهل إلى الباخرة لمقابلته لأن السلطات البريطانية لم تسمح له بالنزول إلى بر عدن . . وفي تلك الأثناء أو في تلك الساعة وصل باسم الفضيل الورتلاني جواز سفر وبدلة عسكريه برتبة ضابط أرسلتا له من مصر . . فارتدى لساعته البدلة العسكرية وحمل الجوازالديبلوماسي المزيف وسافرتحت تلك الهوية العسكرية إلى بيروت حيث استقر هناك وهذا على عكس البرقيات والتقاريرالتي كانت تصل إلى الإمام أحمد بأن مجموعة من الجيش اللبناني ، أو مرتدية زي الجيش اللبناني طلعت إلى الباخرة وتسلمته حسب إفادة القبطان الذي يبدو أنه كان متعاوناً مع الفضيل الورتلاني .

...

الإمام أحمد يعدم الكثير ممن في سجونه من الأحرار ويطارد من فلت منهم من قبضته

في غرة جماد الاخرى ١٣٦٧ أرسل الإمام أحمد لأخيه عبد الله برقية جاء فيها ما يلي (قد كان تنفيذ حكم الاعدام على الوزير عبد الله وعلى الموشكي وغيرهم) وقد تلا اعدام هؤلاء إعدام آخرين ، وتلت تلك البرقية برقيات أخرى تحرض بالقضاء على الأحرار أو تطالب الحكومات المتواجدين فيها تسليمهم إلى الإمام بل كلف أخاه السيف عبد الله بتدبير أمر اغتيال الورتلاني إذ جاء في برقيته اليه في ١٨ جمادى الثانية يقول له :

(يجب أن ننتهز فرصة أثر صدمة النصر فنقضي على حثالة الحزب بعدن ومصرتدبروا ذلك بكل رأي من عندكم واتصلوا بالدول العربية كلها وكذلك سفراء تركيا والهند وباكستان وفرنسا وغيرهم وافهموهم بأن الزبيري والوزير والورتلاني من أعظم المجرمين الذين اغتالوا جلالة الإمام فإذا لم يسلموهم الينا فلا يدخلون بلادهم والورتلاني يجب مطاردته في كل محل وإذا وجدتم اثنين من اليمنيين دبرتم . وقد بلغ سفره عدن)

وأرسل الإمام أحمد برقية لأخيه عبد الله حول ترك السلطات البريطانية الزبيري والورتلاني مغادرة عدن قال فيها .

(يجب الاتصال بالملك عبد الله بواسطة للوزير المفوض في مصر أو غيره وأعرضوا عليه أن حكومة عدن أخرت برقية الاعتراف لديها عدة أيام حتى كان تسفير المجرمين الهاربين بعدن فان عبد الله الوزير والزبيري سافرا إلى جنوب أفريقيا وأنانحب توسطه للمراجعة مع لندن بتبادل المجرمين فانه لولا تساهل عدن مع الأحرار وتشجيعهم بعد أن كتبنا مراراً متعددة بأن المجرمين بما نصت عليه المعاهدة ولم يصغ إلى ذلك حتى حصلت هذه الجريمة وأنا لنعتقد أن جلالة الإمام الشهيد صار ضحية تساهل عدن .

وفي برقية أرسلها الإمام أحمد لرئيس حكومة باكستان محمد علي جناح يطلب فيها تسليم الأستاذ محمد محمود الزبيري وعبد الله بن علي الوزير جاء فيها :

(بالنظر إلى ماعلمتموه من الحوادث المؤسفة وحيث قداستتب الأمن وعادت الأمور إلى مجاريها فقد بدأنا في محاكمة المتهمين والمجرمين وقد فر من أيدي العدالة بضعة أشخاص من المجرمين وقد توجه إلى باكستان منهم السيد عبد الله علي الوزير ومحمد محمود الزبيري وفضيل الورتلاني وهم من أعظم المجرمين الذين اشتركوا في اغتيال والدنا المغفور له صاحب الجلالة الإمام يحيى ومن مثل حكومتكم الصديقة نؤمل الاعانة في القاء القبض عليهم . . .)

وقد أنكر رئيس باكستان في برقية جوابية للإمام وجود أي من الأحرار في بلاده وأرسلت الخارجية المتوكلية برقية إلى خارجية أثيوبيا في ١١ جماد الأخرى ٦٧ جاء فيها :

(نلفت نظر حكومتكم إلى أن ضمن رعاياها الذين نرجو تسريحهم إلى اليمن هؤلاء الأشخاص

مطهر سعيد صالح العريقي

عبد القوي مدهش الاغبري

ومحمد مهيوب
عباس الزبيري
أحمد عبده ناشر الاغبري
عبد الله عبد الغني الشوافي
والفقيه أحمد عبد الولي العبسي
محمد علي الهريش
عبد اللطيف طارش
سيف حمود الذبحاني

فثم أسباب هامة تدعو إلى طلبهم لإجابة خصومهم ونحن إذ نشكركم سلفا نرجو التفضل بضبطهم . ومن المفهوم أن جماعات تنتمي إلى الحزب الذي قاد حركة الأحرار في اليمن تريد أن يكون لها في الامبراطورية الحبشية مجال للعمل والاجرام من جديد ومن حق الصداقة أن نلفت نظركم مرة أخرى . . .)

وقد أخبرني الوالد أحمد عبده ناشر عندما أخبرته بهذه البرقية . أخبرني أنهم يومها تعرضوا لمضايقات السلطات الأثيوبية واثيرت قضيتهم في البرلمان الاثيوبي إلا أن وكيل وزارة الداخلية الاثوبية لشؤون المسلمين أحمد اسماعيل هرري وقف إلى جانبهم ودافع عنهم وشهد بحسن سلوكهم وبرأهم من التهم الملفقة ضدهم .

أما الشيخ عبد الله علي الحكيمي المقيم في مدينة كارديف البريطانية فقد تفرغ الحسن ابن ابراهيم لخلق المشاكل له والتآمر ضده بالاتفاق مع الإمام أحمد وفيما يلي البرقيات المتبادلة بينهما حول الحكيمي :

١١ سبتمبر ٤٨

(الحكيمي خبيث شرا مطبعة سيصدر جريدة السلام يتصل بريلي الأغلب ضده ارسال الشميري إن رأيتم صواب)

الحسن بن علي بن ابراهيم

وجواب الإمام أحمد :

(أوضحوا لنا من هو الشميري الذي تريدوا إرساله وهل ترسلوه الينا أو نرسله من لدينا فلم يظهر يحسن تقوية أيدي كل من هم ضد الحكيمي بكل صورة ولا تضر جريدته فقد عرف الناس الحقائق)

وأفاده الحسن بن ابراهيم :

(حضره صاحب الجلاله مولانا ملك اليمن المعظم :

الشميري الشيخ اسماعيل شيخ الطريقة العلوية كان بكارديف وهو اليوم بشمير أو عدن ويريد الحج مرغوب فيه ضد الحكيمي سيما أن زودتموه نصح وعطف جلالتكم)

جواب الإمام أحمد :

(الولد حسن بن علي بن ابراهيم حرسه الله

حسن اسماعيل عزمه بعد الحج إنشاء الله ويلزمه تعيين اعضاء حوله ضد الرجل حسبما أفدتم . . .)

وفعلا أرسل حسن اسماعيل إلى كارديف واحدث انشقاقا في (الجمعية العلوية) التي أسسها الحكيمي . وكان حسن اسماعيل مساعده في كل نشاط يقوم به الحكيمي إلا انه بعد ذلك تحالف مع الإمام أحمد ضده

امتد بطش الإمام أحمد بعد فشل الثورة إلى

أخيه الأمير ابراهيم الذي لم يكن متآمراً ضد والده وتحدثنا عن موقفه من الاشاعة الكاذبة التي سبقت مصرع والده تحدثنا عنه في مجلة «الكلمة» عدد ٥٨/ مارس ١٩٨١ . والذي اثبتت رسالته الموجهه من سجنه إلى نائب حجة عبد الملك المتوكل أنه كان صادقا في كل ما ورد فيها وكنت قد نشرتها في مجلة الحكمة لكني اعيد نشرها هنا لأهميتها ولارتباطها الوثيق بالحوادث التي تحدثنا عنها وفيما يلي نصها :

نص رسالة الأمير ابراهيم التي كتبها قبل موته بأيام

ولا بد من شكوى إلى ذي مروءة
يواسيك أو يسليك أو يتوجع

بسم الله الرحمن الرحيم وصلى الله وسلم على سيدنا محمد وآله .

إلى والدي سيدي العلامة وجيه الاسلام ابقاكم الله وشرح صدركم وشريف السلام عليكم ورحمة الله وبركاته .

وبعد فلقد دار حديثي مع الحاج أحمد بن حسن حتى ذكرناكم وطال الحديث فعرفني بكم وبما أنتم عليه من أخلاق شريفة وورع وقناعة وحذر من الوقوع في الشبهات حتى تاقت نفسي إلى ملازمتكم وليس ذلك على الله بعسير فأحببت ان اطلعكم على سيرتي من قبل سفري إلى الخارج ولما لم أتمكن من الاتفاق بكم رغبت في تفصيلها لكم تحريريا بايجاز طالبا من حضرتكم التفضل بالدعاء لولدكم بالتوفيق والاعانة على الأعمال الصالحات وبتيسير المخرج إن علم الله بحسن النية من قبل وبعد هذا والله لا يضيع أجر المحسنين .

فاعلموا سيدي أنني كنت متساهلا لعذاب الله متهاوناً لغضبه فعصيت الله بأن قصرت في الواجبات وتعديت المباحات إلى المحرمات وطاب لي العيش على ما ذكرت لكم زمانا طويلا وأنا أسبح في الظلمات ولم أزل كذلك اسأل (كذا) الله أن يكره الينا المعاصي ويحبب الينا الطاعات . . ففي ذات يوم حاسبت نفسي وعرفت أني في الخسران وأن المصير النار فانتبهت ورجوت الله أن يلهمني ما فيه الخير وأخيراً استقر رأيي على الهجرة وترك الأهل والمال والجاه والعزم على الوصول إلى المدينة المنورة واستيطانها إلى ما شاء الله فلما علم الله بحسن النية سهل لي التحيل على الخروج من اليمن بطريق حسنة وبأذن من والدي رحمه الله .

ومما حسن إلي الهجرة ما كنت أراه في بعض الرعاة من عدم المبالاة بحقوق عباد الله واستباحة اعراضهم وأموالهم والتنافس في تملك الثروات الكبيرة مما يجمعونه من حرام بالقهر والاحتيال ـ نعم فتوجهت وتوكلت على الله إلى أسمرا موافقة للجواز فلما وصلت وتنقلت بين اليمنين عرفت سوء حالتهم وتوجعهم من اغترابهم وحنينهم إلى أوطانهم ورغبتهم في الرجوع اليها لولا خشيتهم من الجور وما سيصيبهم من تعذيب وسلب وهتك واضطهاد ونحو ذلك فضاق صدري واخذتني الغيرة وتغيرت فيه الهجرة وقلت الجهاد أفضل وقررت الوصول إلى عدن بعد زيارة الحبشة ومصوع وكرن وكلها ملآنة باليمنين وكلهم

متظلمون يشكون جور العمال والحكام والعسكر والمامورين وقد كنت اسمع ذلك وأكاد انقطع من الغيظ واذوب حسرات وبعد وصولي عدن رفعت إلى جلالة الإمامين الراحل والحالي الحقائق وكلما رأيت وسمعت ورجوت تشكيل هيئة تطوف في البلاد وتعرف احوال العباد وعرف الناس موقفي من الظلم فكانوا يعرفوني من الظلم مالا يخطر ببال وأنا أبلغه إلى الإمام وكنت أحرر بعض الكتابات على صفحة جريدة «صوت اليمن» أذكر فيها الإمام وانبهه بأنه المسؤول وأبين له ان الناس أصبحوا يبيتون لعائلة الإمام الشر وأنهم عازمون على الانتقام وحذرت من قيام ثورة ضد العائلة وبأن ثم تآمر يدبر وناشدته الله أن يرحم وان لم يرحم الأمة فيرحم العائلة وأن يرحم الأطفال والنساء كل ذلك أخذه فيما عرفت من بعض الناس والمراد الى ما كنت إلا المحذر والناصح والمذكر والآمر والناهي هذا ما كنت أعمله في عدن

كل ذلك عملت ولي أمل في سماع نصحي واستجابة طلبي إلى أن وعد الإمام رحمهم الله بأنهم سينظرون في الأمر وبأنهم سيستعينون بذوي الخبرة ولولا حدوث ذلكم الحادث الذي تنفطر له القلوب وتدمى العيون حادث اغتيال مولانا أمير المؤمنين رحمهم الله ورفع درجتهم في دار السلام ولا رحم الله بني أمتنا ومن شاركهم وحسن لهم وجرأهم على قتل الإمام فلقد ارتكبوا جرما عظيما وجنوا على المسلمين قاتلهم الله طمعا في الملك الذي لا يناله أحد إلا باذن الله فنكثوا العهود ونكصوا عن الحق وغالبوا من بيده ملكوت السموات والأرض فاستحقوا العذاب في الدارين والعجب أنهم كانوا قد بايعوا لمولانا الإمام الحالي ايده الله ياعجباه لقد انكشف أن صلاتهم وصيامهم وتسبيحهم كان بكاء وتصديه ورياء لا قوة إلا بالله وانا إليه راجعون .

بقي أن أوضح لكم تلك النشرات والدعايات وما كان يحرر في جريدة صوت اليمن فيما يشين شرف العائلة ويشوه سمعتها ويخل بمروءتها تلك النشرات التي لا تدل الا على ديانة ناشرها وكاتبها ونذالتها وخسة أصلها فلقد قالوا زوراً وبهتانا ولقد افتروا على الله الكذب . نعم من الناس من يتهم أنني كنت ممن يساعد على ذلك فوالله الذي لا إله إلا هو أن كل كلمة اسمعها تمس شرف احد من العائلة احسها صفعة في وجهي بنعال وفي الحقيقة هي كذلك وهل من يتهمني باستحسان خدش عرضي والحط من شرفي وإذ لال عزي يعد عاقلاً . بالله هل يجوِّز العاقل أن ذلك يكون من نصف عاقل لا أظن أما غير العاقل فقد يكون منه ذلك نادراً فاذا قيل فما لي ما أمنع نشر مثل تلك النشرات قلت لم أكن في عدن ذا سلطة وقوة حتى استطيع ذلك ولست بصاحب الجريدة ولا أملكها ولا محررها ولا المسؤول عنها وإنما أنا فرد غريب في عدن لا حول له ولا قوة واعلموا أنه لولا قتل الإمام ما كنت عدت إلى صنعاء إلا بعد أن أقضي وطري من الحج وزيارة مكة وهجرة بالمدينة المنورة لكن موت الإمام رحمه الله قتلا هو الذي فرض على الرجوع لأمر كان في نفسي يعلمه الله ..

هذا ولا أنكر اني بعملي هذا كله اسأت واخطأت وذللت وخرجت عن حدي فاني جدير بالعقاب والتأديب فأي العقوبات يراها مولانا جدير بها فليأمر بما يرون فسيجدني طائعا راضيا صابراً

مجتمع صنعاء

في القرن الحادي عشر «هـ» * ومابعده

بقلم: عبدالله محمد الحبشي

شكَّل سكانُ المدن صورة المجتمع الحضاري لأهل اليمن في القرن الحادي عشر وما بعده. وكان الناس في هذه المدن هم نفوذ الدولة وسيطرتها الحقيقية على الشعب فالناس هنا قد طبعوا على طاعة الدولة وهي عادة قد نجدها ايضا عند بعض سكان الأرياف الا في القليل النادر. لذلك قال الشوكاني وهو يحلل طوائف المجتمع اليمني في عصره خلال القرن الثالث عشر :

« انقلبت الى النظر في الأسباب الموجبة لنزول المحن وحلول النقم من ساكني هذا القطر اليماني على العموم من دون نظر الى مكان خاص او طائفة معينة فوجدت اهلها مابين صعدة وعدن ينقسمون الى ثلاثة أقسام :

القسم الأول : رعايا يأتمرون بأمر الدولة وينتهون بنهيها ولا يقدرون على الخروج عن كل ما يرد عليهم من أمر ونهي كائن ما كان .

القسم الثاني : طوائف خارجون عن أوامر الدولة متغلبون في بلادهم .

القسم الثالث : **هم اهل المدن كصنعاء وذمار وهم داخلون تحت اوامر الدولة ومن جملة من يصدق عليهم اسم الرعية »[1]**

اذن فالمجتمع هنا ينقسم في حقيقته الى قسمين قسم خاضع للدولة قابل لكل اوامرها . وقسم لا يَصْدق عليه حكم الدولة وهم في الغالب سكان الارياف النائية .

والناس في المدن اهل دعة وسكينة وقد انخرطوا في اعمالهم ووظائفهم وربما ضعفت حالتهم المادية حسب تقلب الاحوال من شدة ورخاء ، وفي ايام الحروب وقلة الأمطار تصبح المعيشة في المدن أمراً لا يطاق ، فيفر الكثير منهم الى البوادي ويكونون كالمستجير من الرمضاء بالنار .

وقد صور لنا الأديب يوسف بن يحيى المتوفىَّ سنة ١١٢١ هـ بؤس اهل المدينة فقال في أرجوزة يصف حالة اهل صنعاء في بحثهم عن المعيشة لهم ولحيواناتهم :

مسلما أمري اليه مملكا نفسي وجسمي ودمي وأهلي وأولادي لهم واعاهد الله له بالسمع والطاعة والله على ما أقول وكيل نعم المولى ونعم النصير اللهم اشهد أني لا أعصي لمولاي أمير المؤمنين أمراً ولا أخالف له رأياً سامحوا سيدي فقد اطلت الهدار صلوات الله وسلامه عليكم ورحمته وبركاته ولدكم الراجي من الله الغفران» . ابراهيم

لم تمض أيام على كتابة الأمير لهذه الرسالة حتى أرسل أخوه الإمام أحمد البرقية التالية لأخيه عبد الله :

الأخ سيف الاسلام الفخري حفظه الله

جاء من حجة أن الأخ ابراهيم توفاه الله اليه أمس فجأة بسكتة قلبية عظم الله أجر الجميع وجبر المصاب

فرد عليه عبد الله في ٣٠ يونيو بما يلي :

مولانا صاحب الجلالة ملك اليمن المعظم

وصلت البرقية بوفاة الأخ ابراهيم فعظم الله الأجر ورحمه ولا قوة إلا بالله وهكذا الدنيا جبر الله المصاب المتتابع واطال الله عمركم»

إلى جانب هذه البرقيات والرسائل هناك رسائل وبرقيات تدافع عن الأحرار وتطلب من الامام العفو عن من نجا منهم من الاعدام سنتحدث عنها فيما بعد .

محمد محمود الزبيرى واق الواق ص ٢٩٩/ ٢٩٦

*ملاحظة ابقينا الأخطاء الاملائية واللغوية كما هي في أصل «الرسالة» - حتى يتسنى تصور قدرات كاتبها .

(١) كنت قد نشرت جانبا من هذا الفصل ورسالة الأمير ابراهيم في مجلة الحكمة كلا على حده وقد اعدت نشرهما إلى جانب ما حصلت عليه من معلومات وبرقيات وهو من كتاب (قراءة في رسائل الأحرار اليمنين) الذي يعد للنشر .

(٢) سلمني الحاج عبد الله عثمان صورة من مذكراته المخطوطة اسفدت منها كثيراً في رصد تحركات الأحرار أثناء ثورة ٤٨ وعقب فشلها فله خالص الشكر .

* * *

وان ترج في سفح صنعاء للعلف
اشبهت من يبغي اللآلي بالصدف
التبن في العزة مثل الكيميا
يناله من حاز علم السيميا
فمن يموت فرسا او عيرا
يقصيها ثم يسير سيرا
وان يكن في ملك شخص بقرة
تبطنها من التراب قرقرة
ان ابصرت في دهرها قوس قزح
كادت تطير نحوها من الفرح
تحسبه وسط السماء قضبا
لكنها لا تستطيع الوثبا
صاحبها يعدها خزانه
وأستها في البيت « جب خانه »
لأن ما يجمع من اشياها
تجعله المرأة في « جُباها »
تعده لخبزها وقيدا
من بعد ما تعصده عصيدا
هذا الذي جرى بما هو العجب
وانما يظلمها سوق الحطب
فانه من عزة كالمندل
بالشعرى النذل او من حنظل
وان قصدت اللحم في باب اليمن
وجدت ذا القرنين عزى ذا يزن
في خلفه « حويدر » والراعي
كاتبه و« الثور » ذو الكلاع
فقرنه يباع بالدينار
وظلفه بدرهم للشاري
والجمل الذابح فيه مفترى
يجعله عند السما للمشترى
فلا ينال لحمة صغيره
حتى يبذل الدرة الكبيره
لهم من حسرته الذي اتى
يأكل مما قد يراه ميتا
أف لهذه البلدة المشؤومة
فانها منتنة كالتومة
قد لعبت باهلها السوداء
ولا بها بيضا ولا صفراء
وجوههم من جهدها مغبره
وفي القلوب كلها كالجمره
في كل يوم غارة للدوله
عليهم وعسكر وصوله
يحكم في أعيانها شاويش
مثل الحمار واكله حشيش[٢]

تلك حالة أهل المدن بؤس وجهد جهيد في البحث عن العيش ونضوب في الموارد وخوف من الدولة الى اخر ما جاء في ارجوزة الاديب يوسف بن يحيى .

وقد كان لاعتماد البلد على نفسه واكتفائه ذاتيا في الأمور المعيشية سبب في عدم تأمين المواد اللازمة في كل الأوقات فربما حدث رخاء مفرط في بعض الأحيان ، وربما حدث عكس ذلك في أحيان أخرى إلا أن اليمن كانت تعتمد على نفسها في خيرها وشرها .

ولم تعتمد على الهجرة الا في مناطق بعيدة من الجنوب حيث مارس اهلها الاسفار منذ ازمان بعيدة لشغفهم بالتجارة .

وكانت المجتمعات في ذلك الوقت شبه زراعية لاعتماد اكثر الناس على الزراعة وانخراطهم

فيها جميعهم كبيرهم وصغيرهم وكان بمركز التجارة والتجار في المدن الكبيرة والموانىء المعروفة . وقد شكل التجار في ميناء عدن والمخا قوة كبيرة حتى ان الدولة كانت تستعين بهم في بعض الاحيان . وفي عدن شهد الميناء حركة تجارية كبيرة .

وكان اكثر التجار من الهنود ومنهم طوائف من الهندوس « البانيان » غير المسلمين . ومن طريف ما يذكر ان الصفي احمد بن الحسين زار ميناء عدن قبل توليه الحكم في سنة ١٠٧٢ هـ، فوجد اكثر التجار فيها من الهنود . يقول المؤرخ الجرموزي :

« فآنسهم وأنزلهم منازل الكرم وصادف في ذلك الوقت قدوم مركبين من مراكبهم أحدهما يسمى « سواكن جي » والآخر يسمى « الصاحبي » كل مركب شحن باربعمائة بندلة والف وخمسمائة نفر . وكل بندلة تبلغ في الضخامة قدراً كبيراً لا يسعه باب الفرضة ودخل الصفي احمد بن الحسن هذه المراكب فاصطنع له اهل الهند فيها ضيافة لم ير الراؤون مثلها . قال احد الحاضرين فأكلنا وأكل الصفي واستطبنا ذلك ثم ان الصفي سألهم عن الصانع لهذه الاطعمة فقالوا « البانيان » وهم البراهمة فقام كل واحد منهم يتقيأ ما أكله »[٣].

يقول الجرموزي : « ثم إن الصَّفي تنقد بندر عدن فوجد الفتن « الحُروب » قد أخربته ، واختلاف الأيدي اهملته ، فأخذ في عمارته وجمع العمارين من بلاد يافع واليمن وصنعاء . فأول ما عمّر من الدائر المتصل بالساحل مما يلي البحر نحو نصف ميل وعمّر دار السعادة وعمّر ستة دور غيرها ، ثم نقض مسجد الجامع وأصلحه وكذلك بعض المدارس أصلحها وعمّرها »[٤].

وكان للتجار اماكن كبيرة في صنعاء وفي غيرها تسمى « سماسر » وهي عبارة عن نزل كبير يقصده الوافدون الى المدينة يضعون فيها امتعتهم وحيواناتهم وقد عرف في صنعاء سماسر كبيرة اشهرها « سمسرة محمد بن الحسن » وهي من أوسع ما وضع في ذلك .

« وانتفع بها التجار لا سيما أهل البادية وقد اسسها واوقفها سنة ١٠٦٧ هـ ومنع من دخولها تجار البانيان والخضارم »[٥]

ومن سماسر صنعاء الكبيرة في القرن الحادي عشر وما بعده سمسرة « مريد » وسمسرة « الصورعة » وسمسرة « الشماة » وسمسرة الشيخ احمد الحاج وغيرها .

وقد ذكر صاحب قانون صنعاء جملة من البضائع المتجر بها ومن اهمها « البز » وكان يصل من سائر بنادر اليمن الى صنعاء كميات هائلة . ويتاجر الناس بالصناعات المحلية وهي كثيرة ويشتغل في صناعتها وتجارتها جماعة من الناس ومن اهمها صناعة الخزف وقد سد اكثر حاجات اهل اليمن من الاواني ومنها صناعة النجارة ويصنع منها عدة أشياء دقيقة كالمفاتيح والمغالق وغيرهما . ومنها صناعة الصياغة وهي منتشرة في صنعاء وسائر المدن الكبيرة .

ومن الصناعات المهمة صناعة الأحذية وما يتعلق بها من الأدوات الجلدية وقد عدد لنا صاحب « قانون صنعاء » عدة انواع من الاحذية كالفيلم والصعدي والبشامق والنعل الركا والعرص والبحثات الى غير ذلك

■ صناعة الصابون

وكانت صناعة الصابون من الصناعات الحضارية الدقيقة وقد عرفتها صنعاء وحدثنا عن طريقة صنعه العلامة اليمني احمد بن عبد الله الحارثي الواقدي « في القرن الحادي عشر » في كتابه « نور الابصار وشفاء خواطر الأفكار » يقول وهو يصف قاعدة اهل بلده صنعاء في ذلك :

« يؤخذ من القلي جزء ومن الجير نصف جزء ويحكم سحقاً ويجعلان في حوض ويصب عليهما من الماء قدرهما خمس مرات يحرك قدر ساعتين ويكون للحوض منفذ صغير مسدود فاذا نزل الماء سده ووضعه عليه قدر الماء عشر مرات ويجعل على النار فاذا غلى شرب الماء الأخير شيئاً فشيئاً ثم الذي قبله حتى يكون سقيه بالماء الأول اجزاء فعند ذلك يصير كالعجين فيغرف الى حصير حتى يجف بعض الجفاف فيقطع ويبسط على حصيرة »[٦]

تلك طريقتهم في صناعة الصابون كما وصفها الواقدي في القرن الحادي عشر الهجري .

وربما عُدِم الصابون في بعض الاحيان فيتذمّر من ذلك فئات كثيرة من الناس وهذا الاديب سعيد بن صالح السمحي المتوفى سنة ١١٢٢ هـ يشكو من غلاء الصابون في عصره فيضع ابياتاً يدعو فيها الناس الى ترك الثياب البيض ولبس السواد حتى لا تظهر فيها البقع يقول اديبنا متندراً :

لقد غلا الصابون في دهرنا
غلا سواد ناظري والفؤاد
فحق للعالم ان يلبسوا
عند المسرات لباس الحداد
رزية في الناس من أجلها
سن بنو العباس لبس السوّاد[٧]

■ حمامات صنعاء

وكان الصابون يستعمل في الحمامات بكثرة وقد شهدت مدينة صنعاء العديد منها وكان على رأسها واهمها حمام « الميدان » الذي اثنى عليه من الوجهة الصحية الطبيب اليمني الواقدي حيث يقول :

« وأفضل الحمامات الموضوعة على القاعدة الصحية واشرفها واصلحها في أرضنا حمام الميدان بصنعاء اليمن فانه من موضوعات الحكماء لاتساعه وعلوه وصناعته المتقنة وفرش حافاته خصوصا المسلخ ويكفي فيه ارتفاع قبته الى غير ذلك ، وما عداه من الحمامات بصنعاء فدونه لضيق حافاتها وبيوتها ومن ثم يدخنونها بالكندر فيكدر الطبع السليم ويسدد ويجلب الزكام لمبرود ويحبسه لمحرور »[٨]

وتلك حالة الحمامات في صنعاء كما وصفها طبيب مختبر في ذلك الوقت .

وكانت الحمامات موئل الظرفاء ومنتزه الادباء وقد افردها الأديب احمد بن محمد الحيمي بمؤلف مستقل جمع فيه العديد من نوادرهم حول الحمامات .

وقد دخل الاديب زيد بن يحيى بن الحسين من ادباء صنعاء في القرن الثاني عشر حمام سبأ وكان الوقت زمن برد فقال الاديب :

لله حمام له منّة . . . .
علي قد نلت بها المطلبا

اصبحت مهموما لبرد الشتا .

لفرقت همي ايدي « سبا »[9]

ويدخل الاديب احمد بن محمد الحيمي حمام « شكر » فيقول فيه :

لقد دخلنا حمام « شكرٌ لعلنا
نبهم من فرط « سكر »
وشكرناه بالذي كان منه
ولهذا يقال حمام « شكر »[10]

■ الأطعمة :

وكان اكثر التجارة واكبرها تكون في الغالب في تجارة الاطعمة وسائر منتجات البلاد الزراعية . وكان من اكبرها سوق « الحب » الطعام وفيه جماعة من القائمين عليه ولهم في ذلك نظامهم وقانونهم وربما توسطت الدولة في فرض الأسعار .

وكانت الاطعمة والتفنن في طباختها من الأمور الخاصة بأهل المدن وقد عرفت اليمن في ذلك الوقت اكلات خاصة بها لم يشاركهم فيها احد من العالم الاسلامي . ومن أهم هذه الاطعمة وعلى رأسها ادام « الحلبة » وهو اكل تفنن في طباخته اهل اليمن وقد عرف منذ مدة طويلة ووصف طريقة صنعه في القرن الحادي عشر علامتنا الواقدي فقال :

« الحلبة مشهورة في صنعاء وجوارها خصوصاً « كوكبان » ومعتمدة صباحاً ومساء على الأطعمة واشتهرت وشاعت بارضنا ولهم فيها اليد الطولى حتى ألفتها النفس ويختلف احضارها اختلاف الصنعة فمنهم من يجعل على الحبوب الماء مرتين او ثلاثا حتى تزول عنها المرارة وتجفف وتطحن طحناً جيداً وتذر على الماء وتضرب حتى تظهر اللعابيه منها فتسقى قليلا بالماء وتجعل على الطعام بعد غليها ساذجاً من غير ابازير وتجعل على السمن ان امكن »[11]

فهذه الحلبة هي سيدة الاطعمة عند اهل اليمن وقد تفنن المتأخرون في صنعها واضافوا اليها أشياء أخرى كالمرق والخضار والبيض واللحم الى غير ذلك . وهي من الاشياء المتفرد بها أهل اليمن .

واذا اردت ان تعرف الرجل هل هو من اليمن ام من غيرها انظر الى اكله فاذا وجدت فيه شيئاً من الحلبة فاعلم انه من اهل البلاد اليمنية . والحلبة وان عرفت في بلاد اخرى الا انها لا تستعمل الا في حالات نادرة كالتطبيب والمداواة لا غير .

ومن اشهر الاطعمة المتميز بها اليمن ايضاً خبز « اللّحوح » وقد وصف طريقة صنعه الواقدي فقال :

« اللحوح طعام مصنوع بأرضنا من جريش الذرة وقد شاع وفشا بأرض اليمن وصنعته ان ينقع بالماء الحار ثم يرهك بالمراهك وهي معمولة دون الرّحا ثم يخمر جيداً وقد اثبتت له آلة مصنوعة من تراب الغضار والخزف مسطحة كآلة الكنافة المعروفة بالطوة من النحاس مركبة على شكل مخروط كالتنور »

الى أن يقول :

« ثم يخرج بعد النضج وقد برز على وجهه ثقوب كبيرة غير نافذة وهي من غرائب الصنع ولا نعرف مخترعها وهي من أسهل الصنع في ارض اليمن . ويصعب على اهل الهند والعجم والروم لعدم معرفة قانون آلته المذكورة . ويعمل بعد ان

يبرد في صحون من الصيني أو غيرها ويجعل عليه مخيض اللبن المنزوع الدهنة المعدل بالأبسازير كالكمون والنعنع »[١٢]

فهذان الصنفان من الاطعمة هما اشهر ما عرف به اليمن في هذا الباب وان كنا نجد المحافل الكبيرة قد عرفت انواعاً اخرى غير ما ذكر . وقد اشار الى بعض الاطباق عند اهل صنعاء في القرن الثاني عشر الأديب عبد الله بن علي الوزير المتوفى سنة ١١٤٧ هـ فقال معرضاً بأسماء كثير من الأكلات المعروفة عند اهل بلده :

قسما « برز » ابن الوزير «معيل» للسيد الحوثي صفوة احمد
و«دجاج» جحاف و«دلته» التي دلت على معروفه المتردد
و«زلابيا» شرف المكارم انه وبسط الصحاف سبيكة من عسجد
و«قلية» المولى الجمالي انه شرف اناف على السها والفرقد
من بعد «معصوب» ابن قيس انه قد لذلي من بعد بين اسود
و«هريس» مولانا الخطيب ومن له خطب يلين لها صميم الجلمد
وكذاك «قوزي» الشهاب فإنه جمع البهارات التي لم تعهد
وكذا «كبيبات» لعامل مسود من قبل قهوته التي لم تبرد
وكذلك طيب «سلته» الاحضوم من حاز المكارم والجميل السرمد
و«بسيس» صاحبنا الرقيمي الذي يدعونه بالآنسي محمد
و«شهد» فخر الدين فوق غدائه شهد الجميع بانه لم يوجد
يتلوه «مطلي» الصفي فانه صفى من الاحشاء اعذب مورد
و «فتوت» عبد الله اكبر ناشر من ناشر برد العلى والسؤدد[١٣]

فهذه انواع من المأكولات الشعبية في صنعاء وغيرها من البلاد خلال تلك الفترة .

وقد عرفت البلاد أيضاً انواعاً من المأكولات التي أدخلها الاتراك معهم ومن هذه الاكلات أكلة تسمى « خرميان » و أخرى تسمى « اشار » وثالثة يقال لها « سنبوسة ». ومن هذه الاكلات الفالوذة والقلا والكشرى . ولعل هذه انواع من الحلويات ذكرها الاديب عبد الله بن علي الوزير في مقامته « أقراط الذهب »[١٤].

■ البن والقات :

وفي هذا العصر ترسخت في المجتمعات عادة القهوة وشربها ومضغ القات وكان ظهورهما في وقت واحد يعود الى القرن العاشر واصبحت القهوة من ضروريات المجالس في ذلك الوقت وولع الناس بقشر البن اكثر من ولوعهم بلبه على خلاف القاعدة في سائر البلاد الأخرى .

وكان البن من أهم ما تصدره اليمن الى خارج البلاد وقد ذكر ذلك الرحالة المغربي حسين بن محمد الورنلاني المتوفى سنة ١١٩٢ هـ عندما زار مكة فقال :

« يحمل من اليمن في كل سنة لكل افق من الآفاق شرقا وغربا آلاف من الأحمال فتدفع فيها اموال قلما تدفع في غيرها من التجار فيبلغ الحمل منها في مكة

إذا رخص فوق العشرين ريالاً وبمصر الى الخمسين وفي البلاد الشاسعة وبلاد الروم من القسطنطينية وغيرها فوق المئتين »[15].

وقد أحدث ظهور القهوة في اليمن وانتشارها منه الى العالم الإسلامي تغييراً اجتماعياً كبيراً في سائر البلدان . وقد حلت مكان الضيافة عند بعض الناس لسهولة مؤ ونتها ، فكانت صيانة لوجوه الفقراء عند ورود الضيوف عليهم »[16]

ووصل الأمر باليمن في شأن البن ان تصلها بواخر اروبا بقصد جلب هذا المشروب الجديد حتى ان الدولة العثمانية شكت هذا الامر الى امام اليمن في رسالة ذكرها صاحب « طيب اهل الكساء »، فقال في حوادث سنة ١١٣٣ هـ :

« وفيها ورد الى الامام من باشا جدة أحد أعوانه رسولاً الى الامام من أجل الفرنج وشرائهم البن من بنادر اليمن وان المنع لهم من ذلك فيه مصلحة عامة للمسلمين وان توفر الثمن . وبيد هذا الرسول كتاب من سلطان الترك فيه ابراق وارعاد اذا لم يحصل امتثال واسعاد وان من انذر فقد اعذر »[17].

فمثلت هذه الرسالة أهمية البن في مجرى الأحداث الكبرى .

وقد اشتهر في اليمن من انواع البن اجناس مختلفة تختلف من حيث الجودة والرداءة وكان من احسنها في ذلك الوقت البن « الشرسي » نسبة الى موضع تحت صنعاء يقال له « شرس » ويأتي بعده في الجودة البن « السودي » نسبة الى السودة من اليمن ايضا ثم « النخلي » من ناحية « شرعب » ثم « الحرازي » وهو من اضعفه[18] . ويقول الحارثي الواقدي في ذلك :

« القشر « قشر البن » معروف عندنا وافضله ما رطب هواء محله وسخنت ارضه ووبر غرسا ومعاهدة » .

وللأدباء في الولوع بالقهوة اشعار كثيرة سنوردها عند حديثنا عن ادب القهوة والقات .

اما القات فقد صاحب ظهوره ظهور القهوة وبدأ يتغلغل في المجتمع خلال هذه الفترة التي ندرسها وكان الأدباء هم الفريق المتحمس له والمتعاطي لأكله بصورة واسعة ولهم فيه العديد من القصائد الرائعة في مدحه سنعرض لها في موضعها عند حديثنا عن الشعر الاجتماعي . واذا كان للقات من فضل يذكر في اليمن - على مساوئه الكثيرة - هو قد حمى البلاد من عادة تعاطي الحشيش وهو آفة اجتماعية عرفتها مجتمعات عربية كثيرة في الشام ومصر وغيرهما . واضراره السيئة على الجسم والعقل اشد شناعة من القات ولا تكاد تذكر معه مساوىء الحشيش الكبيرة . وكان لاشتغال الناس بالقات أثر في صرف الناس عن الحشيش حتى لا يكاد يعرف الا عند المتطببين .

ومع ذلك فربما أدخل الحشيش الى اليمن فئات من الوافدين اليها وكانت الدولة تنكل بكل من ظفرت به ومعه شيء من ذلك وفي ديوان الرقيحي « في القرن الحادي عشر » جاء ذكر شخص يسمى « نعمة » وقد حبس مع آخر يقال له « صلاح المهتدي » بعد ان وجدا وهما يبيعان الحشيش[19] .

وقد جمع القات اشتات الناس في مجالس خاصة ودارت هناك مناقشات ومباحثات كان لها أثرها الكبير في إحياء الثقافة والاداب وهو أحد اسباب ازدهار الادب والشعر في ذلك الوقت حيث

تدار فيه مفاكهات ومباحثات . وربما تغالوا في شرائه وشروه بالثمن الكبير . وقد حدد صاحب «قانون صنعاء» سعر القات الرسمي خلال القرنين الحادي عشر والثاني عشر للربطة الواحدة زنة عشر أواق ببقشة ونصف .

وربما دفعهم القات الى السهر فتفوتهم بذلك صلاة الصبح . وقد عرف عن كثير من الناس تساهلهم في الصلاة حتى دفع ذلك العلامة محمد بن اسماعيل الامير الى تأليف رسالة حول هذا الشأن[20] واضطرت الدولة خلال القرن الحادي عشر الى تعيين اشخاص يقومون بايقاظ الناس لصلاة الفجر . وكان قد أصدر الامر بذلك الامير المحسن بن الحسين احد امراء عصره فقال في ذلك الاديب الرقيحي موريًا :

قل للحسام وقاه الله ماطمعت
فيه الأعادي من سوء وتعويق
اهل المدينة حسب الأمر كلهم
لطاعة الله في أمر وتوفيق
فلا تدعهم نياماً في مضاجعهم
فكل ايامهم أيام «تشريق»[21]

وقال ايضا في ذلك :

لقد شيد الدين الحنيف حسامه
حباه إله الناس بالفتح والنصر[22]
وقد كاد فرض الفجر يعلق بالضحى
فعاد الورى يتلو اذا سورة «الفجر»[23]

وفي القرن الثالث عشر وكّل احد الحكام من «يرشد الناس ومن نومة الفجر يوقظهم» .

وكل هذا بسبب انتشار القات وولوع الناس بالسهر .

الدخان والمداعة :

وكما عرف الناس القهوة والقات كذلك عرفوا «الدخان» وهو شرب «المداعة» النارجيلة . وقد عرف الدخان في اليمن بالتتن وهي لفظة تركية معناها «الدخان» . وكان أول ظهوره في عهد سنان باشا ووصل به الى اليمن حكيم مغربي هو الشيخ علي المغربي سنة ١٠١٣ هـ وجاء معه بشيء من بذوره فاستنبته في اليمن وصلح نباته . وكان أول أمره تباع الأوقية منه بقرش فضة وهو مبلغ كبير في ذلك الوقت وبيع بأكثر من ذلك حتى انتشر وعرفه الناس فنزل سعره الى أضعاف ذلك[24] .

وربما رأى بعض الحكام عدم استساغة شربه فيصدر أوامر باتلافه كما حدث ذلك في عهد المهدي احمد بن الحسن حيث امر سنة ١٠٨٩ بعدم جلب التتن من اليمن الأسفل الى البلاد العليا وأمر بإحراق ما وجد منه ومن آلاته فأخفاه أهل صنعاء : «حتى بيع في القراطيس وغني المفاليس[25] » .

وكان من أكبر اعداء الدخان جمهور الصوفية وقد حاربه في حضرموت الصوفي الحسين بن ابي بكر بن سالم المتوفى سنة ١٠٤٤ هـ «واعتنى بازالته من تلك الديار فتم له ذلك ونودي في الاسواق»[26] .

ويقول في ذمه الأديب عبد الصمد باكثير المتوفى سنة ١٠٢٥ :

ولا تجنح الى «التنباك» اني
نصيحك فيه اشياء تضرك
هو العار الذي يدني ويزري
هو الداء الدفين فلا يغرك
دخان منتن داء عضال
فلا تتبع اليه فتى يجرك
شراب مهلك لا تشتريه
وضم اليه نقدك في «مصرك»[٢٧]

•

الا ان تحذيراتهم ذهبت سدى وولع الناس بشرب الدخان وفضلوه حتى على اقواتهم . وحتى قال الاديب عبد الله بن يحيى الشامي المتوفى سنة ١١٧٠ هـ وقد كسدت أسواق التجارة في صنعاء سوى التنباك «الكازرون» :

كل السوق فاتر[٢٨]
الا الكازرون ما يبور
فيه اموال جاهر
بيعه والشراء بالجبور
كم قايم وعاثر
«حوشة» فوق «عبد الغفور»

•••

يكتب في الملاحم
شغل الخلق بالكازرون
كم تخضع عوالم
من اجله سعره زبون[٢٩]
و «الحرم[٣٠]» تزاحم
فيها تولعه كالجنون
مكشوفة تداكم[٣١]
ما تنتقب من اهل الدقون[٣٢]

فدل هذا النص أيضا على تولع النساء بالدخان مع الرجال . وصاحب في أكثر الأحيان تعاطي القات ودخل مجالسه واختفى بذلك تناول القهوة واصبحت لا تشرب الا في اجتماعات العائلة فقط .

وتلك مطاعمهم ومشاربهم .

على ان حالة الناس كانت على درجات متباينة من الرخاء والشدة وكان يصيب المجتمع ما يصيب الناس في المجتمعات القديمة من مجاعات واوبئة وهي امور معتادة متكررة ولنا ان نستجلي شيئاً من تلك المآسي لنعرف الفارق الكبير بين عصرنا وعصورهم الغابرة ففي فترات تنعدم المطاعم ويستسلم الناس للجوع الرهيب .

■ الجوع والغلاء

وقد يحدث في سنين متتابعة النقيضان من غلاء الأسعار ورخصها . ففي سنة ١١٣٦ هـ «مثلا» وقع القحط في صنعاء وأكثر جبال اليمن وهلك اكثر الناس من الجوع وخلت القرى لا سيما بلد حجة والظفير والاعتين والمحويت والرجم من ناحية كوكبان ، ولم يبق منهم الا اليسير وأكل الناس الميتة واستوى سعر الحبوب وبلغ سعر «القدح» ثمانية قروش ، وبذل اهل اليسار ما معهم وتصدقوا به . ثم اقبلت الخيرات في سنة ١١٣٧ واستمر الرخاء حتى بلغ سعر الأربعة اقداح من الشعير بقرش وستة اقداح من الذرة بقرش وثمانية اقداح من الشعير بقرش[٣٣] .

هذا في سنتين متتابعتين وقع ا لضدان وذلك لأن البلاد تعتمد اساسا على ما تنتجه في سنتها دون

ان يكون هناك تخزين يذكر .

وفي سنة ١١١٥ وقع قحط شديد خلت منه بالبوادي عدة قرى وعم جميع الأقطار ومات فيه جمع كبير حتى ان اهل قرية بالعدين اكلوا الأموات[٣٤] وكذا بقرية في حضرموت يقال لها «خذية» .

ومن طرائف ما يحدث في تلك المآسي انه حدث في جوع سنة ١٠٧٨ «ان رجلا غسلوه وكفنوه وظنوا انه قد مات بصنعاء وكان من الغرباء فلما حملوه تحرك فوق نعشه ففتحوه واذا هو يهتف بالطعام فاطعموه وسقوه واذا هو حي بخير وانما ساخ وبطلت قواه بسبب الجوع»[٣٥]

يقول المؤرخ يحيى بن الحسين بعد ذكر هذه الحادثة المؤلمة :

«وكثير من الناس طلب الطعام بالبكاء ومنهم بالتمارض في الشوارع لأجل رحمة الناس بالعطاء» .

وأخبار من هذه الحوادث لا حاجة الى ذكرها هنا وربما اضطرت أسر الى النزوح من قراها الى قرى أخرى تحت وطأة الجوع كما حدث في قحط سنة ١٢٣٨ حيث اضطرت بعض عوائل من بكيل الى النزوح إلى اليمن الأسفل «فخرجوا خرجة رجل واحد صغارهم وكبارهم ونساؤهم متشكلات بأشكال الرجال»[٣٦] .

وهكذا كان من تحت تأثير الجوع اشياء كبيرة غيرت سير التاريخ وحدثت حروب ومحن بسببه . وقد صور لنا الأديب احمد بن محمد المعلمي المتوفى سنة ١٢٧٨ هـ في مقامة أدبية ما أصاب اهل بلدته في بعض السنين من جوع القحط فقال :

«اعلم انه كان الناس في عام ١٢٣٣ في أتم الرضاء وأعم الرخاء وعلى فضل من الله وسعته ودعته فسلكوا مسلك الماضي وظنوا ان الدهر لهم وفيهم ماض حتى انفقوا جميع الذخائر المستعدة والأموال المستجدة . فوقع في سنة ١٢٣٤ جدب عظيم وهول جسيم ذبح الناس بغير سكين وبينّ العجز في الأغنياء والمساكين وأظهر من بأسه العجيب في جمادى الآخرة ورجب وبقي البذور في التراب اسيرا قريبا من اربعين يوما ولم ينبت منه الا اليسير ، فاغبرت المزارع لفقد الأمطار ويبس البن بعد الاصفرار وعميت عيون العيون بسطوع الغبار وجفت الآبار وغاضت الأنهار ثم تضاعفت الأحزان في شعبان ورمضان وضاق الحال في شهر شوال وانقطع الرجاء لانتشار البلاء ، فأخذ الرجال والنساء في الاستغفار والبكاء لما عم الرعية من هجوم الرزية ووقوع البلية،ولما انقطع الخريف والروابع بالجدب عظيم الهول والخطب وايس كل آيس بدخول الخامس واجاد الكريم رب العرش العظيم بنزول المطر وذهاب الهم والضجر فأحيا الله الأرض بعد موتها وظفر الناس من الغيث المدرار بقوتها وخرت الأنهار واورقت الأشجار وانبسط الرخاء وانقبض الغلاء فلما بلغ الزرع اول الحصاد جاء الجراد الى كل البلاد اقصاها وادناها شامها ويمنها وسهلها وجبلها في يوم احد ، فغشي الناس من الغم من غشي فرعون وجنوده من اليم وقالوا هذه احدى الكبر وام العبر وأيقن الصغار والكبار بالتلف والبوار لعدم الحب والثمار ولم يستقر بهم حال من الأحوال الا بالرجال عن البيوت والأموال وصاروا تحت كل شعب وبازاء كل كوكب واشتد الجوع وعبس

واظلم حندسه وعسعس واسبل الله ستره وعطف على الناس بحمره و «الصحف» وبلغ سعر جميع الحبوب نصف قدح بقرش ولا تفاضل بينها ولا مزية بل الحنطة والدجر على السوية والقدح البن بتسعة قروش فانبسط الغلاء وانقبض الرخاء فباعوا المطرح الكبير الساقي البن الراحي بقرش والمطرح الضاحي الخبري السلطاني الكبير بقرش وما زالوا كذلك حتى أسبل الله بستره العميم وافضاله العظيم وظل الناس في عام ثمان وتسع بعد الثلاثين على خير مكين وارغد عيش ممين يتفيلون في برد مجالس العمارة ويترفهون على نفائس التجارة والامارة ولايرتابون لخوف ولايعقبون بسين ولا سوف ليلهم راحة ونهارهم سماحة فسرت منهم حوادث الليالي وهم لا يشعرون واظهرت من العجائب عجب الأمر المحزون وجثا عليهم الدهر الخؤون بقبضة الوثاب ونادى من زفرات غيظه بالانقلاب والاياب وهبت عواصف البغي وتلاطمت بحار الطغي وماجت وتحالفت على الدعاء أيادي العمال وتكاثرت الأمال وشعبت الأراء والأقوال وفسد المجال وتصلح المجال وانطوى المشائخ على الفسادين والدعاء بخبث الطوية فتداعى أهل الرباء لمنافسة الولاة بعضهم بعضا وعقدت معضلات تلبيسهم حتى لا يستطاع لها حلا ولا نقضا ويا لها من غلة قوية» .

وهكذا كانت حالة الناس في ذلك الوقت كما صورها المعلمي بين جوع وشبع وبؤس ورفاهية .

وكانت الأسعار هي شغل الناس الشاغل وقد حملت كتب التاريخ بعضا من حديث الناس حول ذلك الموضوع فقد حدثنا المؤرخ يحيى بن الحسين في «بهجة الزمن» في حوادث سنة ١٠٧٧ انه «غلت الأسعار وضعفت الفش وصغرت وكثر فيها النحاس والغش وكثرت المماكسة في البيع والشراء والمعاملة واختلفت الحالة وحصل مع اهل الأسواق تغير مزاج والدعاء والسخط والانزعاج حتى دعوا على الدولة جهراً من غير حياء ولا خوف بحيث اني سمعت رجلا من اسواقها وأهلها يقول هذه الدولة ما ترحم المسكين واما الترك فانهم يرحمون» .

ومع ذلك فربما تدخلت الدولة في تحديد الاسعار ووضعت فيها قوانين خاصة يلتزمها الناس كما رأينا ذلك واضحا في القانون الذي ظهر في عهد المتوكل اسماعيل بن القاسم سنة ١٠٨٧ وقانون القاسم بن الحسين والمهدي عبد الله بن احمد سنة ١٢٣٤ .

وكانت الأسعار ربما نزلت واصبح كل شيء موجوداً كما حدث في سنة ١١٩٥ حيث وصل سعر القدحين الحنطة بقرش والحد والسليط «الزيت» عشرة ارطال بقرش ، وهذا غاية ما وصلت اليه البضائع من رخص . وفي سنة ١٢٠١ كان سعر الحنطة القدح والربع بقرش ، والذرة قدح ونصف بقرش ، والشعير قدحان بقرش وهكذا .

وفي سنوات اخرى تنعكس الاية حتى ان المؤرخ لطف الله جحاف ذكر انه وصل سعر القدح الحنطة في بعض السنوات ثلاثة ريالات وهذا مبلغ كبير في ذلك الوقت .

ولعلنا سنقدر قيمة الريال في الشراء لذا علمنا مقدار ما يحصل عليه العامل منه في ذلك الوقت وقد حصرهم قانون المهدي سنة ١٢٣٤

فذكر : أجرة الحمائين و «المغالقة» (مغلقو الحطب) والسقائين والحمالين في سوق العلف اجرة الشبكة التبن التي تحملها البهيمة بقشة واحدة .

اجرة حمالي التنباق «الدخان» اجرة عدلة الجمل الكبير من البايع اربع بقش ومن المشتري كذلك .

اجرة حمالين سوق «القشر» و «السليط» وغيرهم اجرة من يحمل عدلة في المبتاع الكبير ربع بقشة .

اجرة السقايين وقيمة الماء في المسافة القريبة نصف بقشة وقيمة القربة في المسافة المتوسطة ثلثا بقشة وقيمة القربة في المسافة البعيدة بقشة .

اجرة العامل «الأسطى» الكبير «رئيس البنائين» ربع قرش وبقشتين ويلحقه كراء العدة الجميع «بقشتين ونصف» .

اجرة الأسطى التابع له ثمن قرش وخمس بقش .

واجرة المناول للأسطى «ثمن قرش وبقشتين ونصف» .

واجرة الشاقي «العامل في البناء» ثمن قرش .

واجرة «الموقص»[٣٧] ثمن قرش وبقشتان .

واجرة الاسطى في الملاجين[٣٨] ربع قرش وبقشتان ويلحقه كراء العدة بقشتان وكراء السقالة بقشتان .

اجرة الاسطى في المقاضضة ثمن قرش وخمس بقش .

اجرة الشاقي في المقاضضة[٣٩] ثمن قرش .

اجرة الحلاق على الرأس بقشة .

اجرة الحجام على المحجم الواحد نصف بقشة .

اجرة الحمامي بقشة على النفر .

فهذه نماذج مما يحصل عليه العمال من أجور خلال القرن الثاني عشر وما قبله وما بعده وهي في عمومها لا تصل الى القرش الواحد لأفضل عامل فيهم فدل هذا على مكانة القرش في الأمور الشرائية ومع ذلك فربما تَبَرَّم العمال من غلاء الأسعار وقلة الأجر . وقد حدث ان ثار الجنود سنة ١٢٢٣ «وخرجوا ارسالاً مغاضبين كارهين للدولة لقلة المدد وتباعد المعاشات فمنهم من رحل بلاد كوكبان وكان خروجهم ليلاً من الخندق الجنوبي لصنعاء وقالوا كانت الأرزاق «المعاشات» تأتينا كل شهر ثم باعدتموها وجعلتم معاش الشهر لشهرين ثم باعدتموها فجعلتم معاش الشهر وهو حقير لثلاثة اشهر . وكان ذلك منهم مع حصول القحط والجدب حتى بلغ القدح الحنطة عشرة قروش ، وكذلك الذرة وبلغ سعر القدح الشعير ثمانية قروش ثم ارتفع السعر حتى بلغ القدح الحنطة اثني عشر قرشا ، وبلغ الرطل السمن قرشا عدديا ، وكذلك السليط وحُسِبَ معاشُ الجندي في الثلاثة الأشهر وكان لايكفي لاسبوع واحد[٤٠] وهكذا فان تلك الأمور كانت لا تتوافق مع ضرورات الحياة في أيام الغلاء والشدة .

الأعمال الهندسية :

واذا خرجنا عن دائرة الأسعار والأجور سنجد هناك فئة كبيرة من الصنّاع واصحاب المهن قد شكلوا حيزاً كبيراً من المجتمع لهم أخبار وطرائف .

فقد اشتهر في ذلك الوقت من مهرة البنائين المهندس حسن بن عبد الواسع العلفي وقد حدثنا صاحب الحوليات عن قيامه ببناء دار الذهب وجسر السائلة سنة ١٢٣٠ [41] .

وذكر المؤرخ الوشلي عن بناء قدير هو المهندس عبد الرحمن بن عبد الوهاب الأهدل «في القرن الثالث عشر» وكانت له خبرة في احكام البناء وقد مر ذات يوم في احد شوارع الحديدة فنظر الى بيت مائل الى السقوط فقال لصاحبه اخرج أهلك فانه الساعة الفلانية من هذا اليوم سينهدم فبادر الرجل باخراج أهله ولما كانت الساعة التي ذكرها اذا البيت قد انهدم . ومن حكمه البالغة ان منارة مسجد بالحديدة وهي في غاية الطول واحكام البناء مالت الى جهة القبلة وكان تحتها بيوت كثيرة بحيث لو سقطت اهلكت البيوت وأهلها فجمع لها العماروں الذين في الحديدة فلم يعرفوا لها حكماً غير هدمها فجيء بالأهدل المذكور فطلب احضار مئة ريال اجرة للعملة فحفر حولها من الجهات الأربع الى أسفل الأساس وملأ الحفرة من الماء من أول الليل فما أصبح الصباح الا وهي مستوية وقد زال ذلك الميلان منها فبنى حولها وثبت اساسها [42] . وغير ذلك من أخبار هذا المهندس كانت حديث الناس في القرن الثالث عشر .

وشغل الناس والدولة في ذلك الوقت بالتنقيب عن آثار الغيول المندرسة وتجديد بنائها للسقي والشرب وكان اشهر من قام بذلك علي بن مصطفى أحد القادمين الى اليمن من دمشق في القرن الثاني عشر استخرج غيلا عرف باسمه وقد اجراه من صنعاء الى الروضة سنة ١١٧٨ [43] .

وفي عهد المتوكل اسماعيل في القرن الحادي عشر عرفت عدة غيول نقب عن بعضها والبعض شق من جديد وفي ذلك يقول المؤرخ الخرموزي ان اكثر الناس في صنعاء كانوا يستقون من الابار المعروفة حتى تم استخراج عدة غيول في هذه الفترة . وقد وقف بعض اهل «شعوب» على بلل في طين بالقرب من السد المعروف بسد الامام فتتبع أثره فظهر فيه ماء كثير فلما رآه يزداد أخبر بعض رجال الدولة فخرج فأمر بحفره وتوسيعه وهو يزداد حتى اصبح غيلاً كبيراً وجعل عليه الأمناء للحفر والعمارة ثم عمر بالحجارة وجعل فيه كظايم مستطيلة فكان كل كظيمة قريبة من عمارة البئر وحفر لها موضع العبور الى الطرقات ومواضع للصابون ولمن اراد الاغتراف والصلاة [44] .

وكان يقوم بهذه الأعمال الهندسية الدقيقة جماعة من مهرة العمال والمهندسين وهم في ذلك الاعمال الكبيرة كالقصور الضخمة التي لا تزال آثارها باقية الى الآن . وفي هذا العصر كانت بناية قصر الحجر المعروف وقد قام بالاشراف على بنائه الوزير علي بن صالح العماري المتوفى سنة ١٢١٣ [45] .

الغناء :

وعرف هذا العصر جماعة من حذاق المغنين والتوسع في ابتكار الألحان الجميلة على الرغم من محاربة بعض اهل الشان لهذا الفن . . ففي بعض الأحيان تقوم الدولة بمصادرة آلات الغناء كما حدث في عهد المتوكل محمد بن يحيى [46] سنة ١٢٦١ فقد قام «بتكسير الملهيات من الدفوف والمعازف والمطربات»

ولنسمع لبعضهم [47] وهو يرد ذمه لجمهور

المغنين في عصره فيقول :

الطبل والزمر باب جامعنا
ظهراً وعصراً وتارة عتما
على لحون الغنا مصطنع
كانه من اشاطب الزنما
للزمر والنوبة التي معه
تصغون آذنكم ولا صمما[٤٨]

وبعد «القارة» آلات الغنا والزمر والرقص من جملة المنكرات :

منكرات برزن في زي غادا
ت حسان البيض ميل
وتغنينا المحال ثم ابحنا
منكرات منها الغنا والطبول
والمزامير والرقبص مع التحتا
ح والمحجرات ثم اخسول[٤٩]

ومع ذلك فان نهي العلماء عن الغناء زاد الناس ولعاً به ولم يكترثوا بمثل تلك النصائح ومالوا اليه بكل فئاتهم كبيرهم وصغيرهم نساؤهم ورجالهم . وكان له أثره حتى في الاصلاح الاجتماعي . وقد حدثنا لطف الله جحاف انه لما منعت الدولة العلامة علي بن ابراهيم الامير من الوعظ في مسجده سنة ١٢١٦ «عمل القصائد الملحونة والقاها على المنشدين بالأبواب والأسواق والطرقات ينعي فيها على العمال والوزراء والقضاة وكل منرط في دينه فوضعوا لها الالحان الرايقة فحفظها الصغير والرجل والمرأة والعالم والعامي» [٥٠]

فهذا بعض من أثر الغناء في المجتمع وقد عرفت في ذلك الوقت الحان كثيرة كانت تغنى في مجالس الخاصة وقد انقرض اكبرها . وذكر لنا منها الأديب احمد بن الحسين الرقيحي المتوفى سنة ١١٦٢ هـ . الكثير منها ومعي عدة الحان كانت تغنى في عصره وكان هو نفسه احد الملحنين . فمن هذه الالحان التي ذكرها :

- لحن على قصيدة «نادي المنازل عساها أن تجيب»
- لحن على قصيدة «لاح مثل القمر في جنح ديجور الاغلاس»
- لحن يعرف بالغويدي[٥١] وتغنى عليه حمينية الرقيحي التي أولها :

هات ياطير كرر على البان السجـ
ـوع في سجوعك على البان معنى

- لحن على «ارقت مقلتي صادحات الورق»
- لحن على «شق جيب الليل عن نحر الصباح»
- لحن على «ديار الحي حياك»
- لحن على «فوج ياقبلي»
- لحن على «حادي المطايا ترفق جرت واحادي»
- لحن على «يالصب يادري الشنب احرقت قلب مضناك»
- لحن على «يا غصن مايس تثنى في غلايل وماس»
- لحن على «بوبرق الغور اليماني» . يقول جامع ديوان الرقيحي هو لحن «موزعي لحجي» .
- لحن على «مر حالي اللقش تايه يلين اعتداله» وهو لحن لحيدر آغا
- لحن على «نسيم هل الى الروضة الغنا تمشيت»

وهو للسيدة زينب الشهارية .

ـ لحن على «الايا حوص الاشرف» .

فهذه اشهر الالحان المغناة في أوائل القرن الثاني عشر وقد تناقل الناس في ذلك الوقت لحن قصيدة الاديبة زينب الشهارية السابق الذكر .

واشتهر في القرن الثالث عشر لحن حمينية الوزير الشاعر علي بن صالح العماري المتوفى سنة ١٢١٣ التي يقول فيها[٥٢]

فايق الغزلان اقبل
كالقمر حل السماك
قلت يا عذب المقبل
بالنعيم اسعد مساك
يا رشا ياحالي الدل
قد سلب عقلي هواك
قال رح ميل تميل
جي كذا وأخر كذاك

...

قلت كم لي بك مولع
قال ما عندي خبر
قلت ما ترحم وتخشع
قال قلبي من حجر
قلت شابذلك وأدفع
كل يوم اربع صرر
قال رح ميل تميل
جي كذا واخر كذاك

إلى آخرها وهذا اللحن يؤدى مع الرقص .

وقد حدثتنا كتب التاريخ عن كثير من اولئك المغنين والملحنين لعل أشهرهم الاديب الكبير حيدر أغا من أهل القرن الحادي عشر . وقد ذكره صاحب نسمة السحر ووصفه بأنه «الطولى في الموسيقى وضرب العود وكان يغني بشعره الموشح»[٥٣]

وكان معاصره الأديب احمد بن الحسين الرقيحي المتوفى سنة ١١٦٢ اثيرا عند اهل عصره لتلك الخاصية وضرب العود حيث اشار الى ذلك احد معاصريه في قصيدة يمدحه فيها يقول :

ويعرب آذاناً ويلحن ان شدا
وسل شاهداً عن لحنه عوده الرومي[٥٤]
واسحاق لو أصغى لترجيع عوده
لراح على الأوتار بالقطع كالخصم

وكان للمغني في ذلك الوقت مكانة مرموقة حيث تنافس في كسب ودّه أعيان عصره ويغدو فاكهة المجالس وأنيس النفوس . وربما كان من ثقافة المغني وآدابه «ان يكون خفيف الظل سريع النكتة كثير الاستحضار للأشعار والماجريات ومن هؤلاء كثير وسجلت اخبارهم كتب التاريخ . وقد اشتهر في القرن الثالث عشر المنشد اسماعيل بن عبد الله الطل المتوفى سنة ١٢٢٤ هـ . يقول عنه جحاف : «لما خرج من الكتاب وهو صغير اشتغل بالأصوات والنغم فاستحوذ صوته رعاء الشاء والابل وتحدث الرعاء عن حسن صوته»

ومن طرائف هذا المطرب انه يزعم «ان له شيطانا يلقي عليه الشعر والألحان وانه شيطان يهودي لا دين له غير اليهودية»[٥٥]

وعرف بوضع الألحان في ذلك الوقت الفقيه

محمد بن اسماعيل الاكوع المتوفى سنة ١٢٢١ هـ . يقول عنه جحاف «كان لطيفاً أديبا حسن الصوت ذا نغمة تشاغل به أهل الفن والصناعة لصوته الحسن فاما صناعة الضرب بالعود فكان لا يحسنها» [٥٦]

ومن أشهر الملحنين خلال تلك الفترة الفقيه محسن مسعود برع في وضع الألحان وكان وحيد عصره في ذلك حتى ان العلامة علي بن احمد اسحاق المتوفى سنة ١٢٢٠ وضع مؤلفاً في اخبار هذا الملحن اسماه «طالع السعود بفضائل محسن مسعود» .

قلت ولعل هذا المغني هو صاحب لحن قصيدة علي بن احمد بن اسحاق المذكور التي اولها :

يا رسولي أمانهْ سَيرٌ الى عند

بَدْرِي قف على الباب واقرعْ

وهو لحن مشهور ومعروف

ويقول المؤرخ لطف الله جحاف إن العلامة ابراهيم بن عبد الله الحوثي المتوفى سنة ١٢٢٣ هـ كان محبا للاجتماع بالمنشدين ويحثهم على وضع الألحان لبعض القصائد . وكثير من الأدباء جمعوا بين الشعر والغناء كالاديب حيدر آغا واحمد بن الحسين الرقيحي وكان أحد حذاق هذه الصناعة . ومنهم الاديب احمد بن علي مشرح الكوكباني المتوفى سنة ١١٧٠ هـ كان صاحب موهبة شعرية وله يد في الانشاد والغناء .

وعرف في ذلك الوقت طائفة من نشّاد المحافل والأفراح يستقدمهم الناس في كل مهم وموجب وكان من هؤلاء الفقيه محمد بن اسماعيل الخولاني المتوفى سنة ١٢٢٣ هـ . يصفه جحاف بقوله : «كان محبوبا عند الناس لكثرة ظرفه وحركاته المعجبة اتصل بالمنصور وأولاده واستدعاه الخاص والعام والوزراء والأمراء والحكام وكان لا يحابي احداً مع كثرة المجون ومحبة الدعة ، وملازمة الخلاعة باللسان طبيعة لا تطبعا» [٥٧]

وفي تهامة يكثر عند النشاد الاستكثار من المديح النبوي والقصائد الوعظية وقد عرف في القرن الثالث عشر الفقيه عبدالله بن احمد الزواك المتوفى سنة ١٢٨١ هـ : «وكان حسن الصوت والانشاد للشعر واشتهر بذلك في الجهة وكان يطلب للانشاد في الأفراح من بلد الى بلد كالمخاء وزبيد والحديدة وغير ذلك» [٥٨]

وربما قيلت على ألسنة أولئك النشاد قصائد في مناسبات عائلية خاصة كالزواج او القدوم من الحج الى غير ذلك . وقد ابان لنا ديوان الرقيحي نص قصيدة مما يقال في تلك الحفلات من نظم الشاعر الرقيحي وهي في حفلة زفاف جاء فيها :

ابتدي بالله اول	عزّ من مولى وجل
وبطه خير مرسل	من رقى اعلى محل
بيت	
زيد رفقتك الهك	خالق السبع الشداد
الذي أنشأ بهاك	واظهرك تسبي العباد
بيت	
احضروا آله حجابه	قد طلع بعده وبان
والبسوه اسنى ثيابه	واشعلوا له شمعدان
بيت	
قم الى الحمام بادر	يا رشا تلك القصور
وانظر انواع المزاهر	باسمه فيها الزهور

وانظر الغزلان تحويك
خادمــه لك في المقام
تبتغي ما كان يرضيك
حافظــه شرط الذمام

بيت

اعجنوا الحنا بكافور
وامزجــوه بالغاليه
وا حجرين يا حور
في القصــور العالية[٥٩]

الى آخر ما جاء في هذه الزفة .

وهكذا نجـد الغنـاء قد شارك المجتمـع في حفلاتــه و وافراحــه وكان له دور في التــوجيه والترفيه .

الظرفاء :

ونشأت في ذلك الوقت جماعـة من الظرفـاء يحضرون المجالس ويكون همهم الأول اضحـاك الناس بنكاتهم ونوادرهم وربمـا زاحمـوا بلطافتهـم طائفة المغنين وشاركوهـم في حضور المحافل العامة بل ربما جمع الظريف بين شخصية المغنـي النشـاد وبين المضحك الظريف وهـم جماعة كبيرة تحدثـت عن بعضهـم كتب التاريخ . وكان من اشهرهم في القرن الثالث عشر الفقيه احمد بن محمد العلفي وكانت له مع اهل عصره نوادر ونكات عجيبة وكان يحفظ شعر المتنبي وأبي العلاء المعري . وحدث ان اجتمع بالوزير الحسن بن علي حنش فقال له نحن افضل من الملائـكة فقـال الـوزير لماذا ؟ قال لأن طعامنا من الحبـوب والفـواكه وطعامهـم التسـبيح ونحـن في هذه الأيام نطلـع الى الأسـواق فنقـول سبحان اللـه ما هذا العنـب سبحـان اللـه ما هذا البلس سبحان الله ما هذا الفرسك فنكتفـي فيهـا بالتسبيح ونخرج من الأسواق كما دخلنا ، وحدث ان احتاج الى بعض النقود فكتب الى احد الوزراء بحاجته فلم ينل منه شيئـا فأمسى ليلـة في تفـكير وكتب الى واحد ممن يعرفهم من رجال الدولـة ان ولده مات ولا أجد ما أكفنه به فاحضروا دفنه فبعث اليه كل واحد بكفن ومال واصبحوا يتـواردون الى المسجد الجامـع بالروضـة فلما اصبـح قيل له ان وزراء الامـام وأعيان الدولـة بالجامـع ينتظرونـك للجنازة فخرج اليهم وهـو يضحـك واعتـذر بأن ولده أصابه بلغم وشفاه الله فعلموا انـه خدعهـم وخرجوا وهم يضحكون[٦٠] . ونوادر من هذه كثيرة وهو نموذج واحد ممن كان يزخـر بهـم المجتمـع في ذلك الوقت من ظرفاء ومضحكين .

المشعوذون :

ويقتـرب من هؤلاء بالمضحـكين فئـة ممـن تتعاطى الشعوذة والتنجيم ولهم في ذلك حيل وطرق غريبة تكون في الغالـب حديث الناس وهـم ما بين منجم وساحر . وقد سخر من أحدهـم الأديب علي بن صالح بن ابي الرجال المتوفى سنة ١١٣٥ هـ في قصيدة له فقال :

اذا قابـل المحـراب شاهـدت بومه
تهمهـم في ليل من الصف بارد[٦١]

وقـد قدم في ذلك الوقـت سنـة ١٢٠٠ من المغرب الفقيه عباس بن محمد المغربي فكانـت له حيل غريبة في السحر من ذلك انه اذا احتـاج الى دراهم اخذ بياضا وقطعه قطعا على صورة النقـود

المتعامل بها ثم يجعلها في وعاء ويتلو فينقلب الى دراهم ، وكان يضع خاتم احد الناس في اناء ويجعل فيه ماء ثم يرتب فيسمع الحاضرون في ذلك الاناء صوتا مفزعا ويرتفع ذلك الخاتم فيقع في حجر صاحبه . وكان قد اتصل بالمنصور عباس بن المهدي فأكرمه وكساه[٦٠].

ومن هؤلاء المنجم محسن بن عبد الله الوزير المتوفى سنة ١٢٢٤ وكانت تبدر امور مضحكة في ذلك فربما قال هذه الزهرة فعلت معي كذا وكذا وهذا المريخ المخنوث فعل معي كذا وكذا وكان لايستقر على حال من يشعروا الا وقد طلع الدخان فوقعوا عليه بغباوتهم يتمسحون به يطلبون دعوته فقال لا افعل الا ان تصلوني بالارفاد فوصلوه بطعام وسمن وجميع ما يحتاجه المسافر»[٦٣].

وهؤلاء الظرفاء الذين جمعوا بين دعوى العلم المزعوم وبين اضحاك الناس يغص بهم المجتمع وكانوا سلوة الناس وفاكهتهم .

ومن هذا القبيل الاكثار من حديث الجن والمجانين واخبارهم المزعجة وقد ذكر صاحب «طبق الحلوى» في حوادث سنة ١٠٧٥ انه اتفق ان بيتا بالقرب من دار «النقيب جوهر سعدان» شرس على اهله الجان فتكرر الرجم اليه في الليل والنهار حتى كاد يسلب عقول اهله كما سلبهم الاستقرار .

وفي حوادث سنة ١٠٨١ اتفق بصنعاء ان بيتا بزقاق الغول تسلط على أهله الغول وكان السبب في ذلك ان نساء البيت رفضن طلب احد الجان من احضار ما أرادفأفسد على اهل البيت عدة ايام كلما هيأوا من الشراب والطعام ثم عمد الى ملبوسهم الفاخرفقطعه ثم رماه في البئر وما زال يصابحهم ويماسيهم حتى اتلف معظم ما معهم من المتاع[٦٤].

فمثل هذه الاخبار تشاع بين الناس ويكون لها رهبة في النفوس .

والجن حقيقة نزل بها القرآن الا ان الاختلاف واقع بين العلماء حول مسالة تأثيرهم على الناس .

العلماء :

على ان هناك جماعة من حذاق الأطباء والعلماء عرفهم اليمن في ذلك الوقت ولم يكن لهم شيء من الشعوذة والدجل . وقد عرف بعض هذا الطبيب اليمني الكبير احمد بن عبد الله الواقدي الحارثي صاحب كتاب «نور الابصار وشفاء الخواطر والابصار» وهو يعتبر خبر تكملة لكتابي القانون لابن سينا والتذكرة لداوود الانطاكي .

وكان من ابرز الاطباء في ذلك الوقت الطبيب احمد الماس بن عبد الرحمن . يقول عنه المؤرخ جحاف انه لا يجيد الخط العربي وكانت كتبه كلها بالعبرانية خدم بعض حكماء اليونان وله في صناعته عجائب وغرائب ذكرها من ترجم له .

وقد سد الأطباء ثغرة اجتماعية كبرى في حاجة الناس الى المعالجة ولم يكن[٦٥]قد تطور في ذلك الوقت فيكون خطأهم في المعالجة اكثر من الصواب الا في حالات قليلة .

وكان من اشد ما يصاب به المجتمع في

القرون السابقة هو تلك الأوبئة الجماعية الفتاكة فتنتشر عدواها بين الناس وتصبح (طواعينا) تفتك بالعديد من الناس . وقد حدثتنا كتب التاريخ عن كثير من هذه الطواعين منها طاعون سنة ١٠٧٩ هـ ، يقال انه قد حصرت موتى اهل الروضة وحدهم فبلغوا نحو ألفين ، وموتى أهل ضوران فبلغوا نحو ثمانية آلاف وامثلة من هذا كثيرة اعاذنا الله من ذلك .

الآثار :

وربما كثر الحديث بين الناس في ذلك الوقت حول العثور على بعض الآثار الحميرية القديمة وما تحويه من كنوز عينية ثمينة كالذهب والجوهر . فقد عثر في سنة ١٠٦٧ على كنز اثري كبير وذلك بعد ان حفر احدهم لاساس بناء قديم فانتهى به الحفر الى قصر كبير باطن الأرض ووجد فيه عمارات حجرية مبنية بالنحاس[٦٦]

وعثر في سنة ١٠٧٧ على موضع أثري آخر في «بيحان» وجد فيه تمثال من الحديد وفي وجهه فصان وإذا تحركت الريح سمع له صفير .

واخبار العثور على الآثار في ذلك الوقت كثيرة وأغلبها لم تدون ولم تحفظ مقتنياتها اذ لم يكن البحث عنها بهدف المعرفة والتاريخ وانما لما تحويه من نفائس عينية كما اشرنا سابقا .

وبجانب كل ذلك نجد للناس أعيادهم واحتفالاتهم وقد احدثت الدولة في سنة ١٠٧٣ الاحتفال بشعار عيد الغدير فكان له شأن كبير عند الناس[٦٧]

وكانت دولة اليمن في ذلك الوقت قد قلدت الدولة العثمانية في الاحتفال بارسال محمل الى مكة للحاج اليمني وتخصيص نخبة من الرجال لحراسته وذلك سنة ١٠٥٨ هـ .[٦٨]

الا ان اهم الاعياد التي عرفتها المجتمعات الاسلامية عامة هي عيدا الأضحى والفطر وفيهما يحتفل كافة الناس ، بجميع فئاتهم .

وإذا خرجنا من البحث عن اهتمام الناس بشؤونهم الاجتماعية واحاديثهم واحتفالاتهم سنجد هناك فئات اجتماعية اخرى كان لها تأثيرها الملموس في الكيان العام للمجتمع .

ففي هذا العصر عرفت اقلية دينية من اليهود وقد تمركزوا في عواصم البلاد الرئيسية وبعض المدن الهامة . وقد عاشوا في أمن واستقرار ولم يشتركوا في حروب الدولة الكثيرة حيث اعفتهم من الانخراط في سلك الجندية وتفرغوا لشؤونهم الاجتماعية العادية . فكان اليهود ينعمون بخيرات البلاد في حين كان يسقط العديد من ابناء البلاد في تلك الحروب التي لانهاية لها .

وقد عرفت عنهم صناعات يدوية كثيرة من أهمها صناعة الخزف وما يتعلق به وقد اجادوا فيها حتى وضع صاحب «قانون صنعاء» اسعاراً خاصة تفوق غيرها .

وفي كثير من الأحيان احتكر اليهود عصر الخمر وباعوه بالخفية لبعض أبناء أكابر الدولة حتى ان المؤرخ يحيى بن الحسين ذكر في حوادث سنة ١٠٧٤ : «إنه شكا شيخ اليهود النقاش أن كثيراً من المسلمين طلب بيع الخمر منهم ووجد عنده تواقيع كثير من أعيان الناس وسادتهم وفقهاء من الذين كانوا يشترون منه الخمر»[٦٩]

يقول :

«ومن بعض آل القاسم من أقارب الامام فحارت فكرة الإمام وعجب من ذلك وكدره ذلك الكلام»

واستفحل أمر اليهود في عصر الخمر وبيعه للناس حتى اضطر الدولة هذا الى اصدار امر سنة ١٠٧١ هـ منعت فيه اليهود من عصر الخمر في بيوتهم[٧٠] ولكن هذا الأمر لم يستمر تماماً .

وشارك اليهود في الاستفادة من خيرات البلاد ومنافعها طائفة من تجار «الهندوس» عرفوا في اليمن «بالبانيان» . وقد احتكروا اسواق التجارة الكبرى وتحكموا في مصير سير الأسواق وبيعها حتى اثر هذا في تجارة اهل صنعاء وشكوهم الى المتوكل على الله اسماعيل وفي ذلك يقول المؤرخ الجرموزي :

«كان قد كثر في اليمن طائفة البانيان من براهمة الهند لما رأوا من الأمان على أنفسهم وأموالهم والعدل فيهم وفي غيرهم فقل مدينة او سوق لم يخل منهم في بر أو بحر وسهل ووعر حتى لقد استقروا في سوق شهادة ومال اليهم الناس للشراء منهم والاستدانة والمرابحة في اموالهم لما الناس عليه من الحرص وطلب الاخف في الثمن والتيسير في المعالجة . فشق ذلك على كثير من اهل البيع والشراء من المسلمين ، وعظم ذلك في صنعاء وشكوا ذلك الى الامام ، فأمر ان يجعل مواضع خاصة بهم فاقبل اليهم اهل الحاجات فأعاد أهل صنعاء الشكوى وحضر كبار البانيان وقالوا وماذا من ذنب الى اهل صنعاء فتجار صنعاء افرطوا في الطمع ونحن قبلنا القليل من الفائدة وامهلنا الضعيف واخذنا عوض البضاعة بضاعة اخرى رعاية للأسهل للمعاملين لنا فأمرهم الامام بالابقاء في مواضعهم ، ثم ان التجار من اهل صنعاء قالوا لا تسعنا صنعاء واياهم وازداد اهل الحاجات بالاقبال على تجار البانيان فاكثر اهل صنعاء الشكوى وقالوا ان اصحاب الامام نصروا الكفار على المسلمين . ثم ان جماعة من عامة الناس هجموا على امام الصلاة بالجامع الكبير ومعهم الشموع مسرجة وكان ذلك بالليل وصرخوا في إمام المسجد قائلين أيكون دعاؤكم لنصر الكافرين على المسلمين فسكت عنهم حتى انصرفوا ثم ساروا والشموع بأيديهم الى مسجد صلاح الدين وارتقى بعض الناس المنارة واخذ ينعي الاسلام فامر احد امراء الدولة في صنعاء بالقبض عليهم فهرب من هرب وانتهت بباب البعض منهم . ثم ان اهل صنعاء كتبوا بشأن هؤلاء الى الامام وهو في ضوران فأمر باحضار رؤسائهم وحبسهم . ثم ان الامام فكر بامر البانيان ورجح له بعضهم جلاءهم من اليمن بعد ان وجد عندهم اصناما يعبدونها في حوانيتهم فلم ير هذا الرأي ورأى ان توضع عليهم الجزية على كل نفر قرش في كل شهر»[٧١]

وهكذا كان لتجار الهند من البانيان حركة تجارية كبيرة في صنعاء خلال القرن الحادي عشر . ومنهم من استقر في البلاد وكان لهم صنم في المخاء يعبدونه لم يلبث ان هدم بعد أن الف بشأنه العلامة محمد بن اسماعيل الامير المتوفى سنة ١١٨٢ رسالة تدعو الى ازالته .

وربما انتقلوا الى اليمن مع اولادهم ونسائهم وقد جاء في شعر الاديب احمد بن الحسين الرقيحي المتوفى سنة ١١٦٢ هـ مداعباً احد اولاد البانيان

ولقد فتنت ببانيان لحظة

يسطو بمرهفه علي ويعتدي

قد ضل عن سبل الهداية فليته

يدنو الى سبل اللقاء ويهتدي[٧٢]

ولم يعرف اليمن فئات دينية اخرى سوى من ذكرنا . على ان هناك طبقات اجتماعية كثيرة اشرنا الى بعضهم فيما سبق . وتعرف في الغالب بتخصصاتها ومهنتها .

المرأة :

على ان المرأة كانت أهم فئة اجتماعية وقد حظيت بقدر لا بأس به من التعليم والثقافة ، وقد عرف العصر جماعة منهن مارسن الأدب والثقافة وكان على رأسهن الأديبة زينب الشهارية وهي أديبة عصرها وسنتحدث عنها عند حديثنا عن الأدب .

ومن النساء في ذلك الوقت من عرفن بالخوض في الفلسفة حتى اتهمن بالزندقة والالحاد . وقد حدثنا المؤرخ لطف الله جحاف عن العالمة زينب بنت محمد بن الحسين بن الحسن بن القاسم من أهل القرن الثاني عشر كانت مباينة لولدها عبد الله بن اسحاق لاشتغاله بعلم الفقه والحديث مائلة الى الرفض قرأت القرآن وحفظت شيئا من مسائل الاعتقاد فرمت من مالقها بالكفر وكانت لا ترى معرفة ولدها شيئا في جانب معرفتها»[٧٣]

وقد ذكروا عن العالمة زينب بنت المتوكل انها كانت تنوب في الاحكام عن زوجها محمد بن عبد الله بن الحسين المتوفى سنة ١٢٠١ . وربما رجع اليها في بعض احكامه القضائية إلا أن الامية قد تفشت بين النساء في الارياف حتى بلغ الأمر ببعضهن انهن لا يعرفن الصلاة . فقد ذكر المؤرخ الجرموزي ان المتوكل اسماعيل اجتمع بنساء في السود للاحسان اليهن : «فتوسطت امرأة بين النساء مخاطبة لزميلاتها قائلة لهن تكذبن على الامام انكن مصليات وانتن غير كذلك ثم قالت أما انا فلا اكذب مثلهن انا لا أعرف الصلاة»[٧٤]

فهذا مثال من الامية المنتشرة بين نساء الارياف .

ومع ذلك فربما كان لبعض النساء اثر كبير في قومها وربما احتلت مكان الصدارة حتى وصلت الى منصب الزعامة المطلقة . ففي قبيلة يافع تولت الزعامة فيها امرأة في القرن الحادي عشر يقال لها «نور» وكانت تقود الجيش وتحارب . وفي سنة ١١٠١ تصدت لجيوش المهدي صاحب المواهب وقادت اصحابها حتى أوصلتهم الى حصن العر وتمنعت هناك فلم يستطع احد الوصول اليها .

وفي القرن الثالث عشر كانت الشيخة صالحة تتولى زعامة بلاد الحجرية وكانت لها اخبار يطول ذكرها ففي سنة ١٢٠٩ بعث والي تعز الى الحجرية النقيب سعيد ابو خليفة متخلصا لحقوق الدولة في تلك النواحي وقصد المذكورة وكانت هي صاحبة الحجرية فتسلم منها مالاً ثم ارسل اليها ان ثمة بقية قدرها خمسمائة قرش فرانصة فابت تسليمها واظهرت له اغلاظاً في الجواب فبعث بجوابها الى والي تعز فألزمه الرجوع اليها واخبرها ان المشاحجة في مثل ذلك ربما جرت الى فساد طويل . فغاظه جوابها وقرر ان لا يعود حتى يأتي ببقية النقود واستضعف امر تلك المرأة فجمعت

الشيخة صالحة من لديها من الاتباع وخرجت اليهم كاشفة رأسها تشكو طلب النقيب سعيد وتتظلم فاجتمع حولها اصحابها وبرزوا للنقيب سعيد وجرت بينهم معركة وقع فيها قتلى فرضخ لامرها وتركها لشأنها .

يقول المؤرخ لطف الله جحاف عن تلك المرأة :

«انها تتقلد السيف وتحمل الترس وتقود الرجال وتلبس النعال مترجلة على اتم صفة من صفات الشجاعة»

ومع ذلك فالمرأة هي المرأة في كل زمان ومكان تهتم بشؤونها الخاصة في الدرجة الاولى من حيث العناية بجمالها وملبسها وقد شكا كثير من العلماء تبرجهن في الاسواق وخروجهن من البيوت فقال العلامة يحيى بن المطهر المتوفى سنة ١٢٦٨

كذا النساء كشفن لساق أو لمعصم
متبرجات مظهراتها بلا تلعثم
وقبل قد سألن كم يرخين خلف القدم

ويقول القارة في ذلك :

وابحنا لكل انثى ان تمد الطر
ف للمشتهي ولا تعويل
يتفرجن من روس العوالي
يتبرجن ماهناك عدول

وقد رأى بعض الحكام المتشددين في القرن الثالث عشر ان يمنع النساء من دخول الحمام ودخول الأسواق والخروج من البيت من بعد اذان المغرب وهذا غاية التشديد والمضايقة ولكن هذا الأمر لم يدم طويلاً وبقيت المرأة تعتني بجمالها وكانت اثيرة عند الناس كربة بيت وأم وزوجة وهي نصف المجتمع وقد شاركته في الافراح والاحزان [٧٥]

(*) فصل مستل من مؤلف كبير لكاتب المقال بعنوان « الأدب اليمني بين احتلالين » تحت الطبع .

١ انظر هذا النص في كتابنا « دراسات في التراث اليمني » ص٥٦ .
٢ نشر العرف ج ٢ / ص ٩٥٩
٣ الجرموزي : تحفة الأسماء « مخطوط »
٤ الجرموزي : تحفة الأسماع « مخطوط »
٥ ابو طالب « طيب اهل الكساء » مخطوط .
٦ نور الابصار « مخطوط »
٧ نشر العرف ج ١ ص ٧٣٩ .
٨ نور الابصار « مخطوط »
٩ وشي التمام « مخطوط »
١٠ وشي التمام « مخطوط » .
١١ نور الأبصار « مخطوط »
١٢ نور الأبصار « مخطوط » .
١٣ المصدر السابق .
١٤ نشر العرف ج ١ ص ٤٢٧
١٥ انظرها بتحقيقنا في « مجلة الدراسات اليمنية » عدد ١ ص ٩١
١٦ « نزهة الأنظار » ص ٥٦٤ ط المغرب .
١٧ « نزهة الأنظار » ص ٥٦٤ ط المغرب
١٨ طيب أهل الكساء «مخطوط»
١٩ نور الأبصار «مخطوط»
٢٠ ديوان الرقيحي «القسم الفصيح» مخطوط .
٢١ انظر بحثنا مؤلفات محمد بن اسماعيل الأمير المنشور في مجلة الاكليل العدد ٢ ص ١٥٤ .
٢٢ ديوان الرقيحي «مخطوط»
٢٣ ديوان الرقيحي «مخطوط»
٢٤ من هامش مخطوطة في الطب .
٢٥ ابن الوزير : «طبق الحلوى» «مخطوط»
٢٦ المحبي : خلاصة الأثر ج ٢ ص ١١٤ .
(٣) ديوان عبد الصمد باكثير «مخطوط» . والمصر ما يصر فيه من حزام أو منديل او غيره .

٢٨ ضعيف .
٢٩ صعب .
٣٠ جمع حرمة : النساء .
٣١ تلاكم .
٣٢ ديوان الخفنجي «انظرها فيه» .
٣٣ نشر العرف ج ١ .
٣٤ طيب اهل الكساء «مخطوط»
٣٥ يحيى بن الحسين : بهجة الزمن «مخطوط»
٣٦ عبد الله الحبشي : «حوليات يمانية» ص ٦١ .
٣٧ صانع الحجار
٣٨ جمع ملاجه وهو طلاء البناء بالتراب .
٣٩ طلاء البناء بالجص .
٤٠ لطف الله جحاف : «درر نحور الحور العين» «مخطوط»
٤١ حوليات يمانية
٤٢ الوشلي : «نشر الثناء الحسن» «مخطوط» .
٤٣ نشر العرف / ج٢/
٤٤ الجرموزي : «تحفة الاسماع» «مخطوط»
٤٥ «حوليات» يمانية
٤٦ المصدر السابق/ ص ١٣١
٤٧ هو الفقيه صلاح الاخفش المتوفي سنة ١١٤٢ هـ .
٤٨ نشر العرف ج١/ ص ٧٩٣
٤٩ ديوان القارة «مخطوط» .
٥٠ «درر نحور الحور العين» «مخطوط» .
٥١ وهو منسوب الى شاعر حميني يمني يعرف بالغويدي .
٥٢ سفينة «مخطوطة»
٥٣ سمة السحر فيمن تشيّع وشعر «مخطوط»
٥٤ دل هذا النص على ان آلة العود كانت تستورد من الروم «تركيا»
٥٥ «درر نحور الحور العين» «مخطوط» .
٥٦ «درر نحور الحور العين» «مخطوط» .
٥٧ «درر نحور الحور العين» «مخطوط» .
٥٨ نشر الثناء الحسن «مخطوط»
٥٩ ديوان الرقيحي «مخطوط»
٦٠ نيل الوطر ج ١ ص ٢٢٨ .
٦١ ديوان أبي الرجال «مخطوط»
٦٢ درر نحور الحور العين «مخطوط»
٦٣ درر نحور الحور العين «مخطوط»
٦٤ طبق الحلوى «مخطوط»
٦٥ انظر في ذلك كتاب : درر نحور الحور العين «مخطوط»
٦٦ طبق الحلوى «مخطوط»
٦٧ طبق الحلوى «مخطوط»
٦٨ طبق الحلوى «مخطوط»
٦٩ بهجة الزمن «مخطوط»
٧٠ بهجة الزمن «مخطوط»
٧١ انظر هذا النص القيم عن ثورة تجار صنعاء في القرن الحادي عشر في مخطوطة «تحفة الاسماع»
٧٢ ديوان الرقيحي «مخطوط»
٧٣ درر نحور الحور العين (مخطوط)
٧٤ (تحفة الاسماع) : «مخطوط»
٧٥ وللتوسع في اخبار المرأة اليمنية يراجع كتابنا «معجم المرأة اليمنية» .

* * *



صنعاء عند المؤرخين

بقلم: القاضي اسماعيل بن علي الأكوع

بسم الله الرحمن الرحيم

تناول صنعاء بالذكر عدد كثير من المؤرخين ، وأفاضوا بذكرها والثناء على محاسنها وجمالها وبديع عمرانها وكثرة حدائقها وبساتينها ومساجدها وجوامعها واعتدال هوائها في جميع فصول السنة ؛ فمنهم من تحرّى الحقيقة فيما كتب فأجاد وأبدع ومنهم من بالغ وتزيد وخلط بين الحقيقة والخيال والأساطير فأتى بما ليس له سند ولا دليل من الواقع ، ومنهم من اكتفى بالقليل من ذكر أوصافها ومحاسنها . ولكنهم جميعا متفقون على ان صنعاء فريدة في طراز عمرانها وجمال مناخها واعتدال هوائها وغير ذلك من الاوصاف التي يتناقلون اخبارها ويروي المتأخر منهم عن المتقدم ما كتب بلفظه أو بمعناه وقد يزيد أو ينقص او يقدم او يؤخر . وقد افرد لها اسحاق بن جرير الصنعاني من اعلام المائة الرابعة كتاباً سماه « تاريخ صنعاء » واعقبه احمد بن عبد الله الرازي من علماء آخر المائة الخامسة وسماه ايضاً تاريخ صنعاء [1] ، وسأورد كلام المؤرخين[2] الذين كتبوا عن صنعاء كما هو على علاته دونما تعقيب أو استدراك أو تصحيح ما عدا ما قد يحتاج الى ايضاح او شرح تاركاً للقارىء وحده التمييز بفطنته بين صحيح الأخبار وبين ما هو بعيد عن الحقيقة والواقع حتى يكون ذلك أدعى للتأمل وإعمال الفكر والنظر .

وسيكون لمؤرخي اليمن الأسبقية في الذكر وفي مقدمتهم لسان اليمن ابو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني المتوفى بعد الاربعين وثلثمائة :

فقد افتتح الجزء الثامن من الاكليل بذكر

---

(١) حققه ونشره حسين بن عبد الله العمري وعبد الجبار زكار .

(٢) لم استقص ذكر ما كتب عنها فهذا يحتاج الى وقت طويل وجهد مضن . للبحث في جميع كتب التاريخ التي لليمن فيها ذكر ولكنني ذكرت ما اتفق لي ان قرأته واطلعت عليه .

قصرها الشهير غمدان فقال : « اول قصور اليمن واعجبها ذكراً وأبعدها صيتاً قصر غمدان ، قصر ازال ، وهو في صنعاء بعد وقد ذكرها بهذا الاسم من كان في آخر الجاهلية .

قال امية بن ابي الصلت :

جلبنا المدح تحفيه المطايا
إلى اكوار أجمال ونوق
تأمّ بنا ابن ذي يزن وتغرى
ذوات بطونها امّ الطريق
مغلغلة مرابعها ترامى
إلى صنعاء من فج عميق
ولما وافقت صنعاء صارت
بدار الملك والحسب العريق

ثم قال : « والذي أسّ غمدان وابتدأ بناءه واحتفر بئره التي هي اليوم سقاية لمسجد صنعاء سام بن نوح عليه السلام احتوى بُعدة السكنى في ارض الشمال ، وأقبل طالعاً في الجنوب يرتاد أطيب البلاد حتى صار الى الاقليم الأول فوجد اليمن أطيبه مسكناً وارتاد اليمن فوجد حقل صنعاء أطيبها بعد المرة الطويلة فوضع مقرانة وهي الخيط الذي يقدر به البناء ، ويبنى عليه بناءه اذ امره بوضع الاساس في ناحية فج عضدان[1] في غربي حقل صنعاء فبنى الضبر[2] وهو اليوم معروف بصنعاء فلما ارتفع بعث اليه طائراً فاختطف المقرانة[3] وطار بها وتبعه سام لينظر اين وقع ؟ فأم بها الى جيوب النعيم من سفح نقم فوقع بها فلما رهقه طار بها فطرحها على حرة غمدان فلما قرت المقرانة على حرة غمدان علم سام ان قد امر بالبناء هنالك فأسّ غمدان واحتفر بئرة وتسمى كرامة وهي سقاء الى اليوم ولكنها اجاج .

وذكر حسان اليمن كابرا عن كابر أن الطالع كان ساعة بنائه الثور وفيه الزهرة والمريخ وتوجد طباع هذه البروج في ثبات الاشياء وبها وقلة تغيرها ودوام هذا الاساس انه اقام في تزايد مع الملوك قدر اربعة الاف سنة قمرية وبقي من بعض حيطانه الجروب المقابلة لأبواب الجامع بصنعاء . ثم تزايدت صنعاء في الاسلام الى بضع وتسعين ومائتين من الهجرة وخربت ولم تلبث ان عادت فهي اليوم تكاد تعود على ما كانت عليه وهي تزيد .

وعلماء صنعاء يرون أنه لابد أن تعمر[4] بعد خرابها وتملأ ما بين جبليها وتصير سوقها في بطن واديها .

ثم قال الهمداني بعد كلام طويل لا علاقة له بموضوع مدينة صنعاء وقصرها :

وصنعاء احدى جنان الارض عند كافة الناس وساعات النهار بها الى الغاية اثنتا عشرة ساعة واحدى وخمسون دقيقة ، ثم وصفها الهمداني بقوله :

أرض تخيرها سام واوطنها
وأسّ غُمدان فيها بعدما احتفرا

(١) الفج المضيق بين الجبلين ، وعضدان قرية خربة غرب جنوب فج عطان .

(٢) الضبر هو ضبر خَذَين المعروف من سنوات قليلة بالنهدين .

(٣) المقرانة : الخيط الذي يستعمل عند البناء لضبط استقامة البناء حتى لا يحصل فيه اعوجاج أو ميل او انحراف .

(٤) ومصداق هذا التوقع ما نشاهده اليوم من امتداد عمران صنعاء في كل الجهات فاتصل بالروضة شمالا وبسواد حزيز جنوبا وبعيبان غربا ونُقم شرقا .

ام العيون فلا عين تقدمها
ولا علا حجر من قبله حجرا
لا القيظ يكمل فيها فصل ساعته
ولا الشتا يمسيها اذا اقتصرا

وقال ايضاً :

ما زال سام يرود الأرض مطلبا
للطيب خير بقاع الأرض يبنيها
حتى تبوأ غمداناً وشيدها
عشرين سقفا يناغي النجم عاليها
فان تكن جنة الفردوس عالية
فوق السماء فغمدان يحاذيها
وان تكن فوق وجه الأرض قد خلقت
فذاك بالقرب منها أو يصاليها

وقال احمد بن عيسى الرداعي من خولان ادد[1] من قصيدته المشهورة التي يصف بها محجة اليمن الى مكة وهي يتيمة لا أخت لها :

صنعاء ذات الدور الاطام
والقدم الاقدم ذي القدام
والعز عز ذي السطوة الغشام
است بعلم لابن نوح سام
بعلم رب ملك علام
اذ رادها سام بلا توهام
في حقلها العام وبعض العام
ما بين سفحي نقم النقام
وبين عيبان العبير السام
فاسها في سالف الأيام

(القدام : الملك وقد يفسرها جماعة قادم ونقم جبلها الشرقي وعيبان : جبلها الغربي)

وقد بقي من حد غمدان القديم قطعة ذات جروب متلاحك عجيب فهي قبالة الباب الاول والثاني من ابواب الجامع الشرقية وباقي غمدان تل عظيم كالجبل وكثير مما حوله من منازل الصنعانيين فمنه بنيت وفي تله تحصن ابن الفضل[2] القرمطي يوم دخل صنعاء ووافى المسجد وملك صنعاء وانقض على سلطانها واهليها .

وكان غمدان عشرين سقفاً غرفا بعضها على بعض واختلف الناس في الطول والعرض فقائل يقول كل وجه غلوة بالغة ، وقائل يقول : كان اكثر ، وكان فيما بين كل سقفين عشرة اذرع وفيه يقول الاعشى :

واهل غمدان حيث كانوا
اجمع ما يجمع الخيار
فصبحتهم من الدواهي
جائحة عُقبها الدمار

وقال اخر من حمير :

وكان لنا غمدان ارضا نحلها
دفاعاً وفيها ربنا الخير مرثد

---

(١) خولان ادد قال القاضي محمد الاكوع محقق الجزء الثامن من الاكليل في تعليقه على الكلمة : خولان أدد هي خولان العالية والتي يقال لها ايضا خولان الطيال .

(٢) هو علي بن الفضل .

وقد يقال على غمدان بمأرب وفيه يقول الهمداني شعراً :

من بعد غمـدان المنيف واهله
وهو الشفاء لقلب من يتفكر
يسمو الى كبـد السماء مصعدا
عشرين سقفـا سمكهـا لا يقصر
ومن السحاب معصب بغمامة
ومـن الرخـام منطـق ومؤزر
متلاحكا بالقطر منه صخرة
والجزع بين صروحـه والمرمر
وبـكل ركن رأس نسر طائر
أو رأس ليث من نحاس يزأر
متضمنـاً في صدره قطارة
لحسـاب اجزاء النهـار تقطر
والطـير واقفـة عليه وفودها
وسياهـه قنواتهـا تتهدر
ينبـوع عـين لا يصرد شربها
وبرأسـه من فوق ذلك منظر
برخامـة مبهومـة فمتـى ترد
اربابه مدخولـة لم يعسروا

وكان الى جانب القصر نخلة تسمى الدامقة سحوق تطرح بأغصانها الى بعض ابهائه .

وقال فيه امية بن ابي الصلت (ويقال بل ابو الصلت) ويقال انها مصنوعة وانه لم يقل منها الا ثلاثة ابيات او اربعة والصحيح انها لأمية :

فاشرب هنيئـاً عليك التـاج مرتفقا
في رأس غمـدان داراً منـك محـلالا
قصرٌ بناه ابوك القَيْل ذو شرح
فهل ترى احداً نال الذي نالا
قد تحسر الطير عنه ان تعاليه
والطـير ينقض اصعـاداً واسهـالا
ما ان تحاذيه الاهاضر اعظمها
طول التخالف ادبـاراً واقبالا
منطَق بالرخـام المستـزاد له
يرى على كل ركن منه تمثالا

ولم تزل حمير تنزله وتزيد فيه حتى اخرب في ايام عثمان ككل ما كان[1]

وقال ثعلبة بن عمر العبقسي ابن سلمة وقيل بل هو لعبد القيس الأزدي :

ولو كنـت في غمـدان تحـرس بابـه
عليّ اراجيل كمـى وسائف
اذا لأتتني حيث كنـت منيتي
يخب بها هاد بامـري قائف

وفيه يقول علقمة بن ذي جدن :

فذاك غمـدان محزئلاً
كانـه جبـل منيف
يسكنـه ماجـد ابي
ترغـم قدامـه الأنوف

(١) قال ياقوت في معجم البلدان : وهدم غمدان في ايام عثمان بن عفان رضي الله عنه . فقيل له : ان كهان اليمن يزعمون ان الذي يهدمه يقتل فامر باعادته فقيل له : لو انفقت عليه خراج الارض ما اعدته كما كان فتركه . وقيل وجد على خشبة لما خرب وهدم مكتوب برصاص مصبوب : « اسلم غمدان هادمك مقتول » . فهدمه عثمان رضي الله عنه فقتل .

وقال ايضاً :

هنـاك غمـدان محزئلا
بنـاؤه العجـب العجيب
اعـلاه مبهمـة رخام
عال واسفلـه جروب

وقال ايضاً :

ابعـد غمـدان حـين أمسى
يسفـى به المور والرياح
وناعـط اوحشـت وأقوت
فهـل لذي ثروة فلاح

وقال ايضا :

وتكورت غمـدان من صرف الـردى
من بعـد مملـكة وبعـد تكبر
القيل من قحطـان ابهـم صخرهـا
وعمادها ، والقطر خـير الأقطر

وقال امرؤ القيس في مقامه من حمير :

وما كنت أخشى أن أبيت بحمير
غريبـا ولا أغـدو الى باب همـدان
ولا اتثنى في ظفـار واجتني
جنى النحل غرثانا ولا غير غرثان
الا ليت لي بالنحل احيا عامل
وبالخشـلات البقـع ارشـا غزلان

فلما سمعت حمير شعره هذا همت الإسـاءة اليه

فقال :

لعمرك ما ان ضرني بين حمير
ولا غيرها الا المخيلة والسكر

وقال اسعد تبع :

وغمـدان قصر لنـا مشرف
مآجلـه حولـه تزفر
وكان معسكرنـا دائماً
ازال وعسـكره عسكر

وقال تبع يصف صنعاء وما حولها :

دارنـا الـدار ما ترام اهتضاما
من عدو ودارنـا خـير دار
ان قحطـان اذ بناهـا بناها
بـين برية وبـين بحار
نطقت بالـكروم والنخـل والزر
ع واصنـاف طيب الاشجار
وتسيح العيون فيهـا فما تسـ
ـمع الا تسلسـل الانهار
ليس يؤذيهـم بهـا وهـج الحر
ولا القـر في زمـان اقتدار
طاب فيها الطعـام والماء والنو
م وليل مطيب كالنهار
ان اثارنـا تدل علينا
فانظـروا بعدنـا الى الآثار

وقال علقمة :

قد كان حسـان في نؤا
بة غمـدان قديرا بعيش من رغدا

يخدمه من سراة حمير الغسـ
ـان قياماً لن يقعدوا ابدا
ان سار ساروا حواليه صفـ
ـين ولا يبعدون اذا بعدا

وقال أيضا :

ولم يخلد على الحدثان بان
بنى غمدان بمبهمة البهوم
بعرعرة مؤشرة وساج
وصلب السدّر واللبخ الضروم

وذلك ما رفعه محمد بن خالد من الحديث الى وهب فقال : «لما بنى غمدان صاحب غمدان وبلغ غرفته العليا اطبق سقفها برخامة واحدة وكان يستلقي على فراشه في الغرفة فيمر بها الطائر فيعرف الغراب من الحدأة من تحت الرخامة وكان على حروفيه اربعة تماثيل أسود من نحاس مجوفة فاذا هبت الريح فدخلت اجوافها سمع لها زئير كزئير الأسد .

وكان يصبح فيها بالقناديل فترى من رأس عجيب[1] قال : «وما سمعتهم يشكون بأن الذي اسمه سام بن نوح عليه السلام» .

وقال : «وخبرني بعض أهل العلم أن غمدان كان على سبعة سقوف بين كل سقفين اربعون ذراعا وهذا لا يمكن لأن اربعين ذراعا بين كل سقفين كثير . والثبت ما ذكرناه انه عشرون سقفا كل سقف على عشرة أذرع فذلك مائتا ذراع ولن يتعذر لقدرتهم على كل معجز من البناء .» .

قال : «وكانت غرفة الرأس العليا مجلس الملك اثني عشر ذراعا عليها حجر من رخام وكان في زواياه الأربع اربعة أسود من نحاس اصفر خارجة صدورها فاذا هبت الريح في اجوافها زارت كما يزأر الأسد . وكان الذي بنى غمدان ال شرح يحضب فلما نظر ظله بالغداة وقد بلغ سفح عيان[2] كف عن البناء .» .

وقال ابن شرية : «كان للغرفة اربعة ابواب قبال الصبا والدبور والشمال والجنوب وعند كل باب منها تمثال اسد من نحاس فاذا هبت الريح من الأرياح زأر ذلك التمثال الذي هو قبالة ذلك الباب فاذا تناوحت الأرواح زأرت جميعها .» .

قال : وحدثني عمرو بن اسحاق بن محمد بن عبد الرحمن الحضرمي عن ابيه عن جده ان شعرم أوتر هو الذي وصل بنيان القصور وأحاط على صنعاء بحائط .

قال : وحدثني عمرو بن اسحاق الحضرمي عن ابيه عن جده أن إلى شرح كان ملك غمدان وانه بناه على سبعة أسقف كل سقف منها على اربعين ذراعا .

قال : وكانت له اربعة اوجه في ترابيعه وجه مبني بحجارة بيض ووجه بحجارة سود ووجه بحجارة خضر ووجه بحجارة حمر ، وكان في اعلاه

---

(١) لا يرى نُقُم من عجيب لأن جبال همدان تحجبه فما بالك بقصر غمدان «وهو دونه بمسافة كبيرة !» .

(٢) قصر غمدان يقع في وسط صنعاء وهي محجوبة بجبل نقم من جهة الشرق فلا تظهر الشمس على غمدان الا وقد ارتفعت عن نقم وقصر ظله مع أنه اي ظل نقم بما في ذلك غمدان لا يتجه نحو عيان .

غرفة لها لمج[1] وهي الكوى كل كوة منها بباب رخام في مقيل من الساج والابنوس وسقف للغرفة رخامة واحدة صفيحة .

وقال اخر : كانت في الغرفة تحت بيضة رخام من ثمان قطع مؤلفة وذلك أحرى لأنهم كانوا يثقبون فيها السرج فترى من رأس عجيب ولن ترى فيها حمرة النار مع الرخامة المسطوحة ويؤيد ذلك قول علقمة حيث يقول :

مصابيح السليط يلحن فيه
اذا لُمِسَ كتوماض البروق

وفي ركن من اركان القصر عند ترابيعه اسد من نحاس رجلاه في الدار وصدره ورأسه خارج من القصر فعفى ما بين فيه الى دبره عن حركات فيه مدبرة وكانت الريح اذا هبت تردد في اجواف تلك الاسد فتزأر عنها . وكانت فيها ستور فيها أجراس اذا ضربت تلك الرياح تلك الستور تسمع تلك الاصوات لتلك الاجراس من مكان بعيد ، واذا طلعت الشمس اصاب ظله جبل عيبان والى جنبه نخلة سحوق تطرح بعسبانها الى بعض ابهاء ذلك القصر تسمى الدامقة . فلما فرغ إلى شرح من بناه قال فيه شعرا بالحميرية لم يحفظ منه الا هذا البيت :

اني انا القيل الى شرح
حصنك غمدان بمبهات

ويقال إن غمدان أول قصر بني باليمن .

ووجد فيه حجر في بعض زواياه فيه مكتوب بالمسند بناه غمدان فيقال إنه البناء الذي ذكره الله عز وجل «لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم»[2] قالوا فلما نزلت هذه الاية ارسل رسول الله ﷺ فروة بن مسيك ليهدمه فلما اراد هدمه لم يقدر عليه حتى احرقه بالنار ولم يهدم الا بعد وفاة رسول الله ﷺ او عند وفاته لأنه لم يهدم الا بعد ان عمل فروة بن مسيك وقيس بن هبيرة المكشوح في قتل الأسودالعنسي الذي ادعى النبوة بعد وفاة رسول الله ﷺ . وله خبر طويل . وكان فيه فقتل في السنة التي توفي فيها رسول الله ﷺ .

وكان اهل صنعاء يقولون في الاسلام انها القرية المحفوظة وانهم سمعوا هاتفا مرة يقول في بعض ايام من حاربهم : كل عليك يا ازال وأنا اتحنن عليك .

وحدثني اللبخي عن اشياخه بني يقظان من الأبناء عن رجل طلب وهب بن منبه في منزله فقيل له هو يصلي في الحقل خارج المدينة فتبعته فوجدته يصلي المغرب فقلت انتظره حتى ينصرف فوصلها بالعشاء الاخرى وقام ليلته اجمع الى أن فجر عمود الصباح واذا بطائر يصيح كان يقول : القرية محفوظة ، قال فقال له وهب لما سلم عليه : اسمعت هذا الطائر قال قلت : نعم قال فاني في هذا الموضوع من سنين ما أكاد افقده من كل غداة» .

ووصف الهمداني صنعاء في كتابه «صفة جزيرة العرب» بقوله :

«وهي ام اليمن وقطبها لأنها في الوسط ما

(١) اللهج : النافذة الكبيرة .

(٢) سورة التوبة (١١) .

بينها وبين عدن كما بينها وبين حد اليمن من ارض نجد والحجاز وكان اسمها في الجاهلية أزال ، ويسميها اهل الشام القصبة . وتقول العرب : (لا بد من صنعاء ولو طال السفر) . وينسب الى صنعاء صنعاني مثل بهراء بهراني لأنهم رأوا النون اخف من الواو وخولان لا تنسب اليها الا على بنية الأصل صنعاوي . وكلهم يقولون في ساكن الكدراء كدراوي ولا يقولون كدراني .

وصنعاء أقدم مدن الأرض لأن سام بن نوح الذي أسسها . وقد جمعت أخبارها في القديم في كتاب (الاكليل) و ضربنا عن ذكر قديمها في هذا الموضع صفحاً . ولم يزل بها عالم وفقيه وحكيم وزاهد ومن يحب الله عز وجل المحبة المفرطة ويخشاه الخشية اليقظى على نحو ما ذكره بطليموس في طبائع اهل هذا الصقع وهم من ذلك أهل تمييز لعارض الأمور وخدمة السلطان باهية وتملك وتنعم في المنازل ( ) ولهم صنائع في الأطعمة التي لا يلحق بها اطعمة بلد ، ولها خط المصاحف الصنعاني المكسر والتحسين الذي لا يلحق ولهم حقائق الشكل ذكرهم بذلك الخليل ( ) ولهم الشروط( ) دون غيرهم ولا يكون لفقيه من أهل الأمصار شرط الا ولهم ابلغ منه واعذب لفظاً وأوقع معنى وأقرب اختصارا» .

ثم ساق ذكر عدد كثير من علمائها ورواتها وادبائها وشعرائها ونقل بعض رسائل بليغة لبشر بن ابي كبار البلوي .

ولم يزد نشوان بن سعيد الحميري المتوفى سنة ٥٧٣ هـ في وصف صنعاء في كتابه «شمس العلوم» في مادة صنع على قوله : صنعاء مدينة باليمن يقال فيها قصبة اليمن وام اليمن والنسبة اليها صنعاني ينون على غير قياس .

ووصفها عمارة بن علي اليمني المتوفى سنة ٥٦٩ هـ في كتابه (تاريخ اليمن المسمى المفيد في اخبار صنعاء وزبيد) :

انه ليس لجميع اليمن مدينة اكبر ولا اكثر مرافق واهلا من صنعاء وهو بلد في خط الاستواء وهو من الاعتدال في الهواء بحيث لا يتحول الانسان من مكان واحد طول عمره شتاء ولا صيفا وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف وبها بناء عظيم قد خرب فهو تل عظيم عال يعرف بغمدان . ولم تبن ملوك اليمن قصرا مثله ولا ارفع منه .» (المفيد/ ٥٨) .

وذكرها ياقوت الحموي المتوفى سنة ٦٢٦ هـ في كتابه «معجم البلدان» واكثر من الكلام عنها . واعتمد في وصفها على ما ذكره الهمداني في الاكليل (الجزء الثامن) و (صفة جزيرة العرب) .

وذكرها ابو علي بن احمد بن رسته المتوفى نحو سنة ٣٠٠ هـ في كتابه «الاعلاق النفيسة» بقوله :

«هي مدينة اليمن وليس باليمن ولا بتهامة ولا بالحجاز مدينة اعظم منها ولا أكثر أهلا وخيراً ولا أشرف أصلا ولا أطيب طعاما منها .» .

«وهي مدينة جبلية برية معتدلة الهواء يعدل طيب هوائها في جميع السنة هواء ربيعيا في السنة اذا اعتدلت وطابت ويفرش الواحد في مكان فلا يحول من ذلك المكان لحر ولا برد سنين كثيرة . . . الى ان يقول : «وهي مدينة كثيرة الأهل طيبة المنازل بعضها فوق بعض الا أنها مزوقة اكثرها بالجص والآجر والحجارة المهندمة ، فمنها ما أساسها من الجص والآجر وسائرها حجارها مهندمة حسان ،

وبعض ارض بنائها الجص والآجر وبعضها بالجص واكثر سطوحها مفروشة بالحصا لكثرة أمطارها ولأمطارها أوقات معلومة ، عندهم علامات لذلك لا يخطئون ويمطرون في شهور الصيف شهرا واحدا ، ومن الخريف تمام أربعة أشهر ، ثم تنقطع الأمطار عندهم فلا يمطرون اصلا الا مثل ذلك الوقت من العام الآخر» .

وأكثر ابتداء مطرهم في الوقت الذي يمطرون فيه بعيد العصر وربما تكون السماء نقية ولا يرى للمطر علامة والناس تحث بعضهم بعضا على الفراغ من أعمالهم حذراً من المطر فينشأ السحاب مع فراغهم الكورة بأسرها ويجري ذلك الماء الى مزارعهم في مجار قد اتخذوها لهذا الأمر لا يتعطل معه شيء من هذه المياه» . وقال : «وفي كل منزل من منازلهم بئر يُستَقي منها للشرب ويفضل ماء الابار على مياه العيون الجارية عندهم ، ووصف فقيه منهم أنه وزن ماء من آبارهم قليلا مع مثله من ماء دجلة فوجد ماء البئر أخف من ماء دجلة . وبقرب كل مسجد من مساجدهم الا القليل منها سقاية فيها ماء للسبيل ومغتسل ومتوضأ كل مصهرج .

ووصفها محمد بن عبد الله الطنجي المعروف بابن بطوطة المتوفى سنة ٧٧٩ بقوله :

«وانصرفت مسافرا الى مدينة صنعاء ، وهي قاعدة بلاد اليمن الأولى ، مدينة كبيرة حسنة العمارة بناؤها بالآجر والجص كثيرة الاشجار والفواكه والزرع معتدلة الهواء طيبة الماء . ومن الغريب أن المطر ببلاد الهند واليمن والحبشة انما ينزل في أيام القيظ وأكثر ما يكون نزوله بعد الظهر من كل يوم في ذلك الأوان فالمسافرون يستعجلون عند الزوال لئلا يصيبهم المطر . وأهل المدينة ينصرفون الى منازلهم لأن أمطارها وابلة متدفقة . ومدينة صنعاء مفروشة كلها فاذا نزل المطر غسل جميع أزقتها وأنقاها ، وجامع صنعاء من أحسن الجوامع .» .

وفي كتاب « نزهة المشتاق في اختراق الافاق» لأبي عبدالله محمدبن محمدبن عبدالله بن ادريس الحمودي المتوفى سنة ٥٦٠ هـ ذكر لصنعاء فقال :

« ومدينة صنعاء كثيرة الخيرات متصلة العمارات وليس في بلاد اليمن اقدم منها عهداً ولا اكبر قطراً ولا اكثر ناساً ، وهي في صدر الاقليم الاول معتدلة الهواء طيبة الثرى والزمان بها ابدا معتدل الحر والبرد وبها كانت ملوك اليمن قاطنة وهي ديار العرب . وكان لملوكها بها بناء كبير عظيم الذكر وهو قصر غمدان فتهدم وصار كالتل العظيم » (ص ٥٣)

وفي « مسالك الممالك » لابي اسحاق ابراهيم بن محمد الفارسي الأصطخري المتوفى سنة ٣٤٦ هـ :

« وليس بجميع اليمن مدينة اكبر ولا اكثر اهلا ومرافق من صنعاء . وبلغني انها من اعتدال الهواء بحيث لا يتحول الانسان عن مكان واحد شتاءً وصيفا عمره ، وتتقارب بها ساعات الشتاء والصيف وبها كانت ديار ملوك اليمن فيما تقدم وبها بناء عظيم قد خرب فهو تل عظيم يعرف بغمدان كان قصراً لملوك اليمن وليس باليمن بناء ارفع منه .» (ص ٢٤).

وفي كتاب « احسن التقاسيم في معرفة الاقاليم » لشمس الدين ابي عبد الله محمد بن احمد

بن أبي بكر البنا الشامي المقدسي المعروف بالبشاري المتوفى سنة ٣٨٠ هـ :

« صنعاء هي قصبة نجد اليمن وقد كانت أجمل من زبيد واعمر وكان الاسم لها ، واما اليوم فقد اختلت ، غير أن بها مشايخ لم أر بجميع اليمن مثلهم هيئة وعقلاً ثم بلد رحب كثير الفواكه رخيص الاسعار اخبار حسنة وتجارات مفيدة اكبر من زبيد . ولا تسل عن طيب الهواء فانه عجب ومع ذلك رفق معف » (ص ٨٦).

وذكرها شهاب الدين احمد بن يحيى بن فضل الله العمري المتوفى سنة ٧٤٩ هـ في كتابه « مسالك الابصار في ممالك الامصار »[1] فقال : « وهي قاعدة ملك اليمن في قديم الزمان واوقاتها كلها على مناسبة الاعتدال لذيذة الهواء كثيرة الفواكه تقع بها الامطار والبرد ويكاد يجمد الجمر وهي تشبه في اليمن ببعلبك في الشام لتمامها الحسن وحسنها التام ».

وذكرها احمد بن علي القلقشندي المتوفّى سنة ٨٢١ هـ في « صبح الأعشى » بقوله « قاعدتها مدينة صنعاء قال في تقويم البلدان[2] بفتح الصاد وسكون النون وعين مهملة والف ممدودة وهي مدينة من نجود اليمن واقعة في اوائل الاقليم الاول من الاقاليم السبعة قال في الاطوال حيث الطول سبع وستون درجة والعرض اربع عشر درجة وثلاثون دقيقة قال في « الروض المعطار » واسمها الأول (اوال)[3] يعني بضم الهمزة وفتح الواو من

(١) حقق القسم الخاص باليمن أيمن فؤاد سيد

(٢) تقويم البلدان لأبي الفداء اسماعيل بن أيوب المتوفى سنة ٧٣٢ هـ

(٣) هي أزال وليس أوال .

الاولية بلغتهم فلما وافتها الحبشة ونظروا الى بنائها قالوا : هذه صنعة ومعناه بلغتهم حصينة فسميت صنعاء من يومئذ قال : والنسبة اليها صنعاني على غير قياس ويقال إنها أول مدينة بنيت باليمن .

ثم اختلف فقيل بناها سام بن نوح عليه السلام وذلك أنه طلب مكاناً معتدل الحرارة والبرودة فلم يجد ذلك الا في مكان صنعاء فبنى هذه المدينة هناك وقيل بنتها عاد .

قال في « تقويم البلدان » وهي من اعظم مدن اليمن وبها اسواق ومتاجر كثيرة ولها شبه بدمشق لكثرة مياهها واشجارها وهواؤها معتدل وتتقارب فيها ساعات الشتاء والصيف ومن اطول يوم في السنة يكون الشاخص عند الاستواء لا ظل له .

وقال في موضع آخر تشبه بعلبك في الشام لتمامها الحسن وحسنها التام وكثرة الفواكه تقع بها الامطار والبرد . وهي كرسي ملوك اليمن في القديم ويقال إنها كانت دار ملك التابعة قال في « الروض المعطار »[1] وهي على نهر صغير يأتي اليها في شماليها ويمر منحدرا الى مدينة ذمار ويصب في البحر الهندي[2] وعمارتها متصلة ؛ وليس في بلد اليمن اقدم منها عمارة ولا اوسع منها قطراً .

قال في « تقويم البلدان » وكانت في القديم كرسي مملكة اليوم . قال : وبها تل عظيم يعرف بغمدان كان قصراً ينزله ملوكها . قال في الروض المعطار هو احد البيوت السبعة التي بنيت على اسم الكواكب السبعة بناه الضحاك على اسم الزهرة

(١) هو لمحمد بن عبدالمنعم الحميدي من أعلام المئة التاسعة

(٢) هذا الكلام ظاهر الجهل والخطأ ولاحاجة لتصحيح الخبر

وكانت الامم تحجه فهدمه عثمان رضي الله عنه فصار تلا عظيما . قال في تقويم البلدان : وهي شرقي عدن بشمال في الجبال ».[3]

وقال امين الريحاني الكاتب اللبناني المتوفى ١٣٥٩ هـ (١٩٤٠ م) في كتابه « ملوك العرب » يصف صنعاء بعد وصوله اليها في نيسان سنة ١٩٢٢م: أي صنعاء مثلك لنا التاريخ فكنت مليكة الزمان ومثلك لنا العلم فكنت يوماً ربة العرفان ومثلتك لنا الاساطير فكنت سيدة الجن والجان ، أجل فكم من ليلة وفي اليد الكتاب والى جانب الكتاب نور شمعة ضئيل تغلغلنا في سراديبك ووقفنا عند كنوزك وطفنا حول قصورك وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك . واليوم ومطيتنا غير الخيال نشاهد ما يثبت المقال ويحقق الامال . هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ . وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي فما كذب الشعر وفي خزائنك الكتب النفيسة والمخطوطات فما كذب العلم وهذه كنوزك وسحر قصورك وسحر الاسماء فيك فما كذبت الاساطير كنا نظنها اسماء ابتدعها الشعراء لعرائس الجن والخيال ولكنها في الحقيقة في اعلى مكان . فاما صعدنا واياك ايها القارىء في نقيل السيان (السياني) واجتزنا وادي نخلان وغمنا في يريم ووعلان وتقيلنا في ظل بعدان وها نحن نشرف على قصر غمدان .

اجل ان صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر أملاً وكلما دنوت منها وهو عكس الحقيقة في اكثر المدن ازداد رونقها وازداد اعجابك بها . هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة فيها الهواء أعذب من الماء والماء أصفى من السماء والسماء أجمل من حلم الشعراء وفيها البرد وقد علت تسعة الاف قدم عن البحر يستحيل لقربها من خط الاستواء دفئاً وهي قائمة في قاع سنحان تزينها من جهة الروضة وفيها البساتين والكروم ومن جهة اخرى حدة[1] وفيها السواقي والطواحين . ثم تحيط بها الجبال دون ان تقصر أرجاءها اقربها اليها عصر وهو يظلل المروج في الاصيل ونقم الذي تجري منها المياه الى المدينة وتحمل الشمس من فوقه وميض الزجاج - تلغراف المرايا - الذي ينقل اوامر الامام من قنة الى اخرى . وهذا عشاء وفيه الرخام والمرمر وذاك آنس في الجنوب وسعوان دونه شرقا وفيهما معادن الطلق وهناك رضراض وفيه معدن الفضة وهناك شبام شمالا للغرب وفيه من الحجارة الكريمة الجزع والعقيق ».

ثم قال يصفها بعد رحيله عنها : « وما اجمل ما لاح لنا في سفحه - اي في سفح جبل نقم - خلال الحجاب مدينة عجيبة كان لها من اسباب العمران والمجد والشهرة ما لاكبر مدن العالم المتمدن اليوم . لها تاريخ غابر مجيد لها مدنية قامت بين شمس المجوس وكواكب الاوثان وتعددت فيها الاسرار والكهان وعزت عندها امال الانسان فكانت ملكة سبأ وكان حمير وكان قحطان ثم التوحيد وشوكة قريش وعدنان وما تقدمه وتبعه من علماء وشعراء ونوابغ في فن البناء فضلاً عما خصتها الطبيعة مما لا يزول ابداً ولا يحول فهي على علوها لا تعرف الثلج وهي على دنوها من خط الاستواء لاتعرف من قيظه غير نزوات واهنات . وفيها الغزير من الماء القراح فلو عبدت اليها الطريق

(٣) صبح الأعشى جـ ٥ ص ٣٩ - ٤٠

الصالحة للعربات من الغرب والشمال واتصلت بها عدن والحديدة بسلك الحديد لتقاطر اليها الناس صيف شتاء من كل النواحي حولها ومن البلدان العربية والاسيوية والافريقية كلها ، ولغدت في اقل من عشرين سنة « باريس البحر الأحمر ».

اي صنعاء اننا نغار عليك من الاثنين ونود ان يعود اليك مجد الاجداد محمولاً على اكف العلوم الحديثة التي من شأنها ان تصلح احوال الانسان فترقيه في جسمه وعقله وروحه وفي بيته ومدينته وبلاده وما سواها من العلوم لا ينبغي لك ولا لسواك من مدن الشرق والغرب .

اي صنعاء عاصمة الاذواق اننا في حبك ابناءك وهم مثلنا من الناس ونحن واياهم من سلسلة واحدة نادي حتى بشيء من معالم الوطنية من اجلهم فتصح اجسامهم اذا اتقوا الامراض وتنجلي عقولهم إذا فتحوا المدارس وتصفو روحيتهم اذا ادركوا من الدين حقيقته الاولى وسره الأعلى اما الذين ادركوا بعض تلك الحقيقة وبعض ذلك السر فهم يشاركونك في صلاتك في فاتحة كتابك وختمته ويودون ان تشاركيهم في صلاتهم . نظرة اخرى يا صنعاء ونستودعك الله . قد اكلنا من ثمارك وشربنا من مائك وتمنا تحت سمائك وانتعشنا بعليل هوائك وكنا قبل ذلك نحبك فكيف بنا بعد ذلك فاذا جاء بعدنا من يصلي صلاتنا وصلاتك ومن يحبك حبنا ويغار عليك غيرتنا ورأى فيك بعض العلم بعض الفنون بعض الطرب بعض العمران سنغبطه ونحن بعض السر الاكبر في الفضاء وفي اللانهاية وستغبطه منا العظام والتراب ».

* * *

صنعاء في مرآة الغرب

حسين بن عبدالله العمري

«.. وحتى اولئك الذين ما زالوا منا يحنون الى ذكريات أوقات القيلولة القائظة في رحاب جامع «البكيرية» في صنعاء ، والتمشي في الغبار عند الأصيل الى أعناب «الروضة» ، لا يكادون يدركون سرعة الخطو التي يبدد بها عالم اليوم نمط الحياة الرتيبة والسهلة في هذه الجنة الجبلية من شبه جزيرة العرب ..»

(من مقدمة اليمن والغرب)

١ - صنعاء في لندن

في أوائل شهر ابريل (نيسان) سنة ١٩٧٦ م كان لي ولصديقنا وأستاذنا القاضي اسماعيل بن علي الأكوع شرف تمثيل اليمن في «مهرجان العالم الاسلامي» الذي عقد في لندن وحضره ممثلون وعلماء من مختلف أرجاء العالم العربي والاسلامي بالاضافة الى المهتمين والمختصين من أوروبة وامريكا . وقد افتتحته رسميا جلالة الملكة اليزابث بخطاب ملكي رصين تحدثت فيه عن الدور الحضاري والانساني العظيم الذي لعبه الاسلام في تاريخ البشرية ، وأثر ذلك في تطورها في مختلف المجالات في وقت كانت فيه أوربا لم تزل سادرة في عصور الظلام والاقتتال - وقبل عصر نهضتها - (ومن ثم استلامنا منها تلك المهمة التي طال حرصنا ونوم شعوبنا عليها - ربما حتى اليوم) . وباستثناء كلمة شيخ الأزهر - المرحوم الدكتور عبد الحليم الفحام التي القاها بالمناسبة في احدى قاعات المتحف البريطاني العريق ، فقد ترك المجال (بدون خطابات وهتافات ..) للمؤتمرين والزوار والجمهور المشاهدين والمهتمين من بريطانيين وغيرهم ممن تقاطر الى لندن خصيصا لمعرفة أوجه الحضارة الاسلامية ، وابداعاتها كما تمثلت فيما عرض من آثار وآلات ومؤلفات (مخطوطة) ، وفنون ، وأنشطة متعددة ، جهز لها معارض خاصة في قاعات «المتحف البريطاني» و «متحف البشرية» بلندن .

ولقد كان لمدينة «صنعاء» مكان خاص ، بل أكاد أقول فريد ، لأنها كانت مع مدينة «فاس» المغربية الوجه التاريخي والمميز للمدينة العربية الاسلامية التي اختيرت في هذه المناسبة ، واذا كانت «فاس» لم تجد الاهتمام اللائق بعراقتها[1] فالسبب في ذلك يرجع الى أن الجناح الذي خصص لها لم يزد أن علق على بعض حيطانه بعض الصور والمناظر للمدينة فحسب ، في حين أن «مدينة

صنعاء» أعد لها جناح في «متحف البشرية» نطق بالحياة وزخر بالحيوية والحركة ، فاصوات الباعة وضجيج الاسواق يختلط بضربات مطارق الحدادين في سوقهم ، وروائح العطور تعبق مختلطة بتوابل وبخور «المعطارة» في «سوق العطارين» ، وفي حجرة «المفرج» ـ بفراشه اليمني وعقود نوافذه الملونة البديعة ـ كان نغم العود يساير صوت المغني الصنعاني وهو يردد ذلك اللحن الشجي الأصيل لكلمات شاعر صنعا الرقيق القاضي عبد الرحمن الآنسي (١١٦٨ ـ ١٢٥٠ هـ/ ١٧٥٥ ـ ١٨٣٤ م) :

عن ساكني صنعاء
حديثك هات وافوج النسيم
وخفف المسعى
وقف ، كي يفهم القلب الكليم
هل عهدنا يرعى ؟
وما يرعى العهود الا الكريم

٢ ـ البداوة والحضر Nomad And City

كان جانب «البداوة والحضر» من المظاهر التي قصد بها في ذلك المهرجان إبراز أحد وجوه الحياة العربية الاسلامية ، فاختيرت البادية الاردنية بمضارب خيامها وبيوت شعرها مشوبة بثغاء الغنم وايقاعات مدقات القهوة على اصوات التهليل والترحيب بالضيف . . . لتمثيل هذا الجانب كما اختيرت «صنعاء» و «فاس» لتمثيل الجانب «الحضري» للحاضرة أو «المدينة» «الاسلامية» ، واذا لم يكن لفاس أي نصيب يذكر ـ كما أسلفنا ـ فلقد كان «جناح مدينة صنعاء» ـ الذي سبقه اعلانات وملصقات في اماكن كثيرة شاهدناها ـ من أنجح ما أعد لتلك التظاهرة الثقافية ، وذلك للجهود الدؤوبة التي بذلها الفريق الذي أعد ذلك الجناح ، واستمر في اعداده نحواً من عامين ، زار خلالها اليمن بعض مهندسيه وأصحاب فكرته وعلى رأسهم المستشرق الكبير البروفسور روبرت سرجنت Prof. R. B. Serjeant والدكتور لوكوك R. Lewcock بالاضافة الى خيرة الباحثين النشطين مارثا ماندي (الدكتورة الآن) وروبرت ولسن (الدكتور كذلك) وكلاهما باحث في الشئون اليمنية بجامعة كمبردج وكانا آن ذاك في اليمن ، وآخرين من بينهم «شيله وير Sheigh Weir» والدكتور بول كوستا P. Costa الذي كان لبضع سنوات مستشارا لمصلحة الآثار بصنعاء ويعمل حاليا بعمان . لقد تم لهؤلاء دراسة أوجه حياة الناس وطرق حياتهم وسبل معيشتهم ، ونظام بيوتهم وأسواقهم ، وشكل أزيائهم ، بل وأكثر من ذلك فلقد دخلوا الحمامات العامة ومطابخ البيوت «الدِّيَم» وحضروا مجالس القات والاعراس وسجلوا الزفة الصنعانية والانغام الشعبية ، والتقطوا مئات الصور والمناظر ، ونقلوا معهم ما تيسر لهم (أو قل ما سمح لهم) من أثاث وملابس وأدوات ، بل ونوافذ وابواب خشبية قديمة ، وشكلوا من كل ذلك أو من بعضه ـ على الأصح ـ ما أعيد بناؤه وتركيبه في لندن ، فكان منه تلك الصورة الجميلة والمصغرة لمدينة صنعاء لدرجة أن صديقنا القاضي اسماعيل الاكوع تمنى يومها ـ بصفته مسئولا عن مؤسسة الآثار ـ لو أن بالامكان نقل ذلك المعرض الى متحفنا المتواضع بصنعاء ، أو اقامة مثله ، مع أن ذلك لو يتم وهو ممكن جدا ، فلن يكلف كثيرا ،

وقد يغطي بعض قبح وصورة صنعاء بوضعها المشوه والمحزن نتيجة الاهمال البالغ حتى اليوم ، ولكن لعله من الصحيح ما قيل (بسأن ليس في الامكان أبدع مما كان !) .

لقد زار معرض مدينة صنعاء آلاف كثيرة من الناس وكلما انتهت مدته جددت لفترة تالية حتى جاوزت العامين نتيجة الاقبال عليه ، وانتهى امره عام ١٩٧٨ م .

٣ ـ أول كتاب حديث جامع عن صنعاء

Sana an Arabian Islamic city

انتهى معرض صنعاء ، وربما نسيه كثيرون ، وبقي البروفسور سرجنت والدكتور لوكوك يتابعان جهودهما السابقة ويعملان على انجاز أهم كتاب سيصدر عن صنعاء باللغة الانجليزية مع مطلع الربيع ـ من هذا العام ـ وسيكون فيما نظن أول كتاب في بابه عن تاريخ اليمن وثقافته بأي لغة كانت بما في ذلك العربية ، وهو حصيلة وجهود علم الاستاذ سرجنت لسنوات طويلة . وليس الاعداد للمعرض وما جمع له الا الحلقة الاخيرة في سبيل اخراج هذا الكتاب الذي يصدر عن أمانة «مهرجان العالم الاسلامي» . والكتاب كبير الحجم فصفحاته تزيد عن سبعمائة وخمسين صفحة من بينها (١٨٠) خارطة ، ورسم توضيحي بالاضافة الى اكثر من مائة صورة ملونة ، وذلك بلغة «الكمبيوتر» نصف مليون كلمة حسبها الناشر وأبلغها للاستاذ سرجنت الذي ينهي العمل في الفهارس المتعددة للكتاب .

ان اهمية الكتاب وفائدته زادتا باضافة جهود أخرى الى عمل الاستاذ سرجنت وتحريره للكتاب مع زميله ، بل وكتابة معظم فصوله البالغة ستة وعشرين فصلا . فقد ساهم في كتابة بعض تلك الفصول أساتذة ومستشرقون معروفون من بينهم ـ على سبيل المثال ـ «البروفسور بيستون A. F. L. Beeston » (اكسفورد) الذي كتب الفصل الخاص بصنعاء قبل الاسلام ، والبرفسور «فالتر دوستال Walter Dostal » (جامعة فيينا) الذي تحدث عن منظمات صنعاء وهيئاتها الاجتماعية ، والدكتور «ركس سميث G. R. Smith » (جامعة دُرم) الذي بسط تاريخ صنعاء الاسلامي الأول مرورا بدويلات وحكام وأمراء العصر الوسيط حتى نهاية الدولة الظاهرية (٦٢٢ ـ ١٥١٥ م) أي من أول سنة للهجرة حتى سنة ٩٢٣ منها ، وقد تلا ذلك مجيء الأتراك العثمانيين للمرة الأولى الى اليمن ، فكتب عن ذلك واكمل تاريخ الفترة حتى عام ١٩٦٢ البروفسور سرجنت في فصل ثان أنهاه بالحركة الوطنية والمعارضة لحكم الأمام أحمد حتى قيام الثورة .

• • •

٤ ـ أول أوروبي يصل الى صنعاء

اما الدكتور «بدول R. Bidwell » (جامعة كمبردج) ـ الذي سيصدر له قريبا كتاب جديد بعنوان «ايمنان» ـ فلقد كتب فصلا شيقا وطريفا استعرض فيه كتابات الاوروبيين عن صنعاء منذ عام ٩١٥ هـ/ ١٥١٠ هـ وحتى عام ١٩٦٢ ، وذلك حين نشر في روما أول الزوار الغربيين لصنعاء لودفيكو دي فاريثا Ludovico de Varthema انطباعاته وأخباره عن «المدينة الجميلة ذات الاسوار المرتفعة والبساتين الفيحاء» ومن

اخباره عن بيوتها بأنها كانت خمسة الاف بيت . لكن ذلك النبيل الروماني (نسبة الى روما) وقع في أوهام وذكر خرافات يرى الدكتور بدول بأنه كان فيها إما ضحية او مروجا لحكايا وأساطير بعض رحالة ذلك الزمان . ولقد مر نحو ٢٥٣ عاما تردد خلالها على صنعاء حفنة من الاوربيين في ظروف مختلفة ، حتى كان عام ١٧٦٣ حين وصل صنعاء أهم اولئك الرحالة وأول رائد حقيقي ، العالم الدانمركي كارستن نيبور C. Niebuhr (١٧٣٣ - ١٨١٥ م) الذي دخل صنعاء في السادس عشر من يوليو ١٧٦٣ م (لعله الخامس من محرم ١١٧٧ هـ) حيث أمضى عشرة أيام نزل فيها ضيفا على الامام المهدي عباس (١١٣٠ - ١١٨٩ هـ/ ١٧١٨ - ١٧٧٥ م) ، الذي استقبله بعد بضعة أيام في داره في «بستان المتوكل» حيث كان «يجلس في صدر قاعة كبيرة يحف به أبناؤه وكبار رجال دولته ، ويتوسطها نافورة (شَذَرْوان) يتدفق منها الماء عاليا . . وما ان انحنى (نيبور) ليقبل يد الامام حتى ضجت القاعة بصوت واحد ، وكذلك خارج القصر ، «الله يحفظ الامام !» .

وقد نقل نيبور الى اوروبة اول معلومات جغرافية وعلمية هامة عن العربية السعيدة ومصر في تلك الحقبة السابقة لحملة نابليون بونابرت على مصر في خريف ١٨٩٨ .[٢] وينتهي هذا الفصل عن الاوربيين بما كتبته صديقة الشعب اليمني ذائعة الصيت الطبيبة الفرنسية «كلودي فيان Claude Fayein» عن اليمن ونشرته في باريس سنة ١٩٥٥ م وقام بتعريبه الاستاذ محسن بن أحمد العيني ونشر بعنوان «كنت طبيبة في اليمن» وذلك قبيل قيام ثورة ١٩٦٢ بوقت يسير ، وجاءت نهاية الفصل بمقطع مضحك لخص فيه الدكتور بدول ما أطلق عليه «التجربة المحزنة لاقامة الجنرال فون هورن Von Horn» قائد فرقة الأمم المتحدة للسلام . في «دار البشائر» القصر التعيس للامام السابق محمد البدر ، وكان الجنرال ممن عانى الاقامة فيه[٣] .

• • •

٥ - فن صنعاء المعماري

ان فصول الكتاب الكثيرة والتي لا تقل فائدة وأهمية اي منها عن غيره لا تسمح في مثل هذه العجالة للحديث الوافي او حتى مجرد الاستعراض لها - خاصة لو أردنا مناقشة بعض ما يهمنا منها او التعليق عليه ، لكن الاشارة على الأقل لفحوى بعض تلك الفصول قد يعطي القارىء الكريم فكرة عامة عن الكتاب . وهو ما نهدف اليه الآن على أمل فرصة أو فرص قادمة لمثل ما نرجوه .

وفي العودة الى الموضوع نجد دراسة تاريخية وعلمية للفن المعماري لمباني صنعاء الشامخة ومساجدها الكثيرة القديمة التي يرجع تاريخ بعضها الى السنوات الاولى للهجرة ، ان الفصل الخاص بهذه الدراسة الموضحة بالرسوم والخرائط والمقاسات قد خرج بها الدكتوران العالمان «سميث ولوكوك» عن اطار الكتابة التقليدية التي يرددها بعضنا اعتمادا على ما ذكره الرازي في «كتاب تاريخ مدينة صنعاء» ، أو كتاب «مساجد صنعاء» للمرحوم القاضي محمد الحجري» وان كان هذا القول لا يعني أن هذين المصدرين الهامين أهملهما العالمان المذكوران ، بل انهما من مصادر الكتاب في كثير

من فصوله ، ولكن الجديد هو الطريقة العلمية في تناول هذا الموضوع ووضع المقارنات التاريخية والفنية للبناء والفن المعماري العربي الاسلامي عموما وما هي المميزات او الخصائص المحلية ، وما مدى التأثير الخارجي الى اخر هذا النوع من التساؤلات والاجابة عليها .

ان الاهتمام بتراث المدن العريقة كصنعاء والمطالبة بحمايته وصيانته والابتعاد عن تشويهه سواء بالهدم او التبديل بالجديد او الاهمال ، أمر لا يزال غير واضح الغاية أو الهدف ، ليس عند العامة من الناس فحسب ، بل في اذهان كثيرين ممن يحدوهم الطموح بسرعة تجاوز الواقع للحاق بالغرب والتخلص من تركة الماضي التي ليست كلها في الواقع شرورا ، وفي هذا الصدد ننقل عن البروفسور دوستال ملاحظته لهذه الظاهرة وتحليلها في معرض حديثه عن «الهندسة التقليدية في جنوب شبه الجزيرة العربية»[٤] :

«ويرافق هذا التشابك الاقتصادي تحولات تترتب عليها تغيرات في الحضارة التقليدية ، تغيرات تخترق اليوم أعماق حياة سكان هذه البلدان . وتتلخص المشكلة الأساسية لهذا التحول الحضاري العنيف في تلاشي الذاتية الخلاقة للحضارات التقليدية . وذلك لصالح تقبل بعيد عن النقد لنتاج الحضارة الغربية ، وانه لمن السذاجة بطبيعة الحال أن نعتقد بأن مثل هذا الأخذ والنقل أمر غير مقبول ، ولكن يبدو لي بأن هناك ما يبرر القول بأن عمليات الأخذ والنقل عن الحضارة الغربية يجب أن تتم بوعي ونقد بمعنى تكييف المنقول مع الشخصية الحضارية الذاتية وهذا ما لا يمكن تحقيقه بالتأكيد عند انشاء معمل للطاقة النووية ، ولكنه قابل للتحقيق في حقل الهندسة المعمارية على سبيل المثال . فما هو التعليل المنطقي للأخذ بالرتابة الجامدة الكئيبة للهندسة المعمارية الغربية عند بناء البيوت الحديثة واهمال الثروة التعبيرية في الاشكال والزخارف التي تزخر بها الهندسة التقليدية ؟ والجواب الوحيد على هذا السؤال هو أن الانجازات الحضارية للمجتمع الأصلي تسقط نهائيا في طيات النسيان ، اما نتيجة للجهل أو ربما بسبب الانسياق الاعمى وراء كل ما هو غربي . . .»

اننا في اليمن بل وفي الوطن العربي كله مطالبون بالتصدي لسقوط ماهو مشرق ونافع من تراث ، وثقافة ، وفنون تكمن فيها هويتنا وملامحنا ، ذلك أن سقوط مدينة أو أرض في يد العدو - وهو للأسف قائم اليوم - أمر يحتمل ويرجى استعادته ولو بعد حين ، اما المسخ او الذوبان في ذوات الغرب أو الشرق فكريا أو ماديا - وهما متلازمان - فهو بعينه السقوط المميت وبعد النسيان .

٦ - قانون صنعاء The Statute of Sanaa

قام القاضي حسين بن أحمد السياغي ، العالم ، والفقيه المعروف سنة ١٩٦٤ بنشر «قانون صنعاء» معتمدا على نسختين عنه أقدمهما مؤرخة سنة ١١٦١ هـ/ ١٧٤٨ م ، وقد وجد هذا القانون نصيبه من البحث والشرح في الكتاب بل وتم ترجمة نصه العربي الى الانجليزية ، وغني عن البيان هنا أن القانون لا علاقة له بالشريعة أو أحكام القضاء ، بل المقصود به مجموعة الأنظمة والتعاريف والاسعار ونحو ذلك مما قصد به تنظيم

الحياة التجارية والتموينية والضرائبية في صنعاء .
وهو قانون بديع محكم متناسب مع ظروف زمانه ، وقد كتب بلغة سهلة ، صعبة معا تجلت صعوبتها في معاناة البروفسور سرجنت - والحق معه - في ترجمة المصطلحات والكلمات التي كتبت باللهجة الصنعانية الدارجة وتطرقت الى أدق التفاصيل وغرائب المسميات التي قد لا نجد لبعضها ما يقابله في الفصيح وهو ما عمد اليه المشرع بغرض فهم عامة الناس للقانون ، أما الناشر القاضي حسين السياغي فقد شرح ما استطاع وضرب صفحا عن البعض القليل - بالمقارنة - وذلك اما اعتقادا منه بأنه قد بذل الجهد - وقد فعل - أو حسن ظنه بالقارىء ، ولعله - ابقاه الله - لم يكن يدر بخلده بأن عمله سيترجم الى لغة أجنبية أو أن جيلا جديدا قد ولد ولم يعد يعرف الا القليل عن تلك المسميات والمعاني(٥) .

وكيفما كان الأمر فقانون صنعاء هذا يرجع أصله الى الامام المتوكل اسماعيل بن القاسم (١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ/ ١٦٤٤ - ١٦٧٦ م) الذي كان أول امام يحكم اليمن كاملا بعد استقلاله عن حكم الاتراك ، فتم له توحيده من حضرموت وعدن جنوبا في حدود عمان الى حدود الحجاز شمالا .

وقد جرت على القانون تعديلات - أو زيادات كما سماها القاضي السياغي - تمت بأمر الامام المهدي عبد الله بن المتوكل احمد (١٢٣١ - ١٢٥١ هـ/ ١٨١٥ - ١٨٣٥ م) . وليس من شك بأن هناك قواعد وانظمة أو (قوانين) كانت تنظم الحياة التجارية والمدنية العامة قبل هذا القانون - وقبل مجيء الاتراك - . وغير قانون صنعاء كان هنالك قوانين اخرى مشابهة نذكر منها «القانون التجاري» أو «قانون البيع والشراء» الذي صدر أيام المتوكل اسماعيل ايضا وذلك سنة ١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٥ ليحد به من جشع التجار «البانيان» الذين غالوا في ثمن أسعار المواد التموينية في صنعاء . ولم يكن ينافس «البانيان» في صنعاء الا اليهود وعنهما ستتحدث في الفقرتين التاليتين .

***

٧ - البانيان والشاعر الهندي

عن طريق «عدن» و «المخاء» و «الحديدة» كان الهنود «البانيان» يأتون الى صنعاء وغيرها من المدن اليمنية للتجارة والرزق . وقد استوطن كثير منهم في بعض مدن الخليج والجزيرة العربية منذ زمن بعيد يرجع تاريخه في الفصل الخاص بهم في الكتاب الى قبل الاسلام منذ كانت العلاقات التجارية نشطة بين اليمن والهند. وعندما كانوا يستقرون في بعض المدن كان لهم - كما لغيرهم - أحياء خاصة بهم . ومن أقدم ما نعرفه حيهم المشهور في عدن «حافةالبانيان» التي أسسوها سنة ٧٨٦ هـ/ ١٣٨٤ م ، ويبدو أن عددهم قل في عدن بحيث ان الانجليز في استيلائهم على المدينة لم يجدوا فيها الا ٣٥ شخصا من البانيان في حين اليهود كانوا فيها ٢٧٦(٦) لكن هذا العدد تزايد على كل حال في ظل الوجود البريطاني بشكل كبير بما في ذلك سكان المدينة من اليمنيين الذي كان عددهم قليلا أيضا .

وفي «صنعاء» كان يوجد عدد كبير منهم يتعاطون التجارة وشئون الصرافة والمال ، وكان

بعضهم يقدم تسهيلات تجارية أفضل من اليمنيين او اليهود ، وبحكم علاقاتهم بالهند - وطنهم الأم - ومراكزهم التجارية في المدن البحرية فقد كانوا يسيطرون على أنواع معينة من الأقمشة والتوابل والعطور وبعض المواد التموينية ، وقد شكا اليمنيون احتكارهم وخطر تزايدهم فدفع ذلك الامام المتوكل اسماعيل الى اصدار «قانون البيع والشراء» سنة ١٠٦٦ هـ/ ١٦٥٥ م «كما سبقت الاشارة اليه ، وأمر بأخذ جزية (ريال واحد على كل نفس في العام) ، وقد رفض بعضهم دفع تلك الضريبة وفضل مغادرة البلاد الى الهند . وهكذا تناقص عددهم بدرجة أن (نيبور) لم يجد منهم في صنعاء سنة ١٧٦٣ الا نحو ١٢٥ شخصا كانت جملة ضرائبهم «الجزية» ستين قرشا نحو (٣٠٠ دولار) وهو مبلغ يسير .

ويبدو ان السبب الحقيقي في تناقص مجتمع البانيان في صنعاء (والذي تزايد فيما بعد في عدن) هو الحساسية والمشاعر الدينية ضدهم خاصة من قبل بعض المتعصبين ، ففي « طبق الحلوى » للعلامة ابن الوزير (٧) (١٠٧٤ - ١١٤٧ هـ / ١٦٦٤ - ١٧٣٤ م) اشارة الى حوادث العامة وشغبهم بصنعاء سنة ١٠٦٦ هـ / ١٦٥٥ م ضد البانيان وذلك حين شاهد بعضهم أحد البانيان يصلي على صنم له ، ومع ذلك فابن الوزير - نفسه - يعزو ما حدث لهم نتيجة « لتغيرهم لقانون البيع والشراء واستعلائهم على المسلمين » .

وبعد قرن كامل من تلك الحوادث نجد العلامة ابن الأمير (١٠٩٩ - ١٨٨٢ هـ / ١٦٨٨ - ١٧٦٩ م) تلميذ ابن الوزير السابق وأحد أشهر علماء الزيدية المتحررين يركب موجة العداء ضد البانيان في اكثر من مناسبة ومن ذلك :

« ارشاده للمهدي عباس الى ازالة أصنام كانت ببندر المخالطائفة البانيان . والف البدر (أي ابن الامير) رسالة في ذلك نفيسة ، فبادر المهدي الى الأمر بازالتها وهدم بيوتها وقبض جميع أموالها ، وقد كان لها مال واسع نحو خمسين ألف ريال ، فأخذ وأوصل احد الأصنام الى حضرة الامام ، والبدر لديه ، فأمر بكسره ، وكان في صورة أنثى فديس بالنعال »[٩] .

ولنا بالطبع أن نتصور - والحالة هذه - أن بعض البانيان - كما بعض اليهود أيضا - قد تحول الى الاسلام رغبة فيه واقتناعا ، أو رهبة وحماية لمكاسب مادية وبالتالي التَّنَعُم بالطمأنينة والسلام . ونعرف من أمثال اولئك بعض بيوتات صنعاء كبيت المهتدي والهندي والمسلماني والصنعاني وغيرهم ، وقد برز بعض من أولئك في مجال العلوم والادب كشاعر صنعاء المشهور « ابراهيم بن صالح الهندي » (ت ١١٠١ هـ / ١٦٨٩ م) الذي كان والده ممن وصل الى صنعاء من البانيان ولم يلبث أن أسلم ، وحَسُنَ إسلامه ، وقد نشأ ولده ابراهيم مشغوفاً بالأدب ، محبا للشعر ، وكان - كما يقول عنه الشوكاني[٩] - : « أشعر أهل عصره غير مدافع » وكان « يتشبه في مدحه وحماسته بأبي الطيب »، وقد وصفه صاحب «طيب السمر »[١٠] بأنه كان « روح اللطف ان كان له روح » . وله مَدائح كثيرة في الامام المتوكل اسماعيل وابنه علي وغيرهما من الاعيان والكبراء ، وقد تقلبت به الأيام وصروف الدهر حتى جاء بآخره الى باب المهدي محمد بن أحمد (١٠٩٨ - ١١٣٠ هـ

/ ١٦٨٧ - ١٧١٨ م) - صاحب « المواهب » التي كانت على مقربة من مدينة ذمار - ، وكان المهدي قد بلغه أنه قال عنه اشياء ، فقال له :

« **بأي شفيع جئت ؟ . فقال له بهذا . واخرج المصحف من صدره . فقال :) قد قبلنا هذا الشفيع . ولكن لا أراك بعد اليوم . فتغيب عنه من ذلك اليوم ولازم العبادة والتزهد . وكان اذا قام الى الصلاة اصفرّ لونه** » .[11]

وقد حج ، ومات عقب عوده حيث دفن في منتزه الروضة شمال صنعاء .

• • • • •

٨ - يهود صنعاء

معروف ان يهود اليمن جزء من الشعب اليمني عاشوا - وما زال بعضهم يعيش - في جوار غيرهم من اليمنيين من قبل الاسلام وحتى العصر الحديث عندما نشطت الصهيونية العالمية فبدأت تدغدغ أحلام يهود العالم في العودة « الى أرض الميعاد » أرض فلسطين العربية ، وهكذا إهتم ابو الصهيونية المعاصرة « هرتزل » (شخصيا) بعد مؤتمر بال سنة ١٨٩٧ في تنشيط هجرة اليهود من اليمن بعد أن كانت قد توقفت بعض الوقت وذلك كما يذكر « يهودا النيني » - الذي أحسبه يهوديا من أصل يمني - في تقرير قدم لرئيس دولة اسرائيل ونشر مؤخراً عن الجامعة العبرية في القدس المحتلة[12] .

وفي الفصل الخاص باليهود في الكتاب نعرف عنهم معلومات كثيرة وبأنهم كانوا طبقة - أحسن حالا من غيرهم من طبقات الشعب في بعض الوجوه - وكانوا يزاولون أعمالهم وديانتهم وينعمون بحماية الامام (الدولة) لهم ، وان كان ذلك لا يعني الغاء ان معاملتهم كانت تتم كذميين وبأن عليهم دفع الجزية لبيت المال ، أو أنه لم يكن بينهم وبين الاخرين من بعض المتعصبين من المسلمين خلاف أو حساسية دينية فهذا أمر معلوم كان وما زال في كل بقاع الدنيا حتى يوم الناس . ولعل الاغلبية من اليهود ممن كانوا يسكنون مناطق القبائل الشمالية كانوا ينعمون بحرية واستقرار اكثر من اخوانهم في صنعاء وغيرها من المدن لخضوع الاولين لنظام الاعراف القبلية وحقوق الجوار والمساواة وهو ما كان معمولا به حتى من قبل الاسلام واستمر حتى اليوم . وللتدليل على هذا يخطر في البال الآن تلك الفكاهة الشائعة في اليمن - وهي صحيحة - عن عقد التحالف الذي كان مبرما بين « بيت بوس من المسلمين (نحو ٧ كيلو جنوب صنعاء) وبين جيرانهم من بعض اليهود وذلك من أن : « اليهودي بوسي والبوسي يهودي !» .

ان أهمية الفصل الخاص باليهود يجيء من اعتماد المحرر على مصادر عبرية واخرى اوروبية حولهم غير ما تعرفه من معلومات في مصادرنا العربية بالاضافة الى ان الاستاذ سرجنت قد قام بجمع معلومات شفوية ووثائق خاصة متعلقة بهذا الباب ، نشرها مع ترجمته لنص مخطوط لما عرف :

« **بحادثة اليهود سنة ١٠٧٧ هـ (١٦٦٦ م) لما تكاتبوا بأن المسيح الدجال قد ظهر وأنهم أعوانه . ثم شرعوا في بيع ما يملكون بدون اذن امام العصر المتوكل على الله اسماعيل (تقدم ذكره) . وما عوملوا بسبب ذلك . .** »[13]

وقد غضب على اليهود مسلكهم ذلك فقام الامام المهدي أحمد بن الحسين ابن القاسم (١٠٨٧

ـ ١٠٩٢ هـ / ١٦٧٦ ـ ١٦٨١ م) باجلائهم من وسط صنعاء وسمي الحي منذئذ « بحارة الجلاء » وخصص لهم حيا خاصا بهم عرف « بقاع اليهود » (قاع العُلُفي بعد ١٩٦٢) الذي كان مركز تجارة وحركة حتى تركوه وباعوا بيوتهم وكل ما يملكون فيه حين غادروا وطنهم الى وطن غيرهم بعد عام ١٩٤٨ م.

لقد كان الاستاذ سرجنت يكتب في فصل اليهود منذ نحو ثلاث سنوات حين كنت معه طالبا في جامعة كمبردج وقد ذهب وقتها عن بالي أن أذكر له أن هنالك وثيقة يهودية ارسل بها ـ كرسالة ـ من فلسطين أحد اعيان اليهود الى الامام يحي حميد الدين في آخر أيامه يشكو فيها ومن معه من يهود صنعاء ما يلاقونه من شظف العيش على أيدي المستعمرين اليهود القادمين من المغرب ، وقد تحسر اليهودي في رسالته متذكرا الايام الخوالي في الوطن ومما قاله للامام : « بأنه يا مولانا لم يعد هناك يهودية أو اسلام الا في اليمن »[١٤].

****

٩ ـ المال والطعام والأزياء والألعاب

ان فصول الكتاب طويلة ولا زال هنالك فصول وفصول لا أظن أن بالامكان التطرق اليها جميعا أو حتى إعطاء أي منها حقه ، ولكن حسبنا التنويه ـ على الأقل ـ بما كتبه الدكتور لويك N.Lowick عن « العملة والمسكوكات » وذلك منذ تأسيس « دار الضرب » بصنعاء على يد واليها محمد بن خالد البرمكي سنة ١٨٣ هـ / ٧٩٩ م[١٥] حتى العصر الحديث ،! كذلك الامر بما كتبته الدكتورة مارثا ماندي Martha Mundyu عن أزياء صنعاء وملابسهم منذ عام ١٩٢٠ ، أي من بعيد الانسحاب التركي من اليمن حتى الآن ، والفصل الخاص بألعاب الاطفال وانواعها وعن ذلك السر العجيب الذي تظهر فيه وتختفي بعض تلك الألعاب باختلاف فصول السنة ، ولقد اختفى او تلاشى معظم العاب الفتوة والمسابقات وحل بدلها بعض الالعاب الحديثة ككرة القدم أو نحوها مما يمارسه الاولاد والبنات في المدارس ، لكن العابا وهوايات جديدة انتشرت في السنوات الاخيرة في المقاهي ومداخل الحارارت يشكل بعضها خطرا على الناشئة ويضيع أوقاتهم .

ولعل من امتع الفصول الاخيرة هذه ما كتب عن الطعام و « المطبخ الصنعاني » ذلك الفصل الذي مُهِّدَ له بقول لسان اليمن الهمداني : « بأن لهم (أهل صنعاء) صنائع في الاطعمة التي لا يلحق بها أطعمة بلد . . »[١٦]

وقد تدرج الفصل في تفصيل أنواع الاطعمة وطرق طهيها ومناسبات بعضها بل والاتيكيت وعبارات المجاملة والدعاء التي يرددها الناس على مختلف طبقاتهم وجنسهم حين الطعام أو بعده .

****

الكتاب قريباً بالعربية :

وبعد : لقد كان لكاتب هذه الاسطر بعض المساهمة المتواضعة في ثنايا الكتاب ، كما أنه قد اتفق مع المحرر على أن يتولى اخراجه في ثوبه العربي « تعريباً » و « تعليقاً » وقد شرع ، وهو عمل يعلم سلفا قدر مشقته ووعورة جادته ، بيد أن الكتاب قمين بتلك المشقة ، وجدير بأن يطلع عليه قراء العربية في اليمن والوطن العربي ، فعسى الله أن يعين ويحقق انجاز ذلك قريبا .

الحواشي

(١) مدينة فاس في المملكة المغربية تشبه صنعاء من وجوه كثيرة. وكانت عاصمة البلاد لعدة قرون . أسسها على الضفة اليمنى من وادي فاس ادريس ابن عبد الله (سنة ٧٨٩ هـ / ١٣٨٧) وعلى الضفة اليسرى منه شيد ابنه ادريس بن ادريس المدينة القائمة عليه يسارا . ولها تاريخ علمي وأدبي زاخر ولا زالت العاصمة الدينية والعلمية للمغرب ومن اشهر مؤسساتها جامعة القرويين التي لعبت دورا هاما في الفكر العربي والاسلامي والى فاس ينتسب كثير من العلماء والساسة المشهورين .

(٢) قام في مصر د . مصطفى ماهر بترجمة الجزء الأول من رحلة نيبور بعنوان « رحلة الى مصر » بينما كان العنوان « رحلة الى بلاد العرب » او الى العربية السعيدة او نحوها فغاية الرحلة كانت اليمن عبورا بمصر .

(٣) نشر الجنرال هورن مذكراته في لندن عام ١٩٦٦ بعنوان :

Soldiering for Peace, London, 1966

وأذكر انه ترجم الى العربية قبل سنوات بعنوان « جندي في خدمة السلام »

Walter Dostal, Eirrun W.A.I. ANN. 35, 1981.

(٤) (فكروفن) برن . سويسرا . ص : ٥٩ ـ ٦٢

(٥) من المؤسف بل والمحزن الطريقة التي نشر بها « كتاب حوليات يمانية » دمشق . ١٩٨٠ . لمؤرخ صنعاني كتبه باللهجة الدارجة . ذلك أنه لم يتيسر للاستاذ عبد الله الحبشي منح الكتاب ما يستحقه من شرح وايضاح وتحقيق وفهارس . خاصة عدم معرفته بلهجة أهل صنعاء التي كتب بها الكتاب .

(٦) R.L. Playfair, A History of Arabia Felix of Yemen Bombay, 1859, 12, 14

(٧) انظر : مصادر التراث اليمني في المتحف البريطاني . للكاتب . ص : ١١٠ ـ ١١١

(٨) زبارة : نشر العرف : ٢/ ٥١٩

(٩) الشوكاني : البدر الطالع ١/ ١٦

(١٠) أحمد بن محمد الحيمي : طيب السمر . مخطوط المتحف البريطاني . ١/ ق ١٨

(١١) البدر الطالع : ١/ ١٦ ـ ١٧ وانظر نشر العرف : ١/ ٢٩ـ٤٠

(١٢) The Jerusalem Quarterly, 21, Fall 1981, pp. 98-99

(١٣) اليمن والغرب . اريك ماكرو . تعريب الكاتب . ص : ١٦٩

(١٤) نص الرسالة الوثيقة بحوزة الاخ الاديب الاستاذ القاضي علي بن أحمد ابي الرِّجال (محافظ الحديدة حاليا) وكان مشكورا فقد تفضل منذ سنوات باعطائنا صورة عنها مع امور اخرى وهو من المهتمين بالتراث والثقافة اليمنية ولا يألو جهدا في هذا الصدد .

(١٥) انظر تاريخ صنعاء للرازي بتحقيقنا . الطبعة الثانية ص : ١٠٦ .

(١٦) صفة جزيرة العرب . تحقيق القاضي محمد بن علي الاكوع الحوالي . بيروت ١٩٧٤ . ص : ٨٢. وانظر ـ كذلك ـ : ٣٥٦ـ٣٥٧

فوصف الهمداني لألوان (الحساء واللحوم والخبز والألبان ومشتقاتها من اجبان والحلويات والمشروبات عند أهل صنعاء) وصف عالم خبير لا نظير له .

* * *



شعراء من صنعاء...

بقلم: أحمد بن محمد الشامي

صنعاء من أقدم المدن ، وأكثرها شهرة ، وتاريخ نشأتها ، وبداية اختطاطها لا يُذكر إلاّ محفوفاً بالرّوايات الدينيّة ، والأساطير ، وأحاديث المنجّمين ؛ كتلك التي ذكرها الحسن بن أحمد الهمداني في كتابه «الأكليل» وحكاها الرّازي ، والّتي تروي أن «ساماً» لّما توفيَ أبوه «نوح» عليه السلام اجْتَوى ، وكره المكوث في أرض الشمال ، فأقبل طالعاً في الجنوب يرتاد أطيب البلاد ، وأنه قد وجد اليمن أطيب مكان ؛ ثم ارتادها حتى وصل حقل «صنعاء» فوجده أطيب مرابع اليمن وما إن رفع مِقْرانته ، والمِقْرانة الخيط الذي يقدّر به البنّاء ، اذا مدّه بموضع الأساس ـ حتى بعث الله طيراً فاختطف «المِقرانة» ، وطار بها ، و «سام» يتبعه حتى وصل الى سفح جبل «نُقُم» وهناك على جرّه «غُمْدَان» ألقى بالخيط . . فعلم «سام» أنه قد أُمِرَ بالبناء هنالك ؛ فأسّ «غُمدان» ، واحتفر بئره ؛ قالوا : «فبنيت «صنعاء» بين الجبلين «نُقُم» و «عَيبان» ، وبين الجبلين ستة أميال» : انظر تاريخ صنعاء ص ـ ١٦ ـ تحقيق العمري .

وتسمّى أيضاً «أزال» باسم حفيد «سام» ، وقد وردت في فضائلها الأحاديث ، والروايات الجمة ، ونقل الرّازي عن وهب بن منبّه انه قال : «قرأت الكتُب التي انزل الله تعالى فاذا فيها : «أزال ؛ كُلٌّ عليك ، وأنا اتحنن عليك ، أزال ؛ بورك فيك وما حولَيْك» ص ـ ١٥ . ورويَ عن وهب أيضاً أنه قال : «أوّل حجر وضعتْ على حجر بعد الكعبة حرّان الجزيرة ، وغُمدان بصنعاء اليمن» ص ـ ٢٠ . وفي رواية عن وهب انّه قال : «اجتمع أهل اليمن بالجاهلية «بتعود» يريدون غزو «صنعاء» فبيناهم على ذلك اذ اقبل طائر في منقاره كتاب فألقاه بين أظهرهم فاذا فيه : بسم الله الرحمن الرحيم ؛ ومن الله تعالى لا من أحد سواه ؛ مَن أراد صنعاء بسوء كبّه الله على وجهه» الى آخر الرواية ، واسطورة الظبي ، وتجالد القوم وتقاتلهم حتى هلكوا ـ ص ٣٣ «تاريخ صنعاء» للرازي . وقال «وهب» بعد ذلك

ان صنعاء لمحظوظة من كل سوء ، ما أرادها أحدٌ بسوء إلاّ كفىء في الجاهلية والاسلام وردّ الله كيده في غده «وضرب لذلك الأمثال» .

ونحن لا نذكر هذه الروايات مصدقين لكل مافيها ، ملزمين القارىء ان يصدّقها . . كلاّ . . وانما أوردناها تدليلاً على أن بداية تخطيط «صنعاء» ، واختيار مكانها محفوفة بالأساطير والتعظيم والأوامر الالهية .

وأهل صنعاء لا يساوون بها مدينة اخرى ، ودائماً يردّدون ما رواه الرّازي عن «عبد الرزاق عن النبي ﷺ : «لن تذهب الليالي والأيام حتى تكون صنعاء اعظم مدينة في أرض العرب» ص - ١٠٠ - وهم - بل وكل ابناء اليمن يحيطون مدينتهم بهالة من الاجلال ، فهي «أزال» ، و «مدينة سام» و «أم الأرض» و «المحروسة» و «المحفوظة» ، ويقولون : «كلب صنعا رجع من مصر» و «صنعا حوتْ كل فن» و «ما مثل صنعا اليمن» .

وقد تفنّن شعراء اليمن وغيرهم قديما و حديثا في مدح صنعاء فمما قاله احمد بن عيسى الرداعي في ارجوزته الطويلة التي أوردها الهمداني في صفة جزيرة العرب :

صنعاء ذات الدور والأطامِ
والقِدَمِ الأقدم ذي القُدّام [1]
والعزّ عن ذي الغشوة الغشام
اسّت بعلم لابن نوحٍ سامِ
بعلم ربّ ملكٍ علاّمِ
إذْ رادها سامٌ بلا توهامِ
ورادها من قبل ألفي عامِ
ما بين سفحي «نقم» النقام
وبين «عيبان» المعين السامي
فأسّها في سالف الأيامِ

فمي بقول العلم غير الشك
محتـدمُ العلم ، ودار الملكِ
وعصمة المأزول حتى الدكُّ
أما وتجري ماخرات الفلكِ
أليّة ما شبّتها بالأفكِ
لقد علتْ « صنعاء » دار الشرك
في الدّهر عن عزّ معين مشكي ،
وأصبحت معدن أهل النّسْكِ
سقيا لصنعاء بجود حشك ،
وأردفت عزّا رفيع السمك

وقال الحسن بن احمد الهمداني (صاحب الإكليل ولسان اليمن) :

أرضٌ غيرَها سام وأوطنها
وأسَّ « غمدان » فيها بعدما احتفرا
أمّ العيون ؛ فلا عينٌ تقدّمُها
ولا علا حجرٌ من قبلها حَجَرا
لا القيظ يُكمل فيها بعض ساعته
ولا الشتاء بمغنيها إذا قصرا

ومن ابدع ما قيل فيها قصيدة اوردها « ياقوت » في « معجم البلدان » - ٣ - ٤٢٧ - للشاعر أبو محمد اليزيدي ومطلعها :

قلتُ ونفسي جمٌّ تأوّهُها
تصبو الى اهلها ، واندهُها
سقيا لصنعاء ؛ لا أرى بلداً
أوطنه الموطنون يشبهها ؛

خفضاً وليناً . ولا كبهجتها ،
أرغد أرض ؛ عيشاً وأرفهُها
يعرفُ صنعاء من أقام بها «٣»
أغذى بلادٍ عذاً ، وانزهُها

وقال الشاعر ابو بكر محمد بن أفنونه :

وحبّذا أنت يا صنعاً ، من بلدٍ
وحبذا عيشك الغضّ الذي اندرجا
أرضٌ كأنَّ ثرى الكافور تربتها ،
وماؤهاالرّاح بالمآء الذي مزجا
يهدي الى الشمّ أنفاس الرياح بها
ما هبّت الريح فيها العنبر الأرجا

ولو جُمِعتْ كل الأشعار التي قيلت في « صنعا » لكوّنتْ ديواناً ضخماً . ومما قاله شعرآء اليمن فيها ؛ قصيدة صاحب ديوان « الحان الشوق » ومنها - ٤ -

صنعآء .. يالحنَ الزمان
البكر في سمع العدم
صنعاء .. يا أوّل حرفٍ
خطّ في لوح القِدَمْ
مِنْ قبل أن يَكْتب بالحِبْـ
ـرِ على طرس قَلَمْ

وقبل أن يشمخ «إيوانٌ » وأن يُبْنى « هرم »

كم عبد الغواة فيك
للجهالِ .. من صنَمْ ؛
ورتّلوا لقُدسه
من سجعةٍ ، ومن نَغَمْ ؛
كم من نبيٍّ قد عرفتِ
وهو يشدو بالحِكَمْ
وشاعرٍ وساحرٍ ،
وكاهنٍ ، وكَمْ .. وكمْ ؛
من فرحةٍ ، ونكبةٍ
ومن سرورٍ ، وألم ..

قد يهرم الدهر .. ولكن .. لن يُصيبُك الهرَم

سرّ الشباب فيك قد
أعْمى الزمانَ والأممْ
وقلبكِ العَصّي لَمْ
يَهُزم الحادث ألمّ

لقد حويت من صفات الحسن ما خصّ ، وعمْ
والله قد اعطاك منها ما اصطفى ، وما أتمّ

أولاك ما لم يُول
قصداً - بلداً من النعم

الى آخرها .. وقال شاعر عدن الدكتور محمد عبده غانم :

يا لصنعاء ؛ لكم طبتِ مقيلا
ولكم أمتعتِ فجراً وأصيلا
ولكم أوليتِ عشّاق الشذى
منهلاً نرتاده جيلاً فجيلا ،
لاتزالي مثلما كنت لنا
عَبَقاً من ليلك السّاجي عليلا
كنت حبّا قد رعيناه فتىً ،
وسنرعى عهده شيخاً كليلا

كنت لحنا بالأماني دافقاً
يملأ الأصال إيقاعاً أصيلا
كم رويناه رنيناً خافقاً ،
وارتوينا منه نبعاً ومسيلا
كم رقصنا في هواه نشوة
وقصرنا بالهوى اللّيل الطويلا

●●

كنت يا صنعآء شوقاً شاهقاً
كم بلغنا في ذراه المستحيلا
فغدا البحر عقاراً قرقفاً
نحتسيها ، وغدا الصخر هديلا
عندما كانت تغذّينا اللّهى
في الليالي لحنك الرطب البليلا
ما لصنعآء رأينا ؛ لا ، ولا
أهلها في دولة الحس مثيلا
قد حوت من كل فنّ لبه :
الندى ، والزهر ، والوجهَ الجميلا
كلّ من حلّ بها قد حلّ في
جنّة الفردوس للخلد خليلا
كيف لا يندب مَنْ في « جلق »
و « بروفلي » عهدها ندباً وبيلا !
وهمُ القوم الأولى كانوا بها
منتدى الشعر ومأواه الظليلا ،
ايه يا صنعآء يا مَنْ ألهمتْ
حاضر الشعر وماضيه الجليلا
ومضت تجمع بالفنّ لمنْ
هام بالفنّ طريفاً وأثيلا
هكذا كنت وما زلت لنا
في مسار الوحي نبراساً نبيلا

ومَنْ منّا الذي لم يهزّه الطّرب ، وهو يقرأ ما كتبه فيلسوف « الفُريكة » أمين الريحاني في كتابه « ملوك العرب » حين قال في صنعآء التي كانت عند زيارته لليمن سنة ١٩٢٢ م - ١٣٤٠ هـ :

« اكبر واجمل مدينة في اليمن ، بل وشبه الجزيرة العربية كلها » ، « وما هي إلاّ ساعة بعد ارتحالنا من « حِزيز » حتى تراءت لنا رؤوس المآذن في تلك المدينة ثم قباب مساجدها وهي بيضاء تتوهّج في نور الشمس الذي يترجرج كالزئبق في الجاف الشفاف من الهواء ؛ بينا نحن ندنو من « نقم » الذي اصبح على يميننا ، إذ بدت المدينة نفسها وهي محاطة بالجبال تمتدّ شرقاً وغرباً ، كأنها وهي كلّها بيضاء ، سلسلة من التلال الكلسيّة في سهل ذهبي منقطع الاخضرار » .

« أي صنعاء ؛ مثّلكِ لنا التاريخ ؛ فكنت مليكة الزمانْ .

« ومثلك لنا العلم ، فكنت يوماً ربة العرفان .

« ومثلتك لنا الأساطير فكنت سيّدة الجن والجانْ .

« أجل ، فكم من ليلةٍ ، وفي اليد الكتاب والى جانب الكتاب نور شمعة ضئيل ، تغلغلنا في سراديبك ، ووقفنا عندُ كنوزك ، وطفنا حول قصورك وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك . واليوم ؛ ومطيتنا غير الخيال ، نشاهد ما يثبت المقال ، ويحقق الآمال .

« هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ .

« وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي ، فما كذب الشعر .

« وفي خزائنك الكتب النفيسة والمخطوطات ؛ فما كذب العلم .

« وهذه كنوزك ، وسحر قصورك ، وسحر الأسماء فيك فما كذبت الأساطير .

الى أن يقول عن « صنعاء » وكأنه ينثر شعراً :

« فيها الهواء اعذب من الماء ،

« والماء اصفى من السماء ،

« والسماء اجمل من حلم الشعراء .

وقد انجبت صنعاء من الشعراء الفطاحل ما لم تنجبه مدينةٌ من المدن في تاريخ الشعر العربي ، وذكر منهم الهمداني في كتبه العشرات ، وترجم ابن ابي الرجال ، والشوكاني والحيمي وقاطن والوشلي وزباره والحجري وغيرهم المئات .

وممن تحدّث عنهم الهمداني في « صفة الجزيرة » : علقمة ذي جدن ووضّاح اليمن وبكر بن مرداس الذي روى عن بعض من حدثه من أهل صنعاء قال « وافيت الحجّ فرأيت في الطواف فتى ظريفاً خفيف الروح يعصب به جماعة حتى قضى طوافه وصلاته فقلت من هذا ؟ فقيل : ابو نواس الحسن بن هانىء ، ! فسلمت عليه وفاوضته وأخبرته بنفاق أشعاره وأخباره بصنعاء ، وسألته شيئاً منه فقال : تطلبني مثل هذا وعندكم بكر بن مرداس ؟ قال : قلتُ وإنّه عندك بهذه المنزلة ؟ فقال : أمَا هو القائل :

يا إخوتي إن الطبيب الذي
ترجون أن يبرئني مُسقمي

وما الا نُصحاً .. ولكنه
عن علم ما بي من سقام عمي

وسرد القصيدة حتى آخرها ص - ٨٥ - صفه » ثم قال : « ومن شعراء صنعاء ابو السمط الفيروزي من الأبناء ؛ شاعر مفلق ، ومُرطل وكان هجّاء للأشراف ، وعبد الخالق ابن ابي الطلح الشهابي ، وكان مطبوعاً مفوهاً مفلقاً ، وابراهيم ابن الجَدَوِيّه(١) وقد ذكرنا شيئاً من شعره في كتاب الاكليل وكان مطبوعاً في الشعر وكان في الرجز أبرع ويشابه في مذهبه مذهب الكميت في مثل كلمته في الناصر :

ناصر الدين لم تزل منصورا
شكر الله سعيَك المشكورا .

وله في ابي الحسين الرسي مرثيه وهي :

وهتْ عضد الاسلام واندك كاهلُه
وغالتْ بنيه في الأنام غوائلُه

ومن أحسن شعره كلمته في أسعد بن ابي يُعفِر »؛ ومن الصعب حصر كل شعراء صنعاء أو الفطاحل منهم في هذا المقال الموجز ، وقد تحدثت في كتابي « معجم شعراء اليمن » عبر التاريخ عن اكثر من مائة واربعين شاعرا صنعانياً ولما أصل الى حرف الياء وهم كثير من قدماء ومحدثين .

ولقد نبغ في صنعاء خلال القرون العلمية والأدبية الزاهرة الحادي عشر والثاني عشر والثالث عشر ، وقبل الاحتلال العثماني الاخير جمهرة من فحول الشعراء لا يسامقهم ولا يجاريهم - في ذلك العصر - شعراء المسلمين في بغداد ودمشق والقاهرة

أو أيّة عاصمة من عواصم المغرب العربي .
وحسبك أن منهم « الهبل » و« الهندي »،
و« اليافعي » و« الجلال » و« ابن ابي الرجال »
و« الجرموزي » و«الزنمه» و«المتوكل»
و« المهدي » و« المهلاّ » و« المخلافي »
و« الشامي » وابنه و« الأمير وابوه » و« الوزير
وحفيده و« شرف الدين » و«الأنسي»
و« العماري » و« شعبان سليم » إلى « الحفنجي »
و« الفسيل » و« بركات » وأمثالهم . ونستطيع أن
نقول بأن شعراءها خلال القرن الرابع عشر الذي
لفظ أنفاسه الاخيرة منذ عام قد طاولوا إجادة وبياناً ـ
شعراء النهضة في الأقطار العربية الأخرى ؛
وبينهم من عرفناهم وعاشرناهم أمثال محمد ابن
عبد الرحمن كوكبان ، ومحمد قاسم العزي وعبد
الكريم مطهر ، وعبد الكريم الأمير واحمد المروني
وعبد الوهاب الشامي ومحمد بن احمد الشامي وعبد
الله هاشم الكبسي ، وعبّاس محمد المطاع
وغيرهم . وأنا لا أتحدث الآ عن شعراء صنعاء
مولداً أو نشأة ، وممن تتضوّع أشعارهم بنكهة
صنعانية خاصة يتوقها ويعرفها ويميّز بها شعرآء
سنعآء من غيرهم ، لا بعلم يُدْرس ، ولا
بصناعة تُحدَّد ، بل بذوق خاص يملكه من ألِفه .
ومَرَن عليه ، وعاشره طويلاً ! وأمّا لو كنتُ أتحدث
عن فحول شعراء اليمن في القرن الرابع عشر لما
اهملت ذكر القاضي يحيى الأرياني وأولاده ومحمد
بن ابراهيم الشامي . وأحمد الحضراني وابنه
ابراهيم ويحيى الهادي . وبني منصور بن نصر
« ونعمان القدسي » و « السالمي » و« البردوني »
و « المقالح » و « البشاري » و« عفيف »
و « القاضي » و « المصوّعي » وأضرابه ممن في
شمال اليمن ولا أهملت أيضاً الشعراء الأفذاذ في
حضرموت وعدن أمثال « عبد الرحمن بن عبيد الله
وابنه حسن » و « علي باكثير » . و« أبو بكر بن
شهاب » و« حامد المحضار » و« غانم »
و« لقمان » و« جراده » و« أمان » . وأضرابهم .

ابراهيم بن أحمد اليافعي :

ولنن أختتم الحديث دون أن اقف وقفة
قصيرة مع شاعر من شعراء صنعاء في القرن
الحادي عشر الهجري وهو ابراهيم بن احمد
اليافعي . ولا أدري لماذا جنحت الى الوقوف مع
اليافعي الصنعاني دون غيره من زملائه وشعراء
عصره كإبراهيم الهندي و «احمد الآنسي» ؟ هل
لأنه ـ كما يخيل لي ـ كان اكثرهم ظرفاً ، والتصاقاً
بحياة صنعاء وعاداتها ؛ فقد ذكر المؤرخون أنه
كان يملك «دكاناً» في سوق «المحظاية» ، وأن
صناعته كانت «حظاية» وتطريز العمائم والأردية ،
وان دكانه هذه كانت ناديا أدبيا يأوي اليه ظرفاء
صنعاء وادباؤها ممن يحبون الشعر والأدب
والاستماع له ، والاستمتاع بالنكات والنوادر ،
والاشعار . وقالوا أيضا انه كان يتاجر بالشعر
ويبيعه ممن لا يستطيعون نظمه ومزاولته ، ولا
نستطيع إلا أن نطرب ، ونضحك ، ما شاء لنا
الطرب والعجب ، حين نتصور شاعرنا «اليافعي»
يتساوم ، مع من يريد ان يبتاع منه شعرا وهم ما
بين فقير محتاج يريد أن يمدح وزيرا أو اميرا ليتفضل
عليه بما يسد حاجته ، أو مظلوم منكوب يود ان
يتبرم من حالته ؛ أو عاشق وهان يود أن يتقرب الى
حبيبته أو يتغزل فيها ، او من يريد أن يعتذر أو
يعاتب أو يهجو ، ولا شك أنه وضع لكل ذلك

أسعارا تتفاوت بتفاوت الشعر جودة وطولا ، وقد لامه بعض النقاد على ذلك وقالوا انه كان في آخر عمره يبيعه من السفهاء والحمقى وانه كان يرضى بأبخس الأثمان ولا شك ان دوافع ذلك كان الفقر المدقع[6] والحاجة الملحة ، والعوز المضني . وحرفة الأدب كما يقولون .

وقالوا أيضا انه كان في أواخر أيامه اذا أراد أن يمدح أحدا أو يستجدي أميرا بالشعر لا يتكلف انشاء شعر جديد بل يكتفي بتغيير «مخلص» القصيدة واسم ولقب الممدوح في قصيدة من قصائده القديمة التي مدح بها السابقين من الوزراء والأمراء والموسرين .

نعم ربما اني فضلت الوقوف مع «اليافعي» دون غيره لهذه الاسباب الظريفة ؛ وربما اني أردت أن أعتذر اليه والى التاريخ اذ قد اهملت ذكره في كتابي «قصة الأدب في اليمن» وبالتالي اهمله المؤلفون بعدي ، ولا اجد مبررا لذلك إلا أن أختصه بالحديث وأن أقدمه على غيره ، وأنا أزمع التحدث عن بعض شعراء صنعاء ممن هم أرفع منه طبقة في الشعر واكبر شأناً .

يقول الشوكاني في «البدر الطالع» عنه :

«ابراهيم بن أحمد اليافعي الصنعاني المولد والدار والوفاة الشاعر المشهور المجيد الفائق في جميع الأنواع فمن شعره القصيدة التي مطلعها :

هذا العذيبُ بدا فقلْ بشراكا
والزم اخائي لا عدمتُ إخاكا

ومن شعره القصيدة التي مطلعها :

اعيدوا على سمعي الحديث وكرروا
قديم اللقا ، والوقت كالعيش اخضر

ومنها في الاستخدام :

وأصبو الى وادي العقيق؛ وسفحه
على وجنتي من مقلتي يتحدرُ

وقبله في الاستخدام أيضا :

أميل الى ذكر الفضا ثم انثني
ونيرانه في مهجتي تتسعرُ

وما أحسن قوله فيها :

أهيم بذكر المنحنى، وسويلع
وأنشق أنفاس الصبا ؛ حين تعبرُ
وما همت في قد وجيد ومقلة
ولا شاقني ثغر شنيب معطر

ثم قال الشوكاني : «وهو موجود في دولة الامام المهدي محمد بن احمد صاحب المواهب ومن قبله ، ومات يوم الست الثالث والعشرين في شهر رجب سنة ١١١٠ هـ عشر ومائة والف / ١٦٩٩ م ، وقد بالغ في حقه صاحب نسمة السحر وقدمه على شعراء عصره فلم يصب ، فهو لم يرتق الى منزلة رفيقه ومعاصره الشيخ ابراهيم الهندي الآتي ذكره ولا كاد ، وبالجملة فهو منسجم الشعر قليل التكلف» هكذا قال الشوكاني .

وقد ترجمه السيد الأديب يوسف بن يحيى صاحب «نسمة السحر» وأطال الثناء عليه ـ كما

قال «زبارة» في نشر العرف وقال : «وفيه تصوف مع لطف طبع ، وحلو مجالسة ، وكان مطرب الانشاد ، قنوعا مع الفاقة التي أصابته لما كسد الشعر بكساد أهل الفضل ، وشعره في مجلدات ، وكان في آخر أيامه يبيع شعره بالنزر اليسير» ؛ وهذا يؤكد أن الفقر والعوز والحاجة هو الذي دفعه الى ذلك كما قلنا . . . وكان بينه وبين صديقه الشاعر ابراهيم الهندي مداعبات ومهاجاة ، وذكروا ان الشيخ الهندي قصده احدى الليالي زائرا فلما قرع الباب وكان «اليافعي» قد نام فطلب من والدته أن تنظر الى الطارق من النافذة ؛ فلم تعرفه ، فقام اليافعي لينظر اليه ، وأطل من فوق والدته فقال «الهندي» :

«زحل هابط على الجوزاء .» فقال اليافعي مرتجلا :

وثقيل قد جاء في ظلمة الليل
وعيني في لذة الاغفاء
وغدا واقفا ببابي قليلا
قلت : هذي منازل «العواء»

وفيه التعريض والتورية بالكلب العواء .

ومن شعره يخاطب أحد الأمراء الشعراء وكأنه كان بخيلاً :

وهل نحن الا عصبة أدبية
تقيم الثنا فيمن تشاء ، وتُقعد
ولو هجت البدر المنير لأوضحت
به وضحاً ؛ وهو الرفيع المسوّدُ
وإياك والشح المطاع فإنه
لشر أبٍ ، منه الهجا يتولدُ

وله من القصيدة التي ذكر الشوكاني مطلعها : هذا العذيب بدا ، فقل بشراكا : هذه الأبيات :

بالله إن جزت العقيق وسفحه
فاقم به ؛ إن النزول هناكا
وأقل بظل الضال فيه مسلما
عنا ؛ وشرف بالتحية فاكا
هل أنت يا وادي العقيق كما مضى
زاهٍ ؛ ومن ثمر الجنان جناكا ؟
لا زلت بالأحباب معموراً ، ومغ
موراً غني ، وعداك مكر عِداكا
والآك من نوء الربيع وليه
ونعيم «وسميّ» الحيا حيّاكا[٧]
وإذا الربيع جفاك ربع أحبتي
محلاً ؛ فمن دمع الجفون سقاكا
ولكم أبيت مسهداً، ومشاهدا
للنجم أرقب من سمَاك، سماكا
أوَكُلّ إبراهيم يرقب كوكباً
مهما بدا ، ويسامر الأفلاكا ؟
كلفٌ بريمك مذ عرفت ، مكلفاً
لأ أستطيع عن الغرام فكاكا
يا ريم وادي المنحنى كم قائل؟
لي في غرامك؛ ما نهاك نُهاكا؟
ما لي وللعذال فيك؛ عَدِمتُهم؟
مالي وروحي يا حبيب فداكا

***

وهذا من الشعر الرقيق البديع ولا نظن ان صاحبه قد عرضه للبيع ، فجواهره من الدر الثمين ؛ ومن مداعبات اليافعي للهندي قوله :

و «مُهتـدٍ» بالقـريض ذو ولعٍ
يقـدح من زنـد فكره قلبا
مازال للقـاتِ «أكلاً» أبداً
حتـى غدا نظـم شعـره «سَلَسا»

والسلس ؛ هو اللين السهل المنقـاد ؛ ويقال أيضا : فلان سلس البول أي لا يطيق أن يمسكه ؛ والسلَس بالفتح هو «المذي» ومن اسبابه الاكثار من القات وهو المراد هنا ؛ وقد سمى اليافعي صديقه الشاعر ابراهيم الهندي «مهتديا» لأن والده كما قال الشوكاني في البدر الطالع : «كان من جملة «البانيان» الواصلين الى «صنعاء» فأسلم على يد بعض آل الامام ، وحَسُن إسلامه ، ونشأ ولده هذا مشغوفا بالأدب ، مولعاً بعالي الرتب » انتهى كلام الشوكاني .

وأهـل اليمـن يسمـون من دخـل في دين الاسـلام من الكفـار ، أو أهـل الكتـاب ، «المهتدي» ولذلك لا نعجب حين يرد اسم شاعرنا «الهنـدي» في بعض الكتب اليمنية : «ابراهيم المهتدي» ولا ندري ما كان اسم أبيه قبل ان يشرح الله صدره للاسلام .

هـذا ما عن لي ذكره اليوم عن «صنعـاء» الشاعرة ، وبعض شعرائها الأفذاذ وهم يتميزون على شعراء المدن اليمنية الأخرى باللطف ، والرقة ، والتطلع ، والفضول ، ويحبون الهزل والمجون او ما يسمى «بالأدب المكشوف» ، ولهم فيه ما ليس لغيرهم ، ولا يبالون أن يستعملوا من الألفاظ والعبارات في أشعارهم الهزلية ، ونكاتهم الاجتماعية ، ما لا يستسيغه غيرهم ، وما تمجه أسماع المتزمتين من غير أبناء صنعاء . أما أهل «صنعاء» فهم لا يرون في ذلك حرجا ، ولا يضيقون به ذرعا ، بل وكثيرا ما يحرجون به غيرهم ، من الوافدين عليهم ، و «الخفنجي» من شعراء صنعاء الذين يمثلونها أصدق تمثيل ، وله ديوان مشهور ، سجل فيه عادات صنعاء ، وتقاليدها ، ولهجاتها بدقة ، وابداع ، وتوفي سنة ١١٨٠ هـ / ١٧٦٧ م ؛ وآمل أن أتحدث عنه في مقالة أخرى إن شاء الله .

١٤٠١/١٢/٥ هـ ـ ١٩٨١/١٠/٣

الهوامش :

(١) الأطام : الحصون المرتفعة . والقدام : الملك .

(٢) المأزول من الأزل : الخائف .

(٣) عذا المكان : طاب وبعد عنه الوخم .

(٤) هو كاتب المقال . وانظر ديوان «حصاد العمر» ايضا وعدد ابياتها مائة وثلاثة وعشرون بيتا .

(٥) هكذا يتداول الأدباء اسمه : «الجدوية» وكل نساخ ومحققي كتاب «صفة جزيرة العرب» كتبوه كذلك . ولكن ابن أبي الرجال في «مطلع البدور» قال انه «ابن الحدوبه» بالحاء المهملة . والباء الموحدة المفتوحة . وقد حققت ذلك في كتابي «معجم شعر اليمن» .

(٦) عندما كنت مع الشاعر محمد محمود الزبيري في تعز عام ١٣٦٣ هـ ـ ١٩٤٤ م تحدثنا عن فتح ناد نسميه «دكان الشعر» تباع وتشترى فيه أشعار الغزل والمناسبات لمن يرغبون في قول الشعر ولا يستطيعونه وهم قلة من الأغنياء ، يشترونه ممن يجيدونه من فقراء الشعراء ، وكادت الفكرة أن تنفذ لولا أننا هاجرنا الى عدن . أما الشاعر ابراهيم الحضراني فقد كان يهب أشعاره لمن يحب من اصدقائه . وفي الموضوع أقاصيص ظريفة تستحق التدوين .

(٧) الولي : المطر يسقط بعد المطر . والوسمي : أول مطر الربيع .

* * *

«قصر غمدان»

فاطمة الصافي - عدن

لم يظفر قصر في التاريخ العربي بالشهرة التي ظفر بها قصر غمدان في اليمن . ولم يحظ قصر بمثل ما حظي به «غمدان» من حكايات وأساطير ، ولا نستغرب ذلك والأمر متعلق برواة اليمن .

فغمدان من أشهر قصور اليمن في صنعاء وكان ممتدا شرقا من شرق الجامع الكبير الى حد مسجد الحميدي المعمور الان ، كما يظهر من بعض وثائق الوقف القديمة ، وفي الطول من الجنوب من قرب باب اليمن ، الى حد مسجد الشهيدين[1] ويتفق البكري وياقوت الحموي على ضم أوله واسكان ثانيه «غُمْدان»[2] .

اتخذه مسكنا ومقرا الملك اليمني سيف بن ذي يزن بعد انتصاره على الاحباش ، وفيه يقول أمية بن أبي الصلت :

اشرب هنيئا عليك التاج مرتفقا
في رأس غمدان دارا منك محلالا[3]

كما ذكر ابن دريد انتصار سيف وسكنه غمدان قائلا :

وسيف استعلت به همته
حتى رمى أبعد شأو المرتمى
فجرع الاحبوش سما ناقعا
واحتل من غمدان محراب الدمى[4]

وقد وصف الهمداني قصر غمدان بالقدم ، إذ هو أول قصور اليمن وأعجبها ذكرا وأبعدها صيتا في صنعاء[5] .

واختلف الرواة - كعادتهم في رواياتهم - عمن بنى غمدان . فروى النويري أن بانيه حام بن نوح ، وزعم آخرون أن بيوراسب بناه على اسم الزهرة ، وقال ابن هشام إن الذي أسسه يعرب بن قحطان وأكمله بعده وائل بن حمير بن سبأ بن يعرب[6] . ورُوي أن مؤسسه أزال بن قحطان بأمر أخيه يعرب[7] . أما الهمداني فقد جعل بانيه سام بن نوح وسرد قصة لبنائه . فقد ارتاد سام بن

نوح البلاد فوجد اليمن اطيب مسكنا ، فوضع مقرانة[٨] وطار بها ، وتبعه سام لينظر أين وقع ، فأم بها الى جبوب[٩] ، وطرحها على حرة غمدان ، فعلم سام أنه قد أمر بالبناء هنالك فأس غمدان . وروى ياقوت أن بانيه سليمان بن داو الذي أمر الشياطين فبنوا لبنقيس ثلاثة قصور بصنعاء : غمدان وسلحين وبينون ، وفيها يقول الشاعر :

هل بعد غمدان أو سلحين من أثر
أو بعد بينون يبني الناس أبياتا[١١]

وقد خاطب الهمداني ـ مفتخرا ـ أهل العراق ، وقد كانوا وصفوا بغداد ، فقال :

أرض تخيرها سام وأوطنها
وأس غمدان فيها بعدما احتفرا
أم العيون فلا عين تقدمها
ولا علا حجر من قبله حجرا
لا القيظ يكمل فيها فصل ساعته
ولا الشتاء يمسيها اذا اقتصرا[١٢]

كما قال أيضا :[١٣]

ما زال سام يرود الارض مطلبا
للطيب خير بقاع الارض يبنيها
حتى تبوأ غمدانا وشيدها
عشرين سقفا يناجي النجم عاليها
فان تكن جنة الفردوس عالية
فوق السماء فغمدان يحاذيها
وان تكن فوق وجه الارض قد خلقت
فذاك بالقرب منها أو يصاليها[١٤]

وروى الالوسي أيضا ان بانيه الملك اليمني الى شرح ، فلما فرغ من بنائه قال فيه شعرا بالحميرية لم يحفظ منه الا هذا البيت[١٥] :

اني أنا القيل الى شرح
حصنك غمدان بمهات[١٦]

ونسب الى ذي جدن الحميري شعر وصف فيه غمدان قائلا[١٨] :

وغمدان الذي حدثت عنه
بنوه ممسكا في رأس نيق[١٨]
بمنهمة وأسفله جروب
وحر الموحل اللشق الزليق[١٩]
مصابيح السليط تلوح فيه
اذا يمسي كتوماض البروق
ونخلته التي غرست اليه
يكاد البسر يهصر بالعذوق[٢٠]

وقد جعل المسعودي «غمدان» خامس بيت من البيوت المعظمة ، ونقل ما نسجه الرواة حوله من أساطير وحكايات ، فعندما أراد أسعد بن يعفر ـ صاحب قلعة كحلان النازل بها صاحب مخاليف اليمن في ذلك الوقت ـ أراد أن يبني غمدان فأشار عليه يحيى بن الحسين الحسني ان لا يتعرض لشيء من ذلك ، اذ كان بناؤه على يدي غلام يخرج من أرض سبأ وأرض مأرب يؤثر في صنع هذا العالم تأثيرا عظيما[٢١] ، ولعل هذا ارتبط في ذهنهم بمجيء المهدي المنتظر من اليمن ، أو ما تعارف اليمانيون على تسميته بالمنصور .

وتزيد الرواة في وصف وابراز عظمته ،

فقيل أنه كان مربعاأركانه مبنية بالرخام الملون ، وفيه سبعة سقوف طباقا ، ما بين السقف والاخر خمسون ذراعا [22] . وقد انتقد الهمداني هذه الرواية والمبالغة فيها ، وروى أنه عشرون سقفا على زعم بعض الروايات ، وكل سقف على عشرة أذرع ، وضمن ذلك شعره في غمدان قائلا :

من بعد غمدان المنيف وأهله
وهو الشفاء لقلب من يتفكر
يسمو الى كبد السماء مصعدا
عشرين سقفا سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة
ومن الرخام منطق ومؤزر
متلاحكا بالقطر منه صخرة
والجزع بين صروحه والمرمر

وكانت غرفة الرأس العليا مجلس الملك ، وفي زواياه الأربع أسود من نحاس أصفر خارجة صدورها ، فاذا هبت الريح في أجوافها زأرت كما يزأر الأسد [23] ، كما وصفها الهمداني في قوله :

وبكل ركن رأس نسر طائر
أو رأس ليث من نحاس يزأر
متضمنا في صدره قطارة
لحساب أجزاء النهار تقطر [24]

وفي البيت الثاني اشارة الى وجود الساعة في قصر غمدان واستعمال قدماء اليمنيين لها ، وذكر الألوسي وجود غرف شهيرة في غمدان يسمونها المحاريب ، وكانت محكمة البناء [25] ، كما وصف الهمداني اشتماله على ينابيع الماء وتدفق مياهها ، فقال :

والطير واقفة عليها وفودها
ومياهه قنواتها تتهدر
ينبوع عين لا يصرد شربها
وبرأسه من فوق ذلك منظر [26]
برخامة مبهومة فمتى ترد
أربابه مدخولة لم يعسروا [27]

وشبيه بذلك قول علقمة بن ذي جدن :

هذاك غمدان مخزئلا
بناؤه العجب العجيب
أعلاه مبهمة رخام
عال وأسفله جروب [28]

ومن مبالغاتهم في وصفه ما قيل : ان ملوك اليمن كانوا اذا قعدوا في أعلى هذا البنيان بالليل واشتعلت الشموع رأى الناس ذلك من مسيرة ثلاثة أيام [29] .

وفي غمدان وملوك اليمن يقول دعبل بن علي الخزاعي :

منازل الحي من غمدان فالنضد
فمأرب فظفار الملك فالجند
أرض التبابع والأقيال من يمن
أهل الجياد وأهل البيض والزرد [30]

وقد وصف علقمة بن ذي جدن شموخه فقال :

فذاك غمدان مخزئلا
كأنه جبل منيف

يسكنه ماجد أبي
ترغم قدامه الأنوف[٣١]

وتفنن الشعراء في وصفه ، فضمنوا الفخر أشعارهم ، كما اتخذوا حاله وما آل اليه وأهله عبرة لتوالي الدهر والحدثان ، فقال علقمة بن ذي جدن مفتخرا :

قد كان حسان في ثوا به
غمدان قريرا يعيش من رغدا
يخدمه من سراة حمير
ألفان قياما لن يقعدوا أبدا
ان سار ساروا حواليه
صفين لا يبعدون اذا بعدا[٣٢]

وذكره أبو علكم المراني من همدان في قصيدة ذكر فيها مواضع في اليمن ، فقال مفتخرا :

نحن المقاول والاملاك قد علمت
أهل المواشي بأنا أهل غمدانا

ويستمر في ذكر قصور اليمن وما شاده تبابعتها ، الى قوله :

وقصر يبنون علاه وشيده
ذو الفخر عمرو وسوى قصر غمدانا[٣٣]

ودرج رواة اليمن على أن ينسبوا الشعر الى تبابعتهم ، فنسبوا الى أسعد تبع في غمدان قوله :

وغمدان قصر لنا شرف
مآجله حوله تزفر[٣٤]

وكان معسكرنا دائما
أزال وعسكره عسكر[٣٥]

واتخذ الشعراء من غمدان عبرتهم ، فقال الأعشى :

وأهل غمدان جمعوا
للدهر ما يجمع الخيار[٣٦]
فصبحتهم من الدواهي
جائحة عقبها الدمار[٣٧]

كما ينضح شعر علقمة بن ذي جدن بالأسى في قوله :

أبعد غمدان حين أمسى
يسفي به المور والرياح
وناعط أوحشت وأقوت
فهل لذي ثروة فلاح

فكأن نواحة اليمن قد وجد في غمدان ما فجر ينابيع شجوه وحسرته فقال أيضا :[٣٨]

وتكورت غمدان من صرف الردى
من بعد مملكة وبعد تكبر
القيل من قحطان أبهم صخرها
وعمادها والقطر خير الأقطر[٣٩]

هدم غمدان :

وقيل ان «غمدان» هو البناء الذي ذكره الله في قوله «لا يزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم»[٤٠] فلما نزلت هذه الآية أرسل رسول الله ﷺ فروة بن مسيك المرادي ليهدمه ، فلما أراد

هدمه لم يقدر عليه حتى أحرقه بالنار ، ولم يهدم الا بعد وفاة الرسول .[11] كما ورد في القول المنسوب الى ذي جدن الحميري :

فأصبح بعد جدته رمادا
وغير حسنه لهب الحريق[12]

ومما يجدر ذكره أن المفسرين في تفسيرهم الاية المذكورة لا يذكرون هذا التفسير ، فقد ذكر الطبري أن البناء المقصود هو مسجد المنافقين[13] ، ويتفق معه الزمخشري في هذا التفسير[14] .

ورووا عن عمر بن الخطاب قوله : «لا يستقيم أمر العرب ما دام فيها غمدانها» ، وهذا القول هو الذي حض عثمان على هدمه[15] .

وروى ياقوت زعم كهان اليمن أن من يهدم غمدان يقتل ، ولذلك علل قتل عثمان[16] .

واذا تأملنا قول ابن الخطاب تتضح لنا نظرة السلطة في شمال الجزيرة الى الثورات في جنوبها ، واعتداد حمير بماضيها وما شاده ملوكها ، فلا نستبعد أن يتخذوا غمدان رمزا لاعتزاز اليمانية بماضيهم ومفاخرة عدنان والنزارية به ، فعملوا على هدمه ، وقد لمسنا مما مر بنا من أشعار افتخار اليمانيين الكبير به وبملوكهم ، وذاك الاعتزاز الكبير بمآثرهم ، ولعل ما نقل عن ابن الكلبي يترجم لنا مشاعر اليمنيين نحو «غمدان» عندما روى انه كان على كل ركن من أركان غمدان مكتوب «اسلم غمدان ، معاديك مقتول بسيف الغدران»[17] .

وعندما نتمعن في الروايات حول «غمدان» منذ انشائه حتى هدمه ، نجده اسطورة أو رمزا لما أنجزته اليمن ، وتلك كانت نظرة الشعراء اليه ، والا ما ظفر بكل تلك الاشعار ، وما لهج بذكره الشعراء بين معتز ومفتخر ، وبين متحسر وآسف على ماض عريق ، واكتنفته الحكايات والخرافات ، فانشاؤه قرنته قوة غيبية لا دخل لبانيه فيها حيث تبع الطائر فاختاره ، وهدمه أيضا قرنته قوة غيبية لا يستطيع الفرد ردها ، ففروة بن مسيك يمني لا يمكن ان تجبره قوة على هدم بنيان اعتز به قومه الا تبعا لقوة دينية عميقة عرفت السلطة في الشمال كيف تستخدمها لتحقيق مآربها .

فاطمة الصافي

الحواشي

(١) القاضي حسين أحمد السياغي . معالم الآثار اليمنية ١١
(٢) البكري . معجم ما استعجم ٣ : ١٠٢ ؛ ياقوت الحموي . معجم البلدان ٤ : ٢١٠
(٣) المسعودي . مروج الذهب ٢ : ٢٢٩
(٤) التبريزي . شرح مقصورة ابن دريد ٤٤
(٥) الهمداني . الاكليل ٨ : ٣٣
(٦) النويري . نهاية الارب ١ : ٣٧٠
(٧) الالوسي . بلوغ الارب ١ : ٢٠٤
(٨) المقراتة : الخيط الذي يقدر به البناء
(٩) الجبوب : ما ارتفع عن الارض ودون الهضبة
(١٠) الهمداني . الاكليل ٨ : ٣٤
(١١) ياقوت الحموي . معجم البلدان ٤ : ٢١٠
(١٢) الهمداني . الاكليل ٨ : ٣٦
(١٣) المصدر السابق ٨ : ٤٦
(١٤) يصاليها : لغة يمنية فصيحة بمعنى مقابل
(١٥) الالوسي . بلوغ الارب ١ : ٢٠٥
(١٦) حصنك : أي حصنت . وحمير تبدل تاء المتكلم بكاف . وهي لهجة سائدة حتى اليوم في بعض مناطق اليمن .
(١٧) ابن هشام . السيرة النبوية ١ : ٣٩

(١٨) النيق : أعلى الجبل

(١٩) المنهمة : موضع الرهبان . الجروب : الحجارة السودا .

الموحل : خالص كل شيء . اللثيق (من اللثق) وهو اختلاط الماء فيكثر فيه الزلق .

(٢٠) يهصر : يميل بها . العذوق . جمع عذق وهي الكباسة .

(٢١) المسعودي . مروج الذهب ٢ : ٢٢٩

(٢٢) النويري . نهاية الارب ١ : ٣٧١

(٢٣) الهمداني . الاكليل ٨ : ٥٩

(٢٤) المصدر السابق ٨ : ٥٠

(٢٥) الالوسي . بلوغ الارب ١ : ٢٠٥

(٢٦) التصريد : التبريد . المنظر : الغرفة المزخرفة في أعلى البيت

(٢٧) الهمداني . الاكليل ٨ : ٥٠

(٢٨) المصدر السابق ٨ : ٥٤

(٢٩) المسعودي . مروج الذهب ٢ : ٢٣٠

(٣٠) ياقوت الحموي . معجم البلدان ٤ : ٢١٠

(٣١) الهمداني . الاكليل ٨ : ٥٤

(٣٢) المصدر السابق ٨ : ٥٧

(٣٣) الهمداني . الاكليل ٨ : ١٧٨

(٣٤) المآجل : جمع ماجل وهو كالسد . وقوله تزفر من زفر الماء : كثر واضطرب

(٣٥) الهمداني . الاكليل ٨ : ٥٦

(٣٦) الخيار : الذهب والمال مطلقا أو ما هو أفضله

(٣٧) الاعشى الكبير . الديوان ٢٨١

(٣٨) الهمداني . الاكليل ٨ : ٥٥

(٣٩) القطر : النحاس الذائب الذي يصب للبناء

(٤٠) سورة «التوبة» . الآية ١١٠

(٤١) الهمداني . الاكليل ٨ : ٦٣

(٤٢) ابن هشام . السيرة النبوية ١ : ٣٩

(٤٣) الطبري . جامع البيان في تفسير القرآن ١١ : ٣٣

(٤٤) الزمخشري . الكشاف ٢ : ٢٤٥

(٤٥) النويري . نهاية الارب ١ : ٣٧١

(٤٦) ياقوت الحموي . معجم البلدان ٤ : ٢١١

(٤٧) المصدر السابق ١ : ٣٧١

المصادر والمراجع

(١) الاعشى الكبير . ميمون بن قيس : الديوان . شرح د . محمد حسين . مكتبة الاداب بالجماميز المطبعة النموذجية (بلا تاريخ)

(٢) الالوسي . محمود شكري : بلوغ الارب في معرفة أحوال العرب . تحقيق محمد بهجة الاثري . دار الكاتب العربي . مصر ـ الطبعة الثالثة (بلا تاريخ)

(٣) البكري . عبد الله بن عبد العزيز : معجم ما استعجم . تحقيق مصطفى السقا . مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر ـ القاهرة ١٩٤٩ .

(٤) التبريزي . الخطيب : شرح مقصورة ابن دريد . تحقيق د . فخر الدين قباوة . المكتبة العربية . حلب ـ الطبعة الاولى ١٩٧٨

(٥) الزمخشري . جاد الله محمود بن عمر : الكشاف . دار الكتاب العربي ـ بيروت (بلا تاريخ)

(٦) السياغي . القاضي حسين احمد : معالم الاثار اليمنية . مركز الدراسات والابحاث اليمنية . صنعاء . الطبعة الأولى ١٩٨٠ .

(٧) الطبري . محمد بن جرير : جامع البيان في تفسير آي القرآن . المطبعة الكبرى الاميرية ـ بولاق . مصر . الطبعة الاولى ١٣٢٩ هـ .

(٨) المسعودي . علي بن الحسين : مروج الذهب . تحقيق يوسف أسعد داغر . دار الاندلس . بيروت . الطبعة الاولى ١٣٨٥ هـ ـ ١٩٦٥ م

(٩) النويري . شهاب الدين احمد بن عبد الوهاب : نهاية الارب في فنون الادب . دار الكتب المصرية ـ القاهرة ـ الطبعة الأولى ١٩٤٩ م ـ ١٣٦٩ هـ

(١٠) ابن هشام . الكلبي : السيرة النبوية . تحقيق مصطفى السقا . ابراهيم الابياري . عبد الحفيظ شلبي ـ مطبعة مصطفى البابي الحلبي ـ مصر . الطبعة الثانية ١٣٧٥ هـ ـ ١٩٥٥ م

(١١) الهمداني . الحسن بن احمد : الاكليل ج ـ . تحقيق محمد بن علي الاكوع . مطبعة الكاتب العربي . دمشق ١٣٩٩ هـ ـ ١٩٧٩ م

(١٢) ياقوت الحموي : معجم البلدان ـ دار صادر ـ بيروت . ١٣٧٦ هـ ـ ١٩٥٧ م

* * *



رونالد ليوكوك
ترجمة : علي محمد زيد

كانت كاتدرائية صنعاء ، التي أنشأها مسيحيو الجزيرة العربية لتنافس المحج الوثني في مكة ، ذات اتساع استثنائي ومزخرفة بصورة اسطورية . فقد كانت مزينة بإسراف بمواد ثمينة كالمرمر ، والرخام ذي الألوان المختلفة ، والابنوس ، والأخشاب النادرة ، والعاج ، والفسيفساء ، والرسوم وصفائح الذهب والفضة ، ومرصعة بالاحجار الكريمة . وقد هدمت للأسف في نهاية القرن الثامن [٢] ، واستخدمت زخارفها في الكعبة [٣] حيث لا نزال نشعر بروعتها .

ويظهر بوضوح أن التأثير الهيلينستي في هندسة البناء ، الذي جاء متأخراً عنه في النحت ، قد تزامن مع مجيء المسيحية في القرنين الثالث والرابع . وخلال القرن السادس ، حيث نستطيع ، في الواقع ، الحديث عن تأثير بيزنطي ، وقوى الاحتلال الحبشي للبلاد باسم المسيحية هذا التأثير الهيلينستي . أما التأثير الفارسي الذي استطاع أن يلعب دوراً محدوداً في الزخرفة السبئية فيما مضى فانه في الأخير قد زاد أهمية أثناء الاحتلال القصير للبلاد من قبل الساسانيين في نهاية القرن السادس وبداية القرن السابع . وحينما بدأ تشييد الآثار الاسلامية ابتداء من حياة النبي كان قد تجمع في اليمن كل العوامل التي يعدها الاخصائيون الآن خصائص الأسلوب الاسلامي ، يضاف الى ذلك عامل يتم تجاهله في الغالب ، ذلك هو أسلوب البناء العربي المحلي القديم (يقصد في اليمن بالذات) . وهذا العامل الأخير بلغ في الواقع ذروته في أسلوب بناء المعابد في القرن الثالث ، وهو نفسه الذي يفسر في وقت متأخر جداً استمرار الأسلوب المحلي المتميز دائماً في المعمار العام والخاص خلال القرون التي خلق فيها الفن الاسلامي .

السيطرة الحبشية والفارسية في القرن السادس :

جرت العادة على اعتبار الكنائس المسيحية قد شيدت في اليمن خلال القرن الرابع في نجران ، وبخاصة في ظفار في سنة ٣٥٤ . وهناك احتمال قوي ، وفقا لدراسة اسلوب البناء ، بأن

أعمدة وتيجان أعمدة كنيسة (حدة قليس Haddah Ghulays) جاءت من كنيسة ظفار لدرجة أنها لا تحمل الرموز المسيحية ، أو انها قد تحولت عن معبد يهودي أو عن مبنى مدني .

إن معرفتنا حسنة حول الاحتلال الحبشي للبلاد حوالي ٥٢٣ ـ ٥٢٥ . فالغزو الحبشي قد انطلق في الأساس من أكسوم بتحريض من الامبراطور البيزنطي جستان الأول (Justin I) انتقاماً للاضطهاد الجماعي الذي تعرض له مسيحيو نجران [٤] . وبعد نجاح هذه العملية أقام الأحباش عاصمتهم في صنعاء ، وباشروا ببناء كاتدرائية كبيرة لتكون محجة للمسيحيين في الجزيرة العربية ، وأملوا أن تجذب اليها المؤمنين للتأثير على الحج الوثني الى مكة . وقد بعث امبراطور القسطنطينية لهذا الانشاء «العمال» الاغريق ، والفسيفساء ، والمرمر . وبدون شك يجب أن يفهم أن «العمال» قد كانوا مهندسين معماريين لتوجيه المشروع وبناء الكاتدرائية .

أسطورة بناء الكاتدرائية :

لقد استخدم الأحباش كما يبدو إلى أقصى مدى الأسطورة ، التي تقول إن المسيح سيعود إلى صنعاء وسيصلي في مكان ما فيها ، لتبرير بناء الكنيسة الكبيرة القديمة ووضعها على نفس المستوى مع الكنائس المشهورة التي يُحج إليها ، مثل كنيسة قبر المسيح في القدس التي بنيت في الفترة من ٣٢٨ ـ ٣٣٦ ، وكنيسة الميلاد في بيت لحم التي انشئت قبل سنة ٣٣٣ .

ونستطيع الحصول على بعض الأوصاف التفصيلية عن الكاتدرائية عن طريق النصوص الاسلامية المبكرة ، فقد كان موقعها فيما أصبح مؤخرا الحي القديم في صنعاء ، وكانت محاطة بفضاءٍ فسيح للتنزه وفقا للطقوس الاثيوبية ، ولها دعائم من الخشب داخل مدماك الجدران الخارجية لمقاومة قوة الدفع . وهذا التدعيم بالخشب موضوع على قاعدتين حجريتين بحيث يعطي نتوءاً مثل (رأس القرد) ، وهو تكنيك في البناء نجده في الأسلوب الأكسومي الذي استخدم في الكنائس الأثيوبية الأولى . وبين كل قاعدتين حجريتين قاعدة حجرية مثلثة من الألوان المتتابعة مكونة إفريزا . وينتهي الجدار بسلسلة من مجموعات حجرية متضادة الألوان : الأبيض ، والأسود ، والأصفر ، تكوّن حاجزا بارزاً بوضوح بالنسبة للسقف .

فخامة الديكور :

أُنشىء مدخل الكاتدرائية على الجانب الغربي بحيث يتم الوصول اليه بارتقاء سلم شديد الانحدار من المرمر ، وشيد المبنى بكامله على مرتفع يزيد ارتفاعه عن خمسة أمتار ، وطُليت الأبواب بالذهب والفضة ، وكان يوجد من الداخل ، قبل كل شيء ، جناح ثلاثي طوله خمسون متراً وعرضه خمسة وعشرون متراً تقريباً . ويرتكز عقده على أعمدة من الخشب الثمين والمزين بالرسوم وبمسامير من الذهب والفضة . ثم الجناح المصالب (Toansept) ذي الأقواس بعرض ١٢ متراً يقطع الجناح (nef) . وأروقتها مزينة بالفسيفساء التي تمثل أشجارا وغابات مزينة بنجوم من الذهب . وأخيراً فان هذه الكنيسة (Martyrium) ذات الشكل المقبب (على شكل قبة) كانت بقطر

حوالي عشرين مترا ، وجدرانها المغطاة بالفسيفساء تمثل صليبا من الذهب والفضة . وفي مركز القبة لوحة من الرخام البراق تسمح بمرور النور ، وكان البلاط المستخدم من المرمر الملون . ويبدو أن الجناح المصالب قد كان ينفصل عن الجناح بسلسلة من العقود المرتكزة على دعائم من المرمر ، يكونها حاجز ضخم من الأبنوس ومن الأخشاب الثمينة الأخرى المرصعة بالعاج ، منقوشة بصورة رائعة . وأمام الهياكل (المذابح المقدسة) كانت الأبواب المموهة بالذهب مرصعة بالأحجار الكريمة ، وفي وسط كل لوحة كان يوجد صليب من الذهب . ومن حول هذه الجواهر حفرت زهور مختلفة تولد حالة من الاندهاش لدى الزائر .

البناء على مثال كنيسة الميلاد في بيت لحم :

يتماثل وضع الجناح والكنيسة تماماً في كنيسة الميلاد . ويستفاد من الحفريات أن كنيسة بيت لحم قد كانت ذات شكل متعدد الاضلاع والزوايا ، وبقطر داخلي طوله ستة عشر متراً . وفي الجزء الأكثر قدما من مدينة صنعاء يوجد حي يُسمى (القليس) وهي كلمة تعني (الكنيسة) . ومركز هذا الحي ، الذي يقع على بعد ٧٥ متراً إلى الغرب من سور القلعة ، تبيَّن على أثر حفر الأرض أن فيه بقايا جدار لأساس حجري (مبني من الحجر) من النوع الأكسومي ، وله تصميم لا يزال محافظاً على شكل متعدد الأضلاع والزوايا ، وقطره (١٢,٤٥) مترا من الشمال الغربي الى الجنوب الشرقي ، و (١٤,٦٥) من الجنوب الغربي إلى الشمال الشرقي . وسُمك جدار الأساس حوالي ثلاثة أمتار ، ويبدو محتملا أنه كان يوجد بصنعاء كنيستان ذواتا شكل متعدد الأضلاع ، ولهما نفس الأبعاد تماماً لدرجة أننا نكاد نكون على يقين من العثور هنا على أساس الضلع الشرقي من الكاتدرائية الذي يمتد بطول ستين مترا نحو الغرب تحت مجموعة من البيوت التي تنتهي في ساحة صغيرة حيث تلتقي أربعة شوارع آتية من اتجاهات مختلفة . فإذا كان المقصود هنا هو موقع الوجه الغربي من الكاتدرائية فهو على مسافة خمسين مترا الى الشرق من السوق الذي كان يوجد قديما على حدود المدينة وعلى مسافة (١٥٠) مترا الى الشرق من عمدان . القصر الملكي القديم . وطبقا لاشارات الازرقي في وصفه لكاتدرائية صنعاء بأنها كانت مستطيلة الشكل . نستطيع الاعتقاد أن الشكل الثماني كان في داخل السور الخارجي . وأن المساحة الضيقة الباقية على كل جانب يمكن استخدامها كمصلى . هذا التصميم للكنيسة يتفق تماما مع التصاميم التي استخدمت في زمن متأخر في اثيوبيا . ويبدو أن القبة ، أو على الأقل المسنّم الذي يغطيها . قد نقلت أكثر من بقية الكنيسة على غرار ما هو موجود في بيت لحم . ويبدو من المستحيل أنها وصلت الى ارتفاع ستين ذراعاً أو تسعة وعشرين متراً .

وقد أبقي على الكاتدرائية خلال السنوات الأولى من الاسلام ، كما ذُكر أسقف صنعاء بعد قرون عديدة . لكن هذه الكاتدرائية الأكثر جمالا قد قنعت سنة ٦٨٤ واستخدمت في تزيين الكعبة في مكة عند إعادة بنائها . ومن المعروف أن الكاتدرائية قد هدمت بين سنة ٧٥٣ وسنة ٧٧٥ . وأنه قد أعيد بناء الكعبة بالكامل في ٧٥٣ - ٧٥٤ .

في الكعبة : البقايا الوحيدة لكاتدرائية صنعاء

وهكذا ففي هذه الحقبة أعيد استخدام (الديكور) ذي الأصل المسيحي الموجود حاليا داخل الكعبة في مكة . فمن بين العديد من الآثار القديمة الوثنية لما قبل الاسلام التي يرجع تاريخ بعضها الى القرن الخامس قبل الميلاد ، يوجد بالكعبة تسعة تيجان أعمدة ، وقطع من ثلاثة جذوع أعمدة ، وقاعدتان ، والعديد من الدعائم المنحوتة من الأبواب الخشبية كما يعتقد ، وقطع من عارضات ورسوم السقوف الخشبية للكاتدرائية . إن الملمح الأكثر أهمية لدراسة هذه المادة هو أنها تسمح لنا بالعثور على أسلوب بناء كنائس صنعاء المسيحية الذي هو شكل مبسط من الأسلوب البيزنطي في القسطنطينية خلال القرن السادس . فتيجان الأعمدة وجذوعها مبنية بالطريقة نفسها المستخدمة في العاصمة البيزنطية . والتيجان الضخمة للأعمدة والمأخوذة من صنعاء مزينة على كل وجه بأزواج من أوراق الأقنثيات (Acanthe) [5] المتعارضة والمنمنمة مائلة الأقواس نصف الدائرية ، ومحيطة في الغالب بصليب اغريقي مصنوع في أسلوب تزييني . وهناك نوع آخر من تيجان الأعمدة حيث لم يعثر في الكعبة سوى على نموذجين يوضحان التزيين التقليدي بأوراق الأقنثة . وكانت جذوع الأعمدة اسطوانية الشكل مغطاة بتشبيك زهري من رسوم الكروم الملتوية ، وهو مما يتميز به الأسلوب البيزنطي والهيلينستي المتأخر . وتيجان الأعمدة من النوع الأول في صنعاء تشبه بصورة شاذة تلك التي وجدتها في موقع كنيسة زيون الكبيرة في أكسوم البعثة الألمانية إلى اكسوم سنة ١٩١١ ، فهي تحمل نفس التزيين من أوراق الاقنثة الذي في الأمثلة الباقية لنا بدون الصليب . فتاج العمود من النوع الأكسومي له على كل واحد من وجوهه زوجان من الأوراق مع صليب إغريقي يعلو الأوراق الوسطى بدلا من نحته في مكان متوسط . ويبدو اثنان من تيجان أعمدة صنعاء ، التي لا نستطيع لسوء الحظ أن نفحصها بدقة لأنها حولت واستخدمت كقواعد ، مماثلة للنوع الأكسومي . ونفس الأسلوب في تشييد الأعمدة وتيجانها يظهر على عدد معين من القطع التي جمعت في الموقع الأثري القديم : ظفار . فاللوحات الحجرية مهمة بشكل خاص لأنها تظهر أن الأسلوب المعماري القديم ما قبل المسيحي في اليمن قد بقي في الوقت نفسه مرافقا لظهور الأسلوب البيزنطي الجديد ، إذ توجد نافذة مستطيلة مع مشكاة [6] تعود إلى أسلوب قديم ، تفتح الى شرفة مقوسة بيزنطية محاطة بأوراق الأقنثة ، مدعمة بأعمدة لولبية أو تيجان أعمدة مزخرفة بلوالب متعاكسة .

ويتسم الاحتلال الساساني لليمن بعد سنة ٥٧٤ بتشييد التماثيل المهمة التي لم تصلنا . فالبناء على شكل قبة أو مسنم من الخشب في مقدمة محراب الجامع الكبير بصنعاء أو أسلوب ساساني يبدو أنه نسخ عن قبة قصر ساساني بصنعاء . وحقيقة أن مثل هذه القصور ، أو على الأقل مثل هذه الصالات للاجتماع ، ربما كانت قد بنيت في اليمن ، يفرضها التشابه القريب بين بعض المساجد اليمنية ، شبام ـ كوكبان على سبيل المثال ، و (الأبادانه) الساسانية في شكلها الأول .

والخلاصة إن بعض الأعمدة ، وتيجان الأعمدة ، واللوحات الحجرية المزينة التي وجدت

في اليمن ، قد كانت تحمل تأثيراً ساسانياً، ولكننا لا نستطيع معرفة ما إذا كانت تعود إلى زمن الاحتلال الساساني أم إلى بداية الحقبة الاسلامية .

هوامش المترجم :

(١) La Cathedrale de Sanaa, foyer du christianisme en Arabie .

وأول ما يلاحظه القارىء على أسلوب الكاتب في هذا المقال أنه يسرد الأمور كالمسلمات دون أن يشير في كل مرة الى المرجع التاريخي الذي استند عليه ، ودون أن يسوق بعض الاقتباسات ليمكن القارىء من الاطلاع على أسلوبه في التعامل مع النصوص التاريخية ، ومشاركته في أحكامه . ولعل أسلوب المقال الصحفي قد طغى على الكاتب مما افقد البحث الكثير من أهميته ، على الرغم من أنه يتناول موضوعاً في غاية الأهمية وغير مطروق بصورة مناسبة في اليمن وفي الكتابة العربية عموماً . وقد عمدت الى ترجمة هذا الموضوع لأنه في نظري يفتح أمام المهتمين من اليمنيين موضوعاً مثيراً للبحث ، خاصة وأن الكاتب يقدم مع المقال قائمة بالمراجع التي يمكن العودة إليها في هذا المجال ، وإن كان لم يشر في ثنايا البحث الى مواضع استناده عليها . وهذه هي قائمة المراجع التي أوردها :

- Sur la persécution des chrétiens de Najran. cf procopius. History of the wars. ed. H.B. Dewing. London. 1958. I. 188-9. 191.6 EF Photius. The Library of photius. trans. J.H. Freese. London. 1924. Chrysostomos papadoulos. church History of Alexandria. Alexandria. 1935. 443

- Sur la rivalite entre cathedrale de Sanaa et pelerinage de la Mecque. cf un manuscrit perdu de al-Tabari. cite par Abu salih. dans churches and Monasteries of Egypt and Some neighboring countries. trans. B.T.A. Evetts. Oxford. 1895. fol. 1106-1112. p.300-1: et aussi Abreha's letter to the Najashi. cite par al-Azraqi.

- Sur la construction de la cathedrale de Sanaa dirigee par des architectes de constantinople. cf al-Tabari al-Rusul wal-Muluk. ed. De Goeje. I series. 931-972.

- Sur la legende de la venue du christ a Sanaa. cf al- Azraqi. kitab AKhbar Makkah. ed. F. wustenfeld. Leipsig. 1895. 89.

transcription par R.B. Serjeant in Serjeant et Lewcock. San'a . an Arabian Islamic city. London. 1976.

- Description de la cathedrale de Sanaa: al-Azraqi. yaqut George. wort III. 49 et al-Tabari cite par Abu salih. op.cit. et Tarikh. op. cit.

- Sur le dernier evêque de Sanaa: Thomas of Marga. c837-50 . The Book of Govervors. trans. E. Wallis Budge. London. 1893. II. 448. Les Chretiens de Sana'a étaient encore mentionnés en 911 apres J.C.. R.B. and Lewcock. op. cit

(٢) جميع التواريخ مثبتة بالتقويم الميلادي .

(٣) يستخدم الكاتب تعبير (La grande Mosquee de la Mecque) واستخدمت في الترجمة : (الكعبة) .

(٤) يبدو الكاتب هنا مأخوذا بصورة حرفية بالحجج التي قدمها الأحباش ومن ورائهم البيزنطيون لاحتلال اليمن آنذاك ، وهي حجج أصبحت تشكل تراثا دينيا في المراجع الكنسية . لكن الأوساط العلمية قد تجاوزت هذه المراجع الرسمية الى البحث في المشكلة في إطار عصرها بحيث تتبدَّى مشكلة سياسية اقتصادية متداخلة مع الدعاوى الدينية ، كما كان واقع الحال ، وكما ظل طوال العصور اللاحقة .

(٥) الأقنثة جنس نباتات معمرة ذات أوراق سنبلية مخرمة تستعمل للتزيين .

(٦) المشكاة كوة في الحائط يوضع فيها تمثال أو زهرية .

* * *

صنعاء وموقعها في التاريخ العام لليمن

الأستاذ
شرف الدين لطف أحمد الديلمي

عبد الرحمن عبد الله الحضرمي

مدخل :

تاريخ اليمن حافل بتراثه الفكري ، والسياسي ، والاجتماعي ، والاقتصادي . ونحن حينما نتحدث عن التاريخ اليمني في شتى المراحل لا يعني ان هذا الحديث يقتصر على جانب واحد من جوانب التاريخ . سواء كان التاريخ القديم أو الوسيط ، أو المعاصر . وانما حلقات التاريخ متصلة لاتنفصم . فالحديث عن التاريخ ، حديث عن مجتمع يمني له أصالته الحضارية في شتى المجالات الفكرية والسياسية ، والاجتماعية والاقتصادية . وهذه الأساسيات تعتبر من المقومات الهامة للحياة .

والمجتمع اليمني مهما مرت به الأحداث ، والصراعات ، فهو صانع مجد وحضارة ، وخلود .

والحديث عن صنعاء لا يعني المدينة وحدها . وانما هو حديث عام يشمل التاريخ اليمني المتماسك في تاريخه العام . وجغرافيته الطبيعية المترامية الاطراف شمالاً الجوف معين ، ونجران وعسير ، وجازان ، وجنوباً عدن وحضرموت ، وظفار الحبوطي ، وشرقاً مأرب وقتبان ، واوسان ، وتمنه ، والربع الخالي ، وعمان وغرباً البحر الأحمر وزبيد

وصنعاء هي القلب النابض في هذا الهيكل اليمني المليء بعناصر القوة والحيوية . ولقد زخر اليمن بالحضارة اليمنية قبل الاسلام في شتى مناحي الحياة الاجتماعية ، والسياسية ، والفكرية ، والاقتصادية . وتماسكها كتماسك جباله وسهوله . ووديانه ومياهه الاقليميةرغم الاحداث . وازدهر حضارياً بعد الاسلام وصنع الاحداث فكرياً وسياسياً واجتماعياً واعطى للعالم فيضاً بشرياً من نهر متدفق بالخير والعطاء لا تزال روافده تملأه بالقوة والحياة .

وعندما نتحدث عن التاريخ نتحدث عن الانسان اليمني القادر على الخلق والإبداع الذي صنع التاريخ وصنع الحضارة بعقله. بسواعده، بفنه، بعلمه، بنضاله عبر التاريخ . واصبح الانسان الحضاري يعطي وطنه حباً وابداعاً فكرياً، واقتصادياً، واجتماعياً، وثقافيا، وخصباً زراعياً الى جانب طموحاته في الدفاع عن اليمن تراباً وسماءً وبحراً قادراً على صنع الحياة رغم الاحداث القاهرة . لذا فاليمن تاريخ . والتاريخ خلق وابداع وقوة وبناء وتجدد وعلم وايمان وصدق ونضال وذاتية وانسانية قادرة على بناء الحياة وقهر التخلف :

اذا الله احيا أمةً لن يردها
الى الموت قهار ولا متجبرُ

ويعطينا التاريخ اليمني ومراحله ابعاداً واسعة تقودها البراعة السياسية والشخصية القوية على امتداد جغرافيته الطبيعية والإدارة اليمنية في الوحدة اليمنية الشاملة في عهد كرب يهمعن وشمر يرعش تعبيراً للوحدة اليمنية الكبرى بلقب فخم سبأ وريدان وحضرموت ويمنت وأعرابهم في الطود والتهايم . وفي العهد الاسلامي تثبت لنا الوحدة اليمنية في ظل دولة علي بن الفضل وعلي بن محمد الصلحي زعيم الحركة الشيعية باليمن . ودولة علي بن مهدي الرعيني الحميري . والدولة الرسولية ، والامام محمد بن اسماعيل بن القاسم .

تلك مراحل التاريخ السياسي . ومهما كانت الاحداث السياسية ، إنما هي نتيجة صراعات وافرازات اجتماعية تريد ان تتربع عرش اليمن لتكون على قمة الحكم سواء كانت روحية أو قبلية او اسرية تحمل طابعاً مميزاً .

• • •

صنعاء . . في التاريخ

يقول ياقوت الحموي . . كان اسم صنعاء ازال بن يقطن بن عامر بن شالخ . . وهو الذي بناها . وفي ٥٢٥ م فتحها الاحباش فوجدوها مبنية بالحجارة الحصينة . قالوا هذه صنعه ومعناها حصينة فسميت صنعاء .

ولقد مرت صنعا بمراحل تاريخية قبل الاسلام منها الاحتلال الحبشي لليمن . واهم مرحلة شهدتها صنعاء في هذه الفترة حكم أبرهة الذي اتخذ صنعاء عاصمة . وبنى بها كنيسة القليص وزينها بالرخام والفسيفساء واراد نقل الكعبة ليحج إليها العرب .

وكانت حركة ابرهة نقيض حركة ذي نواس الذي أراد تغيير الدين المسيحي بالدين الموسوي باستقدامه حبرين من يثرب . فكانت حادثة نجران التي كانت السبب لاحتلال الاحباش لليمن بحجة الدفاع عن الدين المسيحي مضافا الى ذلك العامل السياسي والاقتصادي . غير ان الاحتلال لم يجد الرضوخ والاستسلام . فقد واجه صراعاً حاداً ومقاومة شعبية عنيفة بقيادة سيف بن ذي يزن بمساندة الفارسيين الذي اتيح لهم فيما بعد حكم اليمن حتى ظهر الاسلام .

لذا نجد هذه الفترة مرت بصراعات اجتماعية وسياسية نتيجة عوامل اقتصادية وسياسية ووطنية ادت الى تقويض الحكم الفارسي المجسّد في « باذان » وانهاء (الأنباء) من المجتمع اليمني نتيجة لعامل التفوق السياسي والوطني .

وتقع صنعاء في قلب جبال اليمن وفي سهل منبسط فسيح يحيط بها من الغرب جبل « عيبان » ومن الشرق « نقم » ومن الجنوب « حزيز » . والجنوب الغربي منتزه (حده وسنح). ومن الشمال الغربي (ضلاع همدان » ومن الشمال قرية القابل المسماة « الروضة ». و« ووادي السر » شمال شرقي صنعاء .

وتقع صنعاء بين (١٤) الى (١٧) شمال خط الاستواء ، وبين (٤٣) إلى (٤٧) درجة شرقي جرنتش . وترتفع صنعاء عن سطح البحر بـ (٧٥٤٤) قدماً وهي شديدة البرودة شتاء ومعتدلة صيفاً . وتبلغ درجة الحرارة بصنعاء من ١٦ الى ٢٨ درجة .

وتشمل صنعا احياء كثيرة : الميدان .. المدرسة .. الطواشي .. خضير .. صرحة الوادي .. الزمر .. حي النعمان .. الفليحي .. العلمي .. صرحة الجوافه .. طلحه .. الخزار .. القزالي .. النهرين .. قبة المهدي .. ابا الروم .. القاسمي .. الأبهر .. الجامع .. الحميدي .. حافة باب السبح .. الطبري .. البونية .. المنطقة .. الصلبي .. بير العزب ..

ويحيط بصنعاء .. سور عظيم اسسه طغتكين بن ايوب بالقرن السادس الهجري ولها[١] عشرة ابواب : باب اليمن .. باب خزيمه .. باب شعوب .. باب البلقه .. باب الشقاديف .. باب ستران .. باب الروم .. باب قاع اليهود .. باب السَّبح .. باب شراره ..

ويحيط بصنعاء نهران الأول الغيل الاسود .. وغيل الالف الاول كان يمر بباب السبح . والثاني غرب صنعاء ومنبعه من سواد حزيز .

وتعرف صنعاء بمدينة القصور حيث تتكون منازلها من ثلاثة الى خمسة أدوار مبنية من الطوب الاحمر : « الياجور .. والاحجار .. والتبن » . وبها مساجد كثيرة تقدر بـ ١٣٠ مسجداً . واشهرها « الجامع الكبير » الذي يعد من المساجد الثلاثة الأوائل باليمن . جامع صنعاء بالعام السادس الهجري بناه فروة بن مسيك ، وجامع الجند بناه معاذ بن جبل .. وجامع الأشاعر بزبيد بناه أبو موسى الأشعري في العام الثاني الهجري .. وتقول الروايات التاريخية . إن جامع صنعاء بناه فروة بن مسيك المرادي بأمر من الرسول ﷺ في بستان باذان فيما بين غمدان والحجر الململمه[٢].

والرواية الثانية رواية النعمان بن برزخ عن النبي ﷺ قال لوبر بن يحنس بالحاء اذا اتيت مسجد صنعاء الذي بجبال الفبيل وهو جبل بصنعاء « او جبل » ضين » فصل فيه[٣]

والرواية الثالثة .. تقول لما قدم وبر بن يحنس الى صنعاءبنى المسجدبامر من الرسول في بستان باذان من الصخرة التي أصل غمدان في السنة السادسة . وروى هذا الحديث ابن الاثير ضمن حروف الواو وترجمه وبر بن يحنس[٤]

والثابت ان الجامع الذي بناه فروة بن مسيك المرادي هوالجبّانةالتي تحولت الى مسجد عام ١٤٠١ بعد ان نقلت الجبانة الى خارج المدينة وسمي باسم مسجد فروه بن مسيك . ومسجد وبر بن يحنس هو الجامع الكبير .

وفي عام ٨٦ هـ زادفي عمارته أيوب بن يحيى الثقفي بامر من الوليد بن عبد الملك . وفي عام ١٣٤ هـ زاد في عمارة الجامع يعلى بن الربيع الحارثي . وفي ١٣٥ اضاف للجامع ابواباً كثيرة عمر بن عبد المجيد بن عبد الرحمن بن يزيد بن الخطاب . وفي ٢٦٥ هـ جدّد عمارة الجامع أبو يعفر بن ابراهيم بن محمد بعد أن هدم من جراء السيول ، واوقف عليه ارضاً بمحل شاهر غرب مدينة صنعاء في ٣٣٣ هـ[٥]

وفي سنة ٦٠٣ هـ عمر المنارة الغربية الامير علم الدين ورد بسار بن بنامى ، وأصلح المنارة الشرقية وحفر بئراً وبنى المطاهير . وفي ٧٩٣ هـ جدد عمارة المطاهير الامام الناصر صلاح الدين محمد بن الامام المهدي علي بن محمد .

وفي سنة ٩٦٤ هـ اصلح منبر الجامع الوزير مراد باشا[٦] . .

ومن اشهر المساجد البكيريه عمره السلطان حسن باشا سنة ١٠٠٥ وسماه باسم مولاه بكير ويليه قبة الامام المتوكل[٧] .

وتمتاز صنعاء بجوها الرائع وهوائها النقي ومنتزهاتها الجميلة التي منها الروضة وحده ووادي ظهر وسنح وضلع همدان والسرّ وبير العزب الذي اشتهر بالبساتين ولكنه الآن تحول الى حيّ من احياء صنعاء الحديثة كلها امتلأت بالعمران .

ومن اهم الزراعة .. الشعير .. والذرة .. والقضب .. والحنطة ..

ومن اشهر فواكهها .. الرمان . والبرقوق .. والبلس التركي والعربي .. والجوز .. والعنب بانواعه المختلفة والفرسك واللوز . والكمثرى ، والاجاص .

ومن اشهر خضرواتها .. الطماطم .. والبقول ، والكراث والبصل والخيار .

• • •

وتعتبر صنعاء سوقا تجاريا للقبائل المحيطة بها القريبة والبعيدة .. واشتهرت بصناعة وطنية مختلفة مثل الخناجر واحزمتها الجلدية . والصيغ الفضية والذهبية والادوات المنزلية النحاسية والفخارية ..

واهم اسواقها سوق الملح ، وبه السمسرة التي تعتبر مستودعاً للأموال التجارية . وهناك اسواق اخرى بقاع اليهود كانت خاصة بهم لبعدهم عن المدينة .

والى جانب ذلك تعد فريدة في الطابع المعماري بفنه اليمني الاصيل . وتختلف منازل اليهود بالقاع عن المدينة بوجود التهوية بالدور الأعلى بوجود مساحة وسط الدار تحيط به الغرف .

ويمتاز اهلها بدماثة الاخلاق وخفة الروح ، والنكتة اللطيفة ، الى جانب التفوق الذاتي والتأثر النفسي بالموروث .

وتحيط بها القبائل اليمنية الشكيمة البأس صاحبة الشأن في الحماية والتغيير . فهي القلب النابض في هيكل اليمن ، والعاصمة التقليدية ، والقلعة الحصينة لكل الاحداث ، والزهرة المبتسمة للحياة في حديقة مليئة بالاشواك ..

كان الحاكم باليمن باذان بن التيجان الفارسي الذي ورث الحكم عن طريق الاحتلال فكانت الاوضاع اليمنية كالتالي :

حكم الاحتلال الفارسي . وكان يشمل صنعاء وبعض المدن اليمنية .

حكم الاقيال : وهم الذين جسدوا الاقطاع

السلاطيني او القبلي بما يسمون بالأقيال . كانت حياتهم تتسم بالهيمنة على مناطقهم . وعدم الارتباط بالعاصمة . واقتطاع ما تنتجه مناطقهم لمصالحهم الذاتية . وإحداث ثورات اذا لم تمنح الدولةلهم مرتبات ، مماجعل الفارسيين يلجأون للتحالف مع بعض القبائل ومصاهرتهم حماية لمركزهم السياسي والاقتصادي ونفوذهم الاجتماعي .

تلك كانت اوضاع صنعاء في هذه الفترة . أي فترة اربعين عاماً تقريباً من الاحتلال الفارسي حتى ظهور الاسلام .

كانت اوضاع مليئة بالقلق النفسي والصراع الاقتصادي والطموح السياسي والتجزؤ الاجتماعي. أي ان اليمن كانت بين ثلاث قوى.

الفارسيون ـ الذين اندمجوا بالشعب بالمصاهرة حماية لهم .

الاقيال ـ المتأصلة فيهم النزعة الفردية والذاتية القبلية والطموح للسلطة .

الشعب ـ الذي تتقاذفه اطماع القوتين المتصارعتين .

فكانت البعثة النبوية التي رأى اليمنيون انها المنقذ من الاحتلال الفارسي المنعزل بصنعاء . فبادرت القبائل بارسال وفودها الى الرسول ﷺ فاستبشر الرسول بوفادتهم وبعثهم الى مناطقهم لنشر التعاليم الاسلامية . والذي يعطينا الضوء لاهتزاز الحكم الفارسي عاملان :

الأول ـ قدوم فروة بن مسيك المرادي في العام السادس للهجرة وتأسيسه مسجد الصخرة الململمة الذي هو الجبانه وشرحه لليمنيين عن الاسلام واعطائهم مؤشرات التخلص من الفارسيين لمبادرتهم للاسلام . فكان حدثاً هاماً للسياسة الباذانية في المبادرة .

الثاني ـ رسالة كسرى لباذان على إثر رسالة الرسول عليه الصلاة والسلام التي تدعوه الى الدخول في الاسلام ، تتضمن ان يبعث برجلين جلدين الى الحجاز ليأتياه بخبر الرسول فأنفذهما ومعهما خطاب سلماه للرسول ، فطلب منهما الانتظار حتى الغدثم ابلغهما ان كسرى قد قتل على يد شيرويه في ليلة الثلاثاء ١١ جمادى الاول من العام السابع للهجرة فرجعا بذلك الخبر الى باذان الذي تحقق صحته(٨) .

من هذه الاحداث السريعة التغيير وفي جو مضطرب وعرش منهار بفارس قرر المبادرة للدخول في الاسلام مع الأبناء وكوّن وفداً الى الرسول فاقره على ولاية اليمن لعاملين :

الاول ـ ان الاسلام لا يقر التفرقة .

الثاني ـ ثقته بتجاربه السياسية والاجتماعية والاقتصادية باليمن .

من هذا السبق الذي قام به باذان في دخوله الاسلام واقرار الرسول الولاية باليمن ثارت ثائرة الشخصيات المتفردة باسلوب الاقتاع والنفوذ القبلي في مناطقهم . فاقرت الدخول في الاسلام ولكنها لم تقر الحكم الفارسي ، وجباية الزكاة وارسالها الى الدولة المركزية التي هي المدينة المنورة . عملاً على اساسيات الاسلام ان تؤخذ من الاغنياء وتعطى للفقراء عن طريق السلطة المنفذة . فكان رد الفعل الاقتصادي والوطني بقولهم لعمال الرسول « ايها المتوردون علينا

امسكوا علينا ما أخذتم من ارضنا ووفروا ما جمعتم . فنحن أولى به . وانتم على ما انتم عليه »[٩].

من هذه العبارة تشتم رائحة الرفض فاعتبر هذا في نظر الاسلام ردة ، واعتبر في نظر الزعماء حقوقاً وطنية اقر الاسلام صرفها للفقراء .

ولما توفي باذان اعاد الرسول ﷺ تقسيم اليمن لعماله فاقر شهر بن باذان على صنعاء وابا موسى الاشعري على الجند واعمالها وعامر بن شهر الهمداني على همدان . وزياد بن لبيد البياضي على حضرموت ، وعمرو بن حزم على نجران ، وخالد بن سعيد بن العاص على ما بين نجران ورمع وزبيد ، والطاهر بن ابي هاله على عك والاشاعر[١٠] .

ومن ثم تكررت ردود الفعل فاعلن الأسود العنسي الثورة بغية اثارة القبائل ، واستولى على صنعاء وقتل شهر بن باذان وتزوج بزوجته . يقول الطبري[١١] عن عبد الله بن فيروز الديلمي ان اباه حدثه عن النبي ﷺ بعث اليهم رسولاً يقال له وبر بن يحسن الازدي وكان منزله على ذادويه .

وقال فيروز الديلمي فأخذت رأس الأسود بيد ولحيته بيد ثم لويت عنقه فدققتها ثم اقبلت الى اصحابي فأخذت المرأة اي زوجة باذان بثوب فقالت اختكم نصحتكم قلت والله قتلته وارحتك منه .

قال فدخلت على صاحبي فاخبرتهما فقال ارجع فاحتز رأسه وأتنا به فحززت رأسه فاتيتهما ثم خرج حتى اتينا منزلنا عند وبر بن يحنس الازدي فقام معنا حتى ارتقينا على حصن مرتفع من تلك الحصون فاذن وبر بن يحنس للصلاة ثم قلنا ان الله قد قتل الأسود الكذاب . .

من هذه القضايا التاريخية نعرف ان الثورة الوطنية التي اندلعت لها مسبباتها واغراضها واهدافها .

الهدف الأول ـ كان الحكم الفارسي وكان محصوراً على صنعاء وما ولاها[١٢] .

الهدف الثاني ـ كان النفوذ لما وراء صنعاء لسادات اليمن المجسد في أقياله وزعمائه . ولما بعث الرسول السلطة انتزعت السلطة منهم واعيد باذان في الحكم . وكان من المفروض ان يسيطر على اليمن الزعماء اليمنيون الذين بادروا للاسلام وأكرم الرسول وفادتهم وهم فروة بن مسيك المرادي ، والأشعث بن قيس الكندي وعمرو بن معدي كرب الزبيدي ، والأبيض بن جمال . ظلت نفسياتهم قلقة لعدم تحقيق فرضهم للسلطة متاججة بردود الفعل حتى توفى باذان واعاد الرسول تقسيم اليمن مرة اخرى الى عدة ولايات تجلت بواعث ردود الفعل فأعلن الأسود العنسي الثورة بوادي جنب بالجوف ونفذت كلمته الى حضرموت وتابعه القبائل ومنهم مذحج ثم زحف الى صنعاء فدخلها وطرد الفارسيين ثم عاد الى اغتياله الأبناء وعلى رأسهم فيروز بالمؤامرة مع امرأة الأسود ولم يمت الرسول الا وقد أخبر بمقتل الاسود .

وبعد موته ثبتت قبائل اليمن على الاسلام الا ما كان من أمر كنده ، والأشعث بن قيس ، فقد اعلنوا العصيان على العامل زياد بن لبيد

الأنصاري لأسباب منها تنازعهم مع المصدق «الجابي»[١٣] الذي حاول أن يأخذ كرائم الابل زكاة رغم اصرارهم على اعطائهم غيرها فكانت الحرب واستغاث فيها زياد بن المهاجر بن امية فهزمت كندة واسر الأشعث مع جماعة حملوا الى ابي بكر فعفا عنهم وتزوج الأشعث بأم فروة اخت ابي بكر . وهذا دليل على ان الاسلام يجب ما قبله اذا حسن اسلام المرء وتكريماً للانسان اليمني الصادق .

وتعطينا هذه الحركة آراء سياسية . . ووطنية . . ودينية لكثير من الكتاب والمؤرخين . البعض من يقول ان هذه الحركة لها امتداد تاريخي باليمن وكانت نتيجة حروب داخلية بين اقيال اليمن منذ ايام ابن ذي يزن مثل يوم غيمان يوم انقلبت الاشياء والصدف وحضرموت على حكم ابن ذي يزن فاخضعهم بمناصرة خولان فساعدهم بدوره في حربهم مع هوازن وبني سليم ثم يوم الرزم الذي كان يوما عظيما من ايام الجاهلية باليمن وهو نفس اليوم الذي دارت فيه موقعة بدر بالحجاز[١٤] .

وكان بين مذحج كلها وهمدان كلها وانتصرت همدان وأجلت مراد عن الجوف وتملكته . ولن يكون السبيل الى الحد من هذه الانقسامات الداخلية والحروب القبلية الا الانضواء جميعا تحت رئاسة دينية سياسية جديدة في اطار دولة عربية كبرى موحدة :

ولهذا تسابقت الوفود اليمنية الى المدينة المنورة تعلن اسلامها وطاعتها . فكان الرسول ﷺ يستقبلها في مسجده احسن استقبال ويرحب بهم اجمل ترحيب ويعطيهم ردهم من التوقير ، ويزيد بعضهم شرفا بان يدنيهم منه ويفرش لهم رداءه ويعطي لرؤسائهم سلطة الحكم في بلادهم وبين ذويهم .

وآخر يقول ان حركة العنسي «ردة فعل» لا «ردة اسلام»[١٥] .

والبعض الثالث يقول في هذا الوقت مالت همدان الكبرى (تحالف حاشد وبكيل) الى التحالف مع الفرس ضد الحركة منذ خطواتها الأولى حيث عقدوا حلفهم المشهور مع باذان قبل وصول الدعوة الاسلامية الى اليمن بقليل والحركة ما تزال في بدايتها في منطقة مذاب من الجوف . وقع الحلف عمرو بن الحارث بن الحصين الشاكري رئيس بكيل وعمرو بن يزيد بن الربيع رئيس حاشد واتفقوا على عقد حلف ضد القبائل المتجمعة في مذاب من بلاد الجوف . ونص الحلف «هذا ما اجتمعت عليه همدان وفارس باليمن بمحضر المرزبان باذان ساسان وشاهده الرئيس عمرو بن الحارث وعمرو بن يزيد بن بكيل[١٦] ومن حضر وكفالة بعضهم لبعض عمن غاب من الحيين جميعاً إنا تحالفنا جميعا على عهد الله وميثاقه واجتماع الهدف واتفاقه قتال المخالف وفراقه الخ . » .

وتشير الدراسة الحديثة التاريخية ان هذه الحركة . . هي معارضة . . لا هي بالكفر ولا بالردة وان لها احتمالين[١٧] : الاول : ثقل الجباية ـ الثاني : نزعة الاستقلال .

اما ثقل الجباية : فان الرسول كان قد اوصى

باعفاء الطلبات الفقيرة من الضرائب .

اما نزعة الاستقلال : معارضة الأذواء الاجراءات الادارية لأنها كانت تهدف الى إقامة سلطة مركزية تحد من مصالحهم الاقليمية .

تعطينا هذه الأحداث ان القبلية وصراعها الاجتماعي والمادي والسياسي لم تذب في اطار الدين الجديد واعادت باذان على حكم صنعاء . وأحدثت جباية الزكاة عن طريق عمال الرسول فقدان المصلحة الشخصية التي كانت كسبا ومغنما للأذواء والأقيال فكان رد فعل عنيف اعتبر في نظر الاسلام ردة . لأن الزكاة ركن من أركان الاسلام . وأمر جبايتها وصرفها على مرافق الدولة وفقراء المسلمين عائد الى الدولة . لا على المزكي نفسه او شيخ القبيلة او القيل . وتؤكد ذلك بصورة مباشرة الرسالة التي وجهت الى عمال الرسول من زعماء الثورة بقولهم :

«ايها المتوردون علينا امسكوا علينا ما أخذتم من أرضنا ووفروا ما جمعتم فنحن اولى به وانتم على ما أنتم عليه» فهذه العبارة معناها الرفض والنقمة الحادة . . والتمرد . وعدم الرضى الا اذا كان وجود العمال دون جباية ـ بقولهم فنحن اولى به اي الأقيال الذين كانوا ينعمون بمصالح البلاد قبل الاسلام احق بهذه المصالح التي حرموا منها .

والجانب الثاني . . رفضهم للسلطة المركزية في شخصية باذان الفارسي قبل الاسلام من فئة وفئة اخرى تؤيد الوجود الفارسي وتتحالف معه .

اذاً تعطينا الأحداث ان كلا الفئتين وطبيتبان تجمعها المصالح الشخصية وتفرقها المصالح العامة التي تستهدف الطبقة الفقيرة ووطنيتهم خاصة لا عامة . سواء كانوا العنسيين ، أو البكيليين ، أو الحاشديين ، أو الهمدانيين . .

والجانب الثالث . وجود الولاة من قبل الرسول وتقسيم اليمن الى ثلاث ولايات . . ولاية الجند . وكانت اكبر ولاية باليمن ولاية صنعاء . وكانت أوسطها . . وولاية حضرموت وكانت أصغرها[١٨] وأعطى نظاما أساسيا للولاة والولاية وجعلها عامة . فالعامة : ويختص فيها الوالي بالسلطات العامة ، امامة الصلاة وتسيير الحج والنظر في تدبير الجيوش ، وترتيبهم والنظر في الأحكام القضائية . وجباية الخراج والصدقات ، وتقليد العمال فيها والصرف منها في أوجه الأنفاق المختلفة والجهاد ضد العدو المتاخم : وتقسيم الغنائم بعد استقطاع الخمس .

والخاصة : وهي ان يختص الوالي أو الأمير بامامة الصلاة وتدبير الجيوش وسياسة الرعية في الأمور الدينية والعسكرية دون القضاء والخراج[٢٠] .

جاء هذا النظام الأساسي كمنقذ للأوضاع اليمنية المشتتة والانقسامات القبلية المتناحرة والصراع الاقتصادي فشلت السلطة من الأقيال الذين فقدوا مصالحهم الاقتصادية التي كانوا يتمتعون بها قبل الاسلام .

من هذه الاحداث كان الخليفة الأول أبو بكر قويا حينما رأى القبلية تعود الى جاهليتها فقال (والله لو منعوني عقال بعير كانوا يؤدونه الى رسول الله لقاتلتهم عليه) .

ومن ثم بعث احد عشر لواء[٢١] وجعل لكل لواء أميرا فتوجه خالد بن الوليد في بني اسد ، وتوجه عكرمة بن ابي جهل على اللواء الثاني الى مسيلمة . وشرحبيل بن حسنة على اللواء الثالث . والمهاجر بن امية المخزومي على اللواء الرابع لقتال الأسود العنسي ، واللواء الخامس لسويد بن مقرن الأوسي الى تهامة باليمن ، واللواء السادس للعلاء الحضرمي لقتال الحطم بن صبعة اخي قيس بن ثعلبة بالبحرين . واللواء السابع برئاسة حذيفة بن محصن الفلفاني من حمير لقتال لقيط بن مالك الأزدي المتنبي في عمان .

واللواء الثامن الى مهرة برئاسة عرفجة بن هرثمة ، وثلاثة الوية الى الشمال على احدها عمرو بن العاص على قضاعة . والثاني برئاسة معن بن حاجر السلمي لقتال بني سليم وبني هوازن وعلى الثالث خالد بن سعيد بن العاص لابتداء مشارف الشام . واحتفظ الخليفة ابو بكر بقوة لحماية المدينة .

كانت هذه الوثبة من ابي بكر لتعطي الدولة المركزية حقها فأعاد اليها القوة والمكانة ، وعادت القبائل الى الاسلام وحسن اسلامها وتحملت مسؤولية بناء الدولة الاسلامية الكبرى والحضارة العربية الاسلامية ومن مشاهير هذه الحركة باليمن عمرو بن معد يكرب الزبيدي الذي أبلى بلاء حسنا في الاسلام بعد الردة . وفروة بن مسيك المرادي (ولي على صنعاء) والاشعث بن قيس (تزوج اخت ابي بكر) فكان لهم السبق في بناء الحياة والنضال في فجر الاسلام .

اليمن في صدر الاسلام

تلك مرحلة فجر الاسلام واحداثه وسياسته في بناء الدولة الاسلامية الكبرى وخاصة في عهد عمر بن الخطاب الذي ضرب المثل الرائع في بناء الدولة عدلا وسياسة وادارة . ومن ثم وجدت الأحداث السياسية مجالا في اثارة النعرة القبنية والتعصب لها في عهد خلافة عثمان ببروز مروان بن الحكم وتسليم السلطة غير المباشرة في اثارة الحساسيات والصراع القبلي والتشيع للامام علي والتغالي فيه نتيجة للأحداث مما اثارت الصراع بين معاوية وعلي ، فكانت الفرق السياسية وصراعها التي وجدت من هذا المخاض واعلنت رأيها في الخلافة في ان تكون شوروية كما اختارها عمر بن الخطاب حقنا للدماء .

من هذه الاحداث وجد الحكم الاسري الذي اختاره معاوية بن ابي سفيان في اطار الخلافة الاموية وبروز منافسيه العلويين والعباسيين . فكان للعباسيين نصيب الأسد بتأسيس عبد الله بن علي بن العباس الخلافة العباسية . من هذه الأحداث نأتي إلى دور اليمن في هاتين المرحلتين .

المرحلة الأولى :

في عهد معاوية بن ابي سفيان وخلفائه عين أخاه عتبة واليا على اليمن . عهد الامويون الى ربط اليمن بالحجاز في ولاية واحدة فعين الحجاج بن يوسف الثقفي على الحجاز واليمن وبدوره عين اخاه محمد بن يوسف الثقفي على اليمن واستمر في عهد عبد الملك . اساء التصرف وأخذ اراضي الناس بغير حقها فكان مما اغتصبه

الحرجة(٢٢) (ارض عظيمة على وادي سردد) وضرب على اهل اليمن خراجا اي جعلها خراجية لا عشرية كما جاء مصرحا به في ابن واضح جعله وظيفة عليهم فلما ولي عمر بن عبد العزيز ازيلت الوظيفة الخراجية عن أهل اليمن ولما مات عمر اعادها يزيد بن عبد الملك ثم عين داوود بن علي بن العباس فأناب عنه باليمن عمر بن عبد المجيد بن عبد الرحمن بن زيد بن الخطاب فمحمد بن ابراهيم بن علي بن الرشيد .

المرحلة الثانية :

مرحلة الخلافة العباسية التي نهجت سياسة افراد الولايات . فعين عبد الله بن الربيع الحارثي ، ثم معن بن زائدة الشيباني ١٤٠ هـ فاضطربت اليمن فكانت الأحداث بالمعافر لعدم قبولهم سليمان الشيباني لما حدث بها من القتل والحريق وتوالت الاحداث بحضرموت حيث قتل معن بها خمسة عشر ألفاً ثم رجع إلى صنعا واستخلف ابنه منصور . وفي ١٥٤ عين زيد بن منصور الحميري وظل(٢٣) بها الى ١٦١ هـ . وفي عهد المهدي أقر يزيد بن منصور ثم امره ان يحج بالناس . واستخلف عبد الخالق بن محمد بن شهاب ، ثم عزل بعلي بن سليمان بن علي بن العباس سنة ١٦١ . ثم استخلف واسع بن عصمه . ثم عزل بعبد الله بن سليمان بن العباس سنة ١٦٥ ، ثم عزل بعد سنة وستة اشهر . وفي عهد هارون الرشيد عين عبد الله بن مصعب بن الزبير ثم عزل بمحمد بن خالد بن برمك الذي استخرج الفيل الأسود بصنعاء ثم عزل بحماد البربري .

وفي عهد المأمون عين يزيد بن جرير القسري فساءت سيرته لتعصبه ضد الأبناء فعزل بعمر بن واقد الخطابي . ثم عزل وولي اسحاق بن موسى بن محمد بن العباس فاستخلف على عمله ابن عمه قاسم بن اسماعيل .

وفي هذه الفترة اتخذ العباسيون سياسة الولاية العامة . والاستكفاء . (الحكم الذاتي نتيجة للأحداث) .

الصراعات الفكرية . . والسياسية . . وأثرها على الحكم المركزي

توحي الأحداث بصراعات سياسية عمقتها نزعة التفوق القبلي ابتداء بطموح البيت القرشي في عهد عثمان الذي أدى الى قتله فكانت الفتنة الكبرى بين علي ومعاوية واشعلت الحرب في صفين بينهما وتغلب معاوية بعد خدعة التحكيم ومن ثم استأثر معاوية بالسلطة وحول الخلافة الى ملكية وراثية ابتداء بيزيد بن معاوية وانقسام الحكم بين المروانيين مما اثر على مسيرة الدولة الاسلامية .

وان كانت طموحات امتداد الخلافة الى شمال افريقيا برجالات اليمن الذين اسهموا اسهاما عظيما في الفتوحات الاسلامية وجندوا بناء حياة جديدة في المهجر .

الا أن عناصر ذات نزعة فردية غيرت مفهوم السياسة الموحدة في اطار الدولة الاسلامية الكبرى وبالتالي ظهور فرقة الخوارج التي خرجت عن الامام علي كرم الله وجهه بعد معركة صفين وقبوله التحكيم كحل حاسم كان يهدف منه ان يختار

المسلمون من يقوم بالخلافة ممن يرتضونه وفقا لسياسة امير المؤمنين عمر بن الخطاب .

ومنها فرقة الاباضية التي اسسها عبد الله بن اباض التميمي بالبصرة . وعمان والبحرين ثم انطلقت الى حضرموت . وسياستها التغالي في تكفير مرتكب الكبيرة . وتسمية مرتكبيها بالكفرة (تكفير من خالفهم) . وعدم الاستدلال بغير نص الكتاب والسنة دون القياس والاجماع ولكنهم يقولون بالقياس من حيث كونه داخلا في الراي الذي يقولون به[٢٤] الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر واجب على كل مسلم وان لم يكن من اهل السلطة والنفوذ . عدم لزوم الامامة من قريش مع وجوبها على المسلمين بنصب امام تقي كفوءمنهم. ولهم عقائد اخرى منها التحامل على الامام علي واتباعه . وعلى الخليفة عثمان . ولكن مذهبهم لم ينتشر ويتسع وتؤلف فيه كتب كثيرة كالمذاهب الاسلامية الشهيرة من سنة وشيعة . وتعتبر الاباضية معتدلة عن فرق الخوارج .

لذا نجد ان اليمن مر بأربع فترات :

الفترة الأولى ـ في خلافة مروان بن محمد بن معاوية سنة ١٢٩ هـ وعامله القاسم بن عمر الثقفي وثورة طالب الحق بحضرموت .

الفترة الثانية ـ في خلافة هارون الرشيد وعامله حماد البربري وثورة الهيصم بن عبد الرحمن الهمداني في جبل مسور بحجة .

الفترة الثالثة ـ في خلافة المأمون عام ١٩٨ وعامله يزيد بن جرير القسري وظهور ابراهيم بن موسى بن جعفر العلوي .

الفترة الرابعة ـ ثورة الأشاعرة وعك بتهامة ضد عيسى بن يزيد الجلودي والحصين بن منهال وتوسع نفوذ العلويين . واقرار ولاية الاستكفاء في عهد المأمون ـ اي الاستقلال الذاتي .

هذه اربع فترات مرت بها اليمن في صدر الاسلام تعطينا المؤشرات الخفية عن الأحداث اليمنية .

الفترة الأولى

كانت الولاية باليمن في العهد الاموي تمثل شكلا للخلافة الأموية او بالأحرى تجسد النفوذ الأسري المجسد في الخلافة الملكية ، لا خلافة الدولة الاسلامية التي اسسها ابو بكر الصديق ودعمها عمر بن الخطاب رضي الله عنهما . اي ان الحكم الاموي كان وراثيا يتقاسمه البيت الأموي والمرواني . او بالأصح البيت القرشي . لذا فالخليفةيقتطع شعبين لوال واحدوبدوره ينيب من يراه من اسرته سواء كان أخوه أو عمه أو ابن عمه . وهذا ما جاء في ربط اليمن بالحجاز وتارة الانعزال باليمن . وهذه السياسة تعطينا المؤشر ان الربط أو الفصم إنما يوحي بان اليمن كان له تقدير خاص في الادارة لما عرف عنه من ذاتية ونزعة استقلالية وطموحات سياسية واقتصادية .

لذا كانت السياسة الأموية اعطاء اليمن ميزة خاصة باجتذاب رجالاته لقيادة الجيوش الاسلامية لفتح شمال افريقيا واسبانيا تعويضا لسيادتهم الوطنية في بلادهم . فكانت هذه النزعة السياسة تذويب النزعة الاستقلالية والطموحات القبلية والذاتية اليمنية الى بناء شخصية عربية ونفوذ واسع

ووطن كبير . اغرته عن وطنه الأول مشاهداته الجديدة وارض تتمتع بريع وفير فكان لهذا النهج السياسي والاقتصادي ان اعطت للدولة الأموية الاستقرار دون حدوث اي اضطرابات او ثورات . الا ما كان في آخر مراحل الخلافة الأموية سنة ١٢٩ بثورة عبد الله بن يحيى الكندي الحضرمي الملقب بطالب الحق في عهد مروان بن محمد بن معاوية[٢٥] .

والدارس لأحداث هذه الثورة يعرف بعمق انها لم تكن بدافع وطني اندلعت من واقع مرير فكانت امتدادا للحزب الخارجي الذي تكون بعد حرب صفين وسياسة التحكيم وحينئذ خرج أنصار الامام علي من اطاره مطالبين ان يكون الخليفة باختيار المسلمين . وسميت هذه الفرقة بالخوارج وتكونت منها عدة فرق منها فرقة الأباضية نسبة الى عبد الله بن أباض المري التميمي الذي أسس حزبه وانتشر في كل من الكوفة والبحرين وعمان وحضرموت شأنها شأن الفرق الدينية في الجمود والتزمت . وتعتبر معتدلة عن الخوارج . من هذا المفهوم انطلق عبد الله بن يحيى الكندي من حضرموت من بني شيطان المنتمين الى بني عمرو بن معاوية الكندي نسبا[٢٦] . فكان من اهدافه القضاء على الدولة الأموية والاستيلاء على الأماكن المقدسة ، وكان أبرز قواده ابو حمزة المختار بن عوف وبلخ بن عقبة ، والابرهة الصباح ، فالأول امير والآخران قائدا جيش قوامه الف ومائة رجل أولى خطواتهم من ابين ولحج وصنعاء[٢٧] ومن ثم زحفت الثورة الى ان وصلت الى أم القرى حيث التقى به عبد الملك السعدي وأوقع به وتعقبه الى بيشه ثم كان الصلح واتجه الى الجوف[٢٨] .

الفترة الثانية ـ الخلافة العباسية وفتوحاتها لآسيا والاعتماد على سياسة بناء الدولة على عناصر غير عربية وهذا عائد الى عاملين :

العامل الأول ـ الصدمة النفسية التي وجهت اليهم من قبل الأمويين واستقرارهم في المناطق الشرقية وعلاقاتهم بمناخ التراث النفسي الفارسي .

العامل الثاني ـ طموحاتهم لفتح الشرق ليكون لهم نصيب في فتح اقاليمه والتزودبتراثه وثقافته متخذين من مدينة مرو عاصمة لتأسيس الخلافة . لذا نجد أن هذا العصر يختلف عن العصر الأموي بعامل التفوق السياسي والفكري والعنصري أيضا .

ومن جانب آخر سياسة القسر ابتداء من عهد المنصور ان بعث الى اليمن عبد الله بن الربيع الحارثي ثم معن بن زائدة الشيباني سنة ١٤٠ فبعث عمه سليمان الى المعافر التي رفضت قبوله فأحدث بها القتل والحريق . وتوالت الأحداث بحضرموت من جراء سياسة معن فقتل منها خمسة عشر الفا ثم رجع الى صنعا واستخلف ابنه زائدة فظل بها ثلاث سنوات[٢٩] فخلف زيد بن منصور وفي سنة ١٤٥ عين يزيد بن منصور الحميري وظل بها الى سنة ١٥٨ هـ .

وفي خلال خلافة المهدي اقر يزيد بن منصور ثم امره أن يحج بالناس واستخلف عبد الحق بن محمد بن شهاب ثم عزل بعلي بن سليمان بن علي بن العباس سنة ١٤١ ثم استخلف واسع بن عصمة ثم عزل بعبد الله بن سليمان بن العباس

بن علي بن العباس سنة ١٦٥ ثم عزله بعد سنة وستة أشهر .

وفي عهد هارون الرشيد توالت الولاة على اليمن ابتداء بأيوب بن جعفر بن سليمان من اولاد العباس فالربيع بن عبد الله الحارثي على الحرب والصلاة . والعباس بن سعد مولى بني هاشم على الزكاة . ثم خلفهما بعد عامين محمد بن ابراهيم الهاشمي . وضم اليه الحجاز وأناب عنه باليمن ابنه العباس فشكا به على هارون[٣٠] فعين عبد الله بن مصعب بن الزبير ثم خلفه بعد عام احمد بن سليمان الهاشمي ، ثم احمد بن سليمان العذري ثم يحيى بن خالد بن برمك الذي استخرج الفيل الذي سمي باسمه في صنعاء وفي عهده اندلعت ثورة القيل الهيصم بن عباد بن عبد الرحمن الهمداني من جبل مسور بحجة فأرسل هارون الرشيد حماد البربري وقال له : اسمعني اصوات أهل اليمن[٣١] .

كانت هذه العبارة من ابرز الأحداث السياسية باليمن في العهد العباسي وتعطينا الصورة الحقيقية للوضع الراهن انذاك في دنيا الحكم العباسي وتفسر لنا ما لمس من فعالية الحركة في بناء الكيان اليمني والنزعة الاستقلالية اليمنية .

الفترة الثالثة

وتبدأ بالتسامح للفرق الدينية فكان لظهور دعوة الامام محمد بن ابراهيم بن طباطبا بالكوفة وأثرهـا وانتشارها بالعراق بمساندة ابي السراي السري بن منصور بن ربيعة بن ذهل بن شيبان وابراهيم بن موسى بن جعفر بن محمد بن علي بن الحسين بن علي بن ابي طالب الذي توجه الى مكة واليمن سنة ١٢٩ فشعرت الخلافة العباسية بالخطورة فجهزت الى اليمن جيشا بقيادة محمد بن عيسى بن ماهان . وكان ابراهيم بن موسى قد تمكن من اجتذاب اليمنيين الى الدعوة فكانت المعركة في جذر[٣٢] احدى ضواحي صنعاء بالجنوب الغربي فهزم فيها ابراهيم بن موسى وقبض عليه وانتهت الحركة في كل من اليمن والحجاز بموت ابراهيم بن محمد ولكن جذورها ظلت في النمو حتى تمكنت من تأصيلها في المجتمع العربي .

الفترة الرابعة

ولاية الاستكفاء عندما شعر العباسيون في الدور الأول ابتداء بالمأمون ان اليمن لن تستقر سياسيا مضافا الى ذلك نشاط الحزب العلوي اقر بوجود ولايات أو امارات أو دويلات شبه مستقلة توالي العباسيين تتحمل التبعات والاحداث لتوالي الثورات على اثر ثورة قبيلة الاشاعرة وعك سنة ٢٠٣ فبعث المأمون محمد بن عبد الله بن زياد لاخماد الثورة . وصد النفوذ العلوي نهجا لسياسة الاستكفاء اي الموالاة الاسمية فكون دولة للزياديين بزبيد شبه مستقلة ، ثم تلتها الدولة اليعفرية سنة ٢٢٩ كأول دولة يمنية شبه مستقلة بصنعاء متخذة سياسة الموالاة للعباسيين والزيا.يين[٣٣]

عصر الدويلات

استقراء لما سبق عرفنا ان اليمن كان في عهد فجر الاسلام يشمل ثلاثة مخاليف : الجند ،

وصنعاء وحضرموت . وكانت الجند اكبر المخاليف رغم ان صنعاء العاصمة التقليدية .

وفي العهدين الأموي والعباسي ركز على صنعاء لأربعة عوامل :

اولا ـ موقعها الجغرافي . ومكانتها التاريخية .

الثاني ـ الصراع السياسي ومؤثرات قوى «الأبناء» الذين استعادوا مكانتهم في العهد العباسي .

الثالث ـ من جراء الدولة المركزية الاسلامية بالتركيز على صنعاء لتدعيم السلطة المركزية .

الرابع ـ من جراء الأحداث التي مرت بالخلافة العباسية بظهور الدعاة والثورات القبلية التي جاءت بعد مرارة حكم الولاة والشعور بالكيان الذاتي وانشغال العباسيين بالحركة الفكرية والعلمية . اقرت الحكم الذاتي او حكم ما يسمى بولاية الاستكفاء وبوجود ولايات متفرقة ابتداء بالدولة الزيادية بزبيد سنة ٢٠٥ هـ . والدولة اليعفرية بصنعاء سنة ٢٢٩ هـ .

ومن ثم نجد اليمن يمر بتعرجات سياسية وطموحات قبلية لبناء الدولة اليمنية والدعوات الروحية لصراعات فكرية نجم منها التاريخ السياسي المجزأ باليمن على النحو التالي :

١ ـ الدولة الزيادية بزبيد من سنة ٢٠٥ هـ الى ٤١٢ هـ .

٢ ـ الدولة اليعفرية بصنعاء وشبام من ٢٢٩ هـ الى سنة ٣٣٣هـ .

٣ ـ الدولة النجاحية بزبيد من ٤١٢ هـ الى ٥٥٥ هـ .

٤ ـ امارة بني معن في عدن وحضرموت والشحر من ٤١٢ هـ الى سنة ٤٦٠ هـ .

٥ ـ امارة الموالي بصنعاء برئاسة علي وردان(٢٥) وأخيه سابور بمشاركة اسمر بن ابي الفتوح الخولاني والضحاك الحاشدي من ٣٣٣ الى ٣٥٠ هـ .

٦ ـ امارة ابي العلاء الأصبحي بلحج سنة ٢٩٠ هـ .

٧ ـ امارة جعفر بن احمد المناخي بالمذيخره من ٣٨٩ هـ الى سنة ٤٣٢ هـ .

٨ ـ امارة آل الكرندي بالمعافر .

٩ ـ امارة بني وائل بن عيسى الحميري في وحاظة في حزم العدين .

١٠ ـ امارة الشريف وهاس بن غانم بالمخلاف السليماني من سنة ٤٣٢ هـ الى ٥٥٦ هـ .

١١ ـ دولة علي بن الفضل من ٢٦٨ هـ الى ٣٠٣ هـ بالمذيخرة .

١٢ ـ دعوة منصور بن حوشب بمسور حجة سنة ٢٦٨ هـ .

١٣ ـ دعوة الامام يحيى بن حسين الرسي بصعدة سنة ٢٨٠ هـ .

١٤ ـ دعوة الامام القاسم العياني .

١٥ ـ دولة علي بن مهدي الرعيني الحميري بزبيد من ٥٥٥ الى ٥٦٩ هـ .

١٦ ـ الدولة الزريعية بعدن من ٤٦٠ هـ الى ٥٦٦ هـ .

١٧ ـ امارة المفلسي الهمداني اشراف الجوف والجوة سنة ٤٩٢ هـ .

١٨ ـ الدولة الصليحية بصنعاء وجبله من ٤٣٦ هـ الى ٥٣٢ هـ .

١٩ ـ امارة التبعي بالشعر .

٢٠ ـ دولة حاتم الغشم المغلسي الهمداني بصنعاء من سنة ٤٩٧ هـ الى ٥٩٦ هـ وآخرهم علي بن حاتم انحصر نفوذه في ذي مرمر بمشاركة بني لانف حتى تغلب عليهم الامام علي بن صلاح[٣٦] .

٢١ ـ حماس بن القبيب الهمداني في جنب سنة ٥٣٢ هـ[٣٧] .

٢٢ ـ امارة حاتم بن احمد بن عمر بن الفضل اليامي بصنعاء من ٥٣٢ الى ٥٥٦ هـ .

٢٣ ـ امارة المفضل بن ابي البركات الحميري بالتعكر[٣٨]

٢٤ ـ امارة عبد الباقي بن راشد بن احمد الدعار الكندي في شبام حضرموت وظفار الحبوطي من سنة ٥٦٠ هـ الى ٥٩٤ هـ .

٢٥ ـ امارة راشد بن احمد النعمان في يريم وهو الذي بنى جامع يريم سنة ٥٨٦ من سنة ٥٨٦ الى سنة ٥٨٠ هـ .

٢٦ ـ دعوة طالب الحق بحضرموت[٣٩]

* * *

تلك هي فترة زمنية مرت بها اليمن ابتداء من العصر العباسي من عام ٢٠٥ بتجزؤ سياسي وطموحات قبلية ودعوات روحية الى سنة ٥٦٩ ولم تشهد فيها اليمن شبه توحيد سياسي الا فترات زمنية محدودة :

١ ـ الدولة الزيادية في بداية نفوذ محمد بن عبد الله بن زياد امتد حكمه الى حضرموت فالحسين بن سلامة امتد نفوذه الى صعدة .

٢ ـ الدولة اليعفرية امتد نفوذها من صنعاء الى حضرموت في عهد محمد بن ابي يعفر .

٣ ـ دولة علي بن الفضل امتد نفوذه من المذيخرة الى حضرموت وصنعاء وزبيد .

٤ ـ دولة علي بن مهدي الرعيني الحميري وابنيه مهدي علي بن مهدي وعبد النبي امتد نفوذه الى صنعاء والمخلاف السليماني . وحضرموت فتألب عليه سلاطين اليمن واستنجدوا بالسلطان صلاح الدين الأيوبي الذي بعث أخاه توران شاه وانهى الحكم المهدي والسلاطيني باليمن سنة ٥٦٩ هـ وظل الى سنة ٦٢٥ هـ .

ومن ثم شهد اليمن حكما سياسيا ووطنيا في العهد الرسولي من ٦٢٦ هـ الى سنة ٦٥٨ هـ ، فالدولة الظاهرية من ٨٥٨ الى سنة ٩٢٢ هـ بعد ذلك دخل اليمن في حكم المماليك الجراكسة المصريين فحكم الاتراك من ٩٤٥ الى ١٠٤٥ هـ ، نتيجة صراعات قبلية واسرية ودعوة الامام شرف الدين ومناصريه للجراكسة والاتراك في انهاء الدولة الطاهرية اثر الكشوفات البحرية البرتغالية التي كانت عاملا اساسيا للتغيير السياسي والاقتصادي باليمن ومصر والهند .

نظرة عامة

اولا ـ الاوضاع السياسية :

هذه مرحلة سياسية اعطتنا صورة حقيقة لاوضاع سياسية بعد الاسلام تجلت فيها الاحداث اليمنية وصراعاتها السياسية ، والاجتماعية والاقتصادية . وتعطينا رغم مرارتها ان الانسان اليمني منذ حياته البدائية قادر على خلق كيانه على جميع المستويات وفقاً لمناخاته المختلفة لبناء الحضارة. وقادر على التغيير بحثاً عن الافضل

والاحسن بشتى اساليب البناء والهدم فهو قادر على بناء الشخصية وهدمها سواء كانت وطنية أو روحية سبيلاً لبناء الدولة المركزية بطموحات ذاتية نابعة من واقع اجتماعي ومناخ تتغلب عليه قساوة الطبيعة وخصبها بحثا عن مردود مادي يوفر له بناء الدولة . وهذا البحث او الطموح لبناء الحياة المتجددة يرتكز على أربعة عوامل :

العامل الاول ـ القدرة الذاتية على بناء كيانه .

العامل الثاني ـ قدرته على التغيير واصراره على ايجاد البديل الصالح مهما كانت الظروف السياسية والاجتماعية والاقتصادية .

العامل الثالث ـ صراعاته الاجتماعية الناجمة من شحاحة المنطقة وخصبها .

العامل الرابع ـ الوحدة الوطنية وشعوره بالسيادة العامة ودفاعه عن الوطن مهما كانت الاحداث .

من هذه الخصائص نجد ما توصل اليه اليمن من انقسامات وتجزؤ من عام ٢٠٥ هـ الى عام ٥٦٩ هـ بحثا عن الدولة المركزية والتي جاءت في فترات تاريخية كانت نتيجة قوة الشخصية والبراعة السياسية باستثناء الأئمة الذين لم تتمكن ظروفهم من خلق دولة سوى ما يطرحونه في دعوتهم للعامة من قضايا واسس بمنظور ديني مقنع بالسياسة ومعارك غير ناجحة . حتى جاءت الدولة الايوبية ٥٦٩ بقيادة توران شاه الايوبي الذي انهى الدويلات السياسية . . والطموحات القبلية ، والدعوات الروحية ، ووضعت اسس الاقتصاد الجمركي والازدهار التجاري .

ثم الدولة الرسولية بزعامة عمر بن علي بن رسول سنة ٦٢٦ هـ التي جسدت « الوحدة الوطنية » وبنت الدولة المركزية علماً واقتصاداً وسياسة وادارة . وكانت الدولة الوحيدة في العهد الاسلامي التي امتازت بالعصر الذهبي المليء بعناصر القوة والحياة والبناء في ذلك العصر ، وان كانت تواجه في بعض فترات بمعارضات الأئمة فتقابل بالقوة فتخمد .

ومن الاحداث السياسية صراع الامام الهادي يحيى بن الحسين الرسي مع محمد بن ابي يعفر سنة ٢٩٤ واستيلاؤه على صنعاء فلجأ الدعام لإخراج الهادي من صنعاء فابنه الامام الناصر . وفي سنة ٢٩٩ تقدم علي بن الفضل واستولى على صنعاء ثم اتجه الى منصور بن حوشب وحاصره بمسور حجة ثم استعاد ابن يعفر صنعاء ومن ثم دب الخلاف بين الاسرة اليعفرية حيث استطاع الابن ان يسلب السلطة من والده وعليه ألب الاب الاكبر حفيده لقتل أبنه فجاءته القبائل معزية ومؤبنة فلطم محمد بن يعفر الدعام شيخ همدان فخرج الى همدان وبكيل فتألبت معه وسلبت منه الملك . فقال شاعرهم :

سلبنا من خوال الملك قسراً
بلطمة شيخ همدان الدعام

ومن الأوضاع السياسية صراع علي محمد بن علي الصليحي وسلاطين اليمن وانهائهم آل نجاح ملك زبيد الذي لم يستطع في البداية إخضاعه .

ثانيا ـ الناحية الفكرية والعلمية :

واجه اليمن صراعات فكرية على الصعيد

الفكري والاجتماعي والسياسي واذا بحثنا بعمق نجد ان اليمن مر بمرحلة صعبة رغم صراعاته وتجزئه .

ومن ابرز علماء هذه الفترة :

وهب بن منبه[٤٠] المتوفي بصنعاء سنة ١٢٦ هـ من التابعين ادرك عبدالله بن عمر ، وعمرو بن العاص ، والنعمان بن بشير وابي سعيد الخدري ، وانس بن مالك ، وابا موسى الأشعري .

ابو محمد عبد الله الثقفي المتوفى ١٩٠ هـ (٢٤١ .
ابو هشام عبد الملك بن عبد الرحمن الذماري المتوفى ٢١٠ هـ .
عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري الصنعاني المتوفى ٢١٢ اخذ عن معمر بن جريح الثوري هـ .
عبد الله بن محيي الدين بن احمد النجراني الصعدي من كبار علماء الزيدية وكان معارضا للامام المهدي احمد بن الحسين توفي ٦٦٥ هـ .
محمد ابراهيم الوزير المتوفى ٨٦١ هـ .
محمد ابراهيم بن السادر الخولاني المتوفى ٨٦١ هـ .
عبد الله بن الحسين بن ابي القاسم اخو الامام الهادي المتوفى بصعده .
عبد الله بن الهادي بن يحيى بن حمزه المتوفى ٨١٠ هـ .

عبد الله بن محمد بن ابي القاسم بن علي بن تامر المتوفى ٨٧٧ من حوش اشتهر بعلم الفلك والهندسة ٤٢ هـ .

احمد بن يحيى المرتضي مؤلف كتاب « البحر الزخار » وكتاب الاحكام في اصول الزيدية .
العلامة المؤرخ الكبير أبو محمد الحسن بن احمد بن يعقوب الهمداني .
العلامة اللغوي .. نشوان بن سعيد الحمدي .

ثالثا ـ الناحية الاجتماعية :

الحياة الاجتماعية جزء من حياة عامة باليمن لما علاقاتها الاجتماعية واعرافها القبلية لا تنفرد وفقاً لحياتها . ولم تتقيد بالسلطة في حل مشاكلها الا عن طريق زعمائها باعرافهم القبلية ولم تعد السلطة لديهم مجابه الا في حالة احتياجها .

ويتوفر في الشعب اليمني خصائص اصيلة ، الشهامة ، والوفاء ، والكرم ، وحماية العرض وربط علاقات الصهارة بالنسب الاصيل . والتفاخر بالقبلية ، والدفاع عنها مهما كلفها الامر ، ولا تختلف عاداتها وتقاليدها من قبيلة عن قبيلة اخرى في الزواج والمناسبات الا ببعض الثانويات ، وتتباهى بالتفوق الذاتي في المحتد .

ولذا فصنعاء تمثل طابعا قبليا بحتاً مهما طرأت عليها الحياة الحضرية لان جل سكانها من الريف .

رابعا ـ الحياة الاقتصادية : ـ

اليمن بشكل عام زراعي منقسم الى ثلاثة اقسام وفقا لمناخاته المختلفة .
القسم الاول ـ الشمال شحيح الخصب لندرة الامطار صيفاً .

القسم الثاني ـ الهضبة الوسطى تتمتع بالخصب لكثرة الامطار صيفاً .

القسم الثالث ـ تهامة قليلة الامطار صيفاً الأ انها تتمتع بخصب تربتها في الوديان التي تنحدر اليها سيول الامطار من المناطق الجبلية التي تجرف اليها الطمي الوفير الغني بعناصر السماد وبذا نجد ان اليمنيين تتوفر فيهم نشاطات مختلفة . الرعاة حيث ينتقلون بابلهم واغنامهم من منطقة الى اخرى وصناعة الصوف من وبر الماشية .

والآخر يتجه الى الزراعة وامتلاك الاراضي الشاسعة واقتطاع الفلاحين لاصلاحها اجراء .

وجانب ثالث هو مزاولة التجارة . بالمدن المشهورة وتصدير ما تنتجه اراضيهم الى شبه الجزيرة ومصر والهند كالتوابل والبخور والمر .

وما يصنعونه من سيوف وخناجر وحلي وثياب وأدوات منزلية كالفخار والنحاس ؛

من هذه الأجواء المختلفة نجد أن الاقتصاد لتجزئه لم يتكامل بنظام تسيره الدولة لعدم وجودها ، ليظل الرخاء كاملا في الشعب لبناء اقتصاده. ولكنه رغم ذلك فهو يعيش بقوة ذاتيته وصراعاته فحياته الرتيبة تدفعه لخلق الاحداث واقلاق السلطة لكي يؤمن حياته بالانخراط في سلك الجندية لأي سلطة تدعوه . أو دعوة تستفزه . ولذا فالغاية من تجاوبه للسلطة الحرب والنهب والسلب . ومن ثم الانتقال من المنطقة الشحيحة الى مناطق الخصب للاستقرار . والعيش .

تلك مرحلة الحياة الاقتصادية الا فترة الاستقرار السياسي في عهد الدولة الايوبية حيث وجدت العلاقات الاقتصادية بين اليمن ومصر وغيرها وتأسيس النظام الجمركي وتصدير ما ينتجه اليمن واستيراد ما يحتاجه وازدهر اقتصادياً في عهد الدولة الايوبية ، والرسولية ، الأ ان المناطق الشمالية ظلت بعيدة عن الاقتصاد لقلة خيراتها مما جعلها تسير وراء الحروب القبلية تارة والالتفاف حول الأئمة لاي هدف مقصود .

لذا فالاقتصاد انذاك كان محدوداً في الزراعة والرعي وبعض الصناعات البدائية اليدوية في المناطق الخصبة يسيره الأقطاع ، وبعض المناطق الشحيحة لندرة الامطار بها ولهذا ظل الصراع السياسي والاقتصادي ، والاجتماعي . واصبحت المدن الرئيسية محط انظار القبائل حرباً وسلماً . حربا بغية النهب والسلب . وسلماً بغية السلطة والنفوذ باسم السلطة الحاكمة .

اهم المراحل التاريخية

اولاً : الدولة الرسولية ـ ثانياً الدولة الطاهرية ـ ثالثاً : الكشوفات البحرية البرتغالية وآثارها على اليمن .

اولاً : الدولة الرسولية :

شهدت اليمن تطوراً اقتصادياً وازدهاراً تجارياً وزراعياً وعلمياً في العهد الرسولي الذي اعطى اليمن الميزة الحضارية نتيجة الاستقرار وسياسة الحكم المحلي في اطار الحكم المركزي في كل من تعز وصنعاء وصعده ونجران وجازان وزبيد وعدن وظفار الحبوطي حضر موت لقوة الدولة . وكان الملك المظفر يوسف بن عمر بن علي بن رسول الملقب بتبع الاصغر قوياً وعالماً

وسياسيا : وكانت شخصيته اقوى من الأحداث امتد نفوذه الى حضرموت جنوباً . وشمالاً الحجاز . واخمد محاولات الامام عبد الله بن حمزه ومن تلاه من الائمة واغراء الشماليين بالمادة مما جعل حركات الأئمة خافتة لا تقابل بالاستجابة وتلاه الاشرف الاول ، فالمؤيد فالمجاهد ، فالاشرف الثاني ، فالناصر احمد . فالظاهر .

كانت هذه الفترة للدولة الرسولية خصبة مهما كانت الاحداث الاسرية والثورات المعارضة ، ودعوات الأئمة وخاصة في عهد المجاهد الذي وجد الاحداث واخمدها . وكان اكثر اهتمام الدولة معالجة القضايا الاجتماعية ان اتلف الجراد الزراعة واراد الوزير حسام الدين فرض الزكاة فشكو به على الملك الاشرف الاول فامره بعبارة موجزة بقوله . . « اقتصر - عنهم . . ولا تفرقهم علينا . . فانه يصعب علينا جمعهم[٤٣]» تلك هي لغة المسؤول المدرك لقضايا المسؤولية . والاجتماعية . والسياسية . فاوقفت الوزير وغيره من التمادي والعبث بالمواطنين .

غير ان الاحداث جاءت بزعزعة هذه الدولة التي استمر حكمها ٢٢٣ عاماً لم تتعثر سياستها وسلطتها المركزية بظهور الطموحات القبلية فبدأ الضعف يخلخل الجهاز المركزي في المرحلة الثانية التي بدأت من عهد الظاهر يحيى بن اسماعيل ٨٣١ هـ . اي أن مرحلة سبعة وعشرين عاماً كانت من حياة الدولة الرسولية قلقة لضعف السلطة في عهد الاشرف الثالث والمظفر الثاني والمسعود من ٨٣١ الى ٨٥٨ فتزعم مشايخ رداع بنو طاهر لمضايقة الملك المسعود ومنافسته واخيراً تم تنازله وباع ممتلكاته إلى الطاهريين وغادر اليمن ومن ثم دخل اليمن مرحلة جديدة .

ثانيا - الدولة الطاهرية :

وجدت الدولة الطاهرية سنة ٨٥٨ برئاسة علي بن داوود بن معوض بن طاهر ولقب بالمجاهد وأخيه عامر بن داوود بن معوض بن طاهر ولقب بالظافر . ومرت الدولة الطاهرية بثلاث مراحل :

المرحلة الأولى - مرحلة التأسيس في عهد المجاهد والظافر بعد استيلائهما على عدن ولحج وتعز وحضرموت وتقدم الملك الظافر نحو صنعاء[٤٤] فتلقاه الامام محمد بن الناصر . وقتل من الطاهريين محمد بن داود بن طاهر شقيق الظافر واستولى على ذمار ثم اتجه الى الشحر واستولى عليها واسس ادارتها بالأمر احمد بن اسماعيل بن شقر ثم عاد الى عدن . وفي خلال وصوله بلغه ان الامام محمد بن الناصر امام صنعاء استولى على ذمار . . وفي ٨٦٧ هـ تقدم الظافر واستولى على صنعاء وأمر عليها محمد بن عيسى البعداني . وفي ٨٦٩ قام الامام محمد بن الناصر واخرج البعداني منها فتجهز الظافر واستولى على صنعاء وباع الأمام علي الظافر ما يملكه ولكنه لم يطمئن بهذا الاستيلاء فأمر بارسال الامام محمد بن الناصر الى زبيد فثار الامام واخرج العامل الظاهري فبلغ الظافر هذه الثورة فجهز جيشه نحو صنعاء وحاصرها . ولما بلغ الامام محمد الناصر استحكام الحصار استنجد بأحد قواعد عسكره محمد بن عيسى شارب[٤٥] فتقدم على حين غرة فالتحمت قوته بالقوات الطاهرية فنشرت فيهم الذعر فاختل النظام فكانت الهزيمة فخرج محمد بن الناصر واهل صنعاء من المدينة ثم أعادوا الغارة واستمر القتال حتى قتل الظافر في هذه المعركة .

المرحلة الثانية ـ مرحلة الملك المنصور عبد الوهاب بن داوودبن طاهر ـ وتعطينا مرحلته انه اتخذ سياسة المهادنة والحكم المحلي وكان يقبض ما يصل اليه من جباية الزكاة دون احداث اي صراع حتى توفي سنة ٨٩٨ هـ .

المرحلة الثالثة ـ مرحلة الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب بن طاهر ابتداء من سنة ٨٩٣ هـ وتعتبر هذه المرحلة من اهم الأحداث للدولة الطاهرية بل من اهم مراحلها التاريخية التي مرت بعامر بن عبد الوهاب للأسباب التالية :

اولا ـ كان ذا شخصية قوية لبناء الدولة المركزية .
ثانيا ـ تخلى عن الحرب ثلاثة عشر عاما حيث كانت صنعاء في صراع مع أكثر من امام[٤٦]
ثالثا ـ اتجه الى بناء الدولة تجاريا فاهتم ببناء ميناء عدن وكان يشرف على خروج القافلة البحرية الى الهند مما وفر الحركة التجارية وساعد على نمو الاقتصاد في صادرات اليمن ووارداته .
رابعا ـ بناء قنوات الري الى عدن وبنى صهريجا ضخما لتخزين المياه وتوفير مياه الشرب للمدينة .
خامسا ـ الاهتمام بتنظيم الري : وبناء سد ترابي زراعي بوادي زبيد لحماية الأراضي الزراعية المحيطة بالمدينة من غائلة الفيضان[٤٧] .
سادسا ـ الاهتمام بالحركة العمرانية ببناء المدارس والمساجد وحفر الآبار وشق القنوات وتمهيد الطرق وتأمينها .
سابعا ـ الحركة الفكرية : اهتم بالنشاط الفكري باقتناء الكتب ونسخها وايداعها بجامع زبيد تحت تصرف العلماء والفقهاء ومنها كتاب الشركسي[٤٨] فطلب النساخ وامر بنسخه بمكافآت ساعد ذلك على الازدهار العلمي والفكري .
ثامنا ـ الحركة الاقتصادية : ازدهر الاقتصاد بعدن لموقعها الجغرافي وكانت أكثر البلدان ثراء لاستقدامها السفن المختلفة الانواع والاحجام من شتى انحاء العالم محملة بالبضائع المصرية والسورية والاوربية وسواحل افريقيا الشرقية مثل زيلع وبربره وسوفالا وكيلوه وموزنبيق وممبسامحملة بالمواد الغذائية والسبائك الذهبية والفضية ومن موانىء الهند الغربي مثل ديودكاليكوت وموانىء جزر الهند الشرقية ملقا[٤٩]

هذه اخصب مراحل الدولة الطاهرية التي اتسمت بالنشاط والقوة والبناء والازدهار الاقتصادي والتجاري والدخل القومي . وكان لهذه الدولة اثرها على كثير من القوى اليمنية التي انهزمت امام قوى الدولة فحاولت خلق اوضاع قلقة اضعفت الدولة وافسدت جهازها الاداري وشلت حركتها الاقتصادية والتجارية . وبهذا دخلت اليمن في مرحلتين

المرحلة الأولى : الصراعات الداخلية : وهي :

اولا ـ صراع الأسرة الطاهرية مع الملك عامر بن عبد الوهاب وثوراتهم عليه بغية اقتسام الواردات من عدن واقتطاع مناطق لبسط نفوذهم[٥٠]
ثانيا ـ فساد الجهاز الاداري .
ثالثا ـ ثورة قبيلة يافع وقبائل تهامة القراشية والمعازبة والقجرى والصليل .
رابعا ـ احداث الأئمة وصراعاتهم ومحاولة الاستيلاء على اليمن ومنافذه البحرية ووارداته .

١ ـ الامـام محمـد بن النـاصر بصنعـاء ومخاليفها .

٢ ـ الامام الهـادي عز الـدين الحسـن بن المؤيد ثم ابنه الحسن بن عز الدين بصعدة .

٣ ـ الامام المطهر بن محمد بن سليمان بذمار الى جنوب صنعاء وكان حليفاً للطاهرين .

٤ ـ آل المنصور . الامام محمـد الـوشلي . السراجي . كانـوا يقتسمـون المنطقـة الشرقية . والظاهرة ، الى جنوب صعدة .

وفي عام ٩٠٢ هـ دخل الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب في صراع مع قوى الأئمة بعد أن هدأت الثورة القبلية وصراعات الأسرة حينما اعلن الامام الوشلي الامامة بذمار فتأهب لمحاربته وانتصر عليه واستولى على الحصون المشرفة على صنعاء .

وفي عام ٩٠٧ هـ جهز الظافر جيشا لحصار صنعاء واستمر الحصار خمسة اشهر مما دفع بالشماليين التألب لفك الحصار عن صنعاء باجماع الأئمة رغم اختلافهم لفك الحصار عن صنعاء وذلك مقابل تنازل امام صنعاء عن ذي مرمر لأمير الجوف .

وفي عام ٩١٠ هـ أعادالامام الوشلي حركته بصنعاء فكرر الظافر استيلاءه على صنعاء وقبض على الامام الوشلي وارسله الى تعز وأقام بها دون أن يتعرض لسوء .

خامسا ـ خلافات عامر بن عبد الوهاب مع امير المخلاف السليماني عز الدين احمد بن دريب .

سادسا ـ ظهور الامام شرف الدين يحيى سنة ٩١٧ هـ واثارة القوى المعارضة لعامر ودخوله في حروب مستمرة معه .

سابعا ـ انهيار الدخل الجمركي من عدن نتيجة الكشوف البحرية البرتغالية .

المرحلة الثانية : الكشوفات البرتغالية البحرية وآثارها على اليمن .

على اثر الاحداث الداخلية باليمن . . جاءت الكشوفات البرتغالية البحرية عبر رأس الرجاء الصالح لعامل اقتصادي . وديني[٣٢]

العامل الأول ـ كانت التجارة الشرقية العربية والهند تمر عبر البحر الاحمر فمصر لأوروبا . وكانت مدينة جنوه من أهم المدن الاروبية التي ترد اليها التجارة الشرقية . وكانت مدينة البندقية المدينة الثانية التي تستقبل التجارة من مصر منافسة جنوة . واحتكرت التجارة مما دفع بتجار جنوة الاستعانة بملوك اسبانيا والبرتغال لتشجيع تجارها للقضاء على تجار البندقية .

لذلك رغبت البرتغال للدخول في المنافسة بغية المشاركة في الأرباح التجارية .

العامل الثاني ـ الصراع الديني الكائن بين المسيحية الأوروبية والمسلمين نتيجة العوامل التاريخية حينما كان المسلمون باسبانيا وانهاء الدولة العربية الاسلامية بأوربا «الأندلس» فكان هذا العامل مصاحبا للعامل الأول في مرحلته التبشيرية فكانت البعثة المسيحية لأفريقيا .

كان لهذين العاملين اثرهما في دخول البرتغال في هذه المغامرة الناجحة لتغيير مجرى الاقتصاد الأوربي وتقليص نفوذ البندقية التجاري في الشرق العربي فكانت حملة فاسكو داجاما الى

الشرق عن طريق «رأس الرجاء الصالح» والسيطرة على تجارة الشرق والهند ومحاربة التجار المسلمين والعرب . ومن ثم شعرت مصر بالخطر لقلة وارداتها فأرسل قانصو الغوري حملة بقيادة الأمير حسين الكردي ، ومنهم اللوند ورئيسهم سليمان الرومي[٥٣] وكان عامر بن عبد الوهاب قد طلب من قانصو الغوري النجدة ضدالبرتغاليين للتجارة العربية الاسلامية واتجه حسين الكردي ومعه سليمان الريس الرومي الى جده وبنى بها حصنا وسوّرها . ومنها ارسل رسالة الى عامر بن عبد الوهاب يطلب منه العون والمساعدة بموجب طلبه السابق لقانصو الغوري . ولما وصل اليه الرسول اشار عليه مستشاروه وهما علي بن محمد النظاري . وحسام الدين عيسى الحجري عدم المساعدة بحجة انها ستصبح جزية سنوية . فعمل بهذا الرأي ورفض مما جعل حسين الكردي ان يتخذ من هذا الرفض وسيلة لحربه أولا . فاتجه الى كمران فوصلها في ١٧ ذي القعدة سنة ٩٢١ هـ .

ومن جانب آخر وجد معارضو الدولة الطاهرية المجال مفتوحا والفرصة متاحة في انهاء دولة عامر بن عبد الوهاب الذي هز كيانهم فكتب الامام شرف الدين يحيى للأمير حسين الكردي وبذل تزويده بالجيش مقابل راتب شهري مضافاً اليه أمير المخلاف السليماني عز الدين احمد بن دريب لمساعدته بغية المحافظة على مركزه . ووفد اليه الفقيه ابو بكر الزيلعي وبذل له فتح ميناء اللحية[٥٤] . كانت هذه الامدادات والمساعدات تشجيعا لحسين الكردي نتيجة لأوضاع منفلتة واقتصاد منهار . فارسل الى الحديدة حملة لأخذ ما يريد من غذاء . وكان عامر عبد الوهاب قد اصدر أمره الى حاكم الحديدة بحجز السفن التي تمد المماليك بالمواد الغذائية فضرب قائد الحملة الحديدة بالمدافع وخرب منازلها وأخذ اخشابها وبنى حصنا بكمران .

ومن ثم ذعر المواطنون بالحديدة من السلاح الناري واخذ نموذج منه الى عامر بن عبد الوهاب بزبيد وعرض على العامة[٥٥] .

تم تجهيز حسين الكردي بحملة على زبيد يرافقه سليمان الريس الرومي ، وبرسباي وخربت مدينة زبيد في ١٩ جمادى الأولى ٩٢٢ هـ ودارت المعركة فر منها عامر عبد الوهاب . وأخوه عبد الملك بعد ان قام ببطولة نادرة في الدفاع . واتجه الى تعز واستمر حسين الكردي في مطاردته حتى وصل صنعاء . وكان بها محمد النظاري ودارت المعركة قتل من جرائها عامر بن عبد الوهاب وعبد الملك تحت جبل نقم[٥٦] . فطلب من النظاري الاستسلام فرفض فعرض عليه رأسي عامر وأخيه فسلم صنعاء . ومن ثم قتله المماليك واتجه حسين الكردي نحو عدن لأخذها فلم يستطع لمقاومة عامر بن داوود بن طاهر فاتجه الى زيلع. ومنها اتجه الى مصر مقدما تقريره السياسي في الاستيلاء على اليمن . واتخذ زبيد مركزا سياسيا وعسكريا للأنطلاق منها الى اجزاء اليمن واستقر بها برسباي وامير المخلاف السليماني عز الدين احمد بن دريب .

تلك هي الاثار التي انعكست على اليمن سياسيا واقتصاديا فأدت الى انهاء الدولة الطاهرية . وتسلم المماليك السلطة باليمن ومن أبرز الولاة كمال الرومي (من ٩٢٥ هـ الى

٩٢٧ هـ) قتله زملاؤه . فخلفه اسكندر تروما من ٩٢٧ الى ٩٢٩ خلفه الطويل من ٩٢٩ خلفه اسكندر شولي ٩٣٠ الذي تلقى بلاغاً رسميا ان يسلم السلطة لسليمان الرومي الذي قدم من مصر من قبل السلطان سليم بن مراد الذي استولى على مصر بعد معركة مرج دابق ٩٢٤ بالشام واصبحت اليمن تابعة للخلافة العثمانية فخرج لملاقاته بميناء البقعة بزبيد فرفض القادة المماليك تسلمها فطلب النجدة من قبيلة يافع والمهرة . وامير المخلاف السليماني عز الدين احمد بن دريب وانتصر على المماليك وتسلم السلطة سليمان الرومي الى جانب عز الدين . غير ان خلافا دب بينهما ودارت المعركة بينهما ما بين زبيد وبيت الفقيه انتصر فيها اولا عز الدين غير أن جنوده انشغلوا بالغنائم مما جعل سليمان الرومي يكرر الغارة عليه ، قتل من جرائها عز الدين احمد بن دريب .

• • •

العثمانيون باليمن

ابتدأ الحكم العثماني لليمن من سنة ٩٤٥ هـ - ١٥٣٨ م الى سنة ١٠٤٥ هـ ١٦٣٥ م اي ظل الوجود العثماني مائة عام جاء نتيجة طموحات سياسية بعد اكتساحهم لأوربا غربا والعراق والشام شرقا وهزيمة المماليك في معركة مرج دابق بالشام ومتابعتهم حتى دخلوا مصر ومن ثم اتجهت الأنظار نحو الحجاز واليمن وبهذا اتسمت بالخلافة الاسلامية وقسمت الشعوب العربية الى ولايات ، ومرت الخلافة العثمانية بأربعة وعشرين واليا[٥٧] واتخذ مركز الولايات مدينة زبيد ووزعت الوظائف العثمانية . . الى الوالي . . والكتخدا . . والدفتردار . . والسناجق . . والاغوات . وهذه الفترة الطويلة تعطينا صورا عدة للحياة السياسية ، والعسكرية ، والاقتصادية ، والثقافية ، والاجتماعية .

اعطتنا فترة قدوم سليمان الخادم للاستيلاء على عدن صوراً عدة للحياة السياسية باليمن وما اثرت هذه الحملة على النفسية اليمنية . مضافا الوجود المملوكي الذي كان أشد تأثيرا على الناحية السياسية والاجتماعية ، والاقتصادية رغم مناصرة اليمنيين لهم ضد الدولة الطاهرية .

الصورة الاولى - تأثرت النفسية اليمنية لما ارتكبه سليمان الخادم بشنقه عامر بن داود على سارية السفينة بعدن غدراً فكان لهذا الاجراء أثره الرفض وبالتالي اعطت هذه الحادثة الحذر لأمراء الأقاليم العربية واليمن والهند .

الصورة الثانية - لم يكن الاستيلاء على اليمن كاملاً ، وانما اكتفي بالشريط الساحلي والسهل بتهامة الغربية عندما شعر بمرارة عقدة الذنب .

الصورة الثالثة - يقسم اليمن الى ولايتين : ولاية عدن ، وولاية زبيد فترك بعدن بهرام باشا ، وترك بزبيد مصطفى بك ، فاسكندر المخضرم وقدم تقريراً مزيفاً للخلافة العثمانية لسيطرته على اليمن .

الصورة الرابعة - اثرت هذه الفترة على النفسية اليمنية واعلنت الرفض على الوجود التركي كما رفضت الوجود المملوكي وحاربته بسلاحه الذي جاء به ولاول وهلة باليمن فثار العدنيون على برهام باشا بقيادة سليمان الطولقي[٥٨] نتيجة

الغدر . وبالتالي ادرك اليمنيون الذين كانوا حلفاء للمماليك ثم الاتراك أن المصير سيكون واحداً فتأهب كل منهم لحماية نفسه ومنطقته معلناً الثورة تارة والمصالحة تارة اخرى . ومن خلال هذا الجو عززت الخلافة العثمانية قواتها بقيادة مصطفى النشّار ٩٤٧ هـ الذي اشتهر بالقسوة والعنف غير انه كان ذكيا في الفترة الاولى فتميز حكمه بالهدوء النسبي وعقد الصلح مع المطهر ثم خلفه ازدمر فسار على نهج مصطفى النشار ، ثم خلفه فرهاد ، ثم مصطفى النشار للمرة الثالثة ٩٥٢ . وامتد نفوذه الى صعده واليه نسب الفتح العثماني الاول . وهذا الفتح كان نتيجة سياسة جذب اليمنين لسياسة الحكم المحلي والمساعدات المالية وللمرة الثالثة لحكمه كانت ٩٦٢ هـ .

وفي هذه الفترة يقول احمد حلمي المتولي دفتردار مصر يفاوض المرحوم داود باشا في ٩٥٣ ، فقال ما رأينا مسبكاً مثل اليمن لعسكرنا كلما جهزنا اليه عسكراً ذاب ذوبان الملح[٥٩].

شعر الامام شرف الدين وابنه المطهر بمرارة الحدث السياسي باذابة الكيان اليمني فتأججت الثورة مما جعله يتحمل مسؤولية ما جناه ضد الطاهريين لمناصرة المماليك . ومما ساعد على استمرار الحرب استخدام السلاح الناري الذي غنمه اليمنيون من المماليك وبالتالي الحملات التركية بسلاح اكثر فتكا . ومن ثم طويت صفحة المؤامرة اليمنية ضد الطاهريين بوفاة الامام شرف الدين يحيى ووفاة الامام المطهر سنة ٩٨٠ هـ . واندلعت الثورة التي اعتبرت حقاً رفضاً للحكم العثماني لممارساته الخاطئة تارة والصائبة تارة اخرى بقيام الامام القاسم بن محمد الذي واصل الثورة وأولاده الى سنة ١٠٤٦ نجم منها خروج الاتراك من اليمن بعد تحصنهم بزبيد وتولى السلطة الامام اسماعيل بن القاسم في إطار الوحدة اليمنية الشاملة . .

ويعود الوجود العثماني الى ثلاثة عوامل اساسية : سياسي . . واقتصادي . . وديني . .

العامل السياسي : يعود الى الكشوفات البرتغالية لرأس الرجاء الصالح وطموحاتهم لاقامة مستعمرات سياسية وتجارية ، وتبشيرية . ومما واجهت مصر بخطورة الموقف وخاصة أن الدولة الصفوية بدأت توطد علاقاتها مع جنوه ، والبندقية ، مما اوجد صراعاً سياسياً في الشرق فطلب قانصو الغوري من سليم الاول العثماني مساعدته بالسلاح لمحاربة البرتغاليين بالبحر الاحمر فامده بالسلاح لمواجهة البرتغاليين ، وكان الوضع الاداري والاقتصادي متدهوراً فساعد مماليك غوري مصر على انهاء الدولة الطاهرية والاستيلاء على اهم مركز للدولة زبيد .

ومن ثم شعر العثمانيون بخطورة الموقف كدولة كبرى فجهزت حملة نحو الشام والحجاز ومصر وتم الاستيلاء عليها مما جعل أمير مكة الشريف ابونمى [٦٠] ارسال ابنه الى القاهرة يعلن خضوعه للسلطان سليم فقدم اليه هدية ومنحه حكم العثمانيين بالحجاز . ثم اتجه نحو فارس بغية توحيد العالم الاسلامي . ثم اتجه الى البلقان وشرق اوروبا واراد الاتجاه نحو شمال اوروبا ولكنه توفي فخلفه ابنه سليمان القانوني واراد ان يوجه حملة كبرى الى اليمن ، ولكنه انشغل بتوسعه نحو اوروبا فتوجه في عام ١٥٢١ نحو بلغراد واستولى على جزيرة رودس من ايدي فرسان القديس يوحنا .

وفي ١٥٢٩ م اكتسح سهول المجر واستولى على مدنه . وفي ١٥٢٩ توجه مرة اخرى الى المجر وتقدم الى فييناوحاصرهـا ولكنـه رد عنهـا وفي ١٥٣٤ م تجدد النزاع بين فارس وسليمان القانوني فتمكن من فتح العراق والاستيلاء على بغداد .

وفي اوائل سنة ١٥٣٨ م/ ٩٤٥ هـ اعد حملة بحرية كبرى نحو السويس فاليمن والهند برئاسة سليمان الخادم باعتبار ان اليمن بعد ان انتهت الدولة الطاهرية تابع لمصر ، وباعتبار ان اليمن من الناحية السياسية المنطلق للسياسة العالمية سياسيا واقتصادياً . وكان بعدن آخر ملوك الدولة الطاهرية عامر بن داوود وكان بصنعاء الامام شرف الدين يخوض صراعاً حربيا مع المماليك بزبيد .

في هذا الصراع السياسي قدم سليمان الخادم عدن واستولى عليها وترك بها بهرام . ثم اتجه نحو المخا وكان بها الناخوذه احمد نائب اسكندر شولى « موز » فاتجه نحو زبيد لحمايتها من حملة سنان باشا القادم من الصّليف فدارت المعركة حول زبيد وتحصن بها غير انه هزم واعدم ، وعاد سليمان الخادم الى مصر يحمل تقريراً بالاستيلاء على اليمن[٦١] . ومن جهة اخرى كان الإمام شرف الدين المعارض التقليدي للقوى الوطنية الحاكمة والمؤيدة استغل الموقف السياسي اثر قدوم المماليك ، وما ان اتيح له جمع السلاح حتى واجه المماليك ومن ثم الاتراك تمهيدا لدولة الأئمة .

ومن الآثار السياسية للاتراك . . التقسيم الاداري لليمن : زبيد وما اليها لمحمود باشا وصنعاء لرضوان باشا[٦٢] .

الاقتصاد : كان للكشوفات البحرية البرتغالية على الشرق العربي اثرها على اليمن سياسياً ، دفعت العثمانيين الى التوجه نحو المنافذ البحرية بالشرق العربي لتطويق الاقتصاد الاوروبي الى جانب الدولة الصفوية المنافسة انذاك .

ومن جانب آخر تأثرت الحركة التجارية من جراء الحروب وعدم الخطة الاقتصادية الثابتة في البناء لكي يشعر اليمنيون بالحياة الجديدة لبناء اليمن مما اثر على النفسية مضافا على ذلك الضعف الاداري . ومن ذلك ما حدث في عهد حسن باشا مصادرته اموال اليمنيين صغيراً وكبيراً باسم القروض عن طريق الشيخ محمد البسكري[٦٣] ، ومن ثم حلت كارثة النهب والسلب على الفقيه عبد الوهاب المحرقي بحجة موالاته للامام المطهر وكان بريئاً صلب على باب منزله سنة ٩٧٥ هـ ولم يكن هذا الاجراء فحسب بل تعدى لكل من يظن سعة ماله وكان هذا لما لاقته الدولة العثمانية من صرفيات جوامك لمن بقي من جنوده نتيجة الانهيار الاقتصادي فاعتمد العثمانيون على نظام الالتزام[٦٤] . او نظام الضمان . او « التضمين » وهو جمع الاموال المقررة على الارض اي الخارج فكان هذا النظام موضع سخط اليمنيين وتذمرهم وهذا النظام أدى الى جمع الاموال والثروات الخاصة مما سبب تدهوراً اقتصادياً اضعف دخل الدولة وأرهق المواطنين فاضطر الوالي بهرام ان يصدر أمراً بالغاء الضمان بوادي الزبير[٦٥] ارضها ونخلها وجعل الزكاة عن طريق الأمناء المحصلين بوجه العدل ، وبالتالي اقراض الفلاحين ما يحتاجونه من الحبوب واسترداده بعد حصاد الثمرة الى خزانة الدولة . كما امر بالغاء الضرائب على النخيل غير المثمر . ولم يكن ذلك نهجا سياسيا

واقتصاديا وانما الظروف حكمت بهرام بذلك واكد ذلك حسن باشا . وجعفر باشا اللذان قدما في اوضاع اقتصادية سيئة من جراء فداحة الضرائب على البقر والماشية والنخيل والحروب المستمرة مع اليمنيين .

الحياة الاجتماعية والدينية :

من اهم المؤثرات على الانسان الحياة الاجتماعية ومدى قابليته للتكيف ضمانا لاستمرارية الحياة في مجتمع سواء كان مواطناً أو طارئاً إذ أن التباين الاجتماعي يؤثر على النفسية مهما كانت الروابط الا اذا انسجم معه وتأثر به اجتماعيا .

فالاتراك رغم الروابط الاسلامية الا انهم يعتبرون طارئين على الشعوب العربية التي حكموها كدولة اسلامية كبرى فاثرت على النفسية لاختلاف القومية . لذا كانت العلاقة بين اليمنيين والاتراك وفقا للروابط الاسلامية اجتماعيا ودينيا :

ففي المجال الاجتماعي : توثيق العلاقة برابطة الصهارة .

ومن الناحية الدينية : اقامة الاحتفالات العامة في المناسبات ومنها الاحتفال بخروج محمل الحجاج اليمنيين والعودة وبناء المساجد .

ومن جانب آخر . . بناء المجتمع على اساس الامتيازات والتفاوت الطبقي وحماية لوجودهم الذي ظل مئة عام وكانت سياستهم امتصاص نقمة الفقهاء ومن لهم الكلمة المسموعة لسوء تصرف بعضهم في اللهو والخمر باغداق الهبات والتقرب اليهم . واتخذ العثمانيون شعار الخلافة الاسلامية لعاملين :

العامل الاول - الطموحات السياسية والاقتصادية كدولة في الشرق جاءت على انقاض الدولة الاسلامية الكبرى التي انهارت نتيجة التفكك السياسي والاسترخاء والبذخ وصراعاتها في الشرق والغرب وانقسامها الى دويلات وصداً للنفوذ البرتغالي اثر كشوفاته .

العامل الثاني - الانقضاض على الدولة الصفوية الممتدة من اطراف ايران والعراق الى مشارف الاناضول والشام . ودولة المماليك بمصر التي كانت بحكم مركزها الاقتصادي حامية للاقتصاد العربي والمتاجرة مع البندقية وجنوه الى جانب العامل الديني لحماية الاماكن المقدسة .

تلك هي العوامل التي جعلت تركيا تكون خليفة للدول الاسلامية في الصدر الاسلامي وبالاخص مكن تركيا ان تتزعم الخلافة الاسلامية واقتحامها لشرق اوربا الشعور بالامتداد التاريخي للدولة الاسلامية ، وصراع الغرب مع نفسه ، وبالاخص تحرره من الكنيسة وطغيان التخلف .

صنعاء والاحداث

من ٩٢٢ - ١٣٨٢ هـ
من ١٥١٧ - ٢٦ سبتمبر ١٩٦٢ م

أولاً - الكشوفات البحرية البرتغالية :

من اهم الاحداث التي مرت بها اليمن الكشوفات البحرية البرتغالية وما نجم عنها من اثار سياسية واقتصادية اضعفت الدولة المركزية ادارياً ومالياً ، فالصراع المذهبي والزعامة الروحية وآثارها على ا ليمن تبدأ بدعوة الامام شرف الدين يحيى ٩١٢ وهذا العامل كما ورد في المصادر

التاريخية وابرزها « روح الروح »[٦٦] « وطبق الحلوى »[٦٧].

وتعطينارسالة الامام شرف الدين للامير حسين الكردي ٩٢١ كراهية للحكم الطاهري محرضاً الانتقام التي بعثها رفيقه الفقيه صلاح الدين طارحا ما قام به عامر بن عبد الوهاب ضد آل البيت مدللاً له ان يوجه اليه طلبا لمناصرته ضد البرتغاليين . فان استجاب فهو ناصح وان الامام شرف الدين ليس الامنافساً له في دنياه. وإذا لم يستجب فهو رأس من الاشرار وزعيم من الفجار[٦٨] كان هذا الرأي من واقع السياسة المطروحة لضرورة الفراغ السياسي فاستجاب الامير حسين الكردي لرأي الفقيه صلاح الدين تنفيذا لرسالة شرف الدين فبعث برسالة الى عامر بن عبد الوهاب طالبا المساعدة ، فقدم الرسالة لمستشاريه وعلى رأسهم محمد بن علي النظاري فكان الرأي عدم المساندة بحجة انها ستكون وبالاً على الطاهريين مستقبلا كجزية سنوية فكان لهذا الرفض رد فعل عنيف وانتقاما من جميع الفئات المناوئة للحكم المركزي .

ومن ناحية اخرى استمرار الصراع بين الأمام شرف الدين والطاهريين فلم تتمكن احدى القوتين من القضاء تماما على القوة الاخرى حتى عام ٩٤١ حين قام الامام المطهر بحملة لمنطقة دمت لمحاربة من بقي من الطاهريين فقتل ثلثمائة واسر الفين وثلثمائة ثم امر بقطع الف رأس من الأسرى ثم جعل باقي اسراهم الفاً وثلثمائةكل واحد يحمل رأسا وارسلهم الى والده الامام شرف الدين بصنعاء ثم الى صعدة اعلانا لانتصاره[٧٠] .

تلك هي مرارة الاحداث التي ادت الى الفراغ السياسي الذي كان من نتائجه الوجود العثماني الأول سنة ٩٤٥ هـ ومن ثم تحمل الامام شرف الدين مسؤولية المقاومة ضد الجراكسة اولا فالعثمانين ثانيا - والى جانبه اولاده - الامام المطهر - الامام شمس الدين الحسين ابراهيم بن يحيى شرف الدين - عز الدين يحيى شرف الدين .

ثانيا - اليمن والوجود العثماني الأول
من ٩٤٣ - ١٠٤٥
١٥٣٨ - ١٦٣٥

بعد ان مهد الجراكسة المصريون سلطتهم باليمن التي لم تدم لاستيلاء العثمانيين على مصر ثم اليمن ، ومن خلال الوجود الجركسي جهز المطهر سنة ٩٤٣ حملة الى زبيد للقضاء على الجراكسة وكان بها الناخوذة احمد نائب اسكندر حور وكانت الحملة في غاية من القوة . والقادة العسكريون هم الامير شمس الدين بن الامام شرف الدين في الميمنة ويحيى بن ابراهيم النصيري في الميسرة والمطهر في القلب وجمال الدين علي بن يحيى بن الامام المطهر بن محمد بن سليمان . وصارم الدين ابراهيم الهادي ابن الوزير . وبظاهر زبيد حشد الجراكسة قوة هائلة هزم فيها المطهر بعد معارك قتل فيها القائدان الأخيران .

وفي هذه الفترة كان الأميرعامربن داود بن طاهر أمير عون يرقب احداث الجراكسة مع المطهر ومنها معركة زبيد فداخله الأمل في استعادة حكم اليمن فجهز جيشا وخرج من عدن ولما وصل الى أم قريش جهز اليه المطهر جيشا لقتاله غير أن عامر أدرك خطورة الموقف، فانسحب من الموقع حيث وصل المطهر فلم يجده[٧١] .

وفي هذه الاحداث قدم سليمان الخادم كمران سنة ٩٤٥ ومنها اتجه الى عدن فقضى على عامر بن داوود قتلا فدخلت اليمن في الوجود العثماني ومن ثم استمرت حرب الامام شرف الدين مع العثمانيين الى سنة ٩٥٢ . ولكن بدأت حركته في الاضمحلال لعاملين :

الاول ـ تدفق الجيوش العثمانية وولاتها الأقوياء ابرزهم مصطفى النشار وأويس باشا ، وفرهاد باشا ، ومصطفى شاهين باشا ، وازدمر باشا ، ومحمود باشا ، ورضوان باشا ، ومراد باشا ، الذين بلغت قواتهم الى صعدة وخاصة في عهد ازدمر ومصطفى النشار للمرة الثانية سنة ٩٥٢ ، الى جانب صراع الامام المطهر مع أئمة صعدة آل المنصور والامام المؤيد بن الامام عز الدين المؤيدي واشراف الجوف برئاسة احمد بن محمد بن الحسين واحمد الشويع[٧٢] .

الثاني ـ صراع الامام شرف الدين وابنه المطهر على ولاية العهد التي اسندت لاخيه شمس الدين بحجة انه لم تتوفر فيه شروطها لعدم سلامة احدى رجليه مما اثار الخلاف والحرب بينهما ادى بالامام شرف الدين لأن يقبض عليه بالمسجد فاحس المطهر بما يدور حوله فجمع اعوانه ودارت الحرب بينه وبين اخيه شمس الدين بالجراف واستولى على صنعاء والى جانبه اخوه عز الدين .

وفي هذه المعركة مال الامام شرف الدين وابنه شمس الدين الى العثمانيين فجهز ازدمر جيشا ضد المطهر وكانت الحرب التي اسر فيها عز الدين وارسل الى السلطنة العثمانية . ولكنه مات في ينبع[٧٣] ومن ثم شهدت صنعاء احداثا مريرة انهكت اليمنيين في الحروب حتى توفى شرف الدين سنة ٩٦٠ فاستقر الأمر للمطهر الذي انفرد بالمقاومة ضد العثمانيين الى ان توفى سنة ٩٨٠ ومن ثم انقسم ابناؤه فكل ادعى لنفسه : يحيى بن المطهر بثلا ، ولطف الله بن المطهر في ذي مرمر وعبد الرحمن بن المطهر بحجة ، الى جانب احمد بن الحسين بن عز الدين المؤيدي بصعدة . ودارت الحرب بين اسرة شرف الدين مما سهل لحسن باشا سنة ٩٩٤ ان يلقي القبض على اولاد المطهر وهم لطف الله وعلي ويحيى . وغوث الدين بن المطهر وحفظ الله[٧٤] وابن اخيه محمد بن الهادي بن المطهر ، والامام الحسن بن علي ونصيره الشيخ وهان العذري وارسلهم الى الأبواب السلطانية :

وتعطينا قوة الحكم العثماني لليمن اربعة عوامل :

الاول ـ قوة الدولة والسلاح الحديث ونفوذ السلطان سليمان القانوني .

الثاني ـ قوة شخصية ازدمر وسياسته العادلة نحو اليمنيين .

الثالث ـ التفكك السياسي باليمن .

الرابع ـ ضعف الاقتصاد اليمني .

اما انهيار الامبراطورية العثمانية فيعود الى ستة عوامل[٧٦] :

الاول ـ ضعف وانهيار الاوضاع السياسية والاقتصادية والعسكرية باليمن .

الثاني ـ تقسيم اليمن الى ولايتين .

الثالث ـ تنازع الواليين على الحدود .

الرابع ـ مضاعفة الضرائب في عهد رضوان باشا مما

دفع بصراعه مع بعض الفئات اليمنية .
الخامس - تذمر اليمنيين من الاوضاع وانضمامهم الى المطهر وقوة شخصيته الحربية والسياسية .
السادس - نجاح المطهر في وحدة الجهات وضم الاجزاء اليمنية الى جانبه .

ثالثا - الدولة القاسمية :

اعطتنا مرحلة الامام يحيى شرف الدين والامام المطهر بن يحيى شرف الدين اعظم مأساة باليمن فقد فيها استقلاله السياسي واقتصاده الوطني .

ففي مجال الاستقلال - الفراغ السياسي الذي نجم منه الوجود الجركسي والعثماني ودخول اليمن في صراع مرير قتلا ونهبا وسلبا وافراغ اليمن من الحكم الوطني .

وفي مجال الاقتصاد - تعثر الحركة التجارية والاقتصادية ونشاطاتها المختلفة ودخول اليمن في حروب فقد فيها عظماء الرجال سواء في بداية الغزو او بعده واعطتنا الفترة التاريخية لهذه المرحلة قتلا عنيفا عن طريق الجراكسة والعثمانيين والامام المطهر ومذبحته في دمت سنة ٩٤١ . . لهذا نجد المرحلة من عام ٩٢٢ الى سنة ٩٨٠ لم يستقر فيها اليمن سياسيا واداريا . واذا تجاوزنا انها كانت بحثا عن الدولة المركزية بدلا عن التجزؤ ليشمل اليمن كاملا نجد ان هذا البحث لم يكن الا صراعا مقنعا بطموحات خاصة .

وتمر مرحلة الصراع المقنع وتبرز مرحلة الثورة على الوجود العثماني بعد افراغ الساحة اليمنية من اسرة شرف الدين فتندلع ثورة الامام القاسم بن محمد سنة ١٠٠٦ ابتداء من شهارة وانطلاقا من جبل القارة فبرط وتستمر ثورة الامام القاسم بن محمد ضد الولاة العثمانيين حسن باشا . وعثمان باشا . وسنان باشا . وبهرام باشا . ومراد باشا الوزير . وسنان باشا الكيخيا وجعفر باشا . ومحمود باشا . وتنتهي الثورة الأولى بوفاة الامام القاسم بن محمد سنة ١٠٢٩ وفيها كان الصراع حادا بين العثمانيين والامام القاسم بن محمد وتختلف هذه الثورة عن حركة الامام شرف الدين هذه الثورة اندلعت ضد وجود اثخن اليمن بشتى اساليبه السياسية . لذا نجد ان ثورة الامام القاسم بن محمد شملت غرضين :

الاول - الثورة ضد الوجود العثماني ومظالم بعض الولاة .
الثاني - بناء دولة الامامة المركزية .

من هذين الغرضين نقول مؤكدين ان حركة الامام القاسم ثورة - ودولة . ثورة لها طابع وطني - وسياسيا شملت خمس مراحل [٧٧] منها اربع مراحل خاضها الامام القاسم بن محمد من ١٠٠٦ - الى ١٠٢٩ . والمرحلة الخامسة قام بها الامام المؤيد اسماعيل من ١٠٢٩ - الى ١٠٤٥ وانتهت بجلاء الاتراك من اليمن .

اما العوامل التي ادت الى نجاح الامام القاسم فهي :

اولا - انهيار العثمانيين في السياسة الدولية ومنافسة دول اوربا للخلافة العثمانية .
ثانيا - الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية باليمن .

ثالثا - الفراغ السياسي وعدم وجود اي منافس باليمن .

تلك مرحلة ثورة القاسم ونجاحه في قيام الدولة القاسمية باليمن والتي امتدت الى حضرموت في عهد الامام اسماعيل بن محمد بن القاسم من ١٠٤٥ - الى ١٠٨٧ هـ .

تمكنت الدولة القاسمية من بناء الدولة بعد نضال مرير ضد الاتراك رغم معارضة بقايا آل شرف الدين الذين فقدوا قوة القيادة كشخصية الامام المطهر ومساندتهم للاتراك .

ومهما كانت حركتهم وقوة الاتراك الا ان الامام القاسم استمر في ثورته حتى توفي سنة ١٠٢٩ هـ فتسلم قيادة الثورة محمد بن القاسم فواجه صداً عنيفاً من الاتراك الا أن هذه المرحلة كما اشرنا ان العثمانيين واجهوا صراعاً حادا باليمن وقوةسياسية من دول اوربا جعلهم يخضعون لقوة الثورة اليمنية التي احتدمت نتيجة اخطاء سياستهم باليمن والتي نجمت من جراء المظالم وفساد بعض الولاة وتدفق السلاح باليمن مما ادى بعد مائة عام الى اقرارهم بضرورة الانسحاب من اليمن سنة ١٠٤٥ هـ .

ومن ثم تسلم الامام محمد بن القاسم بن محمد السلطة باليمن بعد افراغ كل القوى وبناء الدولة القاسمية وامتد حكمه الامامي الى حضرموت حتى توفي سنة ١٠٥٢ وخلفه اخوه احمد بن الحسين وبعد ذلك ثم دب الخلاف بين الاسرة القاسمية فانفرد الحسن بروضة حاتم . وانفرد الحسين بضوران سنة ١٠٤٧ مما ادى الى اضطراب المناطق الجنوبية وانسلخت حضرموت وعدن ويافع فاضطر الامام احمد بن القاسم لأن يتنازل لأخيه اسماعيل سنة ١٠٥٤ واستعاد المناطق الجنوبية الى ظفار واستمرت الدولة القاسمية الاولى الى ان توفي سنة ١٠٨٧ .

وتعتبر هذه المرحلة رغم احداثها الداخلية مرحلة ايجاد الدولة المركزية لليمن الموحد .

رابعا - الدولة القاسمية الثانية .

مرت المرحلة الثانية باحداث سياسية مريرة ابتداء بالامام احمد بن الحسين بن القاسم ومعارضه الامام القاسم بن المؤيد بن اسماعيل فتغلب عليه واستمر الى ان أدركته الوفاةسنة ١٠٩٢ تولى الامام محمدبن اسماعيل وفي عهده انقسمت اليمن الى مقاطعات امامية . علي بن المتوكل اسماعيل ، محمد بن احمد بن الحسين ، الحسين بن الحسين ، القاسم بن المؤيد . لانشغال الامام محمد بن اسماعيل بالعبادة والنذور حتى توفي سنة ١٠٩٧ هـ واستقلت حضرموت عام ١١١٣ هـ واقتفى أثرها أمير لحج وعدن فضل بن علي العبدلي الذي امتد حكمه حتى دخل الاستعمار البريطاني عدن سنة ١٢٢٥ و هـ / ١٨٣٩ م .

واستمر الصراع السياسي على الامامة بصنعاء ويتنازع امامان وثلاثة واربعة ائمة في مناطق مختلفة لا تبعد عن صنعاء بعشرة او عشرين الى ستين كيلومتراً في آن واحد واقتسام البلاد باسم الدعوة الامامية وصراع الأئمة على حكم اليمن وخاصة من عام ١١٨٩ هـ الى سنة ١٢٧٨ هـ ولا تحتاج الى توضيح كامل اسما وتاريخا لأن هذه الفترة

لم تعد للسلطة اي معنى او للحكم اي استقرار او للعاصمة اي فخر بهذا الصراع الدامي .

فمثلا نجد الصراع الدموي وتضليل القبائل والنهب والسلب ينخر صنعاء على اشده من ١١٨٩ هـ ابتداء بالامام المنصور على بن الامام المهدي (٧٨) العباس ، والامام احمد بن علي بن المهدي ١٢٢٤ هـ الملقب بالمنصور حتى توفي ١٢٣١ هـ تولى الامام عبدالله المهدي فنافسه الامام احمد بن علي السراجي سنة ١٢٤٩ هـ وتلقب بالهادي ثم استعاد الامام عبد الله المهدي حركته ببذل المال للقبائل حتى توفي سنة ١٢٥١ هـ فتولى فثارت عليه الباطنيةوقتلته سنة ١٢٥٦ هـ بوادي ظهر فتولى الامام محمد بن يحيى الذي كان في سجن الناصر وتلقب بالمتوكل ثم بالهادي فدخل في صراع مع الامام المهدي على الذي تولى للمرة الثالثة مما اضطر الامام المتوكل يحيى بن محمد ان يستنجد بالشريف حسين بن حيدر ضد خصمه علي بن المهدي فمده بالسلاح من زبيد على شرط ان تكون تقر للشريف حسين مقابل مناصرته . وما ان انتصر محمد بن يحيى على خصمه علي بن المهدي حتى شعر بمكانته فنقض الاتفاق مع الشريف حسين ونزل اليه بتهامة وحاصره بالقطيع ثم سجنه بزبيد ثم عاد الى صنعاء ومن ثم استنجد الشريف الحسين علي ابن حيدر بالأتراك فقدم شريف مكة محمد بن عون مع توفيق باشا سنة ١٢٦٤ هـ/ ١٨٤٩ م في عهد السلطان عبد الحميد ونزل الحديدة التي اعتبرت في هذه المرحلة قاعدة الانطلاق الى صنعاء . . وفيها كان الامام محمد بن يحيى في صراع مع الامام علي بن المهدي مما دفع بالأول طلب الاتراك الى صنعاء واستقبلهم وافرغ لهم دار السلطان . وفيها وجد الامام الثالث احمد بن هاشم بن غالب فتجند ضد الاتراك والامام محمد بن يحيى فاضطر الاتراك الى ان يعودوا الى الحديدة بحماية الامام محمد بن يحيى من القبائل ثم واجه الامام محمد بن يحيى مصيرا سيئا حيث قتل سنة ١٢٦٦ هـ ودفن بغير كفن واستقر الأتراك بتهامة[٧٩] وتولى الامام علي بن المهدي للمرة الرابعة .

خامساً ـ اليمن والوجود العثماني الثاني
من ١٢٨٩ هـ ـ ١٣٢٩ هـ
من ١٨٧٢ م ـ ١٩١١ م

أثر عصر النهضة الاروبية على الامبراطورية العثمانية سياسيا واقتصاديا فكان الوطن العربي والقارة الافريقية لثرائهما الاقتصادي محط انظار الدول الاروبية الاستعمارية . كما اثرت عليها حروب شعوب البلقان واستقلالها . لهذه الاحداث كان نفوذ الامبراطورية في الوطن العربي غير مستقر رغم محاولاتها ادخال تغييرات عصرية .

ويختلف الوجود العثماني باليمن للمرحلة الثانية اختلافا اساسيا ، فالمرحلة الاولى كانت دفاعاً عن الاقتصاد العثماني والعربي . والاماكن المقدسة من الغزو البرتغالي الذي جاء نتيجة ضياع الوطن العربي وانقساماته على نفسه وتجزئه السياسي وصراعه اجتماعياً ودينياً : وكما كانت سياسة الغرب للوطن العربي في احتلال مناطقه لأجل ثرواته . كان الوجود العثماني مشابها وموازيا . ولكن باسلوب ديني وطورانية تركية لانها تعتبر احسن وضعاً عن الوطن العربي

والاسلامي لمسايرة النهضة الاوروبية لمجاورتها وتهجير ابنائها الى اوربا للاستفادة علميا وعسكريا ، واقتصاديا ، وسياسيا . غير أنّ طموحاتها السياسية التقليدية لمد امبراطوريتها احجمتها عن بناء كيانها بالتصنيع والعلم ودخلت في صراع سياسي داخل احزابها السياسية . ومجلس المبعوثان « البرلمان » وسياستها نحو الوطن العربي وتتريكه باسلوب مباشر وغير مباشر . وكان الوطن العربي مجزءاً متفكك الأوصال اجتماعيا وسياسيا واقتصاديا ، فمصر يحكمها محمد علي باشا الطامح لبناء امبراطورية مصرية بعيدة عن النفوذ التركي . ومحمد بن سعود في الدرعية بنجد اميراً .

ومحمد بن عبد الوهاب اعلن اعتقاده ان المجتمع الاسلامي طرأت عليه البدع والشرك والالحاد فاحس علماء المدينة بخطورة معتقده نحو المجتمع الاسلامي فثاروا عليه فلاذ بالفرار خوفا من غضبهم فالتجأ بمحمد بن سعود بالدرعية سنة ١١٥٧ هـ / ١٧٤٤ م وبايعه اماما بشرط مناصرة دعوته فكان مكسبا سياسيا لمحمد بن سعود لبناء الدولة السعودية ، ومن ثم جند الدعاة والمرشدين لنشر الدعوة الوهابية وتأسيس الدولة حتى توفي ١٧٦٥ م ، خلفه ابنه عبد العزيز فنشطت الدعوة الوهابية ١٨٠٣ م واتسعت في شبه الجزيرة والخليج وعسير . وكان قائد جيشه طامي بن شعيب ، وفيها قتل عبد العزيز بن محمد فخلفه ابنه سعود بن عبد العزيز فتوسع نفوذه الى الحجاز .

وكان امير مكة الشريف غالب بن مساعد اضطر الى ان يوالي سعود بن عبد العزيز حفاظا على منصبه مما جعل العثمانيين يكلفون محمد علي باشا ان يصد هذا النفوذ حماية للمدينة ومكة من النفوذ الوهابي ، فارسل حملاته بقيادة ابراهيم باشا فاسترد الحجاز وفتح الدرعية ١٨١٨ م واسر الأمير عبد الله بن سعود وارسل الى الاستانة حيث قتل هناك . وكانت عسير وجازان في صراع سياسي بين امراء عديدين محمد بن عائض المعيذي وآل خيرات برئاسة حمود بن حيدر ، وابن اخيه علي بن حيدر ، وابن عم منصور ابن ناصر وامتد حكمه من صبيا الى زبيد . فكان من نتائج هذا الصراع ان تقدم الاخير بالشكوى لمحمد علي باشا من حمود بن حيدر لعدم مشاركتهما في الحكم وطلبا من حسن باشا ان يمدهما بقوة تمكنهما من الاستيلاء على اليمن باسم الدولة العثمانية والتخلص من استبداد حمود فبعث معهما حملة بقيادة سنان باشا ، ورافقت علي بن حيدر قوة اخرى بقيادة خليل باشا الى تهامة وكانت الحملتان بداية لمحمد علي لدعم السيادة العثمانية ظاهراً ودعماً له كغرض سياسي . وانتصرت الحملة في موقعة بسل بين الطائف وتربه ١٨١٥ م. فانسحب الوهابيون الى عسير اليمنية وحاول طامي بن شعيب الالتجاء بالشريف حمود فلقي الطرد والاسر وسلم الى محمد علي حيث أرسل الى الاستانة وأعدم[٨٠] ومن ثم حاول حمود التخلص من جنود محمد علي بقتل سنان باشا غير ان محمد علي شدد حملاته بقيادة خليل باشا الذي استولى على صبيا مما أدى بأحمد بن حمود الابتعاد الى عريش ثم طلب التفاهم وخضع لنفوذه وحرر مرسوماً لعماله بالولاء للعثمانيين من عريش الى زبيد ومن ثم ضمت الى صنعاء .

وفي صنعاء كانت الاوضاع السياسية وصراعات الأئمة تهز أمنها وتقض مضجع المجتمع فكان الامام المنصور علي بن المهدي ، والامام

الهادي محمد بن محمد بن المتوكل ، والامام المنصور احمد بن هاشم بن غالب في صنعا الى جانب تحكم المشائخ والعقال لها .

وكان خارج صنعاء اكثر من امام في السر محمد بن عبد الله الوزير ، وبحوث الإمام الحسن بن احمد المتوكل ، وفي الروضة الامام المتوكل السيد حسن الملقب بالذعرور، وفي شهادة الامام الحسن احمد الشهاري وكانت القبائل اداة حرب لمن يدغدغ مشاعرها باسم الدين والجهاد ويقدم لها الفلوس الى جانب الفود « النهب والسلب ».

في هذه الفترة جندّت الخلافة العثمانية الى اليمن حملات عسكرية بقيادة احمد مختار ١٢٨٩ فقدم الحديدة التي اصبحت هذه المرحلة المنطلق للوجود العثماني وكان الاعتبار ان لا نفوذ لكيان العثمانيين الا اذا كانت السيطرة على العاصمة صنعاء بحكم موقعها الجغرافي والسياسي . وأن تكون الحديدة الميناء الوحيد لليمن الذي سيدعم نفوذهم بالإمدادات العسكرية فأعد حملة كبيرة وقسم الحملة قسمين :

قسم برئاسته عسكر بهم في قرية وهب بن منبه .
وقسم للاستيلاء على المعاقل وقصر غمدان[٨١].

وفي هذه الفترة كانت تعيش صنعاء في صراع الامام غالب بن محمد بن حسين المتوكل . والامام علي بن المهدي . والسلطة الفعلية بصنعاء للشيخ محسن بن معيض ، والدفعي المسيطر على شعوب فطلب احمد مختار من الامام علي بن المهدي تسليم المعاقل المحيطة بصنعاء وخصوصا قصر غمدان فسلمت اليه . ولما تمكن من قبض المعاقل وضع فيها الجنود فطلب من الامام علي بن المهدي تسليم الدفاتر فاستشار وزراءه وكتابه واشراف صنعاء فاشاروا عليه بعدم التسليم معللين ذلك ان السلطة الفعلية ستصبح بيد الاتراك اداريا وسياسيا ولكنه تسلم ذلك وضيق الخناق على الامام ووضع حداً لتصرفاتهم في شؤون الدولة وقرر للإمام راتباً شهريا ثلاثة آلاف قرش « ريال » وقطع مرتبات الموظفين وشكل جهازاً اداريا من الاتراك . ومنع الاحتفاظ لرؤساء البلاد بسلطتهم . وبعد اربعة اشهر ارسل حملة الى كوكبان بقيادة موسى كاظم . وفضلى الى جانب السيد احمد بن محمد شرف الدين .

وفي ٢٩٠ هـ وصل خلفا له احمد ايوب وظل عامين ثم خلفه عام ١٢٩٢ هـ مصطفى عاصم ورافقه نائب المحكمة الشرعية عبد الله الصباغ الطرابلسي الذي عمد الى معارضة العلماء في مذهبهم وارسلهم الى الحديدة ومنهم الامام المنصور محمد بن حميد الدين . والسيد محمد الكبسي ، وزيد احمد الكبسي . وحسين بن علي غمضان وغيرهم ومن ثم اضطربت الامور بالحرب في ارحب وحاشد وأدى ذلك الى عزله .

وفي ١٢٩٥ هـ وصل اسماعيل حقي وافرج عن المسجونين العلماء بشفاعة قاضي الحديدة[٨٢] السيد محمد عارف الماردينى . وفي ١٢٩٦ هـ ادعى الامامة شرف الدين محمد الملقب بالهادي بجبل الأهنوم بعد الامام المتوكل محسن احمد الشهارى . فاضطر اسماعيل حقي الى أن يحتفظ بالوجود العثماني فشكل اربعة طوابير من اليمنيين سماهم حميديه اعتنى بتربيتهم وتدريبهم لإخماد الثورة وليطمئن اليمنيون اليهم[٨٣] وكانت سيرته حسنة .

وفي ١٢٩٩ قدم محمد عزة باشا فعارضه

الامام شرف الدين من خولان فحاول محمد عزة باشا توحيد كلمة اليمنيين والاتراك .

وفي عام ١٣٠٢ هـ عين احمد فيضي بدلاً من وظيفته بعسير كمتصرف . وفي عهده كان اليمن في قحط وجدب فارسل جنوده الى همدان لنهب كل بيت كرد فعل لمعارضة رئيس ضلاع السيد محمد الشويع وارسل حملة الى بلاد البستان وسنحان وامر بالهجوم على البيوت لاخراج الجنود .

وفي ١٣٠٣ قدم عزيز باشا . وفي ١٣٠٥ قدم عثمان باشا . وفي ١٣٠٧ قدم عثمان باشا الفقيه فاستطاع ان يهدىء الامور وكانت سيرته حسنة .

وفي ١٣٠٧ قدم اسماعيل حقي للمرة الثانية وفيها توفي الامام الهادي شرف الدين وادعى الامامة الامام المتوكل المحسن فالامام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين ، ثم قدم حسن اديب فاحمد فيضي للمرة الثانية عام ١٣١٠ وفيها كان سجن مجموعة من العلماء والسادة والمشايخ بحجة مناصرتهم للامام المنصور وارسلوا الى الحديدة ثم ارسلوا الى ازمير ثم الى رودوس(٨٤) .

وفي ١٣١٥ عزل احمد فيضي وقدم حسين حلمي باشا فاسس ادارة المعارف والمكاتب ودار المعلمين ومكتب الصنائع والاعدادية وكان يقرب اهل العلم . والى جانبه المشير عبد الله باشا قائد الجيش العثماني .

وفي ١٣٢٠ عزل عبد الله باشا بسبب تساهله في حدود عدن لاعتداء الانجليز على الضالع وعين توفيق باشا . وفي ١٣٢٢ توفي الامام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين فخلفه ابنه الامام يحيى بن محمد حميد الدين وبويع له بقفلة عذر بحاشد .

وفي ١٣٢٣ دخل الامام يحيى صنعاء وفيها تعين احمد فيضي واليا للمرة الثالثة فوصل الحديدة ثم قدم مناخه فاجتمعت القبائل وحاصرته بمناخه(٨٥) ولكنه واصل حربه حتى وصل عصر وانسحب الامام يحى من صنعا ودخلها احمد فيضي واعلن العفو .

وفي ١٣٢٤ هـ كانت الحرب في قرى الحمودي والاشمور شمال صنعاء . وفي ١٣٢٥ اندلعت الحرب بين اليمنيين والاتراك بخولان .

وفي ١٣٤٦ هـ عزل احمد فيضي وتعينّ حسين تحسين باشا فعقد الصلح بين الامام يحى وبينه بعدم الاعتداء على الآخر وكل يقيم في جهته ، وسمح لمن يرغب من اليمنيين زيارة الامام يحى وفي ١٣٢٨ عزل تحسين وعين كامل بك متصرف تعز ثم عزل وعين محمد علي باشا .

وفي ١٣٢٩ هـ قدم عزت باشا وفي هذه الفترة كانت الثورة قد ازدادت اضطراما والحالة سيئة باليمن فتقدم للصلح من الجانب اليمني العلماء وهم الحسين بن علي العمري ، والسيد قاسم بن حسين العزى(٨٦) ومن الجانب التركي كان من رجال حملة عزت باشا عزيز بك(٨٧) فكان لمواقفه السياسية ولماله من رغبة في حل النزاع المسلح وبطلاقة لسانه،والى جانبه محمود نديم بك السوري الاصل لاجادته اللغة العربية فكان لهذين الشخصين مواقف مشرفة في اقناع الامام يحيى في حقن الدماء وباسلوب بارع اقنع عزيز بك الامام يحيى بان الحرب لم يستفد منها الاّ العدو الذي يتربص بنا الدوائر ولسوف يستولون على هذه

البلاد . وعلى هذه الفكرة بني اساس الاتفاق بين عزة باشا والامام يحيى وعليه قدم الامام يحيى مشروعاً مكوناً من خمس عشرة مادة[88] بتاريخ ١٣ صفر ١٣٢٤ هـ ليكون على ضوئه، مؤتمر دعان الذي انعقد سنة ١٣٤٩ هـ / ١٩١١ م .

ومن الجانب العثماني كان هناك ثلاثة احزاب في عاصمة الدولة العثمانية في مجلس المبعوثان العثماني يناقش القضايا العربية والقضية اليمنية بصورة خاصة المكون من احزابه الثلاثة وبعض الوفود الممثلة لشعوبها .

الحزب الاول ـ الاتحاد والترقي وكانت سياسته التمسك بسياسة الاخضاع .

الحزب الثاني ـ الحزب الائتلافي وكان معظمه من الالبان والعرب فكان ينادي بالحرية والمساواة للعناصر المختلفة والايمان بلامركزية الحكم .

الحزب الثالث ـ حزب الاهالي واغلبه من الاتراك الاتحاديين وكان منظما بمارساً للاساليب البرلمانية يؤمن بحل قضية اليمن[89] .

ومن ثم تمَّ الاتفاق علي (صلح دعان) الذي تضمن عشرين مادة بتاريخ ٩ اكتوبر ١٩١١ ١٣٢٩ الاعتراف بشرعية الامام يحيى بن محمد حميد الدين للمناطق الجبلية له حق تعيين الحكام ما عدا المناطق التهامية يحق للحكومة العثمانية تعيين ذلك[90] وللامام الاشراف على الاوقاف والمحاكم الشرعيةوفي عام ١٣٣٠ عين محمود نديم والياً بصنعاء وكان قبيل الصلح قائمقام بزبيد فترك اخته حنيفة المتزوجة علي محمد علي كوك فولدت له عبد الله كوك ثم نقل قمسيونا بالحديدة ، ولما قدم عزت باشا رافقه مع عزيز بك لاقناع الامام يحي بالصلح وكان يتمتع بشخصية مقنعة ومحبوبة استطاع ان يساير الامام يحيى بعد الصلح حتى تم الجلاء ١٣٦٦ هـ ١٩١٨ م وكان فيها ايفاده مع العلماء الى محمد بن علي الادريسي للدخول في طاعة الامام وضم منطقة عسير الى محمد بن علي الادريسي للدخول في طاعة الامام وضم منطقة عسير الى اليمن واعطائه المكانة اللائقة به .

الاحداث السياسية
ومدى تأثيرها على المجتمع اليمني

كان لطموح دول اوربا في الكشوفات والاستشراق في كل من افريقيا واسيا بالقرن السادس عشر الميلادي العاشر الهجري اثره على اليمن حيث انقلبت اوضاعه السياسية والاقتصادية والعلمية والاجتماعية انقلابا خطيراً حولت مجرى التاريخ اليمني .

اولاً ـ المجال السياسي

تعطينا الاحداث السياسية ان الدولة المركزية الموحدة وجدت في عهد الدولة القاسمية الاولى بزعامة محمد بدر اسماعيل بن القاسم ١٠٥٤ في اطار اليمن الطبيعية وهذا يعني ان الدولة ومفهوم سلطتها المركزية لمن كان قويا عدداً وعدة وعتاداً وقادراً على إفراغ كل القوى السياسية والاقطاعية . وماعدا ذلك لن تتحقق الدولة المركزية .

ومن ثم بدأ الانفصال يضرب أجراسه من عام ١٠٩٨ لوجود الصراعات السياسية الطامحة للسلطة حيث نشط التنافس على الامامه بين الزعماء الروحيين وخاصة في الاسرة نفسها .

ولقد اوضح لنا العلامة احمد بن حسين الرقيحي المتوفى سنة ١١٦٢ هـ في عهد الامام الحسين بن القاسم ان وجود التنافس بين الامام احمد بن حسين بن القاسم وأخيه محمد بن حسين بن القاسم قد أراق الدماء بينهما . فقال :

صنوان قد سقيا بماء واحد
والفضل خال من كلا الأخوين
جرحا قلوب المسلمين فما لها
من مَرْهَمٍ الأدم الاخوين

والمؤلم لهذا الصراع الوصول الى المناصب من الوزراء والمستشارين الخصوصيين فنجد ان احمد بن علي الشامي عام ١٠٤٩ هـ كان ابرز من يدير سياسة الوئام والانشقاق بين ابني الإمام القاسم اللذين اختلفا على الامامة [٩١] .

ومن الأحداث السياسية التي هزت اليمن في العهد الامامي احداث الامام المهدي محمد بن احمد بن الحسن بن القاسم المسمى بصاحب المواهب نسبة الى قرية المواهب التي ادعى منها سنة ١١٢٨ هـ (وتوفي سنة ١١٣٠هـ) .

ثم تأتي الدولة القاسمية الثانية بزعامة الامام القاسم بن الحسين الذي ادعى سنة ١١٢٨ الى سنة ١١٣٩هـ وهذه المرحلة كما وصفها مؤرخو حياة العلامة محمد بن اسماعيل الأمير [٩٢] انها من أسوأ مراحل الامامة باليمن آنذاك ادارياً وسياسياً واقتصادياً وعلمياً واجتماعياً .

فمن الناحية الادارية كان الحكم فردياً ظالما مستبداً . ومن ذلك ان قبيلة ارحب في خلال عرض الجيش بعد صلاة الجمعة حسب عادة الأئمة مرّ أحد افراد الجيش بخيله على القبيلة ، فقتلته فاعتبر ذلك اهانة فقام بغزو القبيلة وقتل منها مائة وتسعاً وتسعين شخصاً وسجن وعذب الباقين فاستاء لهذا التصرف الشعب وكان ابنه الحسين بن القاسم اول من غضب وخرج عن طاعة ابيه ثم توسط لحل الخلاف العلامة محمد بن اسماعيل الامير ولم يعد الاّ قبل موته بيوم ولم يهتم بتجهيزه وعليه بويع لثلاثة أئمة . الأول الامام يوسف بن المتوكل اسماعيل ، والثاني الامام محمد بن اسحاق . وكان اكثر تركيزاً عليه من العلماء . والثالث الحسين بن القاسم بن حسين بويع له بعد موت أبيه باسبوع ومن ثم دخل اليمن في صراع وتجزؤ فقام بنو اسحاق بنشر الدعوة لمحمد بن اسحاق [٩٣] وانضم اليهم محمد بن الحسين بن عبد القادر بعمران . وكان عنيداً لم تخضعه قساوة القاسم بن الحسين . وكانت الحرب الضروس . ومن جانب آخر اقتطع عبد الله بن طالب حاكم قعطبة في عهد القاسم الذي لم يخضع له قام بتوسيع نفوذه الى إب وجبلة . واذا أمعنا النظر في أوضاع المرحلة السياسية في عهد الأئمة التي تعتبر مرحلة استقلال سياسي لليمن بعد الحكم العثماني الأول نجد ان الصراع السياسي كان يدفع به الوزراء والمستشارون والمنتفعون حتى اصبحت اليمن في تجزؤ وتناحر وزعامات روحية .

وقد عارض ذلك العلامة محمد بن علي الشوكاني ومحمد بن اسماعيل الامير ، وصالح بن مهدي بن علي المقبلي ، والحسن بن احمد بن محمد الجلال الذي قدم رسالة نقد للامام المتوكل اسماعيل لغزوه للمناطق الشرقية الجنوبية والعلامة عبد القادر الكوكباني الذي انتقد الامام المنصور حسين بقصيدة منها :

قالوا امامهم اسماعيل عالمهم
افتاهم بمقال فيه برهان
يقول إن جنود الترك كافرة
دانت لهم من جميع القطر بلدان
وبعدهم قد ملكناها بقولتنا
صارت الينا حلالاً بعدما بانوا
وكل شخص من الزرّاع عاملنا
عن الذي بيديه اينا كانوا
ابليس سوّل هذا والنفوس لهم
اليه رغبتها فيها لها شان [١٤]

وإلى جانب ذلك يأتي الامام المهدي العباس ويأخذ قسطاً وافراً من الظلم والقسوة وتستمر الأوضاع تدهوراً وتزداد تدهوراً ابتداء من ١١٨٩هـ . ويتسلط الوزراء على الدولة وتبرز القبائل في هذه الظروف بنفوذها باقامة امام واسقاط امام ويكون للوزراء نصيب في اقتطاع البلاد عن طريق الأمر بالمعروف فيكون احمد بن اسماعيل العلفي بصنعاء سنة ١٢٧٣هـ ، والسيد محمد بن علي الشامي ، والحيمي بالحيمه ، وعلي حسن الهمداني شيخ الباطنين بضلاع ، والامام السيد غالب بن محمد بالروضة . . وأمام هذه الأطماع اجتمع السيد حسين بن المتوكل والسيد عباس بن عبد الرحمن والسيد احمد عبد الله ابو طالب وقرروا قيام السيد غالب بن محمد بالخلافة مستنداً على شيخ الباطنية علي بن حسن الهمداني [١٥] ومن ثم انقسمت البلاد الى اقطاعيات حيث اتجه السيد عباس بن عبد الرحمن الى عمران والسيد حسين بن المتوكل الى ذمار . واتجه السيد محمد بن علي الشامي ببيت ردم .

الى جانب ان الامان في هذه الفترة لمن كان لديه مال يوزعه على الوزراء والمستشارين والعلماء لمبايعته الى جانب مشايخ القبائل ومن ذلك الامام محمد الوزير الذي نصب اماما ليلة واحدة ثم عزل صباحاً[١٦] . تلك هي المرحلة السياسية لليمن في عهد الاستقلال الى عام ١٣٢٢ حيث انفرد الامام يحيى بن محمد حميد الدين بالامامة دون منازع . وقام بالثورة ضد الأتراك وتسلم السلطة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م .

المجال الاقتصادي :

من جراء الانفلات وفساد الأوضاع واستناد الزعامة الروحية على القبائل التي عمدت الى النهب والسلب انكمشت الحركة الاقتصادية للدولة ما عدا الريال ماريا تريزا المسمى «قرش» فكان صرفه عام ١٢٦٥ أربعاً وعشرين (مائة) صرف نحاس (٩٧) الى ثلاثين مائة في عهد الامام بدر المهدى . والامام أحمد بن هاشم .

وفي ١٢٦٩هـ بلغ صرف الريال ثمان مائة صرف وجميع المصروفات ملعوب بها وكل واحد حاكم مطلق العنان ولا ذكر للمصلحة العامة بالمرة .

وفي شهر القعدة ١٢٦٩هـ رسم صرف الريال من اثنين وثلاثين مائة صرف والأولى ست عشرة أوقية بقرش فكانت المصيبة على صنعاء واهلها لعدم تنفيذ ابي احمد وازداد بلاء المجتمع وكسدت التجارة وامتلأت السجون بالسجناء ثم آل الأمر بعد اسبوع على فرق ثلاثة آلالف قرش على كل سجين وصرف ذلك بمشقة ودخل عيد النحر والناس في ضائقة من الحياة الاقتصادية .

وظلت العملة في انهيار اقتصادي حيث بلغ في شبام صرف الريال خمسمائة وخمسين صرفاً نحاسياً وفي صنعاء (خمسين مائة صرف) .

وبلغ في ١٢٧٧هـ صرف الريال اثنين وعشرين مائةصرف واستفحل الغلاء واضطربت الأمور في عهد السيد يحيى الأبيض الحيمي .

فكان لتدهور الاقتصاد اثره على اليمن سياسياً كما أثرت الحروب القبلية والصراعات السياسية على الزعامة أثرها على صنعاء بعدم الاستقرار . ففي هذه الفترة كانت الحياة الاقتصادية في تهامة اكثر نماء وتطوراً . الحديدة التي أصبحت الميناء الوحيد لليمن لوجود بعض العلاقات التجارية مع عدن وغيرها وظلت صنعاء منعزلة عن نفسها تخوض معركة المصير بحثاً عن الاستقرار السياسي والاقتصادي والاجتماعي كعاصمة لها مكانتها .

المجال العلمي :

مدينة صنعاء من الناحية العلمية غنية بالتراث الفكري والعلمي في جميع مراحلها وقد نبغ منها علماء فطاحل على مدى تاريخها الاسلامي والذي جعلها تعيش في اطار عدم استقرار العلماء للعلم والتدريس وحده . فكانت الزعامة الروحية تعكر صفو حملة العلم والفكر . وكان الصراع وما شملت المرحلة من جمود وان كان هناك من حاول الابداع ونقد الصراع المذهبي الذي كانت تعيشه صنعاء . فقد كان ذلك يواجه بالقمع من الأئمة والعلماء أنفسهم وفي إطار ضيق الى أن حرية الفكر كانت أشد حصاراً حتى جاءت مرحلة ما بعد الألف برز في مجال العلم والحرية الفكرية ومواجهة التحجر الفكري برأي حر واسع الأفق بعيداً عن التعصب المذهبي والسياسي وذلك لانفتاح العلماء بلقاءات علماء العالم الاسلامي وأكثر تأثيراً بعلماء زبيد .

لذا نجد أن الأئمة رغم زعامتهم الروحية لم يستطيعوا جذب العلماء المفكرين العاملين لمصالحهم الا من كان مشبعا بالتعصب . ومن أبرز هذه المرحلة .. أحمد بن محمد أحمد مشحم . احمد بن حسني الرقيحي أحمد بن حسين الوزان . أحمد بن صالح بن أبي الرجال . السيد أحمد بن محمد الكوكباني أحمد بن محمد بن عبد الهاقاطن السيد الحسين بن أحمد الجلال . الحسن بن اسماعيل المغربي والسيد الحسن بن مطهر الجرموزي ، السيد الحسني بن عبد القادر الكوكباني . الحسين بن يحيى السلفي. عبد القادر بن أحمد الكوكباني . عبد القادر بن أحمد النزيلي . عبد القادر بن علي المحيرس صاحب الحاشية على شرح الأزهار (تولى القضاء بصنعاء في العهد العثماني الأول . والافتاء بالمذهب الحنفي وتوفي سنة ١٠٧٧ ، عبد الله بن اسماعيل النهمي . عبد الله بن يحيى شرف الدين ، عبد الله مفتاح شارح الأزهار . عبد الله بن علي الجلال . عبد الله بن علي الوزير ، علي عبد الله الجلال ، علي بن هادي عرهب ، عيسى بن لطف الله شرف الدين . محمد بن علي الشوكاني . محمد بن اسماعيل الأمير ، القاسم بن محمد اسماعيل الأمير . ابراهيم بن محمد بن اسماعيل الأمير ، لطف الله بن احمد جحاف . محمد بن أحمد مشحم محمد بن الحسين الحوتى ، محمد بن صالح بن الرجال محمد علي الشوكاني .

صالح بن مهدي بن علي المقبلي مؤلف العلم الشامخ . الحسن بن احمد بن محمد الجلال مؤلف ضوء النهار حاشيته على البحر الزخار ، الحسن بن ابي ابراهيم الروضي .

وقد اثبتت المرحلة قوة حملة العلم الذين أبدعوا وقاوموا الحكم الامامي المتعصب في مرحلة الدولة القاسمية الأولى التي وجدت ١٠٤٥ بعد ثورة الامام القاسم بن محمد . وابراهيم صالح بن مهدي المقبلي المتوفى ١١٠٨ . واحمد بن حسين الرقيحي المتوفى سنة ١١٦٢ وعبد القادر بن علي المحيرس المتوفى ١٠٧٧ ، وأحمد محمد قاطن . والحسن بن أحمد بن محمد الجلال المتوفى سنة ١٠٧٤ .

ومن أبرز العلماء الذين غيروا مجرى تاريخ صنعاء وقاوموا الأئمة في عهد الدولة القاسمية الثانية التي ظهرت بزعامة الامام القاسم بن حسين العلامة المجتهد محمد بن علي الشوكاني . ومحمد بن اسماعيل الأمير وعبد القادر بن أحمد الكوكباني وغيرهم .

المجال الاجتماعي :

اعطتنا مرحلة الدولة القاسمية الثانية أن صنعاء كانت تعيش في تجزؤ وصراعات اقطاعية وأسرية وقبلية نتيجة الفوضى والانفلات مما أصاب اليمن من ضعف اقتصادي جعله مجتمعاً مفككاً يعيش تائهاً لا تحكمه الضوابط الحكومية مما أثر على حياة الاستقرار والهدوء بتحكم القبائل بصنعاء وتقسيمها بموجب القبيلة التي تحيط بها .

فالجزء الغربي لمدينة صنعاء تسيطر عليه قبيلة بني مطر «المعروفة ببلاد البستان .

والجزء الشمالي لمدينة صنعاء يسيطر عليه «بني الحارث» و«همدان» و«بني حشيش» .

والجزء الجنوبي لمدينة صنعاء تسيطر عليه سنحان وبلاد الروس .

والجزء الشرقي لمدينة صنعاء تسيطر عليه «بني بهلول» و«بيت حاضر» .

تلك هي صنعاء . وكان يحكمها الشيخ محسن معيض والى جانبه العقال وكان له القول النافذ ولا يرد له أمر ومن ذلك اغلاق «باب شعوب» ضد القبائل تأديباً لغزواتهم مما دعاهم الى المفاوضة مع أهل صنعاء وتقديم العقاير . وأصدر أمراً بعدم صلاة العيد بالجبانة[98] .

وفي شعوب كان زعيم آخر يدعى الدفعي مسيطراً عليه من قمة النوبة التي بناها لحماية مركزه . وكان الأئمة في صراع على الامامة وكان من أجاد جذب القبائل باسلوب الدعوة والجهاد نصب نفسه إماماً . ومنهم الامام محسن بن احمد الشهادي . والامام حسين الهادي فكان عام ١٢٧٨هـ قدوم أحمد مختار باشا الجديد . وكان الامام محسن بن احمد الشهادي محاصراً صنعاء فرأى معيض ومناصروه صد هذا الهجوم بقوة خارجية .

فقدم طلباً للوصول الى صنعاء فرحب بذلك وقرر الارتكاز على سياسة القاعدة . والزحف والانطلاق . فاتخذ الحديدة قاعدة تجمع للجيش . ومنها الزحف الى (مناخه) القاعدة الثانية فواجه مقاومة من أهل «حراز» ومن بينهم المكارمة . ولكنه صدهم بجيشه ، ومن ثم انطلق الى صنعاء فخرج لاستقباله العلماء والأعيان وعلى رأسهم السيد محمد بن أحمد الكبسي والسيد

العلامة زيد بن أحمد الكبسي . والعلامة حسين بن علي غمضان ودخل صنعاء .

فكانت سياسة وضع حد للفوضى وقمع العناصر المسيطرة على حياة المجتمع والاخلال بأمنه فقضى على الدفعي المسيطر على شعوب وهدم نوبته .

وفي ١٢٨٩ هـ قدم اسماعيل حقي حافظ وادرك ان نفوذ الدولة لا يستقر الا باسقاط معنوية محسن معيض فاعتقله ونصب مشنقته ١٢٩٩ ثم كفل عليه بعض التجار على تسليم أربعين ألف ريال وأطلق سراحه ولكنه تأثر بمرض مات على اثره ، فبادر الوالي الى مصادرة ما معه في منزله ، وبذلك الاجراء دخلت صنعاء في وضع حد من تسلط النفوذ القبلي والانفلات الا من دعوات الأئمة والحروب الدموية حتى عام ١٣٢٩هـ ١٩١١ م الذي وقع فيه صلح دعان .

الامام يحيى ـ صنعاء الثورة

تعتبر مرحلة الامام يحيى بن محمد حميد الدين مشابهة وموازية لمرحلة الامام القاسم بن محمد وان اختلفت زماناً . . وسياسة .

اولا : اوجه الشبه : الانهيار الاقتصادي باليمن . دعوة الامامة . القبلية . الادارة السيئة . الكيانات الأسرية .

ثانياً ـ أوجه الاختلاف :

تغيرات العصر . سياسياً ، وعسكرياً ، وصناعياً ، واقتصادياً . وثقافياً .

ثالثاً ـ الصراعات السياسية التركية في احزابها وبرلمانها وتجزؤ قواها المادية ، والعسكرية في الوطن العربي وثوراته . والحرب العالمية الأولى . التي أدت بدول الحلفاء الى اقتسام ولاياتها .

كانت هذه المرحلة من أهم الأحداث التي مرت باليمن تسلم فيها الامام يحيى بن محمد حميد الدين الحكم بعد الاعتراف به في مؤتمر دعان . وكان بارعاً في استخدام الاساليب للتغلب على منافسيه .

أولاً ـ تجاربه الثورية التي خاضها في عهد ابيه الامام المنصور محمد بن يحيى حميد الدين .

ثانياً ـ براعته السياسية في جذب القبائل إليه واستقراره بقفلة عذر بحاشد واستناده بالشيخ ناصر بن منجوت الأحمر .

ثالثاً ـ موضوعية طرح مبايعة الامام والتغلب عليها من الناحية العلمية التي تعد من أهم شروطها في المذهب الزيدي . فقد كان التغلب على العلماء لمبايعته الذين حضروا في منزل الأحمر لدراسة موضوع البيعة ومن يستحقها من العلماء الذين تتوفر فيهم درجة الاجتهاد وكان لديهم اكثر من اسرة بارزة في المجلس .

غير أن الاحمر أعلن رأيه للعلماء بقوله . الامام يحيى . ولا أحد سواه . والا لن يخرج أحد من الجلسة . وعليه تمت البيعة للامام يحيى وباسلوب بارع استطاع اقصاء المنافسين والشخصيات القوية في المحيط القبلي . وقادة جيشه والعلماء باذابة الشخصيات القوية باخرى أقل مكانة منها مما أثر على النفسية وتفككت القوى في الاطاحة به اذ انه استطاع ان يغير مجرى سياسة اختيار الامام . أو الدعوة لها لأكثر من امام ولما

تمكن من تسليط الأضواء على زعامته واسرته ونهج سياسة المطالبة بوحدة الأراضي اليمنية الشمالية نجران وعسير ونجازان ودخول اليمن في حرب مع السعودية وما آلت اليه من اغتصاب ردت الى اتفاقية الحدود المصطنعة ١٩٣٠م/ ١٣٥٢هـ .

أما الجنوب فكان من أبرز عوامل التخلي عن مطالبة القائد علي سعيد باشا الامام يحيى بن محمد تسلمه لمنطقةلحج والضالع في خلال قيادته التي أثبتت قدرته القيادية لأخذ مدينة الحوطة بلحج في الوقت نفسه كان الجيش العثماني يغادر اليمن ولم يعد قادراً على البقاء لما تواجه الدولة العثمانية من حروب مدمرة من الحلفاء والشعوب العربية فاعتذر الامام يحيى من استلام المناطق الجنوبية لعدم قدرته العسكرية والمادية مما أدى بالقائد علي سعيد باشا تسليمها لسلطة عدن البريطانية .

أما مرحلة سياسة حكم الشعب وتحقيق آماله ليسعد بالحياة التي بدأت تطل على العالم العربي فقد ارتكز على التالي :

اولاً ـ المجال الدولي : عقد عدة اتفاقيات سياسية وثقافية واقتصادية مع كل من الدول الصديقة كروسيا وايطاليا واثيوبيا . والعربية كالعراق ، ولكنها اتفاقيات حبر على ورق ولم يفتح اي سفارة او قنصلية .

ثانياً ـ الجهاز الاداري : لم يدخل اي جديد في الادارة لعدم استيعابه لتغيرات العصر الا ما خلفه الأتراك من نظام وما أملت عليه سياسته في بقاء اليمن يحكم حكماً فردياً استبدادياً بمنظور سياسة «الامام ظل الله في أرضه» .

ثالثاً ـ في المجال العلمي : لم يفتح أي مدرسة ابتدائية سوى كتاتيب في بعض المدن لم يكن لها طابع سياسي في العلم سوى مبادىء التعليم وبصورة غير قابلة للتطور .

اما المدارس العلمية التي تخرج منها قضاته فقد كانت المدرسة العلمية بصنعاء هي الوحيدة .

رابعاً ـ لم يعمد الى تكوين جيش حديث منظم سوى الجيش الشعبي «البراني» كقوة معارضة . وبعض كتائب تسمى شبه نظامية على النمط التركي بل مفروض عليها عدم الخروج عما يريده الامام من سياسة تجويع ونهب وسلب . وبعض شباب كان تدريبهم بالعراق ولكنهم حوربوا وجمدوا .

خامساً ـ في المجال الاقتصادي : لم يهتم بالزراعة سوى ما يقوم به المواطنون ، او ما يسمون رعايا الامام من جهود ذاتية في الزراعة وبجملة مختصرةلم يقدم أي خدمات زراعية سوى سلب ما يزرعه الفلاح عن طريق الطائفي والمراقب والكاشف . الواحد تلو الآخر ، ثم مأمور التحصيل وتنافيذ الجنود والماليات .

اما التجارة فلا تستحق ان تذكر لان كلمة تجارة لا توجد ، واذا تجاوزنا حركة ما كان يصدره اليمن من البن والجلود والحصر والحبوب ، وما يستورده من المواد كالسكر والارز والدقيق والملابس في اطار محدود يغطي الاحتياجات الثانوية لاعتماد الشعب على انتاجه من الحبوب والقمح ، وصناعته اليدوية البدائية ، كالحياكة والحصير ، والخزف ، ومختلف الصناعات اليدوية الاخرى كالاحزمة والأحذية والخناجر والصيغ الفضية ، والذهبية ، ومواد البناء الوطني . ومن أغرب ما كان يستعمله اليمن من صناعته «سكر نبات»

الذي يصنعه من قصب السكر الذي يزرع بالوديان الخصبة بالمنطقة الوسطى كان يصنع على شكل اقراص يستخدمه اليمنيون في القهوة .

وكانت تجارة التصدير والوارد لأشخاص يعدون بالأصابع بالاضافة الى وكلاء الامام يحيى وابنائه . والأهم من ذلك عدم المواصلات البحرية والبرية .

تلك مرحلة اليمن الجديد . وهذه صنعاء ترى هل استسلمت لواقع الصراع السياسي الامامي والقبلي . والانعزال الداخلي والخارجي ؟

الجواب هنا . . لم تستسلم للواقع المرير والمؤلم ، ولم تتخل عن الصراع ، ولكن صراعاً سياسياً باسلوب العصر . وسياسة العصر ، ونظرياته ، وفقاً لواقع اليمن .

أولاً ـ تكونت هيئة الأمر بالمعروف من كبار علماء اليمن وفقاً للنص القرآني : «ولتكن منكم أمة . . » الآية قدمت النصح للامام يحيى بن محمد حميد الدين شفاهاً وخطياً للعمل بما جاء في القرآن . وما أمر به عليه الصلاة والسلام . واختيار العمال والحكام الاكفاء الشرفاء وعدم ارهاق الشعب بالمظالم وتكوين مجلس للشورى ، ولكنها لم تجد قبولاً .

ثانياً ـ الجمعية اليمنية الكبرى ـ تكونت هذه الجمعية سنة ١٣٦١هـ ١٩٤٢ من خيرة رجالات اليمن بعد هيئة الأمر بالمعروف ، وكان اعضاؤها بالداخل وبعدن ينشرون ما يصل اليهم من الاعضاء المناهضين داخليا .

وكان اليمن قطاعاً خاصاً . الامام يحيى بصنعاء خليفة الله في ارضه ، واحمد في تعز . وامره نافذ على جميع انحاء اليمن ، عبد الله بن يحيى بالحديدة الحسن بن يحيى بإب . وبقية ابناء الامام يحيى وزراء ما عدا حسين بن عبد الله العمري وزيراً خاصاً ، فكان للجمعية اليمنية اثرها على الحكم فكان نضالها باسلوب العصر لم تنصب اماما ولا تؤلب القبائل . فكان اسلوبها غزو الفكر اليمني وتغيير ما لبّد فكره من قدسية الامامة ، والمطالبة بالاصلاح الاداري بلغة العصر واسلوبه . فاهتز الامام وابناؤه لهذا الحدث الذي بدأ العالم الخارجي ينشر عنه في الصحف ويذيعه في الاذاعات ، فقام بحملة اعتقالات سنة ١٣٦٣هـ ولأول مرة عرفت الامامة لغة السياسة والسياسيين ، ولكن باسلوبها التقليدي ، ناهبي ، باغي ، عصاه . هذه بداية يقظة النضال اليمني وأول مسمار يدق في نعش الامامة باحداث العصر وسياسته ونضاله .

ثالثاً ـ الاتحاد اليمني ـ وكان هذا الاتحاد حزباً شمل الفئات اليمنية الشابة استقر بعدن واخرج القضية اليمنية من المحيط اليمني الى المحيط العربي .

فكان الفضيل الورتلاني الجزائري الذي قدم اليمن ودرس الاوضاع عن كثب واعطى الامام يحيى رأيا صحيحا عن حياة العصر وتطوره وكيفية الخروج من العزلة والاستعانة بالخبراء المسلمين والعرب في بناء اليمن الحديث وطلب منه الموافقة في ايجاد شركة تجارية عينية مبدئية فوافق على ذلك مع اخذ رأي ولي عهده احمد بن يحيى وتقديم تقرير شامل للمطالب وكيفية طرق الاصلاح ، وعليه جد الفضيل الورتلاني في اقناع احمد وتقديم القرار الشامل والاكتتاب في الشركة اليمنية التجارية المساهمة ، وكان مرافقاً له القاضي السيد حسين

الكبسي ووراءهما مراقبون سريون فكان الورتلاني رغم ما لاقاه من متاعب وامراض مجداً بحدوه الأمل في انجاح المهمة بناء على ما لمس من الامام يحيى وابنه احمد من وعود في تنفيذ مطالبه . وكان الكبسي يهدأ من اتعابه وارهاقه بالا يكون شديد الاسراف في الأمل . وليست المواعد الآ سراباً اجاد الامام يحيى وابنه احمد اساليبها .

وامام هذا الاخلاص والحب قدم الورتلاني التقرير الشامل في الاصلاح وقدمه للامام فاعجب به وطالعه ، واحتفظ به في سلة الاهمال . وكان طعمة للنار .

فكان الرد مضاعفة الرقابة عليه والكبسي بدار الضيافة وخارجها ، وأخيراً قرر العودة الى القاهرة .

رابعاً ـ الدستور . . والشورى . . تحقيقاً لارادة التغيير قرر الاحرار اليمنيون صياغة ميثاق وطني واسموه «الميثاق الوطني المقدس» للحركة والعمل به بعدها وتحديد سياسة الدولة ، وان تكون دستورية شوروية . وتوزيع السلطة الى اربعة اقسام : الامام السلطة الفعلية المطلقة ، رئيس الحكومة واعضاؤها المجال التنفيذي ، مجلس الشورى وتحديد اختصاصاته ، المحافظون .

خامساً ـ السياسة الداخلية ـ والخارجية

أ ـ يتضمن الميثاق الوطني المقدس في المجال الداخلي ، اذابة الفوارق المذهبية ، والسلالية ، والاجتماعية والاقليمية في اطار الوحدة اليمنية ، وتحطيم العزلة الرهيبة ، وبناء اليمن اقتصادياً وثقافياً وعسكرياً .

ب ـ وفي المجال العربي ـ تحطيم السور الحديدي ، وربط علاقات قومية مع الدول العربية سياسياً وثقافياً واقتصادياً وعسكرياً .

ج ـ وفي المجال الدولي ، احترام المواثيق الدولية ، واحترام سيادة الشعوب ، وفتح السفارات والاستفادة من الخبرات السياسية والعلمية .

كان ذلك تحولاً تاريخياً ليمن جديد غير مجرى تاريخ الصراع على الامامه المرير لما بعد الالف واعطى لليمن حق اختيار السلطة في اطار الدستور والشورى :

اتفق رجال المنظمات السياسية على هذا الميثاق المقدس وحدد اختصاص اعضائها سواء كانوا بداخل اليمن أو بخارجه ، وسواء كانوا من خلصاء الامام يحيى أو أعدائه .

هذه مرحلة اجتمعت فيها الأراء كاملة للتخلص من حكم الامام يحيى وابنائه الآ أن النضال الثوري والوعي السياسي كان محدوداً في اطار المنظمات العامة من الشعب اليمني لعدم انتشار الوعي ، وعدم تجاوزه صفوف الشعب بكل فئاته وذلك نتيجة لعاملين :

الأول ـ هيمنة الامام يحيى ونفوذه الروحي واحاطة الشعب بسور من العزلة والخوف والجهل .

الثاني ـ لم تكن المنظمات السياسية ذات قدرة مادياً وبشرياً ، وسياسياً لتعبئة الرأي العام الشعبي المنغلق والالتصاق به ، فكانت الحركة السياسية غير كافية لتغيير فكرة الامامة من العقلية الاجتماعية اليمنية لذا فقد كان الاحرار اليمنيون اكثر اتصالاً بالخارج من عرض القضية اليمنية ولم يكن لهم رصيد اجتماعي ، وكان هناك من يشكك

في حركتهم من الفئة البارزة الملتصقة بهم ، وبالامام يحيى ولم تؤمن بهم ولم يزد الحركة فعالية لدى الواعين من الشعب الأ بعد خروج سيف الاسلام ابراهيم عن طاعة ابيه ، وانضمامه الى حركة الاحرار فرحب به كعضو فعال ذي اهمية وسمي بسيف الحق ومن ثم شعر الاحرار بمكان من القوة .

حركة لا ثورة :

قبل ان ادخل في ١٩٤٨ اود ان اشير الى ان البعض من الأدباء والمؤرخين يطلقون عليها ثورة ـ والبعض حركة والحقيقة انها حركة لا ثورة للاعتبارات التالية :

أولا ـ الثورة هي التغيير الجذري لكل ما هو معوق لمسيرة الشعب سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا وعلميا . ووضع نظام ثوري تقدمي بديلاً عن النظام المتخلف وبناء مجتمع جديد .

ثانياً ـ الثورة : ثورة جماهيرية يلتف حولها الشعب من جميع فئاته وطبقاته .

أما ١٩٤٨ فلا تعتبر ثورة فهي حركة اصلاح ، وانقلاب بازاحة امام ووضع امام ، وانهاء اسرة وتركيز اسرة . وهذا ما حدث عندما شعر الامام يحيى قبل الحركة بنبأ أذاعته لندن بوفاة الامام يحيى وتولي عبد الله بن احمد الوزير الامامة خلفاً له فاستاء الامام يحيى واستدعى الوزير فأنكر وحاول بكل الأساليب تكذيب النبأ وابرق لولي العهد احمد بن يحيى هذه البرقية (١٠٠) :

مولانا ولي العهد ايدكم الله . . تعز

قد سمعتم خرافات المخذولين المارقين المخادعين الماكرين خيّب الله آمالهم واخزاهم واقمأهم وقد كذبوا وشهد على كذبهم الله والناس أجمعون بما اخبروا به من وفاة مولانا امير المؤمنين أيدهم الله وهم بمن الله متمتعون بكامل الصحة والعافية قائمون بأمور الأمة في كل حين ، ثم كذبوا باجتماع ممثلي الشعب الذي هو عن آخره تحت ارادتكم وسيكذبهم كل عاقل فأينهم واين الشعب ؟ وكم المدة بينه وبين الكاذبين ؟ واين المواصلة التي يمكن ان تجمعهم ؟ «انما يفتري الكذب الذين لا يؤمنون بآيات الله» ولعل الذي جرأهم على كل ذلك هو خيبة آمالهم وانقطاع كل ما كانوا يؤملونه ، وانه سوّل لهم الشيطان وانفسهم الخبيثة ، انه سيكون لذلك أي أثر أو وحشة يريدونها فكانت تسويلاتهم وبالاً عليهم وخزياً الى خزيهم . (ورد الله الذين كفروا بغيظهم لم ينالوا خيراً) والحمد لله رب العالمين والسلام عليكم ٧ ربيع الاول سنة ١٣٦٧هـ .

المملوك

عبد الله الوزير

ولكن احمد لم يعر الموقف اي اعتبار لما يعرف من أن سياسة إبدال إمام بإمام لم تكن عن طريق الخارج من المذياع ، وانما عن طريق القبائل والعلماء ، وهذا الأمر لم يصل اليهما ، وانما من مجموعة قليلة وامام ما أذيع في لندن قام الاحرار بالمبادرة باختيار عبد الله الوزير إماماً كبديل للامام احمد وحينئذ خطط الاحرار للحركة ما يلي :

أولا ـ اختيار عبد الله بن احمد الوزير إماماً ومبايعته فوراً .
ثانياً ـ المبادرة بقتل الامام يحيى بصنعاء .
ثالثاً ـ الاعتماد على عنصرين هامين من رجالات اليمن في اطار الحركة : الأول : محمد بن محمد باشا عامل تعز . . الثاني : حسين عبد الله الحلالي نائب الحديدة ان اوكل الاحرار اليهما قتل احمد بن يحيى ، فالأول اسند اليه عدم خروجه من تعز . وان خرج فالأمر للثاني الحلالي عدم السماح له بالمرور الى حجة وقتله . لان وصوله الى حجة خطر على الحركة في اثارة القبائل ومساعدة السعودية له .

وعليه قامت الحركة بهذا المخطط ان تصدى للامام يحيى في ٧ ربيع الثاني سنة ١٣٦٧هـ ـ ١٨ فبراير سنة ١٩٤٨ اثر خروجه الى قرية حِزْيَزْ جنوب صنعاء مع حفيديه ووزيره حسين بن عبد الله العمري العضو البارز في الحركة ونسب حسين الحلالي نائب الحديدة وصديق محمد بن محمد باشا وكان قد اعد الاحرار سيارة لوري مغطاة بطربال عليها مدفع رشاش وجنود برئاسة (القردعي) فوقفت منتصف الطريق وفي حال مرور سيارة الامام يحيى اطلقت النار عليها فخر قتيلا ومن معه .

من هذا الحدث خلا الجو للامام احمد للانتقال من تعز الى حجة وتخلى محمد محمد باشا عامل تعز عن التزاماته . وتخلى الحلالي ايضا بل مهد السبيل لاحمد ومده بجيش يحافظ عليه عند وصوله زبيد صداً لبعض رجال الحركة الذين تأهبوا لمطاردة احمد وهم محمد مكي زكري ورافقاه براً . والخادم غالب وزيد الموشكي جواً على الطائرة مضافاً الى ذلك اصرار الخادم غالب على ان يكون الموشكي نائبا للحديدة عندما شعر بحركة الحلالي ضد الحركة .

فكان لهذا الموقف أثره على الحركة وبالتالي تحصنه بحجه مما سهل له اثارة القبائل ومد المال والسلاح وبدأ رجال الحركة يتوافدون الى صنعاء فأعلنوا الميثاق والدستور وكونوا الحكومة ، ومجلس الشورى ، ولكن الأمر لم يستقر لما قام به احمد من سبق في جميع القبائل واثارتهم . وبدأ الزحف يطوق صنعاء مما اضطر الامام عبد الله بن احمد الورير واعضاء الحركة الى ان يرسلوا نداءاتهم للجامعة العربية في المساعدة واستطلاع رأي الشعب في اختيار حكامه ، وكان موقف الملك عبد العزيز معارضا فاوقف وفد الجامعة العربية للاستطلاع برئاسة عزام باشا والتشاور معه بالرياض وكان في الوقت نفسه يرسل الامدادات للامام احمد . وفي موقف حاسم لصنعاء بعث الامام الوزير وفداً مكوناً من الفضيل الورتلاني ومحمد محمود الزبيري ومحمد محمد الوزير الى الرياض لاستنهاض وفد الجامعة العربية بسرعة الوصول الى صنعاء فاصر الملك عبد العزيز على عدم الوصول وموبخاً الوفد على قتل الامام يحيى واعلن لهم ان صنعاء قد سقطت وفعلا استطاعت القبائل الدخول الى صنعاء واسر رجال الحركة والامام .

وسلبت ونهبت ممتلكات المواطنين بصورة ابشع من حركات الأئمة السابقين ووصم رجال الحركة ، والدستور بالكفر والخروج عن الاسلام .

حركة ١٩٤٨ ـ وأثرها في تغيير المجتمع اليمني :

الحقيقة ان حركة ١٩٤٨ أضفت على الامام احمد هالة من العطف والاتصال والمساعدة بسبب قتل الامام يحيى ، وكان المفروض ان الامام عبد الله بن احمد الوزير سيكون خلفاً له بعد موته . ومن الملتزمين له بذلك الملك عبد العزيز بن سعود ، فكان ذلك كسباً لاحمد لان حركة انقلاب بقتل مباشر باليمن له اثره على شبه الجزيرة العربية ، والبلاد العربية التي بدأت تشهد الاحداث السياسية والثورية والانقلابية نتيجة لتغيرات الأحداث بالوطن العربي والاسلامي :

الحدث الأول ـ هزيمة الجيوش العربية في حرب فلسطين سنة ١٩٤٨ واغتصاب الصهيونية لفلسطين .

لحدث الثاني ـ ثورة مصر سنة ١٩٥٢ م .

الحدث الثالث ـ انقلاب الدكتور مصدق ١٩٥٣ م بايران وتألب القوى الامبريالية على فشله واعادة الشاه فكانت يقظة في تحول الفكر اليمني وخروجه من اطار السور الحديدي المفروض وتعبيراً عن مطالب الشعب اليمني في بناء مستقبله وخروجه من العزلة الرهيبة . وكان من اهم العوامل المساعدة للتغيير :

أولا ـ سياسة العصر ـ وصناعاته ـ وثقافته .

ثانياً ـ ثورة ١٩٥٢ التي كانت العامل الأهم لليقظة العربية واسقاط الحكم الملكي بمصر وفتح المشرق العربي للعالمين الشرقي والغربي وصراعاته السياسية والعسكرية والثقافية والصناعية والتكنولوجية .

ثالثاً ـ اصرار الامام احمد على سياسة الانغلاق والقمع والارهاب وعدم تقبل أي جديد .

رابعاً ـ التجاء الأحرار اليمنيين بمصر ومساعدتهم في نشر الحقائق عن اليمن المنغلق وكشف سياسة الظلم والفقر والجهل والمرض والسجن والارهاب والمغالطة من الزعيمين المناضلين القاضي محمد محمود الزبيري والاستاذ احمد محمد نعمان من صوت العرب بالقاهرة . فكانت هذه الفترة من اخصب فترات النضال والصمود والتحدي اعطت جيل ما بعد ١٩٤٨ الثقة في تغيير الواقع المشين اذ ان الامام احمد رغم تفتحه عن ابيه ، ورغم ان عصره يختلف عن عصر ابيه ، ورغم فتحه لبعض السفارات للشرق والغرب ، واعتزازه بشخصيته كيمني وخوضه اعنف المعارك الحربية لتوحيد الارض اليمنية الشمالية سنة ١٣٥٢ هـ ومطالبته بتحرير الجنوب في المؤتمرات الدولية وعدم انتمائه لأي معسكر لحنكته السياسية وقيادته البطولية . لهذا كله كان شديد التعصب لفقر اليمن وجهله وتشريد أبنائه وشديد الكره لكل جديد ظالماً متخلفا سفاكا للدماء .

هذه من أهم العوامل التي ايقظت الصحو . مضافا الى ذلك التطوير الصناعي بالعالم والتجدد الفكري القادم عبر المذياع والصحف والمجلات .

لهذا دخل اليمن في ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى ـ حركة ١٩٥٥م .

المرحلة الثانية ـ انتفاضة (١٩٥٩) و (١٩٦٠) و (١٩٦١) .

المرحلة الثالثة - ثورة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢م .

وكما هو ظاهر من مجريات الأحداث المعايشة والمقروءة ان المرحلة الأولى جاءت نتيجة الفقر والجهل والظلم والعداء والكراهية والتفرقة المغروسة في الشعب . اذ ان اسبابها حادثة (الحوبان)بتعز حين خرج نفرمن الجنود النظاميين للاحتطاب من املاك المواطنين فقاموا بمنعهم فحدث القتال . فعاد الجند الى العرضي يستنفرون «الخبره» - الجيش لقتال (قرية الحوبان) فوقف المقدم احمد الثلايا واثناهم عن مطلبهم ووضع امام اعينهم العدو الاول الذي سبب هذه الحادثة وهو الامام احمد الذي جعلهم يغتصبون املاك المواطن وقتله . وعليه اتفق على إعلان الانقلاب على احمد ومحاصرته بقصر العرضي واستدعاء رجالات اليمن من علماء ومشايخ ومفكرين سياسيين لعقد اجتماع تقرر فيه تنازل الامام احمد لأخيه عبد الله الذي كان آنذاك وزيراً للخارجية ، فكان احمد لبقاً كتب وثيقة التنازل تهدئة للموقف ومن ثم وجدت معارضة الأحرار لعبد الله لمعرفتهم بميله السياسي لأمريكا . فتكون وفد برئاسة احمد محمد نعمان الى سيف الاسلام البدر محمد بن احمد بالحديدة لاقناعه لمبايعة محمد عبد الله . وهنا أتاحت الفرصة للنعمان في انهاء الاسرة بعضها بعضا فاستنفر البدر الى حجة لطلب النجدة لفك الحصار عن والده .

ومن جانب ثان عمد الامام احمد الى اظهار الاستسلام في الوقت نفسه حشد مخلصيه لتوزيع الذهب لمن له ثقل في الجيش ومشايخ القبائل المجاورة بتعز . وما هي الآ سبعة ايام حتى تحول الحصار عن الامام الى ضرب الثكنات العسكرية الموالية للمقدم احمد الثلايا ، وخرج الامام احمد راكباً فرسه شاهراً سيفه في ساحة ميدان عرضي تعز وأمر باعتقال أخيه الامام الجديد عبد الله ، والقاء القبض على الثلايا ورفاقه. وارسل لأخيه سيف الاسلام العباس الذي اعلن نفوذه بصنعاء مؤ يداً لأخيه عبد الله الى جانب سيف الاسلام الحسن سفير اليمن بالامم المتحدة المرشح نفسه للامامة بعد اخيه احمد المعارض لسيف الاسلام البدر فاعلن تأييده لاخيه عبد الله وعليه ارسل اخويه عبد الله والعباس الى حجة وأعدمهما ، وألقى القبض على الثلايا ورفاقه الضباط والقضاة الذين طلبوا منه التنازل واعدمهم بتعز واستقر له الامر . هذه حركة ١٩٥٥ اما آثارها فقد جاءت بتحولات سياسية هامة .

أولاً - عقد حلف ثلاثي بجده سنة ١٩٥٥ بين اليمن والسعودية ومصر .

ثانياً - الانفتاح السياسي نحو الشرق كرد فعل للغرب حيث قام سيف الاسلام البدر محمد بزيارة الى تشيكوسلوفاكيا وروسيا لشراء صفقة الاسلحة وعقد اتفاقية اصلاح ميناء الحديدة وطريق الحديدة تعز .

واتجه الى الصين الشعبية لعقد اتفاقية اصلاح طريق الحديدة - صنعاء ، ومصنع الغزل والنسيج بصنعاء الى جانب طريق تعز صنعاء ترابياً بطلب من النقطة الرابعة الامريكية .

ثالثاً - اخذ البيعة للبدر محمد بن احمد اماما بعد ابيه بعد افراغ القوى المعارضة له .

رابعاً - الوقوف مع الركب العربي في سياسة

التحرر وتأييد مصر في معركة ١٩٥٦ ضد العدوان الثلاثي .

خامساً - الانضمام في اتحاد الدول العربية سنة ١٩٥٨ مع الجمهورية العربية المتحدة (مع مصر وسوريا) ومعارضة اتحاد الجنوب العربي الذي وضعته بريطانيا بضم امارات الجنوب اليمني .

سادساً - رفض مشروع ايزنهاور الهادف الى سد الفراغ بالشرق الاوسط كرد فعل لمخططات امريكا لليمن .

كانت هذه نتيجة حركة ١٩٥٥ تحولاً تاريخياً وتكميماً للأحرار ولم ينفذ منها الا ميناء الحديدة وطريق الحديدة صنعاء . وطريق تعز صنعا وصفقة الاسلحة الروسية التشيكية .

وعليه اتاحت مصر للنعمان والزبيري مواصلة كشف الحكم ومغالطاته السياسية من صوت العرب مما دعا الامام احمد أن هدد جمال عبد الناصر اذا لم يوقف الحملات من صوت العرب ضده سوف ينضم الى حلف بغداد .

اما المجال الداخلي : لم يغير من سياسة الخوف والجوع والظلم والتشرد والقهر اذ اعطت هذه الاحداث وعياً سياساً وثقافياً في اليمن حولت فكرة الخوف الى مواجهة إمامية حيث قامت عام ١٩٥٩م انتفاضة قبيلة خولان بتمرد علني صدها بالطائرات الروسية .

ثم تلاها انفجارات شعبية وقبلية وعسكرية ان قامت قبيلة حاشد برئاسة حميد بن حسين الاحمر بحركة انقلابية للاطاحة بحكم ولي العهد البدر محمد بن احمد سنة ١٩٦٠م اثر مغادرة الامام احمد للتداوي بروما بدخوله صنعاء في خمسة آلاف قبلي . ولكن البدر استطاع تهدئتها باعلانه فساد حكم ابيه واصلاح الوضع واصدر قراراً بتكوين مجلس نيابي برئاسة احمد السياغي وعليه فسرت حركة الاحمر باقامة جمهورية ثم تلاها حركة الجيش - برئاسة شرف المسروني في كل من صنعاء وتعز ضد الحكم الفاسد .

وعلى اثر هذه الاحداث قدم الامام احمد من روما والقى خطاباً بالحديدة تحدى فيه الشعب بقوله : (هذا الفرس وهذا الميدان ، ومن كذب جرب) . واعدم حسين الاحمر وابنه حميد ومن انضم اليهما من المشايخ . وكذلك اعدم وسجن قادة حركة الجيش واستقر بالسخنة تابع الحديدة . واتهم القاضي احمد السياغي أنه زعيم الجمهورية القحطانية مما دعاه الى الالتجاء ببيحان فكانت هذه المرحلة من أصعب المراحل أعطت الثقة للشعب في استمرار النضال بوعي وادراك ومغامرة شملت ثلاث مراحل :

المرحلة الاولى - حركة الضباط الثلاثة بمستشفى الحديدة .

المرحلة الثانية - المظاهرة الطلابية والعمالية بصنعاء وتعز .

المرحلة الثالثة - ثورة ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢ .

المرحلة الاولى - بدأت من التنظيم السري للجيش ومجموعة من المفكرين الذين كانت لقاءاتهم من خلال الحركة الثقافية التي غزت اليمن بالعنف عن طريق الصحف والمجلات والمذياع ومناقشة الأحداث في مقيل القات رغم الجو الرهيب . ولكن المرحلة كانت فوق مستوى

الارهاب والخوف والاختناق . فالشعب كل الشعب يرقب الفجر .

وفي خلال نشوة احمد باقصاء براكين الثورة بما كان يسميهم المخذولين اعداء الاسلام . كان الشعب يتأجج حقداً وكراهية ويخطط بأي اسلوب لانهاء حكم الامام ، في هذه الفترة تقدم سعيد فارع احد اعضاء التنظيم السري المدني عن طريق شخصيات مدنية لتسهيل مهمته بالسخنة لوضع الغام للقضاء على الامام . غير ان الامر اكتشف واسر المذكور وعذب ثم قتل خلال محاولة فراره من سجن حجه .

ومن خلال ما قام به سعيد فارع تحملت الطلائع الشابة بالقطاع العسكري مسؤولية المواجهة المسلحة حين كان رئيس حرس عكفة الامام احمد علي مانع مريضا بالمستشفى على اثر حادث اصطدام سيارة الامام احمد بكيلو ١٦ من رمضان ١٣٨١هـ/ ١٩٦١م بمصفحة الحراسة . كان لوجود علي مانع بالمستشفى فرصة لقاء الملازم عبد الله اللقيه ضابط الميناء والملازم محمد العلفي ضابط المستشفى الى جانب الملازم محمد الهند وانه الذي انضم اليهم فكانت الفرصة لاستدعاء الامام احمد لزيارة رئيس حرسه وحدد الوقت بعد صلاة العشاء . ومن ثم تأهب الضباط باجراء الترتيبات اللازمة عندما قدم الامام الى المستشفى وطلب منه عدم دخول الحرس بالمستشفى خشية ازعاج المرضى ليلاً فوافق على ذلك ودخل معه بعض مرافقيه من المدنيين وبينما هو في الممر الثاني للمستشفى اطفئت الأنوار واطلق عليه النار فخر صريعاً بالأرض وظن الضباط انه قد انتهى ، وفي حينه قدم الاطباء وجسوا نبضه فوجدوا ان فيه بقية حياة فبذلوا قصارى جهودهم في المعالجة فقرروا نقله من الحديدة الى تعز وفيها شعر بمرارة النضال وصمود الشعب فقال بمرارة والم :

ماذا يريدونها لادردرهم

ان الخلافة لا يطوى لها علم

وظل يعاني من الام الجراح ومرارة الثورة وبركان الشعب الى ١٨ اغسطس سنة ١٩٦٢م .

المرحلة الثانية :

وهي مرحلة الانفجار وفيها ظهر وجه جديد على المسرح السياسي في مصر استغل خلاف جمال عبد الناصر والامام احمد على عدم تنفيذ بنود الاتحاد واعتباره ملغياً. برزت تعليقات من صوت العرب وكانت تسير على نمط مألوف لم تأت بجديد ولم توقد شمعة . ولكنها جاءت عن دوافع سياسية ، لان الوعي الشعبي قد بلغ منتهاه وجيل الثورة يعد نفسه لثورة عارمة فكان ١٨ اغسطس سنة ١٩٦٢ انفجاراً طلابيا هائلا فيه خرج طلاب مدارس صنعاء في موكب مهيب في مظاهرة صاخبة وحماس منقطع النظير مرددين نشيد «نحن فتيان الجزيرة» ، و «الهتاف بالجمهورية» ، «وسقوط الحكم الامامي الرهيب» .

التفت حولهم الجماهير الشعبية رجالاً واطفالاً ونساء مخترقين شوارع صنعاء فحاول البدر محمد بكل الوسائل اخمادها فلم يستطع الى ما بعد الظهر عاد الطلاب الى المدارس وعليه امر الامام احمد قمع هذه المظاهرة بالقوة وسحب زعماء الطلاب .

وفي ٢٢ اغسطس سنة ١٩٦٢ اندلعت مظاهرة طلاب تعز وكانت مماثلة لطلاب صنعاء بل كانت اشد تحدياً لأنها خرجت من تعز الى مقر الامام

احمد العرضي ومن ورائهم العمال باناشيد ثورية اهتز لهذا الحدث الامام احمد وذرفت عيناه بالدموع .

ثم عادوا الى المدرسة واعتصموا بها ثلاثة ايام قطع عنهم الماء والطعام واحيطت المدرسة بالحراسة . غير ان القاضي عبد الرحمن الارياني تولى تهدئة الموقف وبكل جهد استطاع فك الحصار وتزويد الطلاب وخروجهم من المدرسة تهدئة للموقف واعتقل منهم الكثير .

فكانت هذه المرحلة مؤشراً للثورة اعطت الصورة النضالية والفدائية في تحقيق الارادة . وظل الامام احمد يتجرع غصص المرارة من جروح العلفي واللقية ، والمظاهرات الطلابية الى ١٨ سبتمبر سنة ١٩٦٢ طويت آخر صفحة للامامة باليمن بوفاته وشيع جثمانه على الطائرة ودفن بصنعاء . وبويع البدر محمد بن احمد حميد الدين إماماً خلفاً لأبيه وعلى ذلك اجتمعت العناصر الشابة القبلية والسياسية بصنعاء لغرض التعزية والتهنئة واستقراء الموقف السياسي . واعداد خطط الثورة ، فكان يوم الخميس ٢٦ سبتمبر سنة ١٩٦٢م يوماً فاصلاً بين ماض مظلم ، وفجر اضاء في سماء اليمن مستقبل اليمن الجديد : يمن الثورة ، والوحدة .

المرحلة الثالثة ـ ٢٦ سبتمبر . . ومرحلة الصمود . .

كانت الثورة تعبيراً صادقاً تقبلها الشعب اليمني بكل فئاته فخرج مؤيداً ومناصراً في مظاهرات شعبية حاملاً السلاح لحمايتها وطوى اليمن صفحة الامامة واقتلع آخر جذورها المنهارة الواهية الامام البدر محمدبن احمد فلاذ بالفرار نحو القبائل الشمالية الغربية بحجه فلم يجد من يستقبله ويناصره بل ودعته بسلام حتى ظهر بعد خمسة عشر يوماً بالاراضي اليمنية عسير .

وكانت الكويت ، ومصر من اول الدول التي أيدت ووقفت مع الثورة فالكويت بذلت المال والمشاريع العلمية والصحية والتأييد السياسي .

ومصر وقفت بجيشها وعتادها وعلمائها ومدرسيها ومفكريها مع اليمن لصد الاعتداء وكانت الثورة الجزائرية مؤيدة ومناصرة لثورة اليمن . وكانت روسيا اولى الدول التي وقفت مع اليمن ومدته بالسلاح والمساعدات المادية والسياسية . وكانت الصين الشعبية شعبا وحكومة تخوض بناء اليمن بصمت وشرف . وبصمود اليمن ضد اعدائها انتشر دعمها الدولي فأيدتها وساعدتها الشعوب المحبة للسلام والخير والحرية .

تلك صنعاء اليمن كل اليمن : حاملة النضال ، والثورة ، والنصر ، والبناء ، والتجدد ، عاصمة الثورة . والوحدة ، والحكم المركزي .

زبيد ١٣ رجب سنة ١٤٠٢ـ ٦/ ٥/ ١٩٨٢

عبد الرحمن عبد الله الحضرمي

---

(١) فرجة الهموم . . الواسعي ص ٢٩

(٢) ، غاية الاماني في اخبار القطر اليماني ، ص ٦٤ . يحيى بن الحسين بن القاسم .

(٣) اسد الغابة جزء (٥) ص ٨٣ .

(٤) الرازي :

(٥) مساجد صنعاء محمد بن احمد الحجري
(٦) مساجد صنعاء ـ الحجري
(٧) المصدر نفسه
(٨) ، تاريخ اليمن الاسلامي في القرون الثلاثة الاولى بعصر الولاة ، الدكتور محمد امين صالح ص ٤٨
(٩) المصدر السابق (ص ٧٤)

١٠ ـ تاريخ اليمن السياسي محمد يحيى الحداد ص ١٤٩ ـ ١١ ـ مجلد ٢ ج ٣ ص ٢١٨ و ٢٢٠ ملخص .
١٢ ـ محمد يحيى الحداد ص ١٤٦ ـ (١٣) «اليمن الانسان الحضارة» عبد الله الشماحي / ص ٧٩
١٤ ـ تاريخ اليمن الأسلامي ـ دكتور محمد امين صالح ص ١٥ .
١٥ ـ «الدم وأغصان الزيتون» علي بن علي صبره .
١٦ ـ «دراسة التاريخ والتراث العربي» حمود العودي ص ١٢٨
١٧ ـ «دراسة التاريخ والتراث العربي» حمود العمودي ص ١٣٠ مستنداً ذلك إلى الدكتور الحديثي في كتابه «أهل اليمن في صدر الاسلام»
١٩ ـ تاريخ اليمن الاسلامي الدكتور محمد امين صالح ص (١٠١)
٢٠ ـ المصدر السابق .
٢١ ـ شعراء الفتوح الاسلاميين النعمان عبد المتعال القاضي ص (٤٤) .
٢٣ ـ «المخلاف السليماني» .. محمد أحمد العقلي قسم أول من الجزء الأول (ص ٦٨) : تاريخ المخلاف السليماني .

٢٤ ـ «ادوار التاريخ الحضرمي» محمد احمد الشاطر ج (١) ص ١٢٠
٢٥ ـ «أدوار التاريخ الحضري محمد احمد الشاطر ج (١) ص ١٢١
٢٦ ـ المصدر السابق
٢٧ ـ المصدر السابق
٢٨ ـ المخلاف السليماني محمد احمد العقيلي قسم أول من الجزء الأول (ص ٦٧)
٢٩ ـ المخلاف السليماني ص ٦٧ ـ ٣٠ تاريخ اليمن السياسي الحداد ص ١٦٢
٣١ ـ المصدر السابق الحداد .
٣٣ ـ تاريخ الاحقاف محمد علي باحنان ص ٨٤ ج (٢) .
٣٤ ـ جواهر الاحقاف محمد علي باحنان ص ٨٤ ج ٢
٣٥ ـ المخلاف السليماني القسم الاول من الجزء الأول محمد احمد العقيل .
٣٦ ـ المصدر السابق .
٣٧ ـ ادوار التاريخ الحضري محمد بن احمد الشاطر ج (١)

٣٨ ـ المصدر السابق
٣٩ ـ المصدر السابق
(٤٠) ، مصادر الفكر الاسلامي ، عبد الله الحبشي
(٤١) ، مصادر الفكر الاسلامي ، عبد الله الحبشي
(٤٢) ، مصادر الفكر الاسلامي ، عبد الله الحبشي
(٤٣) ، العقود اللؤلؤية ، الخزرجي ج (١)

٤٤ ـ المخلاف السليماني القسم الأول من الجزء الأول ص ٢٦٥
٤٥ ـ المخلاف السليماني القسم الأول من الجزء الأول ص ٢٤٥
٤٦ ـ الفتح العثماني الأول الدكتور سيد سالم ص ٤٢ و ٤٣
٤٧ ـ الفتح العثماني الأول الدكتور سيد سالم ص ٤٢ و ٤٣
٤٧ ـ يعرف هذا السد بمعقم الخلاد
٤٨ ـ «بغية المستفيد في أخبار زبيد» للربيع . والدكتور سيد مصطفى سالم . «الفتح العثماني الأول» ص ٤٠
٤٩ ـ الدكتور سيد : «الفتح العثماني الأول» ص (٤٣)
٥٠ ـ الدكتور سيد «الفتح العثماني الأول» ص (٣٥) .
٥١ ـ المصدر السابق ص (٤٥)
٥٢ ـ الدكتور سيد مصطفى سالم . «الفتح العثماني الأول» ص ٤٥
٥٣ ـ «البرق اليماني» : محمد النهروالي ص ١٩
٥٤ ـ المصدر السابق
٥٥ ـ المصدر السابق
٥٦ ـ «بغية المستفيد في اخبار زبيد» الربيع .
٥٧ ـ الدكتور سيد سالم «الفتح العثماني الأول» .

(٥٨) الدكتور سعيد مصطفى سالم الفتح العثماني الأول
(٥٩) البرق اليماني ـ النهروالي ص ٩١
(٦٠) الفتح العثماني الاول مصطفى سالم ص ٩٨ ـ ٦٩
(٦١) الفتح العثماني الأول مصطفى سالم ص ٩٨ ـ ٦٩
(٦٢) البرق اليماني ١٥٩ .
(٦٣) المصدر السابق .
(٦٤) الفتح العثماني الاول ـ مصطفى سالم ص ٤٧٠
(٦٥) المصدر السابق .
(٦٦) روح الروح لعيسى بن لطف الله بن المطهر
(٦٧) وطبق الحلوى وصحف المن والسلوى لعبد الله بن علي الوزير خط
(٦٨) ، روح الروح ، عيسى بن لطف الله ص ١٧ و١٨ .
٦٩ ـ «روح الروح» ص ٢٧ .
٧٠ ـ المصدر السابق ص ٢٧ والدكتور سيد مصطفى سالم الفتح العثماني الأول ص ١٢٤

٧١ ـ المصدر السابق ٥٨

٧٢ ـ «روح الروح» ص ٤٧

٧٣ ـ المصدر السابق ص ٣٢ ج (١)

٧٤ ـ المصدر السابق ص ١٤ ج (٢)

٧٥ ـ دكتور سيد سالم الفتح العثماني ص ٧٦

٧٦ ـ المصدر السابق

٧٧ ـ الفتح العثماني الأول دكتور سيد مصطفى سالم ص ٣٣٩

٧٨ ـ «صفحات مجهولة من تاريخ اليمن» ص (١٠) تحقيق وتقديم القاضي حسين احمد السياغي .

٧٩ ـ المصدر السابق ص (٣٠)

٨٠ ـ الحكم العثماني الثاني لليمن عثمان اباظة . ص ٣٣ .

٨١ ـ الواسعي ص ٢٥٤

٨٢ ـ المصدر السابق

٨٣ ـ المصدر السابق ص ٢٦٠

٨٤ ـ الواسعي ص ٢٨٠

٨٥ ـ المصدر السابق

٨٦ ـ المصدر السابق ص ٣١٧

٨٧ ـ دكتور فاروق عثمان اباظة «الحكم العثماني الثاني لليمن» ص ٢٧١

٨٨ ـ الواسعي المصدر السابق

٨٩ ـ دكتور فاروق اباظة ص ٢٨٢

٩٠ ـ الواسعي ص ٣٧٥ ـ دكتور فاروق اباظة ـ ص ٢٨٢

٩١ ـ «طبق الحلوى» ـ عبد الله بن علي الوزير

٩٢ ـ ابن الأمير وعصره ص ١٠٢ . محمد علي الاكوع . قاسم غالب احمد . عبد الله الشماحي حسين السياغي . محمود زايد ابراهيم .

٩٣ ـ المصدر السابق

٩٤ ـ المصدر السابق

٩٥ ـ صفحات مجهولة ص ٦٣ .

(٩٦) ـ «صفحات مجهولة» ص ٢٨ و٥٠ و٤٦و٧٥و٧٦ .

(٦٧) ـ المصدر السابق .

(٩٨) ـ «صفحات مجهولة» ص٧٨ .

(٩٩) ـ المصدر السابق .

١٠٠ ـ جريدة الايمان العدد ١٩٩ تاريخ ٣٠ ربيع الاول سنة ١٣٦٧ ـ ١٠ فبراير سنة ١٩٤٨

● أخذاً بمبدأ الديمقراطية حرصنا على ان ترد آراء الاستاذ الحضرمي كاملة . على الرغم من معرفتنا بقوة الحجج المضادة المحرر .

* * *



عبر التاريخ

سلطان ناجي

في كتابات المؤرخين نجد ارتباطا عضويا بين عدن وابين فعدن تضاف الى ابين فيقال عدن ـ أبين وذلك ليفرق بينها وبين عدن ـ لاعه في منطقة حجة في شمال غربي اليمن ..

عدن :

في القديم كانت عدن أغنى المدن العربيةعلى الاطلاق . ولها تاريخ طويل يمتد حوالي ثلاثة آلاف سنة ، وهي تعتبر بحق (ثغر اليمن) وقد جاء ذكرها في التوراة ، فقد علم عن تجارتها العظيمة من الفينيقيين وسميت (ايدن) وهو الاسم العبري لعدن وخلال تاريخ الدول اليمنية القديمة كانت عدن هي الميناء الرئيسي في المنطقة ولا توجد موانىء بجانبها سوى ميناءي قانا (المحافظة الخامسة) وموزع « قرب المخا » ولكن هذين الميناءين لم يكونا أبداً بنفس درجة أهمية ميناء عدن أو يكون لهما تاريخ طويل مستمر مثل عدن .

فكل التجارة الآسيوية كانت تأتي الى عدن ومنها تحملها القوافل اليمنية نحو الشمال لتوزع على بلدان الشرق الادنى القديم . كما ان ساحل شرق أفريقيا كان تابعا لعدن في التاريخ القديم وسمي ذلك الساحل بالساحل « الاوساني » .

وفي الكتاب اليوناني بعنوان « دليل البحر الارتيري » لمؤلفه الملاح المجهول والذي كتب في بداية العصور الميلادية يصف ذلك الملاح اليوناني مدينة عدن عند زيارته لها ويسميها « ايوديمون ارابيا » اي بلاد العرب البعيدة لاهميتها البالغة في ذلك الزمن القديم . ويقول عنها انها كانت مدينة هامة فيما مضى عندما كانت الرحلة من الهند الى

مصر امرا لم يتحقق بعد ، وعندما كانوا الايجرؤ ون على الملاحة من مصر الى الموانىء الواقعة وراء هذا المحيط بل كانوا يأتون الى هذا المكان . وفي تلك الايام كانت تتلقى السلع من كلا البلدين ، ويشير هذا المؤلف المجهول بأن عدن بدأت تفقد اهميتها بسبب تحطيم احد ملوك سبأ وذي ريدان لها خلال حروبه ، وقد تحول الميناء مؤقتا الى موزع « قرب المخا » وذلك لقرب الميناء الاخير من ظفار يريم العاصمة الجديدة لدولة سبأ وذي ريدان .

الا ان أهميتها تعود من جديد ونجد أن بطليموس يكتب عنها في القرن الثاني الميلادي ويسميها (امبوريوم أرابيا) بمعنى المخزن التجاري لبلاد العرب . وعندما دخلت المسيحية الى اليمن في القرن الرابع الميلادي قام المبشر المسيحي تيوفيلوس بتأسيس كنيسة كبيرة في (عدانا) اي في عدن . ومعنى هذا أن عدن كانت احدى المدن الرئيسية اليمنية لكي تبنى فيها مثل تلك الكنيسة .

وفي العصور الاسلامية نجد أن مصير عدن كان يرتبط بمصير تلك الدويلات اليمنية التي تداولت حكم اليمن . فقد كانت تابعة للامير الزيادي صاحب مدينة زبيد في القرن العاشر الميلادي ، ثم عندما ضعفت الدولة الزيادية استقل بها وبأبين ولحج وحضرموت والشحر امراء من المناطق الجنوبية هم بنو معن « ويعتقد أنهم العوالق » وعندما قام علي بن الفضل القرمطي بثورته كانت عدن احدى مدنه الرئيسية هي ومدينة خنفر « جعار » في أبين .

وفي أيام النجاحيين كانت عدن تابعة لهم وكانت العاصمة زبيد . ولما جاء الصليحيون صارت عدن اقطاعية خاصة للملكة الحرة السيدة بنت أحمد (الملكة أروى)، وكان دخل الميناء البالغ مائة الف دينار يرفع اليها كل عام .

وفي القرن الثاني عشر الميلادي نجد أن عدن تصبح العاصمة للدولة الزريعية . وقد استطاع علي بن مهدي مؤسس الدولة المهدية في زبيد ان يخضع معظم أجزاء اليمن الا عدن . وتزداد اهمية عدن في اثناء الوجود الايوبي في القرنين الثاني عشر والثالث عشر . وفي أيام الدولتين الرسولية « القرن الثاني عشر - والخامس عشر » والطاهرية « القرن الخامس عشر - السادس عشر » يزدهر التعليم في المدينة وينشأ الكثير من دور العلم . كما أن القنوات تبنى لجلب الماء الى عدن من ضواحيها ونجدها في أيام الطاهريين المدينة الثانية بعد العاصمة المقرانة . وقد استطاعت ان ترد الغزو البرتغالي بقيادة البويكيريك عام ١٥١٣م ويقال أن البرتغاليين فقدوا الفي شخص عند هجومهم على المدينة .

واذا نظرنا الى الكتب التاريخية والادبية والجغرافية والاسلامية التي الفت في العصور الوسطى سنجد أن هذه الكتب والمؤلفات تولي عدن حقها من الرعاية والاهتمام وتصفها تارة بمرساة اليمن وتارة اخرى بفرضة اليمن وتارة ثالثة بثغر اليمن .

كريتر :

مدينة كريتر هي مدينة عدن الأصلية التي وصفها الاقدمون والمحدثون . وتعود التسمية الجديدة الى بداية الاحتلال البريطاني حيث سميت بهذا الأسم الاجنبي الذي يعني (فوهة البركان) ،

وذلك لأن المدينة كانت في القديم موضعا للبراكين .

وقد كانت التسمية الأولى لكريتر بعد مجيء البريطانيين هي « ايدن كامب » بمعنى (معسكر عدن) لأن الوجود البريطاني والحامية البريطانية كانت كلها في بداية أمرها داخل مدينة كريتر . كذلك الميناء فقد كان منذ قديم الازمان في خليج صيره ولم ينتقل الى التواهي الا بعد حوالي عشرين عاماً من الاحتلال .

ومن وصف الجغرافيين العرب في العصور الوسطى يظهر بوضوح ان مدينة عدن هي كريتر فقط . فالهمداني مثلا يقول :

« عدن جنوبية تهامية وهو أقدم أسواق العرب . وهو ساحل يحيط به جبل لم يكن فيه طريق ، فقطع في الجبل بزبر الحديد فصار لها طريق الى البر » .

أما ابن خلدون فيقول :

« ويحيط بها من جهة شمإليها على بعد جبل دائر الى البحر ينثقب فيه من طرفيه ثقبان كالبابين . . وليس لأهلها دخول ولا خروج الا على هذين الثقبين » .

هذا وفي الوصف والصورة لمدينة عدن في كل من كتابي ابن المجاور وأبي مخرمة نجد ان المقصود بالمدينة هو مدينة كريتر فقط ، فلا ذكر الا لصيرة وجبل المنظر (جبل حقات) وجبل الأخضر (معاشق) والمعجلين .

وفي العصر الاسلامي قلما نجد كتاباً جغرافياً للرحالة العرب لا يذكر عدن ويصف أهميتها . فالبشاري يقول :

« عدن بلد جليل ، عامر ، آهل ، حصين ، دهليز الصين وفرضة اليمن وخزانة المغرب ، ومعدن التجارات . كثير القصور مبارك على من دخله مثر لمن سكنه ، مساجد حسان ، ومعايش واسعة ، واخلاق طاهرة ونعم ظاهرة » .

ويقول الاصطخري في مسالك المهالك :

« عدن مشهورة على ساحل بحر الهندمن ناحية اليمن . وهذا الموضع هو مرفأ مراكب الهند . والتجار يجتمعون اليه . لأجل ذلك فانها بلدة تجارة » .

ويصفها القلقشندي بأنها : « من تهائم اليمن وهي على ساحل البحر ذات حط واقلاع » . « وهي أعظم المراسي في اليمن وبها قلعة حصينة مبنية . وهي خزانة مال ملوك اليمن الا أنه ليس بها زرع ولا ضرع ، وهي فرضة اليمن ومحط رحال التجارة ، لم تزل بلد تجارة من زمن التبابعة وإلى زماننا ، عليها ترد المراكب الواصلة من الحجاز والسند والهند والصين والحبشة ويختار أهل كل إقليم منها ما يحتاج إليه إقليمهم من البضائع » .

أما صلاح الدين بن الحكيم فيقول :

« المقيم بها في مكاسب وافرة وتجائر مربحة . ولحط المراكب عليها واقلاعها مواسم مشهورة . فاذا أراد ناخوذة السفر بمركب الى جهة من الجهات أقام فيها علما برنك خاص فيعلم التجار بسفره . . ويقع الاهتمام بالرحيل وتسارع التجار في نقل امتعتهم » .

وعن الحكيم صلاح الدين بن برهان :

« ان المقيم بها يحتاج الى كلفة في النفقات . . ويحتاج المقيم بها الى ماء يتبرد به في

اليوم مرات في زمن قوة الحر ». ثم قال : « ولكنهم لا يبالون بكثرة الكلف ولا بسوء المقام لكثرة الأموال النامية ».

وفي كتاب « صفة بلاد اليمن » لابن المجاور المؤلف في مطلع القرن الثالث عشر صورة حية للحركة في ميناء عدن العظيم وكيف يستقبل سكان المدينة وصول المراكب اليها وما هي أنواع البضائع التي ترد الى الميناء وتفصيل العشور على كل سلعة من السلع ، ثم يذكر تخريج عشور الشواني ويقصد بذلك أن الحكومة لكي تحافظ على الازدهار التجاري في عدن كان لها أسطول من السفن الخاصة (الشواني) يقوم بحراسة السفن التجارية في مياه خليج عدن من غارات قراصنة البحر .

ثم يشير ابن المجاور الى قيام الوالي الأيوبي عثمان الزنجبيلي في بناء سور يفصل بين المدينة وخليج صيرة . وقد بُني لذلك السور ستة أبواب منها باب الفرضة وآخر للدخول والخروج ثم باب السكة لتمر السيول خلاله الى البحر عند هطول الأمطار الغزيرة . كما أن الزنجبيلي قد زاد من فعاليات تحصينات المدينة من ناحية جبل حديد الى سلسلة جبال المنصور وأقام القلاع على قمم الجبال وكذلك باب « حقات ».

والحقيقة ان مثل تلك التحصينات القوية هي التي كانت السبب في صد الهجوم البرتغالي الكبير الذي قام به البوليرك ضد الميناء عام ١٥١٣ . ومن يشاهد اللوحة المحفوظة في المتحف البريطاني لهزيمة قوات البوليرك البرتغالية أمام ميناء عدن كما رسمت حينها ليدهش من قوة التحصينات والقلاع والأسوار الضخمة التي كادت أن تغطي جبال عدن وتحيط بالمدينة من ناحية البحر . كما أن هناك لوحة لجبل صيرة رسمت حوالي عام ١٦٨٠ ، بعد رحيل الأتراك ودخول المدينة ضمن السلطة المركزية في صنعاء وفيها يظهر أن كل جزيرة صيرة تقريباً كانت تحيط بها الأسوار والقلاع من أسفلها الى قمتها .

لقد بلغت عدن ذروتها الاقتصادية في العصور الوسيطة المتأخرة . فمنذ قيام الخلافة الفاطمية تحول ميزان السلطة السياسية من بغداد نحو القاهرة فكان أن انتعش النشاط الاقتصادي لعدن وأصبحت من جديد همزة الوصل بين الشرق والغرب في معظم المسائل التجارية والاقتصادية خاصة عندما أصبحت عدن تدخل ضمن ولاء الفاطميين ونفوذهم أثناء قيام دولها الشيعية كالصليحيين والزريعيين . ثم واصل الايوبيون نفس الاهتمام بعدن عندما حكموا اليمن فأصبحت في أيامهم أكثر أماناً وتحصيناً من أي ميناء عربي آخر في الجزيرة العربية . ومنذ استقلال الرسوليين بها في بداية القرن الثالث عشر وحتى انتهاء دولتهم في القرن الخامس عشر بلغت عدن ذروة ازدهارها ومجدها الاقتصادي . الا انه بعد العقد الثاني من القرن الخامس عشر بدأت عدن تفقد تدريجياً ازدهارها وأهميتها الاقتصادية نتيجة المنافسة النشطة التي كان يقوم بها ميناء هرمز في الخليج العربي حيث استطاع تدريجياً ذلك الميناء امتصاص الجزء الأكبر من تجارتها العالمية . ولما جاء « الطاهريون » قضوا معظم فترة حكمهم الذي استمر حتى منتصف القرن السادس عشر يتنافسون مع الموانىء المصرية المطلة على البحر الأحمر وميناء الشّحر في حضرموت من أجل

السيطـرة على تجـارة البحـر الأحمـر والمحيط الهندي . . ومع ذلك فقد كانت عدن عام ١٤٦٠ مثلاً لا تزال تعتبر ميناءً عظيماً وحصيناً ويتـراوح سكانهـا بـين ٥٠,٠٠٠ ـ ٦٠,٠٠٠ نسمـة . ويوجد فيها خليط من التجار المصريين والسوريين والمغاربة واليهود والهنود .

وفي القـرن السـادس عشر ، أي بداية العصور الحديثة ، أصبحت عدن الضحية الكبرى للصراع البرتغـالي ، المملوكي ، ثم البرتغـالي / العثماني فيما بعد في مياه المحيط الهندي وبحر العرب والبحـر الأحمر . وعندمافرض العثمانيون سيطرتهم على اليمن في الفترة ما بين ١٥٣٨ ـ ١٨٣٥ حوّلوا عدن إلى قلعة عسكريةللقسم الجنوبي من اليمن وساعدوا على انحطاطها وأصبح الميناء الرئيسي والمزدهر هو المخا . وكان السبب الثاني الهام الذي قضى على عدن بعد الصراع العسكري البرتغالي / العثماني هو نمو الاتجار « بالبن اليمنـي » بدلا من البهارات الشرقية التي كانت تجارة الترانـزيت من أسباب ازدهار عدن .

لقد أصبحت تجارة البن ـ عبر ميناء المخا ـ هـي الأسـاس الاقتصـادي الجـديد وبمثابـة ثورة تجـارية غيرت جذرياً العلاقـات التجـارية بـين الشرق وحوض المتوسط بعـد القـرن السـادس عشر . وهـكذا استمـرت عدن في التدهـور الاقتصادي اثناء وبعد طرد العثمانيين .

وهـا هو جون جوردين أحـد بحـارة أول سفينة انجليزية تزور الميناء عام ١٦٠٩ ، يخبرنـا بأن عدن لم تكن في ذلك الوقت «سـوى مدينة مزعجة لا يرتاح الى سكناهـا ، اذ ما من خضـار تنبت بين أسوارها وليس لسكانها الا التمتع بمرأى صخورها القاحلة ، ومنازلها المهدمة . وليس بها مياه عذبة بل آبار ذات مياه مالحة » .

ويقول جوردين إن الميناءين الكبيرين آنذاك هما « المخا » و « جدة » أما عدن ففي تأخر تجاري لا تأتيها في السنة سوى سفينتين أو ثلاث من بلاد الهند والخليج العربي . أما حاكم المدينة فكان شاباً يوناني الأصل أعتنق الاسلام . وعلى شاكلته جميع الاتراك من ذوي المناصب الهامة في هذا البلـد . والكل عبيد للباشا ، ولا يتجاوز أفراد الحامية في المدينة والحصون معاً الثلاثمائة جندي ، لكنهـم رغم ذلك قد ملأوا أفئدة الأهلين رعباً بحيث لا يجرؤ أحد على النظر الى وجه تركي » .

لكن هذه الصورة القاتمة التي رسمهـا لنـا جوردين للمدينة سرعان ما تتغير فقد أستطـاع اليمنيون طرد الأتراك وأصبحت البلاد بعد طرد الاتـراك كلها خاضعـة لحكم حكومـة مركزية قوية . وقد كان لاستتباب الأمن والهدوء تأثيره على حياة البلاد التجارية فقـد انتعشـت التجـارة الخارجية مع أوروبا لاسيما تلك التـي تخص تجارة البن .

وها نحن نرى « لاروك » الرحالة الفرنسي الذي زار عدن في بداية القرن الثامن عشر يصفها بأنها (تبدو كبيرة للناظرين . فهنـاك البيوت الجميلة العالية ذات السطوح الواسعة) . ومما لفت نظر هذاالسائح الفرنسي وجود تلك المسابح الكثيرة الفخمة والمبلطة تبليطاً حسناً في المدينة . وقد كان لتلك المسابح قباب مزخرفة ذات شقوق مستديرة لادخال ضوء الشمس . وقد كان يوجد في كل منها شرفة تطل على أحواض السباحة حيث يجلس عليها المتفرجون والسباحون على السواء .

بعد انفصال عدن عن السلطة المركزية في مطلع القرن الثامن عشر وتبعيتها لسلطان لحج بدأ الخراب يحل في المدينة تدريجياً . فعندما زارها « هنري سولت » عام ١٨٠٩ لم يجد من بناياتها الأثرية سوى بقايا صهاريج الطويلة .

وعندما زارها « ولستد » عام ١٨٣٥ قال إنه لم يبق من آثار المدينة الا بضع منائر وحوالي مئة بيت وبعض من بقايا اسوارها المهدمة وأما بقية المدينة فعبارة عن قبور وأكوام من الحجارة والتراب وبقايا بنايات قديمة دون سقوف ، ثم يضيف بأن سكان كريتر حينذاك كانوا حوالي (٦٠٠) من الذكور يعيشون في المدينة الخراب التي لم تزد عن أكثر من قرية للصيادين . وكان حوالي نصف اولئك السكان من العرب (اليمنيين) والباقي من اليهود والصومال والبانيان . وكان معظم السكان يعيشون في عشش من سعف النخيل . وكانت أحسن البيوت يسكنها « البانيان » الذين كانوا يسيطرون على التجارة .

ولكن برغم هذا الخراب الواضح الذي حل بعدن قبل مجيء البريطانيين

، فقد كانوا مهتمين بها كثيرا ويعرفون تماما أهميتها الاستراتيجية والاقتصادية . فقد كتب « هينس » الى حكومته قبل الاحتلال بقليل شارحاً أهمية الميناء بقوله :

ان هذا المرفأ العظيم يمتلك من القدرات والامكانيات ما لا يملكه ميناء آخر في الجزيرة العربية . ان ازدهاره لا شك وأن يقضي على ميناء المخا وبقية موانيء البحر الأحمر فهو يحتل مركزاً تجارياً ممتازاً لاشك أنه أنسب الموانيء الموجودة لمواصلات الامبراطورية عبر البحر الأحمر . وهو في وضعه الحالي صالح لاستقبال البواخر وتموينها في كل فصول السنة » .

كما أن حاكم بومباي أكد لحكومته على أهمية الميناء بقوله عام ١٨٣٨ ما يلي :

« ان عدن بالنسبة لنا لا تقدر بثمن . فهي تصلح كمخزن للفحم طيلة فصول السنة ويمكن أن تكون ملتقى عاماً للسفن المستخدمة طريق البحر الأحمر وقاعدة عسكرية قوية بواسطتها يمكننا أن نحمي ونستفيد من تجارة الخليج العربي والبحر الأحمر والساحل المصري المحاذي الغني بمنتوجاته . وعدن كجبل طارق متى ما أصبحت في أيدينا ستكون صعبة المنال من البر والبحر » .

وهكذا تم احتلال عدن من أجل منع أية قوى أخرى من السيطرة على منطقة استراتيجية حيوية مثلها .

ان تصميم بيوت كريتر وشوارعها بشكلها الحالي يعود الى ما بعد الاحتلال ، وقد غلب عليها « الطابع الهندي » في كل شيء بسبب ارتباطها طيلة المئة عام الأولى بالهند . كما أن ترميم واصلاح الأسوار المحيطة بجبال كريتر أو صهاريج الطويلة يعود الى ما بعد الاحتلال أيضا . فقد بقيت (كريتر) هي المدينة الأصلية والوحيدة طيلة العشرين سنة الأولى تقريبا التي هي تحت السلطة المباشرة للحكم البريطاني لذا فقد كانت كريتر هي مركز ادارة حكومة المستعمرة وكذلك مقر حاميتها العسكرية والميناء الرئيسي . لذا كانت تسميتها « بايدن كامب » ، أو معسكر عدن . وكانت البنايات التي تضم اعدادية كريتر في الخليج الامامي هي معسكرات للجنود ، ولذا كان تسميتها بالريجمينت اي المعسكر ، كما أن بناية

المركز اليمني للأبحاث الثقافية حالياً هي من أولى البنايات التي شيدت في المدينة لتكون كنيسة للجالية المسيحية من جيش الاحتلال والاجانب .

وفي عهد المقيم البريطاني الأول ارتفع عدد سكان كريتر من حوالي الف نسمة الى حوالي عشرين الف نسمة في آخر ايامه عام ١٨٥٤ ، وكانوا موزعين على الشكل الآتي : ٤,٨١٢ من السكان اليمنيين ، ٢,٨٩٦ من الصومال ١,١١٤ من اليهود ٨,٥٦٣ من الهنود ، ٧٩١ من الأوربيين ، ٢,٤٥٢ من الأخرين والباقي من العسكريين لقد كان السكان اليمنيون يكونون أقلية . فعلى الرغم من هجرة الفنيين وأصحاب الحرف والتجار من المخا الى عدن بعد تدهور الميناء الأول . فقد كان معظم سكان كريتر يستجلبون من الهند . لذا فقد أصبحت عدن هندية أكثر منها عربية . ففي عام ١٨٤٩ انخفض السكان اليمنيون الى أقل من النصف بينما زاد الهنود اكثر من ضعفين وأصبحوا يكونون ٤٠٪ من سكان المدينة ، وكانت أكبر الجاليات الأخرى : اليهودية والصومالية .

في بداية الاحتلال البريطاني أصبح نشاط المجتمع التجاري في كريتر كله موجهاً ومجنداً لخدمة الحامية العسكرية البريطانية . فمعظم الأنشطة الاقتصادية كانت تدور حول تنفيذ المقاولات لتزويد الحامية بحاجاتها من مؤ ن أو أغذية أو خدمات أو الأعمال الحكومية كبناء التحصينات وغيرها . وكان أهم الانشاءات التي بدىء العمل بها هي مشروع المياه في « الشيخ عثمان » وحملها بواسطة قناة طولها ستة أميال الى قرب جبل حديد ومن هناك الى مدينة (كريتر).

فقبل تنفيذ هذا المشروع كانت مشكلة مياه المستعمرة هي القضية الكبرى . وكانت المياه توزع على الأهالي بالبطاقة .

وفي أواخر القرن التاسع عشر وبداية العشرين أدى توسع التجارة بعد أن أصبحت عدن المركز الرئيسي في الطريق بين الشرق والغرب الى خلق الفرص الكثيرة للعمل . وكان المميز للنشاط التجاري في عدن هو وجود السماسرة والدلالين الكثيرين في كل الانشطة التجارية تقريباً وكانت تأتي على قمة النشاط التجاري في كريتر الشركات الاجنبية من انجليزية وأمريكية والمانية وفرنسية وايطالية وهندية كلها مرتبطة بشركاتها الرئيسية في أوربا والولايات المتحدة وبومباي . وتحت هذه الشركات الاجنبية كانت تأتي فئة التجار الهنود والعرب . ومعظم العرب واليمنين كانوا يتعاملون بتجارة البن ولكن بواسطة تلك الشركات الاجنبية التي كانت هي التي تتحكم في تسويقه . في حرب التحرير كانت كريتر هي أول من تسقط بأيدي الثوار وتبقى تحت سيطرتهم مدة أسبوعين كاملين بعد حوادث (٢٠) يونيو ١٩٦٧ .

المعلا :

لقد رأينا عند كلامنا عن ميناء عدن بأن المقصود في غالب الاحيان كان هو ميناء الخليج الامامي في كريتر . والواقع انه حتى الآن لم توجد ادلة او قرائن تاريخية عن تسمية المعلا تعود الى اكثر من المئة والخمسين عاما الماضية . واقدم اشارة عمومية الى الميناء اشارة القائد البرتغالي الذي قام بغزو عدن عام ١٥١٣م . ففي مذكراته يشير

الى (الميناء الشمالي) الذي كان يقرب من برزخ « خورمكسر »، والى هذا البرزخ كان يحمل الماء من الداخل بواسطة قناة .

وفي الطرف الغربي من المعلا (قرب جولة حُجيف) يوجد مكان يستخدم لاصلاح السفن اسمه (البرشه). ولربما ان هذه التسمية مرتبطة بنوع من السفن العثمانية المذكورة في مخطوط (البرق اليماني في الفتح العثماني) والتي استخدمت في بداية القرن السادس عشر لمطاردة السفن البرتغالية ثم فيما بعد لاحتلال عدن ، فبجانب (الاغربة) كان هناك نوع من السفن اسمه (برشه). وهناك تخريج احدث حول هذه التسمية

وهي ان «برشه» كانت تحريفا للفظة الأجنبية (برشين) بمعنى (بروسي نسبة الى بروسيا الالمانية) ، والدليل الذي يأتي به أصحاب هذا التخريج هو ان السفن البروسية كانت تصلّح هناك بعد مجيء الانجليز .

أما رأس حجيف وهو آخر مدينة المعلا من جهة الغرب فان تسميته معروفة لدينا على الأقل منذ ١٨٣٧ (اي قبل الاحتلال بعامين) . وذلك ان الوثائق البريطانية ومذكرات (هينس) نفسه تشير الى وجود مؤامرة من قبل سكان عدن لقتل هينس ، وان احد جواسيسه حذره من الفخ وهو في سفينة قرب (رأس حجيف) .

وبعد الاحتلال نجد ان الخرائط والوثائق البريطانية تبدأ في ذكر قرية المعلا وبندر المعلا . فقد استمر ميناء الخليج الامامي هو الميناء الرئيسي خلال العشر سنوات الأولى تقريبا من الاحتلال ، ولكن بسبب امتلاء الميناء بالغرين نتيجة اهماله خلال المئة سنة السابقة تقريبا فلم يعد صالحا لرسو السفن الكبيرة خاصة . كما ان تغييرا هاما قد حدث بالنسبة لأحجام السفن عند الاحتلال . فقد أصبحت السفن تجارية بعد اكتشاف البخار من الفحم . وهكذا بدأ الميناء يتحول تدريجيا الى «التواهي» واصبحت المعلا تكون طرفه الشمالي واصبح ميناؤها يُسمى بالميناء الخلفي ، وكانت هناك اسباب اخرى ساعدت على نقل الميناء الى التواهي والمعلا . وهو انتقال جزء من الحامية البريطانية الى هناك وكذا مقر المقيم السياسي ، هذا بالاضافة الى أن ميناء كريتر كان صالحاً في بعض شهور الرياح الموسمية .

وفي ١٨٤٧ اوصى (هينس) باقامة جمرك فرعي في باب عدن وذلك من اجل فرض العشور على البضائع التي تحملها السفن المحلية . وفي عام ١٨٥٥ قام بعض التجار من الهنود والعرب وبنوا (دكة المعلا) . وفي عام ١٨٦٢ م تحول الجمرك الى هناك .

وبدأ قليل من البيوت الحجرية او العشش يبنى قرب الدكة من اجل خزن البضائع أو للسكن . وفي خارطة ملحقة بكتاب هنتر المنشور ١٨٧٧ ، نستطيع ان نجد ان المعلا كانت ـ لا تزال في ذلك الحين تحتوي فقط على الدكة ومركز البوليس (مركز البريد القديم للمعلا فيما بعد) . وتقع وراء المركز بعض البيوت الحجرية لافراد قوة البوليس اوالاهالي المرتبطة اعمالهم بنشاط الميناء . وفي الطرف الغربي من المعلا قرب حجيف كان مركز بوليس ثان ومحاريق النورة . وبسبب ان معظم السكان قرب الدكة كانوا من الصومال فان

المنطقة كانت تسمى (سومالي بره). وبين الدكة وباب عدن تظهر مقابر المسلمين واليهود في ذلك الوقت قبل مئة عام من الان . وكانت دكة المعلا قد وسعت كثيرا في ١٨٦٩ . وبعد ذلك التاريخ لم يعد يوجد ميناء في مدينة كريتر ، بل اصبح في التواهي وفي المعلا بالنسبة للسفن المحلية التي تجوب سواحل افريقيا وسواحل اليمن والخليج .

وفي عام ١٨٨١ أجري احصاء لسكان المعلا وبيوتها فوجد ان (١٠٠٠) شخص كانوا يعيشون في (٣٥٧) من بيوت الحجر و (٢٦٥٠) شخصاً كانوا يعيشون في عشش (كتشة) بلغ عددها (٦٨٧) عشة ، والباقون كان معظمهم من عمال الفحم كانوا بلا مأوى بمعنى ان حوالي ٦٠٪ من السكان كانوا في عشش و ١٥٪ بدون مسكن .

وقد اصبحت منطقة حجيف مكانا لخزن الفحم الحجري الذي تستخدمه المراكب ومعظم العمال كانوا من المناطق الشمالية الذين فروا من ظلم الحكم التركي ثم الامامي فيما بعد ، وعلى كل حال فان الجزء الأكبر من عمال تفريغ الشحن في الدكة في حجيف ، كانوا من جبال اليمن ، كما كان معظم سكان المعلا الى وقت قريب هم من الصومال وذلك بسبب التجارة الواسعة التي كانت قائمة بين عدن والصومال في القرن الماضي . وعن تغلب العنصر الصومالي في تلك الايام يصف لنا «الريحاني» الوضع الاجتماعي الذي كان قائما في ذلك الحين قبل حوالي خمسين سنة من الان فهو يصف كيف ان الصوماليين كانوا يسيرون جماعات في الشوارع وهم يلبسون الثياب البيضاء وكأنها ملابس شيوخ أثينا وفي أفواههم المساوك (فرشاة الاسنان من الاراك ورؤوسهم مرفوعة وكأنها رؤوس الطواويس . اما عصيهم فكانوا يسلمونها كل صباح يوم احد الى مركز البوليس ولا يستردونها الا في المساء وذلك بسبب ميلهم الى العراك والمشاغبة في ايام الاجازة .

وبالنسبة لعمال الفحم فقد كانوا في مشاكل مستمرة مع اصحاب الشركات الاجنبية التي تستخدمهم . وكانت المشكلة الاولى هي مشكلة اسكانهم في بيوت اوعشش لأن اصحاب الشركات لم يريدوا الا أن يبقى أولئك البؤساء مفترشين العراء وجبال حجيف والمعلا . وكذلك فلأن المراكب الكبيرة كانت لا تستطيع الدخول الى ميناء التواهي قبل تعميقه فقد كانت ترسو قرب رأس مربط وكانت تعطى لهم (علاوة خطر) . ومن الأمور التي لا تزال مجهولة حتى الان هو ان اولئك العمال كانوا بالفعل يقومون باضرابات ضد الشركات المستغلة في ذلك التاريخ المبكر في نهاية القرن الماضي .

ان الاضرابات العمالية تعود بجذورها اذن الى ذلك الوقت وليس الى منتصف الخمسينات من هذا القرن كما هو الاعتقاد السائد .

ومنذ بداية هذا القرن تحول الجزء الأعظم من تجارة الفحم الحجري الى جزيرة (ميّون) ولهذا قل العمل في هذه الناحية الا انه عاد من جديد الى عدن بعد الثلاثينات تقريبا ، وذلك لسببين هما أولا : اكتشاف شركات البواخر ان شركة ميّون للفحم كانت تلجأ الى الغش في معاملاتها معها وذلك بأنها كانت تترك احجار الفحم تبتل بماء البحر حتى يزيد وزنها ، وثانيا حدوث تطور جديد

في طريقة تسيير السفن نتيجة بداية استخدام النفط بدلا من الفحم . ففي الفترة بين ١٩٢٨ - ١٩٣١ م بنيت اربعة توانك (مستودعات) للنفط في الطرف الغربي من المعلا .

ولهذا وجدت الحاجة لنوع جديد من العمال بجانب عمال الفحم الذين زاد عددهم ايضا بسبب تحويل مخازن الفحم كلها من (ميون) الى عدن . كذلك وبسبب هذا الكساد المفاجىء الذي حدث لميون فقد نقل معظم سكان الجزيرة الى عدن . وبنيت لهم شوارع خاصة بالمعلا عرفت بحوافي ميون .

وفي عام ١٩٣٢ م بني ايضا مصنع للصابون في المعلا وكان ينتج يوميا ٥٠ صندوقا من الصابون ، وكل صندوق يحتوي على (٢٠٠) قطعة ثم فتح ايضا مصنع للألمنيوم . وقد كانت الصناعة توظف حوالي مائتي شخص في ثلاثة مصانع وبعض المحلات الصغيرة . وكانت هناك تجارة ناشئة يقوم بها اليهود واليونان وهي صنع السجائر المحلية من التبغ المصري . وبجانب ذلك الصناعة التقليدية لتصفية حبوب البن واللبان . وهي كلها كانت في منطقة المعلا وكانت تقوم بها الصوماليات .

وفي الأخير اشتهرت المعلا بصناعة السفن . وهي صناعة قديمة عرفتها عدن منذ الاف السنين وكان يقوم بهذه الصناعة الحضارم وتشبه السفن الشراعية التي كانت تبنى في المعلا سفن الفينيقيين . وكان خشب التيك المستخدم لهذه السفن يستورد من ملبار في الهند ، أما بقية الأخشاب العادية والمسامير فهي من المنتوجات المحلية . وكانت هذه الصناعة تنتج حوالي سبع سفن في العام وبعد الانتهاء من صنع السفينة وطلائها ببعض زيوت السمك تدشن في البحر ويذبح لها رأس من الكباش او الماعز ليأكله بناؤوها وذلك حتى لا تكون السفينة السبب في قتل ركابها اذا ما تعرضت لعواصف ومخاطر البحار في المستقبل . ويشرف دائما على بناء السفينة (الناخوذة) . والجميع كانوا يغنون اثناء العمل . ولأن المعلا كانت هي المرسى الرئيسي لمثل هذه السفن الشراعية فان مجموع ما يرسو منها في الميناء كان يصل الى حوالي (١٤٠٠) سفينة في العام .

وفي أوائل الخمسينات قامت هيئة ميناء عدن باستصلاح الساحل البحري للمعلا وذلك من اجل توسيع أحواض السفن ومستودعات البضائع هذا من جهة ومن جهة اخرى من اجل تشجيع حركة البناء لاستيعاب عائلات افراد القوات البريطانية بعد توسيع قاعدة عدن وجعلها المركز الرئيسي لقيادة الشرق الأوسط . ولم تأت نهاية الخمسينات إلا وقد شيدت أكبر العمارات في عدن على طول المعلا مسافة تزيد عن الميل وقد أجرت آلاف الشقق في تلك العمارات الى الضباط البريطانيين .

وفي نفس الوقت ونتيجة لهذا النشاط العمراني الهائل توسعت المعلا في اتجاه سلسلة الجبال من الخلف وبنيت الالاف من العشش في هذه الفترة ، هذا بالاضافة الى مدينة القلوعة (الروضة) التي بنيت في منتصف الخمسينات وسكن معظم بيوتها العمال وصغار الموظفين . يمكننا القول بأن معظم سكان المعلا يعود الى هذه

الفترة بعد الخمسينات . ونستطيع أن نلمس ذلك من مقارنة عدد السكان فيها في عامي ١٩٥٥ و ١٩٧٣ م . وهما العامان اللذان اجري فيهما التعداد السكاني . ففي احصاء عام ١٩٥٥ م نجد ان سكان المعلا كانوا (٢٠,٨٦٨) نسمة ، بينما زاد الى (٤٧٠٤٤) نسمة في الاحصاء الاخير الذي تم عام ١٩٧٣ م . وخلال حرب التحرير نجد أن اعنف المعارك بين الانجليز والوطنيين كان مسرحها منطقتي المعلا والشيخ عثمان . فقد أصبح الأنجليز يسمون جولة السيلة بالشيخ عثمان (جولة القنابل) والشارع الرئيسي في المعلا (ميل الموت) .

الشيخ عثمان :

في الوثيقة السرية رقم ١٨ لعام ١٨٥٨ م المؤرخة في ٢٤ فبراير ١٨٥٨ م والموجهة من المقيم السياسي البريطاني في عدن دبليوام كوغلان الى حاكم الهند اتش . ال . أندرسون ، وعندما كانت النية مبيتة للهجوم على الشيخ عثمان ، يحاول كوغلان اعطاء الحاكم البريطاني في الهند لمحة تاريخية عن هذه المدينة اليمنية بقوله :

«ويجدر هنا ان نعطي اشارة قصيرة عن أهمية الشيخ عثمان فهي قبل تاريخ هذا النزاع بمدى خمسين عاما لم تكن سوى مزار وبها مسجد يصلي به المسافرون ومحطة للقوافل. وبعد ذلك بنيت قلعة صغيرة بالقرب منها كان يحرسها بعض افراد قبيلة العبدلي بقيادة ضابط يعينه سلطان لحج ، أما بقية السكان وعددهم نحو خمسين رجلا فيعملون في صيد السمك وجمع الملح . وعلى الرغم من توافر المياه فلم تقم زراعة هنالك . ومنذ زاد الطلب على المياه في عدن قام السلطان علي بتعيين حراسة الابار ثم احتل افراد من قبيلته المنطقة التي تعتبر ملتقى الطرق الآتية من الداخل والسائرة عبرها والتي منها تاتي غالبية المؤن الضرورية الى عدن . فالموقع ذو أهمية بالغة ويعطي للمتحكم فيه الحماية أو المضايقة لكل من يقترب من أبواب عدن . وهو على بعد ميلين ونصف من خور مكسر الذي يعد نهاية حدود الأراضي البريطانية في اتجاه لحج . أما المنطقة الواقعة بين الشيخ عثمان ولحج فتسكنها عشيرة العزيبي وهي فرع من العبدلي .

ان استيلاءنا على الشيخ عثمان يعد ضربه قاسية للسلطان علي . فقد يمنعه ذلك الحصول على أية دخول من الابار ، هذا بالاضافة الى فقده لراتبه الشهري مما سيؤدي في النهاية الى خضوعه لنا ، ثم ان احتلال الشيخ عثمان سوف يؤدي الى المحافظة على جعل الطرق مفتوحة في كل المراكز حتى في لحج نفسها وبذا يمكن لعدن المتاجرة مع المدن الأخرى ولن يستطيع السلطان علي ان يعوق هذا الاتصال» .

حسب الوثيقة أعلاه اذن فان الشيخ عثمان كانت في بداية القرن التاسع عشر لا تزال عبارة عن قبر أو مزار للولي الشيخ عثمان المدفون فيها والتي سميت باسمه ثم عشش قليلة تستوعب حوالي خمسين صياداً وملاحاً . ويؤيد هذا الكلام «هنري سلت» الرحالة البريطاني الذي زار المنطقة قبل ثلاثين سنة من الاحتلال البريطاني لعدن . فعندما تكلم عن منطقة الشيخ عثمان عام ١٨٠٩ وهو في طريقه الى لحج يظهر لنا انها كانت لا تزال غابة من الغابات فهو يقول بعد حوالي نصف ميل

من قبة الولي توغلنا في غابة عميقة . . وتمتد هذه الغابة حوالي ثمانية أميال ويقال ان الواحد سيمشي يومين كاملين عرضها من الغرب الى الشرق . ثم يضيف سلت قائلا «ان الاغنام والجمال كانت تشاهد في كل أنحاء الغابةوانها كانت تقتات الأوراق أو الأغصان الطرية» . كذلك فان خارطة رسمها هينس عام ١٨٣٩ م تظهر وجود غابة في هذه المنطقة .

ولا شك ان منطقة الشيخ عثمان كانت ضاحية من ضواحي الميناء «كريتر» وان ازدهارها وذبولها ارتبط بمصيره ، الا ان التسمية الحالية لا ترجع الى اكثر من حوالي المائتي عام . وفي حوالي ١٥٠٠ (أي قبل ٤٧٥ عاما من الان) . وهناك ذكر بأن الملك عبد الوهاب بن طاهر قد مد ساقيه للماء من خارج عدن الى كريتر من بير (أم هيت) وكان طول الساقية «١٦٠٠» ياردة . والاحتمال ان ذلك البئر كان في مدينة الشيخ عثمان .

وبعد احتلال الانجليز لعدن عام ١٨٣٩ نجد ان الشيخ عثمان تصبح المكان الرئيسي لتجمع المقاومة ضد الاحتلال البريطاني لعدن . فمعظم الهجمات الرئيسية التي كانت تشن ضد كريتر خلال الخمس عشرة سنة من الاحتلال البريطاني كانت تبدأ من الشيخ عثمان . فمثلا في ١١ نوفمبر ١٨٤٠ تجمع حوالي خمسة الاف مقاتل يمني من قبائل لحج وأبين في الشيخ عثمان وقاموا بغزو عدن . ولكن بما أن الانجليز كانوا يسيطرون على جبال عدن وكانوا يمتلكون اسلحة ثقيلة ومتطورة استطاعوا صد الهجوم اليمني قرب جبل حديد واستشهد في هذه المعركة اكثر من مائتي مقاتل وجرح ثمانية وثمانون . أما الأسرى فقد استشهد ثمانية من كل تسعة منهم .

كذلك كان هجوم يمني آخر في يوليو ١٨٤١ وحاول اليمنيون تسلق جبال كريتر ولكن نيران المدافع البريطانية من الجبال ومن ظهر السفن الراسية انزلت بهم خسارة فادحة . وخسر اليمنيون حوالي ثلاثمائة شهيد وخمسين جريحا . وفي ١١ اكتوبر قام الانجليز بغزو الشيخ عثمان وتمكنوا من تدمير نوبة الشيخ مهدي ثم قلعة الشيخ عثمان ذاتها .

واستمرت الشيخ عثمان تستخدم كمكان لتجميع المقاومة فعندما جاء الشريف اسماعيل بالمجاهدين من وسط الجزيرة العربية لغرض اخراج الانجليز من عدن نجد ايضا ان الشيخ عثمان تصبح مكان رئاسة في عام ١٨٤٦ ومنها كان يرسل هجماته .

ومرة ثانية قام الانجليز في ١٨٥٨ م بالهجوم على الشيخ عثمان بقيادة كوغلان نفسه المقيم السياسي البريطاني الثاني في عدن ودمروا القلعة ، واستشهد اربعون يمنيا .

وفي عام ١٨٦٨ استطاع الانجليز ان يتفقوا مع السلطان العبدلي على اقامة قناة للماء من الشيخ عثمان الى برزخ خور مكسر . فقد بنيت هناك داخل السور التركي قرب جبل حديد بركة كبيرة لاستلام مياه القناة ومنها كانت تحملها جواري الجمال عبر بغدة (نفق) جبل حديد الى كريتر . وكانت مسألة الماء من القضايا التي كانت تؤدي الى تبادل الهجمات بين الانجليز وأهالي الشيخ عثمان

وذلك بسبب فرض السلطان الضرائب والرسوم على أحمال المياه التي كانت تأخذها الجمال الى عدن كلما ساءت العلاقة بينه وبين الانجليز .

ونتيجة الوجود التركي الثاني في شمال اليمن فقد قام الانجليز بتوسيع منطقة نفوذهم فاستطاعوا بأثمان بخسة ان يشتروا عدن الصغرى من العقربي ثم الشيخ عثمان من السلطان العبدلي وذلك بمبلغ خمسة وعشرين الفا من الريالات . وكان ذلك عام ١٨٨٢ .

ويعود تخطيط مدينة الشيخ عثمان وبناؤها بالشكل الذي هي عليه الآن الى ما بعد ذلك التاريخ . اما مدينة الشيخ عثمان الأصلية فهي قرية الشيخ الدويل التي بجانبها قبر الولي والذي سميت المدينة باسمه .

وفي عام ١٨٨٥ م استطاعت شركة ايطالية تأسيس أول صناعة للملح في منطقة الشيخ عثمان وتبعتها في عام ١٨٩٩ م شركة هندية . وبسبب الحاجة الى مئات من العمال في هذه الصناعة الناشئة بدأت الشيخ عثمان تتوسع . كذلك بسبب ازدحام السكان في كريتر انتقلت اعداد لا بأس بها الى المدينةلا سيما وان مشكلة المياه لم تكن موجودة فيها مثل كريتر والمعلا والتواهي . كذلك فان هواءها البري العليل خاصة اثناء الليل قد جذب اليها بعض الموسرين من كريتر فكانت لهم بيوت في الشيخ عثمان خلال فصل الصيف أو بساتين ذات برك للسباحة في ضواحي المدينة .

وفي بداية هذا القرن دفن في المدينة الولي هاشم بحر وسرعان ما أصبحت زيارته أهم من زيارة الشيخ عثمان في «الشيخ الدويل» الذي سميت المدينة باسمه ، بل واصبحت زيارة الهاشمي تكاد تكون اهم زيارة في عدن . ولا شك ان موقع المدينة قد ساعد على جذب الناس اليها يوم الزيارة كنوع من الفسحة وللهروب من هواء كريتر الرطب الحار .

ويصف لنا الريحاني الذي زار عدن في مطلع هذا القرن هذا الولي بأسلوبه الساحر قائلا : (ان ولي الله هاشم بحر كان يشتغل حمالا عند احد التجار في كريتر . وقد لاحظ عليه صاحبه كثرة إدمانه تعاطي القات بعد الظهيرة والنوم الكثير في الصباح . وفي مرة من المرات جاء الى صاحبه وهو يحمل كيسا من النقود ، فترجاه ان يشتري له بقعة في الشيخ عثمان ليبني له عليها مسجدا لأنه أراد أن يطهر المدينة من اغراء الصوماليات وكذا من شر عساكر الانجليز الذين أفسدوا أخلاق الشيخيين بسبب ترددهم الدائم على أماكن البغاء . واشترى التاجر البقعة وبنى هاشم بحر عليها المسجد وبعد مدة بعث الله له الوحي بشكل (حُمى) فأوصى بأن يدفن جسده تحت قبة المسجد ولكن ذلك لم يكن ممكنا ما لم توافق سكرتارية المستعمرة على اعطاء الرخصة . فقام الوسطاء وذهبوا يطالبون الرخصة ولكن دون جدوى . فما كان من ولي الله الصالح الا ان بعث بانذار شفوي وهو على فراش الموت وهذا نصه : (قولوا للانجليز انني لن أموت ان شاء الله قبل الحصول على الرخصة) . فاعطيت له الرخصة لأن الانجليز كانوا يحتاجون الى ولي جديد في المدينة) .

وبالطبع فان اشارة الريحاني أعلاه الى أماكن

البغاء لم تكن اعتباطية او على سبيل النكتة . فالواقع أن الانجليز عندما خططوا تعمير الشيخ عثمان كان من أهدافهم انشاء أماكن بغاء لجنودهم في المدينة ، وبالفعل كانت المدينة محاطة تقريبا من جهاتها الأربع بشوارع خاصة لبائعات الهوى ، وقد استجلب معظمهن من الخارج خاصة من سواحل أفريقيا . وقد بقي البغاء يمارس رسميا في المدينة حتى الخمسينات من هذا القرن .

وفي الحرب العالمية الأولى تعرضت المدينة للهجوم التركي فقد استطاع علي سعيد باشا عام ١٩١٥ م ان يحتل لحج وانسحب الانجليز من مدينة الشيخ عثمان . وقد قام أهالي المدينة باعلان استقلال المدينةوعلى رأسهم أحد فتوات المدينة المشهورين وهو (بنتيشه) . وخلال تلك الايام التي لم تكن توجد سلطة في المدينةتعرضت بعض الدكاكين للنهب وقتل بعض التجار . وقد جاء بعض السكان بالأتراك وبقوا فيها بضعة أيام ثم انسحبوا منها فعاد الانجليز واحتلوها .

ومن المؤسسات القديمة في الشيخ عثمان والتي كانت تجذب الناس من الأرياف وشمال اليمن مستشفى الارسالية الذي كان يعرف باسم مستشفى كيث فولكنر والذي تأسس في بداية هذا القرن ، وقد ارتبط بالمستشفى قيام مدرسة فيه كان لها الفضل في تعليم الرعيل الأول من شباب الشيخ عثمان . وقد أصبح المستشفى يعرف فيما بعد بمستشفى عفارة وكان عفارة اول طبيب يمني .

كذلك فقد تأسست في الشيخ عثمان بعد الحرب العالمية الأولى مصابغ الثياب القطنية واصبح قسم من المدينة خاصا بذلك . وفي حارة اخرى (حافة دبع) كانت هناك صناعة الأنسجة القطنية اليمنية الشهيرة التي كانت زبيد ومنطقة تهامة مشهورة بصناعتها وهي «البرود اليمانية» . وقد انقرضت هذه الصناعات المحلية منذ الخمسينات ولا تزال بعض أعمال الصباغة باقية . ومن القبائل الأخرى بجانب أهالي دبع التي سكنت الشيخ عثمان اعداد كبيرة من المقاطرة من شمال اليمن وأصحاب لودر المحافظة الثالثة وبيحان الرابعة والسبب في ذلك لجوء كثيرين من المقاطرة بعد حروبهم المشهورة مع الامام يحيى في بداية العشرينات من هذا القرن أو في منتصف الثلاثينات بعد حركة حميد بن علي المقطري .

وازدادت أهمية الشيخ عثمان في بداية الثلاثينات عندما حفرت الابار الارتوازية في بستان الكمسرى واصبحت هي التي تزود كل مناطق عدن بمياه الشرب . في الجهة الشرقية من المدينة يصنع ياجور البناء (الطوب) وكل انواع المدر والفخار والخزف ولهذا سميت هذه الجهة بالممدارة . كذلك فقد كان نوع من العرق يصنع في تلك المنطقة ، وكان لليهود شوارع خاصة في الشيخ عثمان . وفي اضطرابات عام ١٩٤٧ م قتل منهم العشرات وهاجر الباقون الى الارض المحتلة وقد اقيم معسكر خاص في غرب المدينة سمي بمعسكر حاشد لتهجير يهود اليمن من هناك بعد الحرب العالمية الثانية . وفي الجهة الشرقية الجنوبية كانت توجد ثكنات جيش الليوي ـ الجيش اليمني المحلي ـ الذي أسس بعد الحرب العالمية الاولى . كذلك كان أحد بساتين الضاحية الشرقية مقرا للحرسين الحكومي والقبلي عند انشائهما في أواخر الثلاثينات . وفي عام ١٩٤٢ م تمرد أهالي الشيخ

عثمان في قضية القاضي عبد الله شرف وقتل منهم كثيرون دفاعا عنه .

وفي الخمسينات انشيء حوالي الف مسكن صغير مكون من غرفة صغيرة وبهو صغير في الجهة الغربية في المدينة لايواء الاعداد المتزايدة من السكان (حوافي اللبن) ، كما ترك للناس تعمير منطقة اخرى في الغرب خارج المدينة والتي عرفت فيما بعد بمدينة القاهرة . وفي احصاء عام ١٩٥٥ م بلغ سكان المدينة ٢٩,٨٧٩ نسمة .

دار سعد :

دار سعد أو دار الأمير كانت الى وقت الاستقلال هي أقصى نقطة جنوبية لسلطنة لحج تحاد مستعمرة عدن وتقابل ما كانت تعرف نقطة رقم (٦) من جانب المستعمرة أمام بوابة كلية عدن (ثانوية عبود حاليا) .وقدجاءت التسمية نسبة الى أحد أمراء العبادل الذي كان مأمورا فيها .

قبل عام ١٨٨٠ كانت دار الامير تدخل ضمن منطقة الشيخ عثمان وكانت الشيخ عثمان ذاتها عبارة عن مساحة مغطاة بالاشجار الكثيرة والكثيفة . الا أنه بعد أن « اشترى » الانجليز مدينة الشيخ عثمان من السلطان العبدلي بدأ كيانها يبرز كنقطة جمركية هامة للسلطنة وممراً للقوافل - ثم للسيارات فيما بعد ، المحملة بالبضائع والمسافرين الى شمال اليمن وعدد من السلطنات الغربية وخاصة الطريق أم رجاع - طور الباحة .

خلال الحرب العالمية الأولى والعشر سنوات التي تلتها زادت أهمية دار سعد بسبب عاملين جديدين ،

أولهما : يتعلق بالمواصلات والثاني بالناحية العسكرية . فعندما قام الأتراك عام ١٩١٥ ، بغزو محميات عدن من شمال اليمن استطاعت القوات التركية في أول زحفها أن تصل الى مدينة الشيخ عثمان ، ولكنها في الاخير قنعت في البقاء في سلطنة لحج طيلة بقية سنوات الحرب . لذلك فقد كان من الطبيعي أن تزداد أهمية دار سعد الاستراتيجية والعسكرية خلال تلك السنوات . كذلك فعندما استخدم القطار للمواصلات بين لحج وعدن فقد أصبحت دار سعد نقطة مهمة في طريق القطار أو (الريل) كما كان يعرف .

وبسبب قلة توريد البضائع والأغذية والملابس بالذات الى مستعمرة عدن مباشرة بعد سنوات الحرب العالمية فقد عمل بنظام البطاقة في توزيع هذه السلع على السكان في المستعمرة ، وتأسست ادارة رقابة عليها . الا أن تجارة التهريب في هذه السلع ازدهرت الى خارج المستعمرة وبالذات الى دار سعد لموقعها على الحدود . ومما ساعد على زيادة وتوسع تجارة التهريب عدم قدرة بوليس عدن على المراقبة المحكمة ثم اتباع المهربين رشوة افراد البوليس المكلف بالتفتيش في ثلاث نقط فقط هي باب السلب (قرب جبل حديد) ونقطة رقم (٤) في المملاح وأخيرا في نقطة رقم (٦) قرب دار سعد لذلك فقد كان المهربون يشاهدون وهم يركضون بعيدا عن نقاط التفتيش هذه والبضائع المهربة فوق ظهورهم على مرأى ومسمع رجال التفتيش . وفي عدة حالات كانت السيارات المحملة بالبضائع المهربة تحطم خشبة النقطة ولا تتوقف الا في دار سعد .

ونتيجة لتجارة التهريب هذه والتي كانت تعرف (بالبرشوت) فقد ازدهرت دار سعد

ازدهاراً كبيراً خلال تلك السنوات واثرى الكثيرون من المغامرين في تجارة التهريب تلك. وقد حفظ لنا الأدب اليمني مذكرات فكاهية حول تلك التجارة وهو كتيب (يوميات مبرشت) لعبد الله الطيب أرسلان.

وقد كانت دار سعد مأوى « للمزفرين » من مستعمرة عدن الذين كانت محاكم عدن تقوم بتسفيرهم ومنعهم منعاً نهائياً من الاقامة في عدن نتيجة قيامهم بأتفه الجرائم الجنائية أو اذا ما أعتبرتهم أجهزة البوليس من المتسكعين في شوارع عدن وكانوا من غير مواليد المستعمرة، وبالطبع فقد كانت أوامر التسفير تصدر بترحيلهم الى مناطقهم ولكن معظمهم كان يفضل البقاء في دار سعد ليكونوا على مقربة من عدن ولكي يقوموا بغارات انتقامية حقيقية فيما بعد. وبالفعل أصبحت أعداد منهم من المجرمين المحترفين من أجل كسب لقمة عيشهم وذلك بعد أن دفعوا الى ذلك دفعا.

وفي الخمسينات وخارج المدينة بالذات قامت تلقائياً وازدهرت زراعة الخضروات كالخيار والطماطم والبسابس في قطع أرضية صغيرة مستصلحة. وكان أصحاب هذه القطع الصغيرة من المهاجرين من تهامة لأسباب كثيرة منها هروبهم من الجور الامامي في شمال اليمن. وكل هذه القطع أو البساتين الصغيرة نشأت وانتشرت في « الخبوت » المحيطة بدار سعد والتي كانت مهجورة وليست ملكاً لأحد وذلك بعد أن حفر هؤلاء الفلاحون لهم الآبار لتسقيتها بالطرق البدائية التي لم يكن في مقدورهم غيرها. وقد عرفت هذه البساتين ببساتين « الأزبود » نسبة الى وادي زبيد أو بمعنى أصحاب تهامة. وقد كانت بساتين دار سعد هذه توفر جزءا لا بأس به من خضروات مدينة عدن وبالذات أسواق الشيخ عثمان منها. وقد أصبح « الأزبود » يكونون نسبة لا بأس بها من سكان دار سعد. كما أن نجاح بساتينهم الصغيرة هذه كانت الدافع، وبالذات في الستينات، الى اقامة عشرات المزارع الكبيرة بآبارها الارتوازية خارج مدينة دار سعد.

هذا وفي بداية الخمسينات أيضا تم بناء « كلية عدن » في المساحة الواقعة بين دار سعد ونقطة رقم (٦) ولكنها في الحقيقة كانت تقع داخل ضمن منطقة دار سعد. ومنذ ذلك الحين أصبحت بناية الكلية معلماً هاماً من معالم دار سعد، معلماً يبين للناظر العابر « الحدود » والفرق بين المنطقتين ...

وكان أكبر انتعاش تجاري لدار سعد في النصف الثاني من الخمسينات عندما منع مؤقتاً استيراد القات وتعاطيه في مستعمرة عدن. فقد استفادت دار سعد من هذا الحظر فأصبح القات يورد من الحبشة عبر جبوتي ومنها ينقل بالقوارب الى خور عميرة في السلطنة اللحجية ومن ثم بالسيارات الى دار سعد، أو أنه كان يستورد مباشرة اليها من شمال اليمن.

وكانت كل يوم تتقاطر مئات السيارات وآلاف الناس من عدن الى دار سعد لشراء القات وتعاطيه هناك. ونتيجة لذلك استفادت دار سعد من ذلك النشاط الطارىء ومن فرض الضرائب على تلك المادة التي كانت معظمها سابقاً تذهب الى خزينة المستعمرة. وكذلك فقد صادف منع القات نفي عدد من زعماء الأحزاب الوطنية آنذاك الى خارج المستعمرة. وقد أدى تجمعهم في دار سعد

الى اضفاء نوع من النشاط السياسي على النشاط الاقتصادي الطارىء .

وبعد رفع الحظر عن القات في عدن فقدت دار سعد ما كانت مؤقتا كسبته من الحظر ، الا أنها سرعان ما كسبت ـ وبطريقة أسلم ـ توسعا عمرانياً كبيراً في أواخر الخمسينات وفي الستينات وذلك نتيجة للأزمة السكانية الحادة في عدن بسبب زيادة السكان الهائلة فيها . فقد اضطر كثير من العمال في المستعمرة الى بناء أكواخ أو استئجار البيوت الصغيرة التي نشطت اقامتها في دار سعد في تلك الفترة . وحتى السلطان العبدلي بنى له قصراً جديداً في دار سعد ذاتها .

وخلال حرب التحرير ، وبحكم ان دار سعد كانت ـ شكلياً ـ تقع خارج نطاق أمن ولاية عدن ، فقد كان الثوار يستخدمون كثيراً من عششها مخابىء لأسلحتهم التي يستخدمونها ضد الانجليز في عدن . وعند وقوع الاقتتال الاهلي لعبت دار سعد دوراً بارزاً في حسمه لكونها كانت تتحكم بالطرق الرئيسية الآتية من الصبيحة وكرش .

المنصورة :

بدىء العمل في بناء المنصورة في أواخر الخمسينات واكتمل بناؤها في بداية الستينات حيث اعلنت التسمية بقرار من المجلس التشريعي السابق لمستعمرة عدن في عام ١٩٦٢ م. وقد بنيت المنصورة في المنطقة المعروفة سابقا بحاشد أو بمعسكر حاشد ، وهو معسكر مؤقت استخدم بعد الحرب العالمية الثانية لاستقبال اليهود من كل عموم اليمن وذلك عندما تمت هجرتهم الى فلسطين بواسطة الطائرات أو ما عرف بعملية البساط السحري .

ويرتبط نشوء المنصورة بالأزمة السكنية الحادة التي واجهتها المستعمرة في أواخر الخمسينات وبداية الستينات وذلك من جراء ازدياد السكان زيادة كبيرة بسبب عوامل كثيرة منها توسع القاعدة وجعلها مركزاً للقوات البريطانية في الشرق الاوسط وأهم قاعدة بريطانية شرقي السويس . وقد سبق بناء المنصورة وان كان على نطاق أصغر ـ بناء (القلّوعة) والقاهرة أو « منطقة ساعد نفسك » . وذلك في بداية الخمسينات كحل جزئي لمشكلة زيادة السكان بعد انشاء شركة المصافي البريطانية وتوسع حركة الميناء كمكان للترانزيت للبلدان المجاورة كشرق افريقيا والحبشة ومنطقة البحر الأحمر .

وقد صادف قيام المنصورة بداية العمل بنظام السلف لموظفي الحكومة وبعض الشركات كمحاولة لحل الأزمة السكنية . لذا فان كثيرا من بيوت المنصورة قد بنيت للموظفين في أشكال مستقلة من طابق أو طابقين يحيط بكل واحدة منها حوشها الخاص بها وتوجد بجانب هذه البيوت الخاصة تلك البيوت العامة التي بنيت للايجار العام بشكل شقق .

وفي القسم الغربي من المنصورة أقيمت ما تسمى بالمنطقة الصناعية كأماكن لصناعة المرمر ومواد البناء أو الجارجات ومصنع الكندادراي والمستودعات .

وقد ساعد بناء المنصورة على تخفيف هبوب الأتربة (الغوبة) على الشيخ عثمان أيام الصيف . فقد أدى تعاظم هذه المشكلة في بداية الخمسينات

إلى اقامة حزام أخضر من الأشجار غربي الشيخ عثمان لمنع هبوب الرياح على المدينة من ناحية المنصورة قبل بنائها ويوم كانت المنطقة لا تزال أكواماً من الرمال . وكان الحزام الأخضر هذا في البقعة التي شيد فيها مصنع الغزل والنسيج .

وقد تم بناء أسواق للحوم والسمك والخضروات للمنصورة بعد أن اكتمل بناء المساكن فيها . كذلك فقد أقيمت الحدائق العامة وشريط من التشجير جنوبها . ومن المرافق العامة التي كانت تسبب الازعاجات العامة للسكان هو استمرار تفجر أنابيب المجاري وذلك لأن المقاولين الذين تكفلوا بانشاء شبكة المجاري عند انشاء المدينة قبل الاستقلال لم يقيموها بموجب المواصفات الضرورية وذلك بسبب الرشوات الكبيرة التي كان يعطيها بعض المقاولين لبعض كبار المسؤولين من أجل الحصول على العقود الكبيرة لتنفيذ مثل مشاريع المرافق العامة هذه والتلاعب بالأموال العامة .

ومن معالم المنصورة الهامة سجن المنصورة وهو السجن السياسي المركزي الذي بناه الانجليز ابان الكفاح المسلح لاعتقال الثوار فيه بعد اتمام عملية استجوابهم وتعذيبهم في رأس مربط : وقد كان يوم السادس من ابريل ١٩٦٧ ، يوماً مشهوداً في تاريخ سجن المنصورة عندما جاءت بعثة الأمم المتحدة لتقصي الحقائق في الجنوب اليمني المحتل آنذاك .

ذهبت اللجنة في يومها الثالث في عدن لزيارة سجن المنصورة من أجل الاطلاع المباشر على حالة المعتقلين السياسيين فيه وقد حملتهم السيارات البريطانية المصفحة حوالي الساعة الخامسة من مساء ذلك اليوم . وما ان دخلوا باب السجن حتى قابلهم المعتقلون بالتظاهر والهتاف بحياة الثورة وسقوط الاستعمار . كما أن الثوار من خارج أسوار السجن ومن فوق بيوت المنصورة القريبة بدأوا بشن معركة كبيرة ضد السجن والقوات البريطانية الكبيرة المحيطة مستخدمين جميع أنواع الأسلحة من مدافع ورشاشات وبنادق وقنابل . وحوصرت البعثة داخل السجن الى بعد العشاء .

وفي الأخير اضطرت قوات الأمن البريطانية الى أن تهرب أعضاء اللجنة وتعيدهم الى فندقهم بطائرة الهليوكبتر ولم تسلم طائرة البعثة من رصاص الثوار وهي تولي الادبار . وقد أعيد بقية موظفي البعثة بواسطة العربات المصفحة .

ومن أعنف معارك حرب التحرير في عدن وخاصة بعد هزيمة ٥ يونيو ١٩٦٧ م. معارك الثوار ضد الدوريات البريطانية في المنصورة وكذلك ضد قواتها المتمركزة في المراكز ونقاط التفتيش وأبراج المراقبة المحاطة بالاشباك السلكية لصد الصواريخ وقنابل البلنسيد هناك .

وقد أراد الثوار انتزاع المنصورة من الانجليز . وأصبحت المسألة كما تشير الى ذلك الوثائق البريطانية (عبارة عن حرب مكشوفة تستخدم فيها كافة الأسلحة من مسدسات وبنادق وصواريخ ومورترز وقنابل وألغام على نطاق لم يعهد مثله من قبل في عدن . فلم تكن هناك مظاهرات أو تجمعات وانما جولة ثانية مستميتة من قبلهم ـ يعنون الثوار ـ لأخذ المنصورة) .

وفي الاقتتال الأهلي الثاني في الفترة ٣ ـ ٦ نوفمبر ١٩٦٧ م، دارت أهم المعارك في المنصورة . ولشراسة المعارك التي دارت هناك

والتي استخدمت فيها كافة الأسلحة بما في ذلك المصفحات ، اضطر معظم السكان الى أن يهجروا مساكنهم ، ولم يعودوا اليها الا بعد انتهاء الاقتتال الأهلي . وقد كانت كثير من بيوت المنصورة عبارة عن مخازن لأسلحة الثوار .

ويحيط الآن بالمنصورة من الناحية الجنوبية شريط من المساكن الشعبية والمدارس والمستشفيات ومصنع الغزل والنسيج في الجمهورية . وكل هذه المنشآت والمؤسسات قد تم بناؤها في السنوات الأخيرة القليلة فقط .

عدن الصغرى :

عدن الصغرى هي التسمية الحديثة (للبريقة) وقد أطلق هذه التسمية الانجليز بعد احتلالهم لعدن وذلك لكون البريقة هي المنطقة الوحيدة المحيطة والمقابلة لعدن والتي تشترك مع عدن في وجود الجبال فيها . (فشمسان هو أهم جبل في عدن ، بينما (احسان) هو أهم جبال البريقة) . وفي (تاريخ ثغر عدن) لأبي مخرمة ما يشير الى ان اسم جبل احسان القديم هو جبل عمران ، وان بحيرة الأعاجم بين عدن والبريقة استحدثت أيام الفرس .

وعندما جاء الانجليز الى عدن كانت البريقة جزءاً من السلطنة العقربية وقد ذكر ابي المجاور في العصور الوسطى اسم العقارب وبذلك تعتبر هذه التسمية أقدم من كثير من التسميات الحديثة لبقية السلطنات كالعبادل والعوالق والجواشب منذ بدء بروزها كامارات وسلطنات مستقلة عن السلطة المركزية في صنعاء بعد القرن الثامن عشر .

وعند مجيء الاستعمار البريطاني كان العقارب مع المناوئين الاشداء للسلطة البريطانية في عدن وكذلك كانت امارتهم في عداء مستمر مع جارتها السلطنة العبدلية خاصة عندما تكون الأخيرة متحالفة مع البريطانيين . لذلك فقد تعرضت قرية العقارب الرئيسية في (بير أحمد) الى أكثر من هجوم بريطاني / عبدلي مشترك .

لقد كانت مطامع الانجليز في بداية الأمر موجهة بالذات ضد (بير أحمد) أو (الحسوة) من السلطنة العقربية وليس ضد (البريقة) .

وفي الستينات من القرن الماضي ، وخاصة بعد انتقال الميناء من كريتر الى التواهي ، ثم بعد توسيع الميناء في التواهي نتيجة لفتح قناة السويس ومجيء الاتراك ثانية الى شمال اليمن ، فقد أراد الانجليز تأمين الجانب الغربي من الميناء من ناحية عدن الصغرى لخوفهم من وقوعه بيد اعدائهم الاتراك أو الفرنسيين الذين بدأوا ينافسونهم في مداخل باب المندب (كالشيخ سعيد) و (أوبوخ) و (جيبوتي) . ومما زاد في خوفهم أن الشيخ العقربي عرض في فترة من الفترات بيع أو تأجير ميناء البريقة (في الخيسة) الى الفرنسيين . لذلك فكجزء من سياسة الانجليز ، بعد السبعينات من القرن الماضي في مد القطر الدائري المحيط بعدن الى خارج الشيخ عثمان ، فقد قاموا بالضغط على السلطنتين العبدلية والعقربية من أجل شراء الشيخ عثمان وعدن الصغرى في الجزء الغربي من المشيخة العقربية . وقد تم لهم ذلك في الربع الأخير من القرن الماضي .

ومنذ شراء جبل احسان في عدن الصغرى لم يدخل الانجليز أي تطوير على المنطقة لأن

الهدف من الشراء كان لأسباب استراتيجية ولتامين ميناء التواهي لا غير . الا أنه بسبب ازدهار تجارة الملح في عدن بعد الحرب العالمية الأولى فقد قامت بريطانيا بتأجير مساحات كبيرة من عدن الصغرى لاحدى الشركات الاجنبية لاقامة أحواض تجفيف الملح من مياه البحر عليها وصناعته هناك .

وقد استمر المجتمع الصغير لعدن الصغرى خاصة في (الخيسة) مجتمعاً يعتمد أساساً في حياته على صيد الاسماك وتوريدها الى أسواق عدن . ولم تعبد الطريق الى عدن الصغرى الا بعد الخمسينات من هذا القرن ، لذا فقد كانت الرحلة منها والى عدن شاقة وتمر عبر أكوام من الرمال . ولأن مجتمع عدن الصغرى كان في الأساس مجتمع صيادين قائماً بذاته وبعيداً عن مؤثرات المدينة فان لديهم فولكلورهم الخاص والمتميز ، وكان موضوع دراسة جيدة للمستر مايرز بعنوان « فولكلور عدن الصغرى ».

بعد أن أمم مصدق البترول في ايران قرر الانجليز انشاء مصفاة لهم في عدن الصغرى كلفهم بناؤها (٤٥) مليوناً من الجنيهات . وكان من الطبيعي أن يولِّد بناء المصفاة أولاً ثم تسييرها بعد ذلك نشاطاً اقتصادياً وحركة سكانية وعمالية واجتماعية لم تعهد المستعمرة مثلها من سابق ، فنتيجة لذلك قامت مدينة عدن الصغرى الحاضرة بمختلف انماط ودرجات بيوتها المتطورة وأصبحت المدينة الصناعية الأولى في عدن وملتقى لمختلف الكفاءات المتخصصة والفنية . فالقيادات الفنية والادارية كانت من الانجليز والاجانب وأما العمال والوظائف المكتبية والفنية المتوسطة فكانت بيد اليمنيين والصومال . وقد التحق في شركة مصافي البترول البريطانية عندما افتتحت عام ١٩٥٣ م، حوالي (٢٥٠٠) عامل وموظف مباشرة وبدون وساطة « المقادمة » كما كان الحال في الشركات الأجنبية في السابق . وقد عاش معظم الموظفين في المساكن التي بنيت لهم حول المصفاة .

بعد فترة وجيزة من افتتاح المصفاة حدثت اشتباكات خطيرة بين الموظفين والعمال من الصومال واليمنيين . وقد أدت تلك الاشتباكات الى أن يفقد البعض حياتهم كما تدخل بوليس المستعمرة بالسلاح في تلك الاشتباكات . والواقع ان تلك الاشتباكات في عدن الصغرى قد أدت فيما بعد الى تنظيم العلاقات الاجتماعية الى الأحسن فيما بين اليمنيين والجالية الصومالية عموماً في عدن كلها . وبعد تلك الحوادث اتبعت شركة المصافي سياسة تشجيع اكتتاب العمال الجدد من السلطنات والامارات التي كانت متحمسة للدخول في مشروع الاتحاد الذي كان الانجليز يخططون في منتصف الخمسينات الى اقامته .

وبعد بروز القوة العمالية في المستعمرة خاصة بعد انشاء المؤتمر العمالي كانت نقابة مصافي البترول تعتبر من أقوى النقابات وأصلبها وأكثرها تنظيماً وذلك بحكم أن عمال المصفاة هم أكثر العمال في المستعمرة الذين تنطبق عليها بدرجة أكثر صفة البروليتاريا ، وذلك لارتباطهم بصناعة وتكرير البترول وليس بالنشاط الخدماتي عموماً . وقد استطاعت نقابة المصافي أن تهدد بايقاف حركة المصفاة عندما قامت باضرابها الطويل وقتذاك . وكانت دائماً من النقابات الرائدة في الحركة العمالية .

وكانت (عدن الصغرى) اول منطقة في ولاية عدن تنسحب منها القوات البريطانية في شهر سبتمبر ١٩٦٧ وتسلم الى مسئولية الجيش العربي آنذاك .

وفي الأول من مايو ١٩٧٧ آلت ملكية شركة مصافي البترول الى جمهورية اليمن الديمقراطية الشعبية . وهي تكوّن الان احدى الدعائم الاقتصادية الأساسية للجمهورية .

* * *

كشف بالموجودات الأثرية بالمتحف الوطني بصنعاء

(الرقم المتسلسل بالسجل العام)

١ مبخرة من الحجر على شكل كأس عليها زخارف كلاسيكية عبارة عن ضفيرة من الزهور معلقة بواسطة حلقات اما القاعدة فهي مزخرفة بصف من شجر النخيل - حجر كلسي .

٦ مائدة قرابين لها ميزابان على شكل رأس ثور يظهر على جانبها الآخر سطران من الخط المسند - حجر كلسي .

٧ مائدة قرابين مكسورة إلى قسمين يظهر على احد جوانبها سطران من خط المسند - حجر كلسي .

٨ ميزاب من الحجر على شكل رأس ثور له عقد حول الرقبة - حجر كلسي .

١٠ قطعة عليها زخارف تمثل ثمانية رؤوس لحيوان الوعل وقد ظهرت أرجله الأمامية - حجر كلسي .

١٣ ميزاب من الحجر على شكل رأس ثور اذنه اليسرى مفقودة - حجر كلسي .

٢٣ تاج عمود عليه زخارف تمثل ورقة الأكانتس - حجر كلسي

٤٤ مقدمة مائدة قرابين تمثل رأس ثور - حجر كلسي .

٤٨ ميزاب من الحجر على هيئة رأس ثور - حجر كلسي .

٥٠ مائدة قرابين صغيرة مدرجة تمثل رأس ثور - رخام

٦٦ قطعة عليها كتابة من ثلاثة سطور - رخام .

٦٩ لوحة على نحت عبارة عن رجل رافع يده اليمنى وضع للصلاة وعليها نقش يظن أن أحدهما لتوضيح اسم المتقرب أو صاحب الصورة ويظهر أعلى اللوحة ثلاثة رؤوس ثور كرمز للاله المقه - رخام .

٧٠ لوحة عليها زخرفة تمثل رأس ثور للاله المقه (النسر) والجزء السفلي قاعدة - رخام

٧١ لوحة عليها امرأة بيدها اليسرى حرز على شكل حلية وترفع يدها اليمنى في وضع الصلاة وحول عنقها قلادة وعقد من المجوهرات الدقيقة (رأس غزال مقلوب) أما النقش فهو للدلالة على اسم صاحبة الصورة او اسم من قدم القربان ـ رخام .

٨٣ قطعة من عقد مزخرفة برسم النسر وحرفين من حروف الحميرية هما (و ـ م) ـ رخام .

١٢٨ مبخرة عليها زخرفة من رمز القمر والشمس ـ حجر كلسي .

١٥٦ تمثال صغير يمثل سيدة جالسة وفي الخلف توجد كتابة ـ حجر كلسي .

١٦٣ تمثال صغير يمثل سيدة جالسة وبه فجوتان لتعليقه منها وكتابة بالقاعدة ـ حجر كلسي .

١٧١ لوحة عليها شكل رأس آدمي له لحية والعينان مفقودتان ، ويظهر عليها اسم صاحب اللوحة بالخط المسند وهو « وحبل » ـ رخام

١٧٩ رأس رجل كاملة وله لحية ـ رخام

١٩٥ ـ تمثال لطفل صغير جالس القرفصاء ـ برونز

١٩٨ قدم يمنى بها صندل ـ برونز

١٩٧ ـ الجزء الأمامي من يد تمسك عصا ـ برونز

٢٠١ قدم حيوان خرافي لها أربعة مخالب أحدها مفقود ـ برونز

٢٠٨ قدم حصان بها حافر ـ برونز

٢٦٢ تمثال لرجل يلبس جلد أسد ومكتوب على كتفه اليسرى « معد يكرب » ـ برونز

٢٦٣ تمثال لرجل على صدره ١٠ أسطر ، والساقان مفقودتان ـ برونز

٢٦٤ تمثال رجل ، الساقان مفقودتان ، والرأس الموجود غير تابع للتمثال ـ برونز

٢٦٩ قطعة عليها نسر يتقاتل مع حيتين (ثعبانين) ـ رخام

٢٧١ قطعة عبارة عن شاهد قبر عليها رسم الميت محفورة داخل شباك مربع ـ رخام

٢٧٧ عمود منقوش عليه أوراق هندسية الشكل ـ حرض ـ من قصر غمدان ؟

٢٨٠ قطعة عليها رؤوس غزلان ـ رخام

٢٨٢ مكيال للحنطة ؟ له مقبضان الأول أفقي والثاني عمودي ، وعلى جهة واحدة منه يوجد كلمتان وعلى الجانب الآخر رمز واحد وشعاران ـ برونز (غيمان ؟)

٢٨٣ جرة عليها قاعدة صغيرة خشنة ـ فخار .

٢٨٨ ثور على قاعدة بها ٥ درجات ـ رخام

٢٨٩ تمثال امرأة تحمل بيدها اليسرى إناء وفي اليمنى سنابل القمح وذراعاها مكسوران ـ برونز

٣٣٨ نقش كبير الحجم به سطر واحد ـ حجر كلسي

٣٧٣ قاعدة لتمثال عليها ٧ أسطر مهداة الى ثعلب رعام وعلى قمتها حفرتان ـ حجر كلسي

٣٨٣ قطعة عليها سطر واحد من الكتابة ومنقوش عليها رأس ثور ـ رخام

٣٨٤ قطعة مربعة تقريبا وبها أربع حفر وسطر واحد من الكتابة من الجهات الثلاث ـ حجر كلسي

٣٩٨ قطعة من نقش تبدأ الكتابة فيه من اليمين ويحتوي على ١٠ أسطر مقدمة كقربان ـ حجر كلسي .

٤٠٠ مبخرة ذات قاعدة هرمية ومنقوش عليها من الأمام رأس ثور وبعض الحروف وعلى

القاعدة خمسة أسطرة مهداة كقربان - حجر كلسي .

٤٣٨ قاعدة تمثال عليه رمز وعدد ١٤ سطر تنتهي بوريدات - حجر كلسي - معبد مأرب .

٤٥٣ قطعة من معبد عليها زخرفة عبارة عن وعول سائرة وثلاثة أسطر ، وجزء من السطر الأول - رخام - مأرب

٤٥٧ افريز من رؤوس الثور - رخام - مأرب

٤٦١ وعول رابضة في الجانب الأيمن من عنصر هندسي معماري - رخام - مأرب .

٤٦٩ مبخرة الجزء الأعلى منها ذو قسم مستطيل ، والجزء السفلي هرمي الشكل - حجر كلسي .

٤٧١ قاعدة تمثال ذات قسم مستطيل ودرجات هرمية الشكل والقسم المستطيل يحمله ٤ درجات عليها نقوش - حجر كلسي .

٤٧٨ دعامة قائمة بها فتحتان مجوفتان بداخلهما رسمان لوجهين وفوق الفتحتين يوجد نقش من سطر واحد - حجر كلسي .

٤٨٣ قاعدة مستطيلة وعلى درجات الواجهة الأمامية يوجد نقش - رخام - براقش اللسان .

٤٩٦ قطعة عليها وجه بارز ، والعينان ملبستان بقشرة حجر كلسي - الجوف

٤٩٧ مائدة قرابين بوسطها ميزاب وعليها نقش من سطرين - حجر كلسي - الجوف

٥٠٣ قطعة حجرية عليها هيئة وجه ونقش مكون من سطر واحد معناه : يحما - حجر كلسي - الجوف

٥٣٢ قطعة عليها تصميم وجه بارز قليلاً وعليها اسم : سلمن / . . / - حجر كلسي الجوف

٥٤٩ عتبة نافذة عليها ثور يهاجم أسداً ، وعلى اليمين رسوم مكونة من اسم شخص - حجر كلسي - ريده .

٥٥٢ لوحة لتخليد الذكرى عليها صورة ثور مجنح ويظهر فقط رجلان من أرجله وجزء من جسمه - رخام - مارب .

٥٥٩ رسوم على حجر بازلت عليها بعض الحروف - بازلت - مقوله .

٥٨٩ عمود ذو قاعدة وتاج عليه أوراق الاكنتس والقاعدة عليها زخارف وريدات - حجر كلسي - ظفار

٧٠٣ قطعة من بلاطه بالجانب الأيسر منها زخارف عبارة عن صف مركب فوق آخر من الوعول الرابضة - حجر كلسي .

٧٠٦ قطعة من بلاطة عليها زخارف بالجانب الأيسر تتكون من صفوف مركبة من الوعول الرابضة يظهر ثلاثة منها وبقايا لسطرين تكون نقشاً حجر كلسي .

٧٢٢ قطعة من بلاطة عليها زخارف من صفوف من رؤوس الثور واسفلها صف من الاسنان البارزة - حجر كلسي

٧٢٦ قطعة من بلاطة الزخارف العليا بها تتكون من صف من اثنين من رؤوس البقر الوحشي وأسفله صف مفرد من الاسنان المستطيلة - حجر كلسي .

٧٣٢ رأس رجل له لحية ملساء ورأسه كما لو كانت صلعاء - رخام احمر مخضر .

٧٣٣ رأس رجل له حاجب وأعين محزوزة ،

والشعر مصمم بطريقة مجعدة والأنف طويل الى حد ما ـ رخام احمر مخضر .

٧٣٤ ـ رأس امرأة ذات شعر متموج ومسترسل خلف اذنيها ومتساقط اسفل الرأس من كلا الجانبين ، ولها عينان متسعتان ـ رخام

٧٣٩ قطعة من نقش يحفظ الجزء العلوي ومحاط بإطار مسطح ويوجد على النقش سطران محزوزان وعلى الظهر ثلاثة رؤوس مزيفة ـ حجر كلسي .

٧٤٨ قطعة صغيرة لها إطار بسيط وعليها رسم له ملامح بشرية داخل برواز وساعده الايمن مرفوع ويده مفتوحة ومن أسفل يوجد نقش غير واضح من سطر واحد ـ حجر جيري ـ ظفار

٧٦٩ قطعة من بلاطة أو عضادة باب عليها الواح أفقية من رسوم الثعابين المتشابكة فوقهم بقر وحشي رابض وذو قرون طويلة جداً ، والرسوم مصممة بحزوز سطحية جداً وغير عميقة ـ حجر كلسي .

٧٧٠ قطعة من بلاطة أو عضادة من باب مزخرفة بثلاثة الواح رأسية من اليمين لليسار ! بقر وحشي ، رؤوس وعول رابضة ، وخط متموج والزخارف كلها في بروز منخفض ـ حجر كلسي

٧٧٨ قطعة عليها كبش يقف منتصباً على قدميه الخلفيتين وعليها ثقوب غير عميقة ـ حجر كلسي .

٨١٥ رأس بشري ذو وجه ممتلىء وأنف طويل مستقيم وعينان خفيفتا الصب ـ رخام

٨٣١ رأس بشري ذو وجه ممتلىء وأنف طويل وعريض والعينان محزوزتان وبهما صب خفيف والأنف طويل وعريض والشفتان ممتلئتان والحاجبان والشارب منفذون بالحز واللحية صغيرة ملساء ـ رخام

٨٣٩ بلاطة كبيرة عليها نقش محزوز به ٢٠ سطراً ومن بدايته يوجد رمز لقياس الارتفاع لسطرين من الحروف ـ حجر كلسي .

٨٦٩ تمثال صغير لثور ذي أرجل قصيرة جداً ورأسه منحن للأرض والأذنان والعينان بصلية الشكل وناتئة ، والذيل على هيئة منحنيات أفقية ـ رخام

٨٧٠ رأس بشرية رقيقة الحفر وذات ملامح واقعية والعيون مطعمة بالحجر الأبيض وبها بقايا طبقة زجاجية زرقاء والجزء العلوي من الرأس مسطح خشن كأنه شعر متصل بطبقة الرأس ـ رخام

٨٧٦ قطعة من نقش بارز عليه ثلاثة حروف (ح ب ن) وعليه بقايا لرسوم مكونة من حروف اسم شخص على الجانب الأيسر ـ حجر كلسي .

٨٨٤ افريز عليه ٦ من رؤوس الوعل وأسفلها يوجد خطان محزوزان متوازيان ـ ذمار .

٨٩٢ قطعة من افريز من رؤوس الثور وبه رأسان كاملان ـ حجر كلسي ـ مأرب .

٨٩٤ قطعة من لوحة مزخرفة وسطها محفور وبه رأس ثور وإلى اليمين رأس آخر ولليسار بقايا نقش من سطرين ـ حجر كلسي ـ مأرب

٩٢٤ قطعة من لوحة تحفظ جزءاً من الحاشية العليا لنقش وعليها ٤ أحرف بارزة كبيرة هي ح ل ؟م س ـ برونز .

٩٥٩ لوحة صغيرة لتخليد الذكرى هيئتها محزوزة وواجهتها كاملة والشعر متهدل على الكتفين وترتدي ثوباً ثميناً والرقبة مزينة بعقد وفي الأيدي سوارات ، وهو (هي) تمسك فرع زيتون باليد اليمنى ، وعلى اليسار طائر بمحاذاة الرأس ـ رخام

١٠١٤ قاعدة عمود مزخرفة على ثلاثة جوانب منها ، الجزء العلوي مسجل عليه افريز من رؤوس الثور والسفلي عليه وريدات كما يوجد على الجزء العلوي دوائر ذات حنايا قليلة العمق ـ حجر كلسي .

١٠١٦ قطعة عليها زخارف ـ بالجزء العلوي ثلاثة وعول رابضة ، وبالسفلي منظر رجل ذو لحية يحمل قوساً ويواجه وعلاً واقفاً على قائمتيه الخلفيتين ، ومجموعة مشابهة على نصف المنظر بالجانب الأيمن ، وباقي الزخارف رأس وعل ورأس الرجل فقط ، وعلى الجانب العلوي جزء من وعل رابض وكلا الجانبين محاطان بقرون الوعل ـ حجر كلسي .

١٠٤٦ تمثال لأنثى تستند على ذراعها اليسرى وترتدي رداء طويلاً وتلفها ملابس ثقيلة حول ساقها ـ برونز ـ مأرب .

١٠٤٨ قطعة من نقش مكون من ١٢ سطراً ـ رخام ـ مأرب

١٠٥٠ تمثال لأنثى تقف على قاعدة بسيطة ويدها اليمنى مرفوعة في تضرع وراحة اليد مفتوحة ، واليد اليسرى تمسك حزمة من سنابل القمح ، وهي ترتدي رداء طويلاً وتلبس في رقبتها عقداً به رأس وعل ـ مرمر ـ الجوبه

١٠٥٤ قطعة مقسمة لقسمين زخارفها تعرض مناظر جنائزية مع عازف موسيقى ـ رخام ـ خولان

١٠٦٣ رأس بشرية عليها تصميم لحية كاملة وأسفل الذقن تبقى حافة كاللسان لتثبيت الرأس على القاعدة ـ رخام .

١٠٦٨ رأس بشرية عليها ملامح محزوزة والرقبة طويلة وقمة الرأس والظهر محفوران بخشونة ـ رخام .

١٠٨٧ رأس رجل منفذة بحفر دقيق ، اللحية والشارب تم تصويرهما بواسطة ثقوب وجزء من الذقن والرقبة مفقود والأذنان منفذتان بخشونة والعيون بها خطوط شعاعية ـ رخام .

١١٠٦ رأس امرأة شعرها بشكل خلفية للرأس وقائمة الزوايا ، وفتحات الأنف وزاويتا فمها مثقوبة ـ رخام ـ مأرب والجوف .

١١٢٧ الجزء الأيسر للوحة عليه صورة رجل محفورة وهو يقف بشكل مواجه للناحية اليسرى وذراعه الأيمن مرفوع وفوق رأسه فاكهة ـ رخام .

١١٢٨ لوحة يحتمل ان يكون عليها صورة امرأة بشكل بارز قليلا وكلتا اليدين ممدوتان باتجاه اليسار ، ولها شعر طويل وفستان طويل ، وأعلى الرأس ستة أحرف منقوشة ، ويحتمل أن تكون قد أضيفت مؤخرا ـ رخام .

١١٣١ لوحة حائطية كبيرة عليها وعل مع كلب ينقض على ظهره ومن الوسط محارب يحمل

حجر (الشبك) وسهماً وفي يده اليمنى رأس وعل وعلى اليسار صورة لأنثى مستقيمة ومن أعلى يحتمل أن يكون أربعة أرجل لعجل - حجر كلسي .

١١٤٠ جزء من لوحة حائطية كبيرة محفور عليها افريزان مجوفان في كل منهما يوجد وعل رابض بشكل جانبي ويواجه اليسار - حجر كلسي .

١١٤١ جزء من لوحة حائطية كبيرة محفور عليها افريزان مجوفان في كل افريز يوجد وعل رابض جعل بشكل جانبي يواجه اليسار - حجر كلسي .

١١٨٨ غطاء جرة بها ثقب طولي محفور من بروز مرتفع على القمة - رخام .

١٢٢٢ كتلة عليها نقش مكون من ٤ أسطر محفوظة والحافة اليسرى مفقودة - حجر كلسي .

١٢٤٣ لوحة صغيرة (لتخليد الذكرى) النصف العلوي منه به ثلاثة أسطر محزوزة أسفلها أسد رابض - رخام .

١٢٨٨ رأس ثور ضخم ، عليه حفر دقيق جدا - حجر كلس ؟ (أوجرانيت) ؟

١٢٩٠ رأس ثور ضخمة وتذكارية عليها شريط من الزخرفة حول الرقبة عبارة عن مجموعة من الخطوط المتعاكسة يحظرها إطاران ، إحدى الأذنين مكسورة - حجر كلسي .

١٣٢٠ قطعة معمارية مزخرفة محفورة من الأمام بواسطة ثلاثة أبواب وبين الأبواب أشرطة زخرفية أفقية وصفوف من الأسنان المربعة - رخام .

١٣٣٠ تمثال لأمرأة جالسة وعارية ورجلاها ممدودتان ، وجزء من ذراعيها مفقود وهي ترتدي عقداً في رقبتها ويتشكل بواسطة فتحات مثقوبة - تراكوتا .

١٣٣٩ شكل بشري واقف له نهدان بارزان ورأس حيوان - تراكوتا .

١٣٤٤ شكل بشري واقف والجزء السفلي على شكل مخروط يتسع عند القاعدة والذراعان مكسورتان وترتدي في الرقبة وعلى الصدر مجموعة من العقود وتزين بثقوب حول الصدر وأسفل السرة - تراكوتا .

١٣٦٨ تمثال صغير لامرأة بدون رأس وبسيط التشكيل وعلى الرقبة خط محزوز حتى السرة وترتدي عقداً من صفين وإحدى الذراعين مكسورة والجزء السفلي من الجسم على شكل مخروط يتسع عند القاعدة وشعرها ينسدل لأسفل على شكل مثلث على ظهرها - تراكوتا - صوانا (مأرب) .

١٤٢٣ قمة ثعبان تشبه رأس بشرية من قمتها ، وأسفل الأنف توجد مجموعة من الخطوط المحزوزة - تراكوتا .

١٤٤٩ تمثال صغير لجمل الذيل على هيئة بسيطة - تراكوتا - مأرب .

١٤٥٠ تمثال صغير يمثل كلباً ؟ الأعين تمثل بفتحات مثقوبة والجزء السفلي مكسور - تراكوتا - مأرب .

١٤٦٩ تمثال صغير يمثل جملاً له سنم واحد ، وعلى الجسم يوجد طلاء أحمر - تراكوتا - مأرب والجوف .

١٤٩٢ قطعة عبارة عن لعبة أطفال لها رأس حيوان - تراكوتا - مأرب والجوف .

١٥١٣ جرة صغيرة ذات قاعدة دائرية وحافتها تتسع نحو الخارج ويزين القاعدة والرقبة كفان بطلاء أحمر - قهار - مأرب .
١٥٢١ جرة كبيرة ذات قاعدة مستديرة وبدن الجرة دائري والحافة مموجة وتتسع للخارج وعلى الرقبة يوجد خط محزوز والحجرة مرممة بسلك كي تتماسك ببعضها - قهار - مأرب .
١٥٢٧ جرة صغيرة من الفخار الأحمر البراق عليها تموجات باللون الأحمر كزخرفة على الحافة والرقبة والبدن والقاعدة مقعرة قليلا - فخار - الجوف .
١٥٧١ اناء خال من الزخارف وذو حافة مستديرة وقاعدته دائرية أيضا والاناء دقيق الصنع برونز مأرب أو الجوف ؟
١٥٧٢ اناء ذو قاعدة مسطحة وبدن مقعر ينتهي بحافة مفلطحة وسميكة ومستديرة .
٨٦٤ رأس بشرية قمتها مسطحة والعينان بهما صب خفيف والأنف منحوتة بطريقة بسيطة - مرمر .
٨٦٥ تصميم لرأس وعل ذات أنف طويل وعيون بصلية الشكل ، وهي قطعة من افريز - حجر كلسي .
٨٦٧ تمثال لثور من تصميم مستطيل الشكل ، رأسه وذيله بارزان وبدون أرجل ، وله عينان دائريتان وبصليتا الشكل - حجر كلسي .
٨٧٨ مبخرة ذات بدن اسطواني وقدم قصير باق جزء منها والواجهة الأمامية مرتفعة ومزخرفة بهلال وسطه قرص شمس وهما يوجدان بين شريطين أفقيين والمبخرة يتوج قمتها فتحات مسننة كالشرفات - برونز .
٨٨٤ افريز عليه ٦ من رؤوس الوعل مع أجسامهم بالنهاية الأخرى منه ، وأسفلهم يوجد خطان محزوزان ومتوازيان - مرمر - ذمار .
٨٩٢ قطعة من افريزلها رؤوس الثور ، وعليها اثنان مكتملان - حجر كلسي - مأرب .
٧٩٧ قطعة من لوحة مزخرفة ومن الجانب الأيمن منها يشتمل على شجرة نخيل - حجر كلسي .
٩٠٦ قطع من نقش بها سطر واحد مكتمل وجزء من سطر ثان والأحرف محزوزة بطريقة جيدة - حجر كلسي .
٩٠٧ قطعة من نقش محزوز بها جزء من سطرين هما :
١ - سمسهع/ بذرح
٢ - الم / عينز حجر كلسي .
٩١١ تمثال ذو هيئة بشرية وجسمه له شكل مستطيل وملامح خشنة الحز ويحتمل ان يكون مزيفاً - حجر كلسي .
٩٢٤ قطعة من لوحة تحفظ جزءاً من الحاشية العليا لنقش وعليها ٤ حروف بارزة وبحجم كبير هي :
ح ل (؟) م س (برونز) .
٩٣٣ قطعة من لوحة عليها نقش من سطر واحد هو :
عبد / هذب حجر كلسي .
٩٤٤ لوحة حجرية عليها تصميم وجه محزوز أسفله اسمه وهو : بطل الحرب - حجر كلسي .

٩٥٩ لوحة صغيرة لتخليد الذكرى محزوزة وواجهتها كاملة والشعر متهدل على الكتفين وترتدي ثوباً ثميناً والرقبة مزينة بعقد وفي الأيدي سوارات وهي (هو) يمسك فرع زيتون باليد اليمنى وعلى اليسار يظهر طائر بمستوى الرأس ومن اسفل يظهر طائر بمستوى الرأس ومن اسفل لوح مستطيل وتصميم رسم يبدو كأنه لامرأة مسيحية أثيوبية ـ مرمر .

٩٩٤ تمثال صغير يمثل خروفاً ظهره به تقعرات خفيفة ـ حجر كلسي .

١٠٥٣ قاعدة تمثال منقوشة عليها ما يشبه الثعبان كرمز من قمة الركن الأيمن وعلى النقش ٣٦ سطر محزوز وعلى قمة القاعدة يوجد اثر لقدم يمنى ـ حجر كلسي .

١٠٦٢ مبخرة صغيرة عليها في المقدمة هلال بوسطه قرص الشمس محزوزان والجزء العلوي له جوانب مدرجة ـ حجر كلسي .

١٠٧٠ رأس بشرية صغيرة محفورة على خلفية من كتلة صلبة مستطيلة ـ مرمر .

١٠٧٢ رأس بشرية وعليها شعر طويل حفر على خلفية كتلة حجرية وقمة الرأس وظهرها تركا خشنين ـ مرمر .

١٠٨٢ رأس محفورة بدقة وهي لرجل له شارب ورقبة طويلة ـ مرمر .

١٠٩٠ رأس رجل جيدة ودقيقة وخلفيتها المثبتة عليها حجرية صلبة ، والأذنان محفورتان بزخرفة حديثة وله لحية وشعر منفذ بخشونة ـ مرمر .

١٠٩١ رأس دقيقة لامرأة محفورة جيدا وباق منها الجزء السفلي الأيمن من خلفيتها ، وثني العينين مثقوب وشعرها منفذ بخشونة ـ مرمر .

١١٣٦ افريز بصف متناسق من رو وس بقر الوحش قاعدته مسطحة ـ حجر كلسي .

١١٩٠ رأس ثور عليها حفر دائري ومكسورة من الرقبة والقرون ـ مرمر .

١٢٥٢ لوحة جنائزية كبيرة (لتخليد الذكرى) عليها جزء من السطح مجوف ومحفور عليها شكل يمثل صياداً أو محارباً يحمل بيديه قوساً وسهماً ورمحاً يرتدي رداء قصيراً ذا ثنيات طولية . وحول الاطار المجوف يوجد نقش ـ حجر كلسي .

١٢٥٦ جزء من مبخرة ؟ وعلى الوجه مساحة مجوفة عليها هلال وسطه قرص الشمس وبقايا بعض الحروف البارزة ـ حجر رملي .

١٢٦٣ قطعة من لوحة حائطية بهاحافة مستوية وفي المركز زخرفة ممثلة من عناقيد العنب وورقه ، والحفر دقيق ـ مرمر .

١٢٩٠ رأس ثور ضخمة (تذكارية) بها شريط من الزخرفة حول الرقبة عبارة عن مجموعة من الخطوط المتعاكسة يحصرها إطاران ، إحدى الأذنين مكسورة والقمة ملساء ومسطحة ـ حجر كلسي .

١٣٠٩ غطاء اناء فخار عليه شكل بشري متكىء على ظهره على قمة الغطاء ـ مرمر .

١٣٢٤ رأس تخطيطي لامرأة عليها من أعلى ما يشبه التاج وملامح الوجه غير متقنة ـ تراكوتا ـ

١٥٢٩ ابريق صغير له قاعدة دائرية ورقبة مستقيمة وله مقبض عمودي من الحافة الى الاكتاف

وتوجد بعض الأشرطة الملونة على البدن - فخار - الجوف .

١٥٣٤ جرة صغيرة بدنها باللون الأحمر وبها شريطان واحدهما يزين الرقبة والآخر القاعدة والحافة متسعة ومفلطحة - فخار - الجوف .

١٥٦٠ اناء بيضاوي الشكل مقسم الى قسمين بحاجز مرتفع والقاعدة مستديرة ، والاناء لونه اصفر - فخار - الجوف .

١٥٨٤ مصباح من الطين الاسود المحروق بشكل هلينستي وملبسه داخل حلقة من قالب الجبس ، وله فتحة واحدة - جبس / فخار .

١٠٦٥ رأس صغير لطائر والأعين مثقوبة وتوجد خطوط محزوزة تبين الفم وعلى الرقبة - رخام - مأرب والجوف .

١٦١٥ تمثال صغير لثور يقف على قاعدة مستوية ، القدمان الخلفيتان - منحوتتان بقطعة واحدة واحدى القدمين الأماميتين مفقودة - جبس / إب .

١٦٢٨ مبخرة قسم منها مستطيل أسفله قاعدة طويلة تتسع عند نهايتها وعلى القاعدة نقش من ٤ أسطر - حجر كلسي مأرب والجوف .

١٦٤٤ رأس بها العينان محزوزتان والحواجب ايضا والفم مستدير ، والأنف مشطوفة وقمة الرأس ظهرها خشن - مرمر .

كشف بأسماء القطع الأثرية الموجودة في المتحف الوطني (من القطع الفضية والحلي وغيرها)

مسلسل	عدد	الوصف	العدد	ملاحظات
١	١	دقة تحتوي على ثماني حبات وقفلها عبارة عن حرز كبير مجوف ومحبب ويتدلى من الحرز خمسة ريالات سعودية فضية ومزينة بالجناجل . المقاسات : ارتفاعها = ١٢ سم .		
٢	٢	حق لوضع البخور فيه وهو من النحاس مطلي بالفضة له قاعدة مسطحة وأعلاه مدبب يرتبط غطاؤه بأصله بواسطة سلاسل وبجوانبه جناجل مزينة .		
٣	٢	اثنان أو اثنتان من الاخراص الواحد منها عبارة عن ريال ماريتريزا مزينة بجناجل تحتوي على قطعة فضية من العملات الامامية الصغيرة منها اربع بقش وبقشتين . .		

مسلسل	عدد	الوصف	عدد	ملاحظات
٤	١	حلية صدرية على شكل هلال مزينة بسلاسل فضية مترابطة (مزينة ببعض احجار من وسطها من الجهة الامامية ويتدلى منها جناجل مترابطة بواسطة سير من الجلد .		
٥	١	حلية صدرية على شكل هلال مزين بسلاسل فضية مترابطة بعضها يتدلى من اسفله ومربوطة بسلاسل عادية .		
٦	١	ختمة مربوطة بالسلاسل العادية لها تاج مزين بمربعات ويتدلى منها سلوس وفي نهايتها جناجل .		
٧	٢	سوران (شميلي) من الفضة القفل على شكل حلقات مزدوجة وفي وسطه ثلاثة صفوف من الحبوب المدببة على قطر دائرة . .		
٨	٢	اسورة (شميلي) فضية جديدة وقفلها مغطى بقطعة مزدوجة ومزينات بأشكال هندسية مسطحة يتخلله صفوف من الحبوب على شكل حبيبات بارزة .		
٩	١	اسورة (شميلي) قفلها عبارة عن ثلاث حلقات ومزين بأشكال هندسية عليها زوائد بارزة مختلفات المقاسات .		
١٠	١	اسورة (شميلي) بدون قفل مغطاة بقطعة مزدوجة على شكل معين في وسطها حبيبات مدببة وسطحها يحتوي على ثلاثة صفوف الاوسط منها بحبيبات بارزة كبيرة والطرفان حبيبات صغيرة . .		
٦٠	١	حلية رقبة تتكون من قفلين بطرفيها على شكل شبة منحرف ويتوسط كل منهما فص احمر زجاجي وعليها بعض الزخارف البارزة ويتوسطها ايضا ثلاث قطع مستطيلة الشكل بها فص زجاجي ويتخللها خمسة صفوف على شكل خرز وتنتهي القطع بثلاثة حروز صغيرة يتدلى من كل حرز صفان من السلوس التي على شكل زهرات يرتبط بعضهما ببعض على شكل حلقات وينتهي بجناجل وايضا الصفوف التي على شكل حرز تنتهي بسلوس كالمذكورة انفا .		

ملاحظات		الوصف	عدد	مسلسل
		حلية صدرية تتكون من ثماني حبات كارب على شكل كروي مستطيلة بأحد طرفيها نصف ريال ماري تريزا ويتخللها عملات فضية ومعدنية منها أربعة ريالات عملة ماري تريزا اثنان منها ينتهي بجناجل صغيرة ومنها اثنان عملة جمهوري من فئة عشرين بقشة ولها أيضاً جناجل ويتوسط الحلية قطعة مدورة الحجم بها زخارف على شكل زوائد بارزة تتوسطها حبة كبيرة وتحيط بها أربعة اشكال على شكل سلوس مضفورة تمثل نجمة وتنتهي بجناجل .	١	٦١
		دقة تتكون من اربع عشرة قطعة فضية صغيرة الحجم وبأحد طرفيها عملة معدنية اجنبية والحبتان اللتان على طرفيها تختلفان في زخرفتهما عن الاخرى بها صف يوجد به نتوءات بارزة على شكل زهرات وبقية القطع الأخرى زخارفها على شكل حلزون ويظهر ختم صانعها على كل حبة كما يوجد في خمس حبوب المتوسطة تبدأ بحلقات وتنتهي بجناجل .	١	٦٢
		ختمة فضية على شكل مثلث يتوسطها زخرفة على شكل زهرة يتوسطها فص وفي احدى زواياها افصاص (فص اسود) ويحيط بالزهرة خمس حبيبات بارزة على شكل زهرات ، كما يوجد بها سبعة سلوس ينتهي بها جناجل ومربوطة بسلس عادي .	١	٦٣
		حلية صدرية تتكون من اربع قطع عملات مختلفة منها ريال صيني وقطعتان أخريان وعمادي امامي تتدلى العملات الصغيرة من عروات الريال الصيني مربوطة بخيط اسود صوف بهذا الخيط ثوب على شكل حرز .	١	٦٤
		دقة مكونة من ثماني حبات متوسطة الحجم مزينة بحبيبات متراصة وبعضها بصفوف وزهرات على شكل أشعة الشمس لها قفلان على شكل مزامير مزينة من أعلاه بحبات شعيرة ويتدلى من أسفلها حرز متوسط مدبب الاطراف مزين بصفوف ذات حبيبات مسطحة وزهرة ولها عروة من الاسفل كبيرة وثلاث عرى من الاعلى إحداها مكسورة . . .	١	٥٢٧

ملاحظات		الوصف	عدد	مسلسل
		حرز كبير مدبب الاطراف مزين بصفوف من السلوس الحلزونية يتخلله مسطحات وله ثلاث عرى من اعلاه وعروة مكسورة .. مقاسه ١٤ طول وقطره ١٥	١	٥٢٨
		عصابة رأس بشكل ريال ماريتريزا مثبت على قطعة جلد بشكل مربوط يتدلى من الريال جناجل وقطع دائرية مسطحة يتخللها حبات من المرجان ...	١	٥٢٩
		ستة وثلاثون رأس نصلة أجنبية من الفضة بعضها ملحمة وبعضها مفككة مزينة بأشكال هندسية مكتوب عليها شغل علي العماري / ١٣٨٠ هـ واحدى هذه الرؤوس لها ميسم من نوعها ...	٣٦	٥٣٠
		حزام حقوله قفلان مقبض أجنبية شكله باحدى القفلين قطعة على شكل زهرة وبها حبة بارزة في الوسط على شكل قبة وبالقفلين فصان احدهما اسود والآخر ابيض لبني ويتوسطها اثنتا عشرة قطعة مستطيلة الشكل مزينة بحبيبات ويتوسط كل قطعة افصاص ملونة ومثبتة القطع بعضها ببعض بواسطة حلقات حلزونية ويتدلى من القفلين سلوس تنتهي بجناجل مزدوجة ... مقاسه (٧٤) طول وعرضه (٢/١ ٤) سم .	١	٥٣١
		حزام له قفلان على شكل اقواس ويتكون من ثلاثة سلوس مثبت بها ثلاث عشرة قطعة بعضها على شكل مربعات مسطحة والآخر ينقسم إلى ثلاث قطع دائرية وبعضها على شكل دائرة مسطحة كما يوجد قطعتان على شكل فرتكة ... مقاسه (٧٤) طول وعرضه (٣) سم	١	٥٣٢
		اسورة يدلها قفلان يتدلى من قضيب احدهما سلس يتدلى من احد جانبيها جناجل والجانب الاخر قطعة بشكل ورقة نجارة مسطحة ومزين على سطحها بصفين من الحبيبات البارزة الكبيرة يعلوها حبة صغيرة يتوسطها حبات مرجان يحيط بها صفان من الحبيبات .	١	٥٩٩

ملاحظات		الوصف	عدد	مسلسل
		اسورة يد لها قفلان احد القضيبين مفقود ومزين على سطحها بصفوف من الحبات البارزة بشكل قبة ينتهي بعضها بحبيبات مرجانية يتخللها صفوف من الحبيبات وسطحها مسطح يتدلى منه سلس .	١	٦٠٠
		اسورة يد لها قفلان يتدلى من قضيب التثبيت سلس مزين على سطحه حبات بارزة بشكل قبة يتوسطها اكبر حجما يعلو سطحه خمس منها بشكل زهرة يتدلى من اسفلها جناجل . .	١	٦٠١
		معضد مفتوح من احد جانبيه وزينة سطحه عدة مثلثات عليها حبيبات بعضها بشكل زهرة على سطحه محلة عثمانية يتوسطها قطعة مستطيلة مزين بسلوس حلزونية يتوسطها قطعة عثمانية فئة خمسة ريالات . . .	١	٦٠٢
		اسورة طفلة مزينة باشكال نباتية وهندسية . . .	١	٦٠٣
		اسورة لها قفلان على سطحها صفوف من الحبيبات يتوسطها حبات كبيرة مزخرفة يعلوها بشكل زهرة وقباب يحيط بها حبيبات بشكل قبة . . .	١	٦٠٤
		سوار رجل مزين باخطاط يتدلى منها جناجل . . .	١	٦٠٥
		اسورة يد لها قفلان على سطحها قطعة مزينة واحد القضيبين مفقود مزين بسطحه بصفوف تشبه السلوس . . .	١	٦٠٦
		اربعة خواتم مختلفة الاحجام والاشكال بعضها بدون افصاص احدها مزين بسطحه بفص زجاجي والاخر بفص عقيق . .	١	٦٠٧
		دقة مكونة من تسع حبات كروية الشكل مزينة بحبيبات صغيرة وحبات بشكل اشعة الشمس على احداها عروتان . . .	١	٦٠٨
		محبرة من النحاس لها قطعة طويلة مستطيلة لحفظ الاقلام وعلى طرفها من الجانب محبرة صغيرة مثبتة بحافظة الأقلام وهي على شكل مدبب شبه مربع وللحافظة والمحبرة غطاءان متصلان بواسطة سلس القياس (طول الحافظة ١٩ ١/٢ والعرض ٢,٥ والقطر ٢,٥ × ٢ سم .	١	١٠٨٧

مسلسل		الوصف		ملاحظات
١٠٧٩	١	محبرة من النحاس لها حافظة اقلام مستطيلة وشبه دائرية لها غطاء به عروة يتصل بها حلقة مع سلس صغير وعلى طرف احد جوانبها يوجد محبرة مثبتة وتنقسم الى ثلاثة اقسام بارزة القاعدة والبدن وفتحة الرأس ولها غطاء مثبت بواسطة عروتين . القياس (طول الحافظة ٢٠,٥ والعرض ٢,٢ وقطر المحبرة ٣,١)		
١٠٨٠	١	قفل غشيمي يمني الاصل على بدنه بعض الزخرفة المحفورة وله مفتاح مسنن وهو مكون من قطعتين البدن موصل مع احد اطرافه قضيب معكوف وقطعة اخرى معكوفة على احد جوانبها اربع قطع مسننة لكل منها سبرنج هذه السنن تدخل في البدن (بدن القفل بواسطة ثقوب وفي الطرف الاخر يوجد قطع مسننة تدخل في القضيب المعكوف والمتصل بالبدن . . القياس (طول ٨,٧ طول القضيب ١٦ وطول الفتحة ١٦,٧)		
١٠٨١	١	قفل غشيمي يمني الاصل على بدنه بعض الزخارف المحفورة وله مفتاح مسنن وهو مكون من قضيب معكوف وقطعة اخرى معكوفة على احد اطرافها اربع قطع مسننة لكل منها سبرنج هذه الاسنان تدخل في بدن القفل بواسطة ثقوب ومن الطرف الاخر توجد قطع مسننة تدخل في القضيب المعكوف والمتصل بالبدن . . . القياس (طول البدن ٩,٤ وطول القضيب ١٥,٢ وطول الفتحة ١٦,٧ سم) . . .		
١١٩٧	١	قدر كبير الحجم من النحاس له مقبضان من الحلق الحديدية المثبتة بواسطة قطعتين من الحديد في كل جانب يزين سطحه الخارجي من الاسفل شريط من الحديد (صف) وعليه قطع دائرية حديدية حافته السفلى (او العليا بالاصح) بها شرخ من احد جوانبها . . . القياس (ارتفاع داخلي (٢٢) وخارجي (٢٣) قطر الفوهة (٤٨) وقطر القاعدة (٤٤) سم . .		

ملاحظات		الوصف	عدد	مسلسل
		طاسة من النحاس مقعرة الشكل كبيرة الحجم ليس بها زخارف قاعدتها كروية الشكل وهي على شكل دائرة .. القياس قطر الفوهة ٤٧ ارتفاع ١٨ قطر القاعدة ٤٣ سم ..	١	١١٩٨
		شمعدان يحتوي على ثلاث مسارج الوسطى منها تمثل قضيب الارتكاز للشمعدان الذي ينتهي بشكل اسطواني ذي ثلاث قطع رأس وعنق وقاعدة تنتهي جميعها بصحن وقبل نهاية القضيب الاسطواني حلقة صماء لتثبيت مسرجتي الاطراف .. القياس الارتفاع (٩٤) وقطر القاعدة (٤٢) سم ..	١	١١٩٩
		شمعدان نحاسي مكون من ثلاث قطع الأولى تحتوي على ثلاث مسارج (العلوية) والقطعة الوسطى بها مسرجتان والقطعة السفلى تمثل قاعدة الشمعدان وتتكون القاعدة من شرفتين واربع قطع اسطوانية العليا بشكل قبة يتصل بها قضيب اسطواني لتثبيت القطع العليا وبالنسبة للقاعدة السفلى فهي مجوفة من الداخل ومزخرفة بأشكال هندسية بارزة ومدببة ..	١	١٢٠٠
		ميزان من الحديد عبارة عن قطعة حديدية مستطيلة الا ان قاعدتها شبه منحرف بها زوائد ومقابض حديدية متصلة بها بواسطة مسامير وعليها حلقات بها شناكل وفي احدى الحلقات يوجد جنزيران او سلسلان والشكل الأمامي والذي يشبه متوازي مستطيلات مخطط افقيا هو وحدات قياسية الكيلو جرامات . المقاسات : طول الميزان : ٨٦ سم	١	١٣٦٩
		رمح عبارة عن عود خشبي طويل في رأسه قطعة حديدية مسطحة وحادة في طرفيها وقمتيها ويمتد من قاعدتها شكل مخروطي مجوف يدخل فيه العود ، توجد قطعة حديدية ملتفة كمحابس تثبت قاعدة الرمح مع العود وفي اعلى الشكل المخروطي يوجد نقش منحوت يمثل خطوطاً	١	١٣٧٠

مسلسل	عدد	الوصف		ملاحظات
		متعرجة وخطوطاً متوازية دائرية ويوجد شكل مخروطي من الحديد عند اسفل العود . . . المقاسات : الطول = ١٨١ سم . .		
١٣٧١	١	رمح شبيه بالشكل السابق الا ان الزخرفة توجد عند اسفل واعلى الشكل المخروطي الذي يدخل فيه العود ويتصل بسكين الرمح وهي عبارة عن خطوط متوازية دائرية وخطوط رأسية وخطوط متعرجة ، كما يوجد اسفل الشكل المخروطي الذي يوجد اسفل العود قطعة حديدية على شكل شبه منحرف ومزخرفة بخطوط افقية ودوائر . . المقاسات : طول الرمح = ١/٢ ١٩٢ سم . .		
١٣٧٢	١	رمح يشبه النماذج السابقة ولكن القطعة التي توجد اسفل العود صغيرة وتوجد الزخرفة فقط عند اعلى الشكل المخروطي المتصل بالسكين ، وتحت الشكل المخروطي يوجد محبس من قطعة حديدية عريضة ومسمرة . . المقاسات : طول الرمح = ١/٢ ١٧٩ سم . .		
٢٨٠	٢	زوج من الاساور المعصمية احدهما تزينه عملة معدنية صغيرة من فئة عشر وثلاثة من الفصوص الزجاجية ذات اللون الاحمر والاخر ثلاثة فصوص من العقيق احدهما من اللون الرمادي والاخر احمر فاسخ		
٢٨١	١	محفظة حزام على شكل نصف دائرة مسطحة الاعلى مكتوب عليها (لا إله الا الله محمد رسول الله) ووجهها مزخرف بزخارف نباتية مخرمة وفي اعلاها هلال مكتوب عليه (الله) وخلفه مثبت بحلقة كبيرة لتثبيته الى الحزام والحافظة لها سلس صغير من الحلقات المزدوجة مثبتة الى طرفي السطح الاعلى .		

ملاحظات		الوصف	عدد	مسلسل
		محفظة حزام على شكل نصف دائري مزخرفة في وجهها بالزخارف الهندسية البارزة والحبيبات المتراصة عليها من جوانبها زخرفة من الحلقات المتراصة التي تعطي شكل التخريم يتوسطها صف من الحبيبات البارزة الصغيرة وفي خلفها حلقة لتثبت الحافظة بالحزام مكتوب عليها (كتابة غير واضحة) تبدو على شكل ختم وسلوسها الطويلة مثبتة في احد جوانبها .	١	٢٨٢
		حلية رقبة تتكون من ثماني قطع في طرفيها قفلان مزينان باربع كرات مسطحات بارزة والقطع الوسطى مستطيلة الشكل يزين احداها فص من العقيق واثنان كل منهما حبة من المرجان الصغيرة والثلاث الاخرى مثبتة بخمس حبيبات بارزة على شكل كرات مسطحة ويتدلى منها سلاسل تنتهي بجناجل صغيرة وكبيرة ويتدلى من القطع قطع صغيرة مسطحة مدببة الشكل .	١	٢٨٣
		محفظة كتاب تعلق في حزام تتكون من ثلاث عرى صغيرة وبها حبيبات بارزة صغيرة على شكل خطوط ويوجد في احداها فتحة مثبتة فيها وفي الفتحة عروة صغيرة ورأسها مدبب على شكل حبيبات بارزة .	١	٢٨٤
		حلية رقبة تتكون من قفلين واحدى عشرة قطعة مستطيلة الشكل الوسطى منها اكبر حجما بها فص زجاجي ازرق واثنتان منها مزينتان بحبيبات من المرجان والاخرى مزينة بصف من الحبوب البارزة ويتدلى من القطع سلوس طويلة مضفورة تنتهي بجناجل صغيرة .	١	٢٨٥
		حلية صدر على شكل فتحة مستطيلة الشكل مزينة بسطحها بصفوف من الحبيبات الصغيرة ويتوسطها صفان من المربعات المسطحة ويتوسطها فص بني اللون زجاجي لها ثلاث عرى من اعلاها وعروتان بجانبيها وخمس من الاسفل يتدلى منها جناجل مثبتة بواسطة حلقات حلزونية والحلية يتدلى منها سلس عادي . .	١	٤٠١

ملاحظات		الوصف	عدد	مسلسل
		رأس سكين مستطيلة الشكل مزين سطحها بصفوف بشكل مربعات مسطحة وحبيبات بشكل زهرة يتوسطها صف من الحبيبات البارزة بشكل اشعة الشمس وتعلوها حبيبات مدببة بشكل زهرة وفي معطفها حبيبات مدببة على شكل زهرة . . .		٤٠٢
		ثومة بوسانية مزينة بسطحها بزخارف عبارة عن حبيبات وتخاريم بشكل زهرة واشكال هندسية يتوسطها قطعة بارزة مقوسة مزينة بشكل سلس مضفور واسفلها قطعة كروية الشكل مزخرفة بتخاريم ومدببة على شكل قبة وخاتم الصانع بظهرها . .		٤٠٣
		ثومة بوسانية تزخرفها صفوف من الحبيبات والسلوس الملوية الحلزونية ومخرمة وعليها قطع دائرية مسطحة يتخللها صف من الحبيبات بشكل اشعة الشمس والزخرفة على اشكال نباتية باسفلها قطعة على شكل فانوس مزين بتخاريم واشكال نباتية ويظهر على الختم اسم (يحيي اوغان)	١	٤٠٤
		ثومة مزينة بسطحها بصفوف من الحبيبات المسطحة بعضها يأخذ شكل زهرة والبعض الآخر مربعات وصفوف اخرى على شكل حبات الشعير وقطعة في وسطها بارزة على شكل محبس وعلى سطحها صفوف من الحبيبات الصغيرة المتراصة يتوسطها صف بشكل قبة شعير باسفلها قطعة على فانوس مزين باشكال نباتية وزهرات على شكل حبات شعيرة . . .	١	٤٠٥
		ثومة مع حزامها عرضه ٣ × ٧ ½ سم به ست زهرات وسيوة مزينة باشكال نباتية وسلوس حلزونية من الطرف وسيوة مفتوحة من الوسط واربعة محابس من نفس الحزام وهو مصنوع من السيم المذهب والفتلة الملونة تالفة من بعض اجزائها والثومة مزينة باشكال نباتية عليها حبيبات باشكال مربعات وزهرة تتوسطها قطعة بشكل محبس مزين بصف من الحبيبات المربعة وقطر عطفتها ½ ٥ سم ولها حبة مرجان بطرفها.	١	٦١٩

مسلسل	عدد	الوصف		ملاحظات
٦٢٠	١	ثومة مع الجنبية والحزام عرضه٩سم مصنوع من السيم المذهب والفتلة الملونة بالاحمر والاسود والبنفسجي وعليه اربع زهرات مطلية بالنحاس الاصفر وكذلك السيوةمطلية ومزخرفةبشكل زهـرةفي وسطهـا وجميعها مزينة بزهرات مفتوحة من اسفلها والثومة مزينة باشكال نباتية وقطر عطفتها ٥ سم ومدببة من اسفلها وصدر الثومة مكتوب عليه (ومن تكن برسول الله نصرته . . . الى اخر البيت) ومزخرف بزخارف نباتية والرأس عليه حرفان نحاسيان ومزين بمسطحات صغيرة والمبسم مزين بمربعات وزهرات ولها عروة بجانبها وجميعها مطلية بالنحاس الاصفر . . .		
٦٢١	١	ثومة مع الجنبية والحزام عرضه ٩ سم ومصنوع من السيم المذهب والفتلة الملونة من الاخضر والاسود والاحمر وعليه ست زهرات مختلفة الاحجام والاشكال وعليه سيوة من النحاس الاصفر مزينة باشكال نباتية والثومة مزينة بزهرات وسط دوائر على الجوانب وبالوسط حبيبات بشكل مربعات وسلوس حلزونية وقطر عطفتها ٨ سم ومدببة باسفلها بشكل زهرة والصدر عليه قماش ازرق غامق ومزينة بالخيوط الخزفية الخضراء والرأس عليه حرفان احدهما متآكل والمبسم مزين بمسطحات وزهرات .	٨×٣٨	
٦٢٢		سيف مع الغمد والغمد مصنوع من المعدن مسطح عليه حلقة التثبيت والغمد مقفول من جميع جوانبه باسفله قطعة نحاسية والنصلة مزينة باشكال نباتية وهلال عليه نجمة عليه ناضور وصور للحربات ومقبض من الخشب وعليه عروة من اعلاه . .	٦×٩٠	
٦٦٢		كما يوجد بباطنه ثلاث زهرات ويتوسطه قطعة على شكل محبس ومبسمه مزين بصفوف ذات حبيبات على شكل دوائر وسلوس متقاطعة والنصلة مزينةبوسطها من باطنها وظاهرها بحلقات حلزونيةولها تجويفان ومثبتة بقطعة جلد . . .		

ملاحظات		الوصف	عدد	مسلسل
	٨×٣٧	عسيب مع الجنبية وكله من الفضة مزين بزخارف باشكال هندسية وقطعة على شكل حلزوني وصدر العسيب بسلوس مضفورة وحبيبات متراصة ومربعات ومسطحات وله ثلاث عرى من كل جانب على سطحه زهرة ومدبب الاطراف وعطفته بشكل تاج عمود والرأس له حبتان بارزتان على شكل قباب وقمةرأسه تمثل رؤس طيوربعلوها حبة كبيرة على شكل قبة مدببة وبجانبها عدة حبيبات على شكل قباب ووسط المحبس مزين بصفوف دائرية متراصة ومبسمه مزين بصف من الحبيبات .	١	٦٦٣
		زينة صدر عبارة عن عملة فرنسية من عهد نابليون الثالث متوجة باعلاها عروة مثبت بها سلس . . .	١	٦٦٤
	٥×٣٥	معضد يد نسائي مزين بصفوف حلزونية يتوسطها قطع مربعة مسطحة يتخللها حبيبات بشكل زهرة وتوجد قطعة مربعة على قفلين مزينة بزهرات مجوفة مكسور من احد طرفيه من الباطن وايضا مقلوع من ظاهره . . .	١	٦٦٥
	٤×٣٢	معضد يد مزخرف بصفوف متداخلة تتوسطها صفوف من الحبيبات البارزة وتوجد قطعة مربعة على القفل . . .	١	٦٦٦
.		اسورة يد معصمية محتمل انها تستعمل كمعاضد مزينة بحبيبات مرجانية على الجانبين يتوسطها فص عقيق والأخرى زجاجية وباسفلها حبات مرجانية وتعلوهن من الجانبين أشكال زهرات -. . . .	٣	٦٦٧
		قفل بمفتاح لولبي مقوس الشكل من الحديد وفي اسفله مستدير الشكل صناعة يمنية . . . القياس (الطول ٧,٥ الارتفاع ٨,٥ سم) . . .	١	٩٢٨

مسلسل	عدد	الوصف		ملاحظات
٨٢٩	١	ملت خشبي صغير الحجم ويستعمل لحفظ التنباك مثبت عليه قطع جديدة للاغلاق والفتح كما توجد رزة من الخلف وفي اعلى توجد عروة لتعليق رزة اخرى للاغلاق .. القياس (طول ٦٢,٣ والعرض ٧ ١/٢ والارتفاع ٥,٦ سم)...		
٩٣٠	١	مسرجة حرض اطرافها متعرجة تشبه المثلثات وعلى قمتها قطعة من الحديد وعروة مثبت عليها دائرتان لتعليقها على سقف المكان وعلى قمتها قطعة بارزة من نفس المادة مستطيلة الشكل وفي واجهتها خطان متعاكسان ... القياس (القطر ١٦,٥ والارتفاع ٥,٣ سم)...		
٩٣١	١	جلاس من النحاس يوضع عليه كعدة الماء له محبسان مستديرا الشكل وله محبس في وسط قائمته ويوجد فيه أن المحبس الاعلى اصغر من الاسفل وفيه لحام ويوجد فراغات من الاعلى والاسفل (الارتفاع ٢٧ القطر الاعلى ٩ والاسفل ١٢,٣ سم)		
٩٣٢	١	شمعدان لوضع الشمع من النحاس له دوائر اربع وعلى الدائرة السفلى توجد خطوط وفي اسفل الشمعدان توجد فتحة ولها قضيب حديد مثبت عليه والقاعدة مربعة الشكل .. القياس (طول القاعدة ١٠ وقطر الرأس ٤,٦ والارتفاع ٢٥,١ سم)		
٩٣٣	١	درقة عسكرية مدورة الشكل مادتها جلدية واجهتها مزينة بقطع نحاسية ومزخرفة بخطوط محفورة وحبيبات تمثل مثلثات كما توجد قطعة نحاسية على شكل دوائر وقطع تشبه النجوم السباعية وفي وسط الدرقة يوجد قطع نحاسية على شكل كعوب مزخرفة بخطوط محفورة وقطع مصغرة مستديرة وفي خلف الدرقة قطعة من الخشب مقبض وست عرى مثبتة. القياس (القطر ٢٣ ١/٢ والعرض ١,٨ سم)...		
١١٩٣	١	دلة نحاسية كبيرة الحجم يتكون سطحها من قطعتين السفلى كبيرة على شكل دائرة وعنق طويل ولها غطاء يدخل في الفوهة ينتهي بقطعة دائرية		

مسلسل	عدد	الوصف		ملاحظات
		على شكل قبة ومقبض الدلة عبارة عن ساعد يبدأ من نهاية عنق الدلة الى طرفها السفلي ويتصل بالغطاء بواسطة مسمار تثبيت متحرك ينتهي برأس ثعبان ملتصق بالغطاء القياس (ارتفاع ٥٠ ارتفاع الصف ١١٫٢ طول المقبض ٣٣ قطر القاعدة ٤٠ سم وقطر الفتحة ١١ سم) . . .		
١١٩٤	١	دلة نحاسية كبيرة الحجم اسطوانية الشكل سطحها مكون من جزءين ذات عنق طويل ولها غطاء ينتهي بقطعة مكعبة الشكل مقبضها طويل ينتهي بمسمار متحرك يربط الغطاء بالمقبض ويميز هذه الدلة بوجود حنفي في نهاية سطحها السفلي مثبت بواسطة مواد صبغية واسمنت والدلة مزخرفة بخطوط دائرية تتسع كلما اتجهنا نحو الاسفل .. الارتفاع (٥٣) ارتفاع العنق (١٠) طول المقبض (٣٥) وقطر الفتحة (١١) والقاعدة (٤١ سم) . .		
١١٩٥	١	صحن نحاسي كبير الحجم لامع مفلج الحافة متموج الطرف العلوي يزين سطحه من الداخل اشكال نباتية وحيوانية على شكل دوائر تأخذ في الصغر كلما اتجهنا نحو الداخل حيث تنتهي بدوائر او بدائرة صغيرة لحيوان واحد فقط تنعكس زخرفته الداخلية على سطحه الخارجي . . . القياس (٥٠) القطر العلوي وقطر القاعدة (٤٦) سم . .		
١١٩٦	١	صحن نحاسي عريض الشرفة صغير القاعدة مفلج الاطراف من الاعلى تزين شرفته المتسعة الى الخارج بزخارف نباتية منها على شكل عقد ويتوسط العقود اشكال نباتية ذات اوراق ثلاث وتتصل العقود بعضها ببعض بواسطة خطوط مزدوجة من الاعلى والاسفل قاعدته من الداخل يزينها زخرفة تشمل القاعدة بشكل وردة ويلاحظ ان القاعدة السفلى يوجد قاعدة صغيرة اسفل منها . . القياس (١.١) قطر الفتحة قطر القاعدة ٢٨ والارتفاع (٨,٥ سم)		

ملاحظات	النقد	الوصف	عدد	مسلسل
		زوج من المزينة عبارة عن ريالين ماريتريزا ويتوسط احدهما فص احمر زجاجي تحيط به حيتان وله ثماني عرى تتدلى منها جناجل والاخر اربع عرى . .		
		زوج مشاقر عبارة عن قطع نصف كروية خالية من الزخرفة في اعلاها عروة يحيط بها صفوف من الحبيبات ومثبت بها الخطاف وتتدلى من الاسفل خيوط عليها خرز ابيض تتدلى منها جناجل . . .	٢	٦٩٥
		زوج من المشاقر عبارة عن قطع نصف كروية مزينة بصفوف من الحبيبات المتراصة تعلوها حبة بشكل قبة مثبت منها الخطاف وتتدلى من القطعة سلوس منتهية بقطع مسطحة بشكل اوراق الشجر وتتدلى الى جانبها قطع على شكل اوراق الشجر . . .	٢	٦٩٦
		فراتك معدنية ملونة ومزينة بصفوف ملونة زجاجية تتوسطها زخرفة بشكل نجمة احداها سداسية وبعضها مفقود . . .	٤	٦٩٧
		حروز مختلفة الاحجام والاشكال بعضها مدبب وبعضها وهي اصغر شيء مزينة بتخاريم وبعضها مزينة بحبيبات وبعضها مزينة بسلوس حلزونية ولبعضها عرى من الجانبين وبعضها من جانب واحد وتتوسط احدها حبة مرجانية وتتدلى منها جناجل . .	٧	٦٩٨
		اسورة يد لها قفلان وقضيبا التثبيت مفقودان وعلى سطح احد الاقفال قطعة مزينة بدوائر مقسمة الى اربعةمربعات مزينة بسطحها بصفوف من الحبيبات الصغيرة وسلوس مضفورة تتوسطها صفوف من الحبيبات الكبيرة بشكل قباب . . . طولها (٥) وقطرها (١٨) . . .	١	٦٩٩
		اسورة يد لها قفلان وقضيبا التثبيت مفقودان مزينة على سطحها قطع دائرية بعضها مسطح وبعضها على شكل زهرة على سطحها قطع دائرية مسطحة كبيرة وعليه عروة . . . طولها (٣) وقطرها (١٨) . . .	١	٧٧٠

	عدد	الوصف	العدد	ملاحظات
١٠١٤	١	مدهنة من الخشب بدنها الخارجي شبه مثلث باربع واجهات وفتحتها دائرية لها غطاء من العزف الملون بشكل مدبب وللبدن اربعة اركان لكل واحد ثقبان يثبت فيه سير من الجلد تحمل اربعة سيور من كل ركن وهذه السيور مزخرفة بحبوب الودع وتجمع باعلى حيث توجد في غرفة لتعليقها ويتدلى من اسفلها اربعة عسابل من الجلد تعتبر كزينة . . . القياس (ارتفاع ٨ قطر الفتحة ١١ وقطر الغطاء ١٣ ارتفاع ١٢ سم)		
١٠١٥	١	مدهنة من الخشب مستديرة دائرية لها اربع اذان من الجوانب بكل منها ثقب مثبت في كل ثقب سير من الجلد وهذه السيور كمعلاق للمدهنة وهي مزخرفة بحبيبات من الودع وحبيبات من المرجان الاحمر وتتدلى من اسفل الثقوب المعلاق سيور من الجلد على شكل عذابل وفيها حبيبات مرجانية لها غطاء من العزف الملون بشكل مدبب . . القياس (ارتفاع ٦ وقطر الفتحة ١٣,٣ وقطر الغطاء ١١,٢ والارتفاع ١٣ سم) . . .		
١٠١٦	١	شمعدان نحاسي (اعلاه جلاس) له قاعدة دائرية بارزة متآكلة يليها شكل مثبت يليه عمق اصفر يليه محبسان احدهما اكثر بروزا من الاخر ويليهما قبة صغيرة عليها عمق الشمعدان ومثبت في اعلاه قطعة دائرية تستخدم كجلاس لفنجان القهوة وما شابه ذلك القياس (القطر ½ ١٤ ارتفاع ٣٦,٨ وقطر الجلاس ١٢,٦ سم) . .		
١٠١٧	١	مبخرة نحاسية بدون قاعدة تنقسم الى جزءين الجزء الاسفل مكان البخور والجزء الاعلى مظلة او غطاء يوصل بينهما اربعة قضبان بينهما اربع فتحات بشكل عقود مكان البخور خالٍ من الزخرفة اما الجزء العلوي فهو مزخرف بزخارف مخرمة واعلاه شكل قبة مدبب من الاعلى واعلاه قطعة بشكل بصلة . . . القياس (ارتفاع ½ ٤٩ القطر ١١ وقطر المظلة ١١,٦ سم) .		

مسلسل	عدد	الوصف	العدد	ملاحظات
١٠١٨	١	شمعدان له قاعدة من الاسفل دائرية تضيق كلما ارتفعنا الى اعلاه وهي مختومة من الاسفل لها عنق يليه قطعة دائرية يليه ما تبقى من العمق ثم قفشة النوارة داخل العمق مجوف وفيه جر حديدي . . . القياس (القطر ١٢ والارتفاع ½ ١٧ سم). . .		
١٠٦٤		فانوس قديم من النحاس مكون من قطعتين القاعدة فيها حوضان متداخلان من الداخل لوضع السليط اما بالنسبة او ما يشبه ذلك ومخرمة (وثيمان) ومخرمة حواليها اما الجزء العلوي فهو كغطاء مزخرف بزخارف بارزة وله عروتان للتعليق بواسطتها . . القياس (القطر ٢١ سم)		
١٠٦٥		محبرة من النحاس لها قطعة مستطيلة الشكل مزخرفة بزخارف والوان تمثل زخارف نباتية محفورة وهذه الزخارف من الواجهتين واعلى القطعتين أوالقطعة كتابةنصها (سعادةتجددكل يوم واقبال إلى يوم القيامة) وفي الطرف الاخر للقطعة مثبت محبرتان احداهما كبيرة والاخرى صغيرة الصغيرة واجهتها مزخرفة بزخارف محفورة والكبيرة خالية من الزخرفة وبدأت تتآكل وبجانب الفتحة في القطعة المستطيلة عروة بها سلس فيه حبتا القياس (طول ٣٠,٥ عرضها ٦ سمكها ٢ الارتفاع ٦,٥ سم) . . .		
١٠٦٦		مذخرة من القرن الصغير او صغير الحجم متآكل لها قطعة معدنية في وسطها وبها عروة وحلقة ولها قمع مدبب ولها محبس وهي على شكل مشرعة . . . القياس (طولها ٢٢,٥ وطول الفتحة ٢,٩ سم) . . .		
١٠٦٧		مذخرة من القرن المعكوف صغيرة الحجم لها قطعة معدنية في أحد اطرافها على واجهتها زخرفة وكذلك اعلاها يوجد فيها عروة مثبت عليها قضيب معكوف لاغلاق فتحة صب البارود ولها قمع صغير مدبب من المعدن له محبسان السفلي منها مزخرف بخطوط مضفورة وحبيبات والعلوي مزخرف بخطوط مضفورة . . القياس (٢١,٣ وقطر الفتحة ٣×٤,٤) . . .		

مسلسل	عدد	الوصف	العدد	ملاحظات
١١٣٣		قارورة زجاجية لونها بني مغلفة بسيور من الجلد المضفور وهذه السيور مغطاة من الخارج بالودع وبعض الخرز الاحمر ومن اسفلها يتدلى عذابل من الجلد . . القياس (طولها ٣٠ سم طولها مع العذابل ٦٥ سم) . . .		
١١٣٤		ربعة من العزف الملون وعلى واجهتها الخارجية زخارف من الحبيبات الودع وفي احدى جوانبها سير من الجلد لتعليقها في الجدار ولها غطاء مدبب من العزف ايضا وواجهته مغطاة بالودع ومثبت بواسطة سير من الجلد واعلى الغطاء يوجد سلس صغير من الحديد قاعدة الربعة مغلفة بالجلد . . القياس (الارتفاع ٣٦ والقاعدة ١١,٥ وفتحة الغطاء ١٠,٧ سم) . .		
١١٣٥		ربعة من العزف الملون خارجيها مزخرف بحبيبات الودع وقاعدتها مغلفة بالجلد وعلى احد جوانبها سيران من الجلد لتثبيت الغطاء على البدن ولها غطاء بشكل مدبب ومغلف من الخارج بالودع ومثبت بالبدن بواسطة سير من الجلد والى الغطاء توجد قطعة مزخرفة بخط دائري من الخطوط المضفورة والحبيبات يليها اربعة مثلثات بوسط كل مثلث فص معين او معبأ بحبات من المرجان الاحمر وفي الوسط عند التقاء رؤوس المثلثات يوجد فص احمر وعلى جانبيه عروتان مثبت بهما سلس بشكل مضفور لتعليقها على الجدار . القياس (الارتفاع ٣٧,٥ والقاعدة ١٣ والفتحة ١٣,٥ وفتحة الغطاء ١١ سم) .		
١١٣٦		جزوة نحاسية صغيرة قاعدتها مسطحة وعليها صورة خيل من الخارج ولها مقبض من الخارج معدني . . القياس (القاعدة ٧,٥ والفتحة ٤ والذراع ١٢,٥ سم) . .		
١٢١٠		مائدة ذات حجم كبير صحنها الواسع من النحاس وقاعدتها المجوفة من القصدير (تنك) وقوائمها من الحديد (القوائم) لتثبيت الصحن تركز على نهاية القاعدة والمائدة فيها ثلاثة مقابض حديدية . .		

ملاحظات	النقد	الوصف	عدد	مسلسل
		القياس (قطر الصحن ٧٢ ارتفاع القاعدة ٣١ ارتفاع القوائم ٣٤ والقطر ٣٤ والقاعدة ٣٩ سم) ..		
		مائدة من النحاس كبيرة الحجم وقوائمها الثلاث مجوفة وتأخذ شكل البوق (القمع) من القصدير ويزين الصحن حلقة دائرية من الزخارف النباتية والهندسية والابريق يتوسط الصحن ثلاث دوائر بزخارف نباتية وهندسية والدائرة الاخيرة يتوسطها نجمة سداسية .. القياس (القطر ٧٧ ارتفاع القوائم ( ) وقطرها ١٣ سم) ..		١٢١١
		معشرة كبيرة الحجم من النحاس الاصفر سطح المعشرة مزين بخمس دوائر على شكل خطوط مزدوجة (ثنائية) ويتخلل هذه الخطوط زخارف بارزة لاشكال نباتية والاخريات على هيئة قباب يتوسطها جميعها في الدائرة الصغرى نجمة سداسية يتخللها زخارف بشكل وريقات نباتية والمعشرة ليست لها قوائم ويزين حافة المعشرة زخارف محفورة بشكل كمثرى .. القياس (القطر ١٠١ سم) ..		١٢١٢
		مقلا من الحرض عميق من الجانبين له ساعدان وحافته صغيرة يميزها شرخ قريب من القاعدة والشرخ من الخارج .. القياس (العمل ١٨ والقطر ٣٨ طول الساعدين ٨,٥ سم) ..		١٢١٣
		مكيال من الخشب على حافته شريط من الحديد ويزين سطحه الخارجي باتجاه القاعدة ثلاثة خطوط محفورة متوازية وخطان من الزخارف المضفورة بالحفر من الخارج توجد كتابة نصها : (المتوكل على الله) .. القياس (القطر ٣٠ العمق ١٣ الارتفاع ١٥ سم) ..		١٢١٤
		طبل من النحاس (طاسه) يميزها تجويف صغير من الداخل مشكلا نتوءات بارزة من الخارج ويشكل نصف دائرة وله حلقة حديدية مثبتة بمسمار يتدلى منها سير من الجلد . القياس (قطر ٣٢ قطر المجوف الصغير ٨,٥ ارتفاع ١٣ سم) ..		١٢١٥

مسلسل	عدد	الوصف	العدد	ملاحظات
١٢١٥		ابريق من النحاس الاصفر كمثري الشكل وقاعدته دائرية وبارزة كما يوجد له مصب مقلوب ويشبه رأس النعامة وله مقبض طرفه العلوي يحيط بفوهة الابريق وطرفه السفلي مثبت على الابـريق وليس له غطـاء ويتوسط الابريق بعض الدفان وليس له زخارف . القياس (قطر الفوهة ٦ وقطر القاعدة ١٢ والارتفاع ١٧ سم) . .		
١٢١٦		صحن صغير من النحاس الاصفر يبدو انه كانت له قاعدة وتزينه من الداخل خطوط دائرية ثنائية وتتوسط الصحن كتابة نصها (بسـم اللـه الرحمن الرحيم) محفورة وفي حافة الصحن يوجد شروخ ولحام . . القياس (القطر ٣٠ والارتفاع ٤ سم) . .		
١٢١٨		صحن من النحاس المبيض ، اثار اللحام برزت الى السطح له قاعدة مجوفة على شكل قمع واسع من النحاس الرقيق . تزين حافة الصحن بخط حلزوني دائري محفور ومتقطع . . القياس (القطر ٣٢ ارتفاع ٢٣ ارتفاع القاعدة ١٨ والقاعدة ١٢) . .		
١٢٢٠		مسرجة من الرخام مكونة من اربع ذبائل في نهايات حافة المسرجة نتوءات بارزة عددها اربع واحدة منها مفقودة . ويتوسـط المسرجـة شكل قبـة مثبت فيها غطاء مفلح مكسور من احدى جوانبه ومثبت بمسمار حلزوني طويل ينتهـي بحلقـة مخرمـة . القياس (قطـر ٢٠ وقطـر القاعـدة ١٧ سم) . .		
١٢١٩		مسرجة من الرخام مكونة من اربـع ذبائـل ونتـوءات بارزة في وسطهـا بشكل مخروط ومثبت عليها مسمار وتزين حافتها نتـوءات بـارزة بعـدد (١٦) في كل جهة ابريق . . القياس (قطر الفوهة ١٨ وقطر القاعدة ١٢ سم) . .		
١٢٢١		ملت خشبي يحفظ فيه التنباك هرمي الشكل مفقود القمـة غطاؤه غـير مثبت بالقاعدة وتزين الغطاء مسامير نحاسية على شكل قباب من جميع جوانبه وله حلقة مثبتة من النحاس أيضاً وقاعدته مشروخة من الجانبين ومن الأسفل . .		

مسلسل	عدد	الوصف		ملاحظات
		القياس (ارتفاع ١١ الطول ١٨ والعرض ١٢ سم) . . .		
١٢٣٤		بندق عربي طويل قاعدتها من الجلد (الكرسي) مطرزة بمسامير على شكل زهرات من الجانبين ، كما يوجد في نفس القعر ايضا قطعتان من النحاس الفاتح اما جوار الضراب جزء بسيط مبطن بقطع معدنية وفضية ونحاسية كما يوجد ختم صانعها اما فيما يعلو الضراب يوجد مجرى خشبي مزين بأحد عشر فصاً من العقيق اليماني وافصاص من الزجاج كما يوجد في احد جوانبه اصداف مزينة كذلك توجد زخارف محفورة تمثل نجوماً سداسية وله محبسان المحبس الاوسط مبطن بسير من الجلد اما المحبس العلوي فمن المعدن . . القياس (طول البندق ١٤١) . .		
١٢٣٥		بندق عربي قديمة طويلة الساق قاعدتها (كرمي) من الخشب والخشبة المجاورة للساق مزخرفة باشكال هندسية مختلفة وبخطوط مطلية بالذهب وله محبسان من المعدن وعلى رأس الجري توجد زخارف مطلية بالذهب وتوجد ايضا جوار الزناد حلقة مثبتة على عرض المسمار . . القياس (طول البندق ١٥٨ سم) . . .		
١٢٣٦		بندق عربي قديم طويلة الساق قاعدته من الخشب مبطنة بالجلد واعلى القاعدة توجد قطعتان دائريتان من الجانبين واعلى القاعدة توجد قطعتان وزناد الجنبية مبطن بالمعدن وربما بالفضة ، وتوجد كتابة لاسم شخص (عبد الرحيم صالح) كما توجد في نفس القطعة خطوط على شكل اقواس وحبيبات بارزة على شكل قباب ومجرى البندقية مع الساق معظمها مبطنة بالفضة وبجوار الساق توجد سنارة لضغط البارود وسط الساق . . القياس (طول البندق ١٥٨ سم) . .		
١٢٨٤		مسرجة رخامية دائرية مسطحة ذات حلقة مرتفعة عند محيطها وفي وسطها معلق على شكل مخروطي برأسه قطعة نحاسية توجد على طول محيطها من الداخل والخارج خطوط منحوتة رأسياً . . المقاسات :		

مسلسل	عدد	الوصف	العصر	ملاحظات
		القطر ٣٠ سم ارتفاع الحافة ٣,[illegible] سم ارتفاع المعلق ٥,٢ سم . .		
١٢٨٥		مسرجة رخامية دائرية مسطحة وحافتها مرتفعة على طول محيطها وفي وسطها معلق على شكل مخروطي من اعلاه حلقة من النحاس على رأسه قطعة نحاسية لها مسمار ، بوجد خطوط منحوتة رأسيا على حافتها بالداخل والخارج وعلى طول محيطها . . المقاسات : القطر ١٩ سم ارتفاع الحافة ٣,٤ سم ارتفاع المعلق ٤ سم . .		
١٢٨٦		مسرجة من الحجر الحرضي دائرية الشكل وحافتها مرتفعة على طول محيطها ذات زوائد بارزة وخطوط منحوتة على واجهتها الخارجية اما واجهتها الداخلية ففيها خطان منحوتان متقابلان رأسيا في وسطها بقايا اثار المعلق . . المقاسات : القطر ١٠ ارتفاع الحافة ٣,٢ سم . .		
١٢١٧		مسرجةحرضية دائرية الشكل وحافتها مرتفعة حول محيطها على شكل متعرج محدب وبه معلق على شكل اسطواني وبرأس المعلق توجد حلقة من الحديد . . والتعرج المذكور كتعرج اطراف النجمة . المقاسات : القطر = ١٦ سم ارتفاع الحافة = ٢,[illegible] سم ارتفاع المعلق = ٤,٢ سم . .		
١٣١٦		اناء (برمة) مدورة ومنتفخة في وسطها وقمتها مفتوحة بشكل دائري ، هناك نوع من الزخرفة حول رأسها وهي عبارة عن خطوط متعرجة يليها الى اعلى خطان دائريان متوازيان ثم خطوط رأسية مائلة قليلا وبعدها الحافة ملساء .		

مسلسل	عدد	الوصف	عدد	ملاحظات
		المقاسات : قطرة القمة = ١٣,٨ والارتفاع = ٨,٣ سم ..		
١٣١٧		اناء (برمة) من الفخار شبيهة بالشكل السابق الا ان زخرفتها تتمثل في خط مدور اسفل الزخرفة يليه خطان متعرجان متتاليان ثم خطان دائريان متوازيان بعدهما خط صغير متعرج . المقاسات : قطر الفتحة = ١٠ ½ سم والارتفاع = ٩ سم ..		
١٣١٨		اناء (برمة) فخارية ومدورة كسابقاتها الا ان زخرفتها عبارة عن خط متعرج بعدة خطوط صغيرة رأسية منحرفة ثم يليها خطان دائريان متوازيان ثم خط صغير متعرج واخيرا الحافة وهي ملساء .. المقاسات : قطر الفتحة = ٩,٨ سم والارتفاع = ٨,١ سم .		
١٣١٩		اناء (برمة) فخارية شبيهة في شكلها للنماذج السابقة وزخرفتها تمثل خطين متوازيين مدورين يليهما خطوط منحرفة رأسية وخط او خطوط متقاطعة ثم اعلاها خطان صغيران دائريان يليها خط متعرج فوقه خط منحوت عند حافة القمة الملساء حول الفتحة .. المقاسات : قطر الفتحة = ١٠ سم ، والارتفاع = ٨ سم .		
١٣٢٠		اناء (برمة) من الفخار شكلها مدور مفتوحة عند قمتها حول فتحتها (قمتها) خط مضغوط ادى الى بروز الحافة يوجد تحت الفتحة نتوءات بارزة عددها ثلاثة يربطها مع بعضها حزام بارز الى الخارج (محبس) وذلك لغرض الحمل وهي مفرقة عشوائيا (اي المسافات بينها غير ثابتة ..) المقاسات : . قطر الفتحة = ٢٨ سم والارتفاع = ٢٩ سم ..		

ملاحظات	عدد	الوصف	عدد	مسلسل
		مبخرة من الفخار مكعبة الشكل ومفتوحة بشكل مربع عند اعلاها يوجد سور مربع عند القمة وحول الفتحة ومنقوش في اعلاه بخطوط صغيرة متعرجة وهناك ايضا زخرفة على جوانبها الأربعة تشبه المثلثات ومتوازيات الاضلاع وعند اركانها الاربعة حفر مضغوط الى الداخل رأسية ، وهناك على القاعدة اثار وبقايا اربع قوائم المقاسات : الطول = ٧ سم عرض = ٧ سم والارتفاع = ٥ سم ..		١٣٢١
		طبق (صحن) نحاسي دائري الشكل وترتفع حافته قليلا عند وسطه ويمثل حد الحافة المواجهة للوسط اشكال هندسية متتابعة وهناك زخرفة على سطحه العلوي على اشكال نباتية واخرى خطوط دائرية متقاطعة ومتشابكة مع بعضها .. المقاسات : طول القطر = ٥٤ سم ..		١٣٢٢
		حزام (محزق) من الجلد يوجد به عدد من العيارات النارية الخاصة ببندق الموزر وذلك على سطحه العلوي ، وله رباط يلتصق بأحد رأسيه .. المقاسات : الطول = ½ ٧٥ سم والعرض = ½ ٧ سم ..		١٣٢٣
		قفل عثيمي من الحديد شبكة متشابه او مشابه لقفل رقم ١٣٠٨ الا انه لا يوجد قطع مستطيلة مترادفة فوق الاسطوانة وانما هناك قطعة حديدية سميكة في اسفلها تتوسطها قطعة حديدية رأسية ، وهناك قطعة اخرى متعارضة مع الرأسية مخرمة من اطرافها وتوجد باطرافها نوع من الخطوط الصغيرة في شكل زوايا القطعة الرأسية مخططة رأسيا عند قمتها ولا يوجد مفتاح المقاسات : طول القضيب ٣٩,٢ سم وطول الاسطوانية = ١٣ سم وقطر الاسطوانة = ½ ١٣ سم .		١٣٠٩

مسلسل	عدد	الوصف		ملاحظات
١٣١٠		قفة عزفية ملونة ذات غطاء قاعدتها بيضاوية الشكل وكذلك فتحتها الا انها اصغر مساحة من القاعدة غطاؤ ها ملتصق بها بواسطة خيطين او شريطين من الجلد وهي عبارة عن خطوط دائرية افقية مترادفة . . المقاسات : الارتفاع = ٢٠ سم والطول = ٢٩ سم والعرض = ½ ٧٧ سم . .		
١٣١٦		خنجر من الحديد ، حاد من الطرفين ومخروط من رأسه وعريض عند قاعدته التي يوجد بها قطعة حديدية ملتصقة مع المسمار كما يوجد مقبض من الخشب عبارة عن تمثال لرأس رجل به تجويف الى الداخل يرتبط بها مع المسمار ، ويوجد له غمد من الخشب به نوع من الخطوط المنحوتة مائلة ومتعارضة بجهة واحدة منه . المقاسات : الطول = ٥٠ سم المقبض عرض القاعدة = ½ ٧ سم عرض الرأس ½ سم وطول المقبض ١١,٧ وطول الغمد = ٤٣,٢ سم . .		
١٣٢٧		صحن نحاسي دائري الشكل مسطح عند وسطه ومرتفع حول محيطه ، حيث ان الحد العلوي للحافة المرتفعة منعطف الى الخارج ، يوجد نوع من الزخرفة ذو أشكال متعددة على سطح الصحن الاعلى كما يوجد وسط الزخرفة خط (هذا عمل محمد احمد الشهاري وفقه الله) . . المقاسات : طول القطر = ٦٩ سم ، ارتفاع الحافة = ٣,٧ سم .		
١٣٢٨		زهرة فضية ذات ثمانية قرون ، وذلك لغرض الزينة وفي احدى جوانبها (قرونها) يوجد حلقة صغيرة فضية داخلها قطعة فضية صغيرة ملتوية ، والزهرة مشبكة وبها مسمار مضغوط في وسطها . . المقاسات : طول القطر = ٥,٥ سم . .		

ملاحظات	العدد	الوصف	عدد	مسلسل
		زهرة فضية ذات ستة قرون ، عند محيطها وست دوائر مفرقة بين القرن ، وهي مشبكة ، وفي وسطها شكل زهرة اخرى وكلتاهما مرتبطتان بمسمار مضغوط في الوسط ، في أحد القرون توجد حلقة دائرية داخلها قطعة فضية ملتوية . المقاسات : طول القطر = ٥ ١/٢ سم .		١٣٢٩
		زهرة فضية بيضاوية الشكل ومشبكة ومحيطها به عدة اقران صغيرة . في الوسط شكل بيضاوي ومشبك وبه قطعة فضية رقيقة ملتوية عند اطرافها يوجد على جانب المحيط حلقة بداخلها قطعة فضية ملتوية او مضغوطة . (معطوفة) المقاسات : طول القطر = ٥ سم		١٣٣٠
		زهرة فضية دائرية الشكل ممدودة (ممدوجة) تمديجا صغيرة حول محيطها ومشاكة وذات أسلاك فضية على شكل زهرة بوسطها مربوطة بمسمار مضغوط ، ودوائر صغيرة ومتباعدة تحت المحيط بها حلقة داخلها قطعة معطوفة . . المقاسات : طول القطر = ٥,٣ سم . .		٢٣٣١
		زهرة دائرية الشكل من الفضة محيطها به ست بينها ست دوائر صغيرة وبوسطها زهرة من ستة اصناف مرتبطة مع بعضها بمسمار مضغوط ، وكلها مشبكة كما ان هناك حلقة عند المحيط بداخلها قطعة ملتوية من الفضة . . المقاسات = طول القطر = ٤ سم . .		٢٣٣٢
		زهرة فضية دائرية الشكل ومموجة حول محيطها بوسطها دائرة صغيرة من سلك فضية بداخلها شكل نباتي ، وهي مشبكة بوسطها ولها حلقة ، عند محيطها بداخلها قطعة فضية معطفة . المقاسات : طول القطر = ٥,١ سم . .		١٣٣٣

ملاحظات	عدد	الوصف	عدد	مسلسل
		سوار من الفضة دائري الشكل وعريض في مكان واحد منه بحيث يوجد زهرة ذات اثني عشر قرناً فوقها زهرة اصغر حجما ذات ثمانية قرون ، وبوسطها فص وكل السوار مشبك (اثنان لون الفص احمر واثنان ازرق) المقاسات : طول القطر = ٦,٥ سم ..		١٣٣٤
		سوار من الفضة دائري الشكل ومشبك ، وهو عبارة عن مستطيلات مربوطة مع بعضها بواسطة مسامير فضية رأسيا ، اطوال المستطيلات تمثل محيطها (محيط الدائرة) ومموجة او على اشكال قوسية .. المقاسات : طول القطر = ٦ سم ، والعرض = ٢ سم ..		١٣٣٥
		كرسي للختمة من الخشب ، وهو عبارة عن لوحين مترابطين من وسطهما والفتحتان بشكل متقاطع ، على رأس كل لوح يوجد قرن او زوائد تحتها اخرام صغيرة دائرية ، وعند اسفل كل لوح قائمتان او قاعدتان المسافة بينهما عبارة عن فتحة اطرافها مقرنة على شكل اقواس ... المقاسات : طول اللوح = ٥٦,٥ سم والعرض = ٢٥ سم ..		١٣٤٠
		ركاب خيل من الحديد عبارة عن قضيب حديد معطوف على شكل قوس وعند حد رأسيه يوجد شكل بيضاوي من الحديد عليه نقش منحوت على سطحه العلوي ووسطه مفتوح ، عند قمته الناتجة من انعطاف القضيب توجد قطعة حديدية متعارضة .. المقاسات : عرض القاعدة = ١٢,٨ سم وعرض القمة = ٧,٢ سم والارتفاع = ١٥ سم ..		١٣٤١
		ركاب خيل من الحديد عبارة عن قضيب معطف مشابه للشكل أعلاه ولكن الشكل الموجود بين حدي رأسيه مستطيل ولا يوجد عليه اي نقش وفوق قاعدته المعطوفة توجد قطعة مسمرة عليه شكلها قوس .. المقاسات : عرض القاعدة = ١٢,٥ سم وعرض القمة = ٥,٥ سم والارتفاع = ١٣,٥سم ..		١٣٤٢

مسلسل		الوصف	العدد	ملاحظات
١٣٤٣		قفل عثيمي من الحديد ، عبارة عن قضيب حديدي معطوف بأربع زوايا ومستطيل وبين حدي رأس شكل اسطواني مقفول من الجانبين ويوجد بها نقش على جانبها عبارة عن خطوط منحرفة ومائلة وتحت الاسطوانة شكل متوازي مستطيلات مفتوح عند جانبين منه وفوق قطعة حديدية رأسيا عليها قطعة متعارضة في وسطها . . المقاسات : طول = ١٥,٥ سم والعرض = (٤,٥ سم) . .		
١٣٤٤		قاعدة شمعدان من النحاس دائرية الشكل وحافتها مرتفعة وبارزة الى الخارج ، يوجد بوسطها نموذج قاعدته فضية او مقببة ومخططة بخطوط منحرفة ووسطه على شكل منحرف ورأس قمته دائري وحافته بارزة الى الخارج وبوسط قمته الدائرية يوجد مسمار مضغوط . . المقاسات : قطر = ١٥,٥ سم ، ارتفاع الحافة = ١,٥ سم ارتفاع الشكل بالوسط = ٥٠ سم . .		
١٣٤٥		شمعدان من الخشب وهو عبارة عن قطعة خشبية طويلة ومسطحة توجد في وسطها المضغوط زوائد صغيرة ، ويوجد عند وسط قمتها خرم دائري ، وهناك عند قاعدتها قطعة خشبية مسطحة ملتصقة بها . . طول القطعة الكبيرة = ٤٧ سم وعرض القاعدة = ١٥ سم . وعرض القمة ١١ وطول القطعة الملتصقة ٢٢,٥ وعرض ١٦ والقمة ١٠سم .		
١٣٤٦		طاسة من النحاس دائرية الشكل ومقعرة ، يوجد نوع من الزخرفة على اشكال نباتية وحيوانية بسطحيها الداخلي والخارجي . المقاسات : طول القطر = ٣٠ سم ، والارتفاع = ٩,٥ سم . .		
١٣٤٧		ورقة من الجلد دائرية الشكل ومقعرة في وسطها ، يوجد على سطحها الاسفل اربع زهرات من الحديد ، كما يوجد على سطحها العلوي اربع حلقات من الحديد ، وهي ملتصقة بالزهرات بواسطة مسامير . . . المقاسات : القطر = ٣٦,٥ سم والسمك = ١,٥ سم . .		

	عدد	الوصف	عدد	
١٣٩٠		مسرجة رخامية دائرية الشكل حافتها مرتفعة حول محيطهاو وبها على الواجهة الخارجية توجد حفر اسفلها (اسفل) كل واحدة خطان بينهما زوايا حادة اما على الواجهة الداخلية منها فتوجد خطوط رأسية منحوتة كل ستة تمثل وحدة تنفصل عن اخريات بمسافة معلومة وثابتة وعدد اللوحات اربعة وفي وسط المسرجة يوجد معلق مخروطي على رأسه غطاء نحاس فوقه قطعة نحاسية مقبية ترتبط مع الغطاء بواسطة مسمار . القياسات : طول الاضلاع (٨,٥ و ٢,٤ و ٦,٤ و ٨,٥) ارتفاع الحافة = ٣,٥سم ..		
١٣٩٢		مسرجة على شكل مثلث من الحجر الحرضي حافتها مرتفعة فوق اضلاعها وعلى قاعدتها تمتد الحافة الى الخارج على شكل لسان . المقاسات : اطوال المثلث (٩ و ٥ و ٩ سم) ارتفاع القاعدة = ٣,٥سم ..		
١٣٩٣		ابريق من النحاس قاعدته دائرية وكذلك فتحته وهو منتفخ عند وسطه وله مسكب على شكل مخروطي وتوجد بالجانب الاخر حلقة تمثل المقبض توجد بوسطه فوق الانتفاخ اربعة خطوط صغيرة متوازية وملتفة حوله وكذلك في اعلاه تحت الفتحة .. المقاسات : قطر الفتحة = ١٠,٨ وقطر القاعدة = ١٠ والارتفاع = ١٦,٧ سم ..		
١٤		محبرة من النحاس عبارة عن شبه اسطوانة مجوفة من احد الجوانب والجانب الاخر مفتوح وله غطاء ويلتصق قرب وسط الاسطوانة شكل قاعدته مربعة الا ان وسطه منتفخ يوجد على الاسطوانة شكل او بعض الزخارف وهي اشكال نباتية وخطوط ملتفة ومتوازية ومتعرجة توجد بالقطعة زخارف عبارة عن زهرة ، وكتابة انجليزية في القاعدة وزخرفة نباتية على غطاء قمتها ..		

	عدد	الوصف	عدد	
		المقاسات : طول شبه الاسطوانة = ١٨سم ، والعرض = ٢,٢سم .. مساحة القاعدة = ٢,٦ × ٢,٦سم والارتفاع = ١٦,٧سم ..		
١٣٥٢		ميزان كبير من الحديد له قاعدة سميكة بيضاوية الشكل يحصرها قضيبان من الحديد ملتقيان عند اسفل القاعدة ومربوط فيهما حلقة عليها معلق على شكل مفتوح ، ويمتد من القاعدة الى اعلى ذراع من الحديد سميك في قاعدته ومنحوت عليه وحدات قياسية هي خطوط الواحد منها يمثل كيلوجرام ومربوط في قاعدة الذراع حلقتان دائريتان .. المقاسات : طول الذراع = ٩٤ سم ..		
١٣٥٣		أكورديون من الخشب له منفاخ في اسفله عبارة عن اشكال مستطيلة من الكرتون ومتطابقة تكون مع بعضها تجويفا يملأ بالهواء عند جذبه (المنفاخ) الى الخارج ويفرغ بضغطه والاخر صغير ولونه اسود ..		
١٣٥٤		فنجان صغير من الصين ومقعر يوجد نوع من الزخرفة على سطحه الخارجي عبارة عن خطوط متعرجة ونقاط واشكال نباتية كما يوجد عند حافة سطحه الداخلي خط دائري احمر .. المقاسات : طول الفتحة = ٧ سم وطول القاعدة = ٣,٣ سم ..		
١٣٥٥		اناء ( ) من الفخار على شكل مخروطي له قاعدة مقعرة لها حزام سميك دائري وحافتها منعطفة قليلا الى الخارج على سطحها الخارجي يوجد نوع من الخطوط البارزة والمنحوتة متتالية من اعلاها الى وسطها وملتفة حولها .. المقاسات : طول قطر الفتحة = ٤٠ سم وطول قطر القاعدة = ١٣ سم والارتفاع = ١٥,٤سم ..		

النص الكامل لمخطوط

قانون صنعاء[1]

■ الحمد لله الذي ركب قانون الشرع على نظام العدل ، وعلق مصباحاً لحقيقة العقل والنقل ، وقوله الحق وله العز الأظهر ، والصلوة على نبيه الذي قال الفقه ثم الفقه ثم المتجر ، وعلى آله الذين حرصوا على رعاية الاسلام ، وحموا حرمه من أن يضار أو يضام ، عاملين بما استرعوا عليه ، راغبين من الله فيما لديه ، مؤثرين المصالح الشرعية جارين على سنن القواعد المرعية .

وبعد فإن مولانا وخليفة عصرنا ومالك أمرنا ونهينا ، مالك أزمة الحل والعقد ، والمتصرف في ممالك اليمن بالفرض والرد أمير المؤمنين وحامي حما★ الاسلام ، والدين ، المتوكل على الله القسم بن الحسين بن رسول الله ، طال عمره ، وزهر في برج السعادة بدره ، قضى رأيه الصايب ، وهمته المزاحمة للكواكب ، ان ينظر في قانون يدفع التظالم ، ويأخذ على يد الظالم ، ويستقيم به المعاش ، وينمو به الضعيف ويرتاش ، حنُواً منه على الرعية ، وعملاً بما تقتضيه القواعد الشرعية ، لينتظم معاش الناس ، ويوزن العدل بالقسطاس ، فيعتمده التجار الصغار في متناولهم من التجار الكبار ، ويدخل فيه تجارة حضرموت وما إليه ، ليعرف كل ماله وما عليه ، ويحاط علماً بما حرّره العلماء السابقون وما قرروه ، من القانون في مدينة صنعاء الذينهم «الذين هم» القاضي ابراهيم بن يحيى السحولي رحمه الله والقاضي حسن بن يحيى حابس رحمه الله والقاضي حسين بن يحيى السّحولي رحمه الله وما وضعه امير المؤمنين المتوكل على الله اسمعيل بن أمير المؤمنين رضوان الله عليه وعادت بركاته آمين .

وحضر في هذا القانون الموضوع في المتجر وما ينضاف اليه من أجر ساير الحرفة والمكيول والموزون الآتي ذكرهم وهم الحاج احمد بن ناصر السقطي والحاج علي بن محمد الشقيري والشيخ محمد بن هادي الأنسي والفقيه احمد بن علي الفسيّل الفقيه اسمعيل بن أحمد عطيفة وسعيد بن حسن

بانبنبط والحاج قاسم الشقبري والحاج احمد بن محمد رسام والحاج علي بن محمد نشوان وصلاح بن سعيد هاجر والشيخ عبده بن محمد الجهم وعبده بن علي العابد والفقيه علي الفضيلي والحاج علي بن صالح الروضي والشيخ عمر الدحدوح والشيخ عبده عيون ومحمد بن قاسم الفضيلي وصلاح بن قاسم الظفاري والأسطا اسمعيل بن علي المعطوف والفقيه حسين بن هادي فاخر والشيخ ناصر مرزوق وعقّال اهل المهر جميعهم وتقرير القرش المرقوم بقرش الحجر والبقش المرقومة بالبقشة الرزين حرف القرش الحجر منها حرفان اثنان .

■■ **التجارة الواصلة من المخا وغيره من البنادر من البزّ** : يكون العشرة احد عشر ونصف وما شراه المشتري في صنعاء ما ابتاع بالكورجة كانت العشرة احدا عشر وما كان بالطاقة والذراع كانت العشرة اثنى عشر ، والبزّ الحضرميّ جعل من باب النظر لما كانت حاجة المولى امير المؤمنين حفظه الله اليه كثيرة للمصلحة العامة للمسلمين ان يؤخذ للمولى امير المؤمنين المتوكل على الله حفظه الله نصف ما وصل من الحضرمي والنصف الأخر يشروه المتسببون في الحضرمي من أهل صنعاء وغيرهم ويكون لهم فيه ربح العشرة احدا عشر .

■ **والفضة المبتاعة المشتراة من الذميين وغيرهم** ما كانت قرش حجر أو مصري أو بهاري على سبع الآ ثلث فيكون مصلحتها لصاحب رأس المال في الوقية سبعة كبار وما عدا هذه الفضة كسرّت وتكون خشر

■ والدلالين المعروفين بدلالة الفضة ممنوعين تعميل الفضة لنفوسهم حذر الغش . ومن عمل منهم شيئاً لنفسه لزمه قسامه لبيت المال عشرين حرف (كذا)

■ **أجرة الصيغة لمن يصنعها** : أجرة الصب الأبيض العصادر والمقاصر الكحال والحداود على الوقية ثمن قرش واجرة المطروق الأبيض الدمالج والسكين والسيف ثمن قرش وخمسه كبار واجرة الطلا على قدره المعروف واجرة صيغة اللّبات والدقق والمرابط وكلها هو زرعه ربع قرش حجر وما كان شغله محيص وهو نادر فنظره الى أمير المؤمنين حفظه الله والتعديل سبع الآ ثلث وكل صانع يضع اسمه فيما يصنعه بنظر الاسطا عبد الله الردمي حذر الغش .

وللدلالين دلالة فيما باعوه من أي سلعة التي تكون الى العشرة القروش وما دون على البايع كبيرين وعلى المشتري بقشة واحدة على القرش ويحضر البايع والمشتري ويناظروابينهم في كل سلعة تباع ويُضمّن ويعرّف كل دلاّل بنفسه ومن باع شيئاً ولم يطلع على ما باعه البايع والمشتري استحق الأدب البالغ ومنع من الدلالة لما يترتب عليه من الخيانة بين البايع والمشتري والدلال الغريب الذي ما يعرّف بنفسه يمنع خشية ذهاب اموال الناس .

■ **الدلالة في البيع والشراء** : دلالين الجنب لهم على القرش بقشه من البايع وبقشة من المشتري . والدلالة التي للغريب على كل مماية قرش قرش واحد ، ودلالة البزّ في بيع الكوارج على المماية قرش نصف قرش والدلالة على العدل البزّ على كل عدله المعتاد . والدلالة على البز الحضرميّ على الربطة

التي هي كورجة وربع كبيرين من البايع وكبيرين من المشتري وعلى المایة القرش قرش . والبز الدّوعاني على الربطة ثلاث بقش والخرج على الربطة بقشه وللحمّال بقشة ودلالة البيوت على المایة قرش قرش بايع ومشتري .

وما وصل من بضاعة مع الأغراب وغيرهم مثل بضاعة الشام وبضاعة عمان والعجم الحرير والذهب والمعطارة والغزل والنيل وغيره يعرض اولاً على اهل المهن من الكسّارين في المعطثارة والمحررين والحكوك ثلاثة ايام فهم المقدمون في أخذ ما قد صار لهم حرفه والرصافين وما عداهم لا يأخذوا شيء إلاّ بعد مضي الثلاثة ايام . والعهدة في ذلك على الدلالين . وبيع الشمع يكون المنّ اثنين وثلاثين اوقية ميزان .

والمعطارة والحرير وما عدا ذلك ما ابتاع بالغراسلة والرطل كان العشرة احدا عشر وما ابتاع بالوقية والربع الرطل فيكون ربحه العشرة اثنى عشر . ومن فتح باب الزيادة استحق الأدب البالغ

■ القشر والسليط والسمن :

يمنع الآخذون للسليط التلقي للجلوبة من المسافرين الى جهة حَرَاز الآخذين من أهل تهامة وغيرهم في سوق مفحق ويصل الجلاب الى صنعاء من كان من تهامة وغيرها . ومن اخذ من سوق مفحق الذي فيه تلقى للجلوبة السالكة الى مدينة صنعاء لزمه قسامه لبيت المالماية حرف ويكون للكسار في السليط والثمن في كل رطل بقشه ونصف ويكون للكسار البايع للقشر في كل رطل بقشةواحدةوالقطع في السليط في أزقاق الغنمي في المایة الرطل ستة ارطال وفي ازقاق البقري في المایة الرطل ثمانية ارطال وما كان فيه زيادة على هذا القدر رجع العطل لصاحبه والغراير ترجع لصاحبها وللمستقيم على تفريق السليط بين أهل صنعاء ومخارجة البايع بما هو له أجرة على كل جمل ربع قرش من البايع والسمسري له الخرج المعتاد على المشتري وما شراه صاحب صنعاء لبيته ما عليه شيء وسوق السمن يكون فيه مصلح واحد للأزقاق والكُعَد ولا يبتاع من الرصافين والكسارين والبانيان الاّ بعد كفاية اهل صنعاء .

■ سوق الحطب :

يمنع المفاودين الذينهم (الذين هم) بسبب لتغير السوق ولا يباع الحطب إلا في سوقه المعتاد ومن باع في غير سوقه المعتاد لزمه قسامه لبيت المال خمسون حرفاً ومن المشتري مثلها ويكون الحطب لبيت المال وللمصلح على اعمال الكبير كبيرين من البايع وبقشه ونصف من المشتري وعلى حمل البهيمة نصف ما على الجمال والعود المأخوذ من الحطب ممنوع ومن تعدا الى اخذه استحق الأدب البالغ والمصلحين في سوق الحطب ستة عشر نفر الذي تعرف امانتهم وعدم خيانتهم .

■ سوق الحَبّ : يكون فيه عشرين نفر كيالين أمنا مختارين معروفين بالأمانة والديانة وعدم الخيانة ويقبضوا الكياله المعتادة على الزبدي ربع قدح من الجالب الى السوق ومن صاحب صنعا ثمن قدح فقط .

■ سوق العلف في سوقه المعتاد الأصلي ويمنع بيع فيما عداه ومن خالف ما ذكرناه استحق الأدب

■ المجزرة والمصلحين في سوق الغنم

يكون شرا الغنم كل يوم بيومه ويمنع الجزارين من شرا الغنم ليوم ثاني وما بقي من الجلب بقي في يد الجلاب ويمنع المغاودين الأخذين للغنم من السوق التي يترتب عليها المغالاة وللجزار في المذبوح الجلد والرأس فقط وبيع اللحم البقري يكون إفتقاده في كل وعد على شيخ مدينة وتقويم البقر بنظره ويحضر لديه شيخ الجزارين واجرة الجزارين في ذبح غنم عيد النحر في عرفة اجرة الرأس الكبير خمسه عشر بقشه وعلى الرأس المتوسط عشر بقش وعلى الرأس الصغير خمسه كبار والمصلحين في سوق الغنم سته عشر نفراً الذي تعرف أمانتهم وعَدم خيانتهم وعليهم ايصال البايع للغنم إلى عند الفقيه المُرصد يعرّفوه قدر القيمة ومن ظهر منه خيانه او خدع او زيادة او خلل كان عليه قسامه لبيت المال عشره حروف والصّلحة تكون من البايع كبيرين ومن المشتري بقشة ومن المشتري نصف بقشه وصاحب صنعا ما عليه شيء من الصلحه فيما شراه في سائر الأيام .

■ الحديد قاعدته معروفه : أجرة كل رطل مثل قيمته

ونعل الخيل التطبيقة : الكاملة ميزانها على الذي يبيع الحديد وقدرها رطلين وتبلغ إلى رطلين وربع ورطلين ونصف وما زاد على هذا القدر فنادر وقيمة الرطل على ما يقتضيه الزمان وأجرة البيطار على التطبيقة الكاملة ربع قرش وعلى نعل الصدر ثمن قرش وفي نعل الفردة خمسة كبار وعلى الصدر كبيرين وفي الفردة بقشة واحدة .

القات : قيمة كل ربطة من المليح ثمن قرش التي وزنها عشر اواق للجلاب ولمشتريها من المقاوتة في صنعا في كل ربطة بقشه ونصف والقات المتوسط وما دون فحسبها يقومه شيخ المقاوته المعروفين بالأمانة .

العنب وما إليه من الفواكه يكون في قسمته والتقويم للناس ثمانية انفار امنا مختارين ولهم الأجرة المعتادة ولا يأخذ أحد من أولاد السوق شيئاً مما وصل الى السوق إلا بعد العصر وقد استكفا الناس .

اجرة العمارين والنجارين والمقاصصة والمقاضضة والملاجين وساير الأجر

اجرة العمار الاسطا الكبير ربع قرش وكبيرين ويلحق اليه كرا العدّة كبيرين والاسطا التابع ثمن قرش وخمسة كبار واجرة المناول للأسطا ثمن قرش وكبيرين واجرة الشاقي ثمن قرش وقيمة الماء بقشة ونصف واجرة الموقص ثمن قرش وكبيرين . شقاة بير العزب الأسطا ثمن قرش وكبيرين والشاقي ثمانية كبار .

شقاة الجراف والروضة الاسطا في العمارة والشرعية ثمن قرش والشاقي ستة كبار النجارين الاسطا ربع قرش والتابع ثمن قرش وخمسة كبار والشاقي ثمن قرش .

المقاصصة : الاسطا الماهر ربع قرش وكبيرين ويلحق اليه كرا عدّة كبيرين وكرا اسقاله كبيرين والشاقي ثمن قرش وقيمة الماء، في عمل البدع بقشة واحدة .

الغسيل في الجص . اجرة الاسطا ربع قرش والشاقي ثمن قرش وقيمة المآ (الماء) كبيرين .

المقاضضة : اجرة الأسطا ثمن قرش وخمسة كبار والشاقي ثمن قرش وقيمة حمل البهيمة الهشاش الكامل أربعة كبار وقيمة حمل البهيمة المياظير بقشة ونصف وقيمة القدح النورة ثمن قرش .

الملاّجين اجرة الاسطا الكبير ربع قرش وكبيرين ويلحق اليه عدة كبيرين وأسقاله كبيرين واجرة التابع ثمن قرش وخمسة كبار والشاقي ثمن قرش وقيمة الماء اربع كبار والخلط قيمة حمل البهيمة الكامل ثلاثة كبار وبقشة واحدة اجرة وقيمة حمل البهيمة التراب بقشة واحدة .

الملاجين الذمين والمقاصصة اجرة الاسطا ثمن قرش وخمسة كبار ويلحق اليه كرا عدة كبيرين واجرة الشاقي ثمن قرش وقيمة الماء اربعة كبار .

الحمالين في سوق العلف اجرة الشبكة التبن والتي تحمل البهيمة بقشة واحدة واجرة الذي يحمل مغارة التبن بقشة واحدة .

حمالين التنباق : اجرة عدلة الحمل الكبير من البايع اربعة كبار ومن المشتري اربعة كبار .

حمالين سوق القشر والسليط وغيرهم . اجرة من يحمل الحمل من الحلقة الى السماسر حق الحلقة كبيرين واجرة من يحمل من السماسر الى الميزان كبيرين من البايع وكبيرين من المشتري واجرة من يحمل من السماسر الى تحت الميزان ويرجع كبيرين من البايع وكبيرين من المشتري واجرة من يحمل البز من الحلقة الى السماسر الذي في الحلقة على كل عدله بقشة واحدة واجرة الذي يحمل من الحلقة الى سمسرة سيدي محمد بن الحسن رحمه الله وسماسر سوق العنب على كل عدله كبيرين واجرة من يحمل من الحلقة الى سمسرة السليط وسمسرة الصورعه وسمسرة الشماه على كل عدله كبيرين ونصف بقشه والذي يحمل من الحلقة الى سمسرة الشيخ احمد بن الحاج وسمسرة مريد على كل عدله ثلثه (ثلاثة) كبار .

اجرة الحديد الذي يحمل العدله الى تحت الميزان ثلثه (ثلاثة) كبار وثلثه (ثلاثة) كبار مشتري برجوعها .

حمالين سوق الحطب : اجرة من يحمل من سوق الحطب الى اطراف المدينة اربعة كبار واربعة كبار .

تفلوق ؟ هذه على الحمل الجمعي والحمل اليدوي واجرة الحطب الذي في بلاد نهم والفرش على كل حمل كبيرين وكبيرين تفلوق؟ واجرة من يحمل الى اوسط المدينة ثلاثة كبار على العدله شقا وتفلوق .

اجرة السقايين وقيمة الماء . قيمة القربة الماء في المسافة القريبة نصف بقشه وقيمة القربة في المسافة المتوسطة ثلثي بقشه وقيمة القربه في المسافة البعيدة بقشه واحدة ومن استأجر سقا شهر كامل كان حسابه على هذا المنوال وهذا التقرير في البيوت القطيع التي في المدينة وهي معروفة .

اجرة الندافين على الرطل اجرة بقشة واحدة .

اجرة الخبازين في المواجب على القدح الصنعاني ثمان بقش وعلى الرأس الغنم ثمان بقش .

وأهل الحرفة الخياطين والحظائين والحوك وغيرهم المرجع في اجرتهم الى عقالهم فيما يستحقوه ثم الى شيخ المدينة .

والمجهزين بالشغل الضعيف من الخياط وكل ما كان جهاز يكون افتقاده في الثمانية الأيام من شيخ المدينة للخلل الذي فيه على الناس .

والحلاق على الرأس بقشه واحدة .

والحجامه على كل محجم نصف بقشه

والحمام اجرة الحمامي بقشه واحدة على كل نفر وكيس وتكييس بقشه واحدة .

وقيمة الحجار قيمة الحجر الكبيرة الحبش ثلاث بقش موصلة وقيمة الظبر الحبشي اربعة بقش موصل .

واحجار المقبرة قيمة الحجر الذي طولها ذراع حديد بقشه ونصف .

والأجور قيمة الألف قرشين حجر موصل على قالبه المعروف المعهود .

وقيمة الحجر البيضا الكبيرة كبيرين موصله

وبعد وضع هذا المثال المرسوم والقانون المرقوم فليحط علماً كلمن تسمى باسم الايمان وشملته العناية المتوكلية بالحياطه والأمان ان أمير المؤمنين بارك الله في عمره قد هدا الى مادل عليه الشرع وعم الصغير والكبير بضروب من النفع فمن قرعت سمعه قاعدة هذا القانون فلا يحل له ان يتقاعد عن العمل بما فيه طرفة عين .

اما اولاً فلأنه خليفة جده صلى الله عليه وآله وسلم وهو الذي نزّل فيه قول الله في محكم القرآن وما كان لمؤمن ولا مؤمنة اذا قضى الله ورسوله امراً ان تكون لهم الخيرة من امرهم ومن يعصي الله ورسوله فقد ضل ضلالاً مبينا .

وأما ثانياً فلقول جده صلى الله عليه وآله وسلم ليس للمرء إلا ما طابت به نفس إمامه فمن هداه عقله الى لزوم ما أمر به فقد جاز على السراط المستقيم ومن تجانف عنه فهو في سلك من قال الله فيه فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم ودون هذا يكفي المتشرع بلا مزيد لاسيما من كان له قلب أو ألقى السمع وهو شهيد وصلى الله على سيد المرسلين المبعوث لاصلاح حاليّ الدني (الدنيا) والدين وعلى آله الماشين على سنن الشرع والماضين على قانون الصلاح في كل أصل وفرع .

زبر هذا المرسوم في محروس صنعا المحمية بالله تعالى في حضرة مولانا أمير المؤمنين المتوكل على الله القسم (القاسم) ابن الحسين بن أمير المؤمنين حفظه الله .

بتاريخ شهر محرم الحرام سنة احدا وثلثين ومياية وألف .

ملاحظة من التحرير :

تعتبر الدراسة المهمة التي كتبها العلامة القاضي حسين السياغي في مجلة «دراسات يمنية» - عدد شتاء ١٩٨٢ - المرجع الضروري لقانون صنعاء من حيث مصطلحاته وأفكاره وأعرافه الاقتصادية التاريخية .

ذمار علي وابنه ثأران يعودان إلى صنعاء

بقلم : مطهر بن علي الإرياني

منذ بضعة اسابيع ، استقبلت (صنعاء) ، بكل مشاعر الحب والفرح ، التمثالين الرائعين اللذين يرمزان الى كل من ، (ذمار علي يهبر ملك سبأ وذي ريدان) ، وابنه (ثاران يهنعم ملك سبأ وذي ريدان) ، بعد ان عادا إلى أرض آبائهما وأجدادهما ، والى عاصمة ابنائهما واحفادهما ، وذلك عقب ان تم ترميمهما ، وإعادة تركيب اجزائهما ، على اسس علمية حديثة ، وبأيدي الخبراء المختصين ، في معهد (ماينز) بالمانيا الاتحادية .

واذا كان الاجانب ، من الخبراء والفنيين ، قد ابدوا اعجابهم الشديد ، بهذين العملاقين البرونزيين الرائعين ؛ فلا شك ان كل يمني ينظر الى هذين الاثرين الخالدين ، لا بد له ان يشعر بالفخر والاعتزاز ، مما يفعم صدره بالمزيد من اليقين الوطني، والايمان بما لشعبه وبلاده من القدرة على النهوض والتقدم ، وبما لابناء وطنه من الطاقات الابداعية القادرة على بناء يمن اليوم . . . يمن الحضارة والازدهار .

ولقد افسحت (صنعاء) الرؤوم ، لهذين التمثالين ، مجالا في صدرها الواسع الحنون ، فارتفعت قامتاهما ، في مكانهما المؤقت ، ضمن إحدى قاعات (دار الكتب العامة) وذلك لكي يتمكن المواطنون من مشاهدتهما ، والتزود منهما بحوافز الجد والعمل ، والنهوض بالمسؤوليات .

اما مسيرة هذين الاثرين الرائعين ؛ من الظهور الى الاختفاء ، ثم الى الظهور من جديد ، على نحو ما نراهما اليوم ، فان لذلك قصة طويلة ، لم تروها لنا المراجع التي نملكها ، بتفاصيلها وبالشكل المباشر ، ولكننا نستطيع ان نتصورها تصورا موضوعيا وذلك من خلال النقوش وبالقرائن والادلة التاريخية التي تتعلق بهذا الموضوع على نحو من الانحاء .

فمن الناحية التاريخية يعود هذان التمثالان الى عهد الصيغة الملكية الحاكمة آنذاك وهي صيغة (ذمار علي يهبر وابنه ثاران ملك سبأ وذي ريدان) .

وليس لدينا من عهد هذه الصيغة بالتحديد - ولا من عهد الصيغة السابقة المشار لها مباشرة - اي نقش مؤ رخ بالتقويم الذي كان معمولا به آنذاك ، ولكننا نملك نقشا مؤ رخا من عهد الصيغة اللاحقة مباشرة ، وهي صيغة (ثاران يهنعم ملك سبأ وذي ريدان) ، اي من العهد الذي استقل فيه الابن (ثاران) بحكم مملكة سبأ وذي ريدان بعد وفاة ابيه (ذمار علي) ، وهذا النقش هو النص المعروف بـ (نقش المصنعة) وهو مؤ رخ عام (٤٣٤) من التقويم الحميري ، وهو يوافق عام (٣١٩) لميلاد المسيح ، وذلك كما سنرى عند ايراد هذا النقش .

ومن هنا فاننا نستطيع ان نستنتج حقيقة لا شك فيها ، وهي : ان هذين التمثالين قد صبا وصيغا ونصبا في مكانهما قبل عام (٣١٩) ميلادية . اي انهما قد ظهرا الى الوجود في فترة تقع بين اواخر القرن الثالث واوائل القرن الرابع لميلاد المسيح .

فاذا تصورنا ان (ذمار علي يهبر) قد حكم بالاشتراك مع والده (ياسر يهصدق) ثم بمفرده تحت صيغتين هما (ياسر يهصدق وابنه ذمار علي يهبر ملك سبأ وذي ريدان) و (ذمار علي يهبر ملك سبأ وذي ريدان) وذلك الى عام (٣٠٠) ميلادية تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً ، ثم جاء حكمه مع ابنه (ثاران) بصيغة (ذمار علي يهبر وابنه ثاران مكي سبأوذي ريدان) إلى عام (٣١٠) للميلاد تزيد قليلاً أو تنقص قليلاً ، ثم ولي الحكم بعده ابنه (ثاران) بصيغة (ثاران يهنعم ملك سبأوذي ريدان ابن ذمار علي يهبر ملك سبأوذي ريدان) وذلك كما هو مؤ كد إلى عام (٣١٩) ميلادية - كما نص على ذلك نقش (المصنعة) - ثم لا نعرف كم عاماً استمر في الحكم بعد هذا العام المنصوص عليه . . فإننا نستطيع أن نحدد أن الفترة الواقعة في أوائل القرن الرابع وأواخر القرن الثالث هي الفترة التي تم في أثنائها اتخاذ الملكين (ذمار علي وابنه ثاران) لقرارهما في أن يصب ويصاغ لهما هذان التمثالان الرائعان من البرونز تحقيقاً لرغبتهما وللهدف الذي صنعا من أجله كما سنرى .

وحين امر الملكان بصياغة التمثالين ، لم يكتفيا بخبرات ابناء اليمن ومهاراتهم ، بل استقدما للاشراف على المهمة خبيرا من رعايا الأمبراطورية الرومانية المترامية الاطراف في انحاء الشرق والغرب آنذاك ، ولقد تم انتداب رجل روماني يدعى (فوكاس) ولا شك ان اختياره تم على أساس خبرته وممارسته في صب التماثيل المعدنية وصياغتها .

وجاء الخبير الروماني الى ارض اليمن ، وباشر في انجاز المهمة التي القيت على عاتقه ، ولقد استعان طبعا بالخبرات والمهارات اليمنية التي كانت متوفرة آنذاك ، اما دوره فكان دور المصمم والمشرف على التنفيذ وخاصة فيما يتعلق بالتفاصيل الفنية الدقيقة ، ولعل هذا هو سر الصبغة العامة التي يلاحظها الناظر إلى هذين التمثالين من حيث وضعيتهما وكيفية وقفتهما ، اما الملامح الشخصية والقسمات الخلقية والتكوينات الجسدية فقد عبرت بلا ريب عن شخصية صاحبيهما وصورتيهما ماديا ومعنويا .

ولا ندري هل طال الوقت ام قصر ، ولكن المهمة نفذت على خير وجه ، وتم صب التمثالين وصياغتهما بكل دقةواتقان، وبالشكل الرائع

الذي ظهرا به في النهاية ، وكأنهما ينطقان بكل مظاهر القوة والعنفوان والاعتزاز ، ولتخليد هذا التعاون الروماني اليمني ، كتبت في ركبة احد التمثالين عبارة (فوكاس صمم) وفي الركبة الثانية (لحي عم كون او نفذ) و (لحي عم) هذا هو كبير المشاركين اليمنيين في تنفيذ هذه المهمة .

ثم جاءت الخطوة التالية ، وهي تنفيذ ارادة الملكين القاضية بان يُكتب على صدر التمثالين نص بحروف المسند اليمني ، على ان يُفْتَتح هذا النص بالصيغة الملكية التي كانت سائدة آنذاك ، والتي تملك من قوة الفعل والاحترام قدراً لا يمكن معه إجراء اي تغيير عليها بحيث يناسب المعنى مع اختلاف التمثالين باعتبار ان واحداً منهما للاب اما الثاني فللابن ، ولكن قداسة الصيغة الملكية التي كانت مرعية آنذاك بحيث لا تعدل ، قضت بأن تكون العبارة الاولى التي يفتتح بها هذا النص المسندي وعلى صدر كل واحد من التمثالين على حدة ، هي العبارة التالية (ذمار علي يهبر وابنه ثأران ملكا سبأ وذي ريدان) .

وبعد هذه الافتتاحية التي كانت - كما هو الارجح[1] - بنصها على صدر تمثال الاب ، وهي هي بنصها أيضاً على صدر الابن، دون مراعاةلما يمكن ان تأتي به الايام من الالتباس واحتمال الخلط بين تمثالي الاب والابن بحيث لا يتسنى التمييز بينهما لولا ما اضمرته الاقدار في عالم الغيب من ان الوسائل العلمية سوف تتقدم بعد قرون من الزمان بحيث يمكن لها ان تصنف التمثالين وتنسب كلا منهما الى صاحبه ، وهذا هو ما حدث في قرننا الذي نعيش أواخره اليوم ، وعلى يد الخبراء [illegible] معهد (ماينز) بالمانيا .

ثم كان إكمال النص المسندي على صدر كل من التمثالين ، وذلك طبقا لارادة الملكين في ان يُنَصَّ النقش على ان الملكين قد قررا ان يقدم هذان التمثالان هديةمنهما لاصدقائهما من (بني ذرانح) اصحاب القصر (صنع) القائم في حصن (بكلأ) وهو الموضع المعروف اليوم باسم النخلة الحمراء في منطقة الزيلة من ارض الحدأ - وذلك لكي يرفعا عند مدخل قاعة الاستقبال والجلوس والمداولات أي (المنتدى) التابع لقصرهم (صنع)كماسبق، وفعلا بعدأن تم صب التمثالين الرائعين ، وتسطير نقش المسند - الذي سيأتي نصه - على صدر كل منهما ، نصبا واقيما عند مدخل (مسود بني ذرانح) التابع للقصر المذكور.

وبقي التمثالان الجميلان يقفان في المكان الذي أراده لهما صاحباهما ان يقفا فيه بكل مهابتهما وجلالهما وروعتهما ، ولا ندري كم من الايام والسنين مرت عليهما وهما متصبان في مكانهما ذلك ، الى ان حل بالمنطقة حدث ما ادى الى تدمير هذين التمثالين بفعل فاعل ، والى طمرهما تحت اطباق الثرى وفي غيابات الظلام والنسيان . فما هو هذا الحدث الذي ساق هذين التمثالين الرائعين الى هذا المصير المحزن !؟

قد تكون الحرب ، والتنافس على عرش (مملكة سبأ وذي ريدان) . هي الحدث الذي الحق بهما هذه النهاية السيئة ، اذ يحتمل ان اسرة اخرى قد تغلبت على الاسرة التي ينتمي اليها الملكان (ذمار علي يهبر) وابنه (ثأران) صاحبا هذين الاثرين البارزين ، ونتيجة لهذا التغلب قد يكون [illegible]نصرون هم الذين اقدموا على تحطيم التمثالين وطمرهما ، في محاولة للتعفية على آثار الملكين

السابقين ، وخاصة اذا كان لهما من الحب والذكر الحسن بين الناس ما يجعل تماثيلهما منارا للحزن عليهما ومصدراً من مصادر الاستياء والغضب كلما نظر المواطنون الى جسميهما الفارعين ووجهيهما المهيبين المعبرين ، ففضل المنتصرون القضاء على مصدر هذا القلق والاضطرابات ، ورغم ان هذا الامر من الفروض المحتملة الا انه اضعف الافتراضات ، وذلك لان العادة لم تكن سائدة في ان يقوم المنتصر بمحو وازالة آثار من انتصر عليه ، وابرز الادلة على هذه ما نجده في معبد الاله (المقه سيد اوام) بمأرب ، فهذا المعبد يضم المئات من النقوش المسندية والنذور التي يعود بعضها الى طرفين عاشا في حروب طاحنة وعداوة مريرة ولكن الغالب لم يمد يده لمحو آثار المغلوب وازالتها ، فبقيت جميع هذه النقوش التي نعلم يقينا ومن خلالها هي بالدرجة الاولى انها تعود الى طرفين عاشا في خلاف مستحكم الى ان انتصر احدهما على الأخر، ومع ذلك بقيت نقوش المندحر كما هي بكل ما تحويه من الحديث عن هذه العداوة وما دار بسببها من الحروب والنكبات ، وليس لدينا الا مثال واحد على محو النقوش المعادية وذلك لاحتوائها على السب والاقذاع في حق الطرف الأخر وتحقير آلهته ومقدساته ، وذلك كما حدث مع (كرب ايل وتار) اول من تلقب بـ (ملك سبأ) في آخر عهد (المكربين) فقد ذكر في (نقش النصر) الذي سجله بعد انتصاراته الكبيرة انه قام بطمس نقوش (الأوسانيين) بعد تغلبه عليهم ، بسبب احتوائها على هذا السب الشخصي والتحقير للمقدسات .

والفرض الثاني هو : ان يكون الاحباش في غزوتهم الاخيرة التي استولوا بها على اليمن عام ٥٢٥ م ، هم الذين دمروا هذين التمثالين ، في جملة ما دمروه بكل قسوة في طول اليمن وعرضها ، وقد يكون هذا الفرض هو الارجح ، اذ ان المراجع التاريخية ، بما في ذلك المراجع الاجنبية التي عاصر اصحابها هذا الغزو اوجاءوا بعده ، قد تحدثت بالاجماع ، بما في ذلك المصادر المتعاطفة دينيا مع الاحباش ، عن الاهوال التي انزلها الاحباش باليمن واهله ، وعن التدمير الوحشي المروع الذي تقشعر له الابدان وتشيب منه الرؤوس ، والذي حل على يد الاحباش بمدن اليمن وقراه وبكل مرافقه وآثاره ومنشآته وحتى الينابيع وآبار المياه التي تم طمرها او تغويرها ، وحتى حمل الأفات الزراعية من النباتات الضارة والحيوانات المهلكة للزرع والتي حملها الاحباش الى اليمن مما لا يزال له ذكر على السنة اليمنيين حتى يومنا هذا، ومن دوافع هذا التنكيل الذي قام به الاحباش نحو اليمن واليمنيين ، هو انهم دُفِعوا الى هذه الحرب باسم الغيرة الدينية والاخذ بثأر الشهداء والانتقام من الوثنيين اعداء المسيح والمسيحية كما صور الامر لهم قادتهم واسيادهم الرومان ، كما ان الحقد وعدم الاطمئنان الى النجاح الكامل والقدرة على الاستمرارية ، في بداية هذا الغزو وقبل مجيء (ابرهه) هو الذي سيطر على الحملة واطلق للغرائز اعنتها ليقوم اصحابها بابشع الاعمال التنكيلية والتخريبية المدمرة .

اما الفرض الثالث والاخير فهو : ان الاسلام لما بزغت شمسه واقبل اليمانيون على اعتناق مبادئه بشكل جماعي وبحماسة بالغة ، قد ادى الى ان يظهر بين الناس من جهلتهم

ومفرضيهم من ينظر الى جميع الآثار القديمة على انها من بقايا الجاهلية ورموز الوثنية ، وخاصة منها ما كان في شكل تماثيل تجسد الناس او الحيوانات ، فانها لا تعدو في نظراتهم الضيقة أن تكون من الاصنام والاوثان التي جاء الاسلام لتحطيمها ومحو آثارها .

هذه هي ابرز الفروض المحتملة التي قد يكون احدها ، هو الذي ادى الى تدمير هذين الاثرين المهمين ، ومما زاد الطين بلة ، ان عملية انتشالهما ، واستخراج اجزائهما ، من طيات التراب ، قد تمت تحت اشراف السيف احمد ، وعلى ايدي عمال غير مهرة ، مما ادى الى زيادة التحطيم والتدمير لما بقي منهما .

والمهم انه بعد تدمير هذين التمثالين وطمرهما تحت طيات الثرى ، مرت بهما قرون وقرون ، دون ان يعرف عنهما احد شيئا ، ودون ان يرد لهما ذكر في مراجع التاريخ العربية ، بل ودون اشارة اليهما في نقوش المسند ، بل ان صاحبيهما كملكين لم يذكرا في كتب الهمداني الا بشكل مشوش حتى ان (ثأران) قد تصحف من الثاء المثلثة الى التاء المثناة .

وتمر الايام والاعوام والقرون ، حتى تأتي المصادفة البحتة في اواخر الثلث الاول من قرننا الحالي لتكشف عن اجزائهما في المكان الذي طمرت فيه ، ففي عام (١٩٣٠) عثر بعض المواطنين من ابناء المنطقة المجاورة لـ (النخلة الحمراء) في (الزيلة) من ارض (الحدأ) على بعض القطع النقدية القديمة ، وقد انتهى الامر بهذه القطع الى يد الامام يحيى ، ففكر انه قد يعثر على كنز لو انه امر بالحفر والتفتيش في هذه المنطقة ، ولم يطمئن الامام الا الى ابنه الامير احمد ، فامره ان يتوجه الى ذلك المكان ، وان يشرف على قيام العمال من المزارعين بالحفر والتنقيب ، ولم يتم العثور على الكنز الذي كان يطمع فيه الامام ، وانما تم العثور على كنز اثري لا يقدر بثمن ، وهو اجزاء تمثالي الملكين اليمنيين القديمين (ذمار علي يهبر وابنه ثأران ملكي سبأ وذي ريدان) .

وحملت الاجزاء الى (صنعاء) حيث انتهى بها الامر الى غرفة مظلمة رطبة فيما كان يعرف آنذاك باسم (دار الضيافة) .

وتشاء الصدف أيضاً ، أن يكون في اليمن آنذاك ، مستشرقان المانيان كبيران هما (ف . فيسمان) (ك . رايتجنز يقومان ببعض الدراسات الاثرية حول (صنعاء) فعهد اليهما الامام يحيى او احد ابنائه ان يحاولا تركيب تلك القطع في شكل تمثال ـ وكان الاعتقاد هو ان القطع تخص تمثالا واحدا ـ ولكن احد هذين الدارسين عند قيامه بالعمل اكتشف ان القطع تعود الى تمثالين لا الى تمثال واحد ، وقد اختار من القطع ما يتلاءم بعضه مع بعض ، واستطاع بعد جهد وفي ظروف غير طبيعية لا تتوفر فيها ادنى المقومات ، ان يكون هيكلا لتمثال لا يشبه ما كان عليه بتاتا ، ولكنه يشهد بالجهد الذي بذل في سبيل تجميعه وتربيطه بالخيوط وتدعيمه بالاعواد !! اما بقية القطع فقد اودعها في صناديق الى ان يُقيض الله لها زمانا ورجالا يعيدونها الى سالف عهدها .

وبعد قيام الثورة اليمنية الخالدة ، وانشاء (الهيئة العامة للآثار ودور الكتب) ، قام رئيس الهيئة فضيلة القاضي العلامة اسماعيل بن علي الاكوع بتوقيع اتفاق تعاون ثقافي بين الهيئة

والجهات المختصة في جمهورية المانيا الاتحادية الصديقة ، وكان على رأس بنود هذا الاتفاق ، اعادة ترميم هذه المخلفات الاثرية الثمينة حتى تتضح حقيقتها وتعود الى سالف عهدها ، وذلك ما تم واذا كان هذا العمل قد استغرق سنوات عديدة ، فان ذلك هو ما يقتضيه مثل هذا العمل الفني الدقيق .

واليوم وبعد هذه الرحلة التي قام بها هذان التمثالان منذ اواخر القرن الثالث للميلاد وحتى عامنا هذا عام (١٩٨٣) م اي منذ ما يقرب من الف وسبعمائة عام عرفا بها الوقفة الشامخة ، ثم التعرض للايدي الهدامة المخربة ، ثم الضياع والنسيان تحت طيات الثرى ، ثم الخروج من ظلمات الأرض الى ظلمات الجهل والاهمال في احدى الغرف الرطبة الكئيبة في ظل الحكم الامامي ، ثم شهدا رحلة العودة الى النور حيث ودعت اجزاؤهما في صنعاء بكل مظاهر الحفاوة والتكريم، وحيث امتطيا متن الهواء في الذهاب اشلاء ثم عادا في النهاية وعلى صهوات الاجواء الى ارض الآباء والاجداد ، بعد ان اعيد لهما الشموخ ، وعادت اليهما وقفة العز ، واخيرا تم افتتاح معرضهما في احدى قاعات (دار الكتب) بصنعاء يوم الخميس ٧/ ٤/ ١٩٨٣ .

ان وصف هذين التمثالين من الناحيتين (الاثرية -الاركيولوجية -) و(الفنية) ليس من اختصاص كاتب هذه الاسطر ، الا انه يمكن تسجيل الملاحظات التالية حولهما :

١ - صب التمثالان وصيغا من معدن البرونز الجيد ، الذي استطاعت قطعه ان تصمد في باطن الارض طوال ما لا يقل عن الف واربعمائة عام على اقل التقديرات ، اي منذ تدميرهما ودفنهما تحت التراب ، وذلك رغم الرطوبة العالية في جوف الارض والتي تتضاعف اثناء هطول الامطار الموسمية كل عام ، ولقد اصيبت هذه الاجزاء بكثير من الصدأ والتلف اللذين شكلا صعوبة بالغة امام القائمين بعملية الترميم ، الا ان مثل تلك الظروف المناخية في مثل تلك التربة كانت كفيلة باتلافها تماما وجعلها غير صالحة لشيء لولا جودة المعدن الذي صيغت منه .

٢ - يبلغ طول كل واحد من التمثالين ، مئتين واربعين سنتميترا ، وهو طول يزيد على طول اي انسان عادي مهما كان حجمه ، وكانت هذه المبالغة في الطول والعرض متبعة في معظم التماثيل التي اريد بها تخليد كبار القوم في كل حضارات العالم القديم ، وقد تكون هذه الزيادةخاضعة لقاعدة مثل زيادة نصف طول الشخص على تمثاله كما في كثير من التماثيل الرومانية ، وقد لا تكون خاضعة لاي معيار حيث يبلغ حجم التمثال امتارا عديدة كما في الحضارة الفرعونية وغيرها .

٣ - يتسم هذان التمثالان بالدقة والجمال الفني وبالقدرة على التعبير ، فوقفتهما تعبر عن العز والعظمة ، وملامحهما تعبر عن الحزم والجدية ، والعضلات البارزة تعبر عن القوة الجسدية .

٤ - يمكننا من التمثالين ان نستنتج بعض العادات والتقاليد والمظاهر الاجتماعية التي كانت سائدة في المجتمع اليمني في ذلك الوقت ، اي في اواخر القرن الثالث الميلادي ، وفي اوائل القرن الرابع للميلاد ؛ فمن ذلك نلمس مدى ما كان يحظى به الفن من الاحترام والتقدير وما كان له من المكانة عند كبار القوم ، حتى ان الملكين (ذمار)

و (ثاران) يسعيان ويأمران بصب تمثاليهما وصياغتهما صياغة فنية متقنة بايد فنية خبيرة ومتخصصة . ومن ذلك اننا نستنتج العمل في ذلك الوقت بمقولة شبيهة بالمقولة التي نعمل بها اليوم وهي انه : لا حياء في العلم . فكأنهم كانوا يقولون آنذاك انه : لا حياء في الفن ، فقد قبل الملكان ان يصاغ تمثالاهما وان ينصبا امام الناس في مكان عام وهما عاريان تماماً ولا يسترهما شيء حتى ولا ورقة التوت .

كما نلمس في التمثالين احد المظاهر الاجتماعية وهو ان القوم - بما في ذلك كبارهم كانوا يرسلون شعورهم طويلة ويعتنون بتصفيفها اما مرسلة على الكتفين كما في تمثال الابن (ثاران) او معقوصة خلف الرأس بعناية كما في تمثال الاب (ذمار علي) اما الشريط الذي يضم الشعر ويحيط بالرأس فلعله خاص بالملوك بدلا عن التاج او على الاقل قد يكون الشريط الخاص بالملوك من المعدن النفيس كالذهب مثلا ، كما ان القوم كانوا يرسلون شعورهم الاخرى فيتركون بعضها مهملا بينما يعتنون بتهذيب اللحى وتشذيبها وبأناقة الشاربين وجمالهما وقد يكونان مبرومي الطرفين كما في شاربي الاب (ذمار) ، كما نلاحظ ان الذراعين المفتولين والعضلات البارزة والارتكاز على رمح طويل باليد اليسرى - (لم يعثر على رمحي التمثال) - كل ذلك كان من مظاهر القوة البدنية التي كانت آنذاك من شروط القيادة والقياديين الذين يخوضون المعارك بالسيوف والرماح ونحوها وبانفسهم ، واخيرا نلاحظ باغضاء وبشكل عابر ان الختان في تلك العصور لم يكن معروفا وانما هو من التشريعات الاسلامية الحريصة على الطهارة والتطهير .

وبصفة عامة فان للتمثالين ، ولمكان وجودهما ، ولصاحبيهما ، ولمن نصبا واهديا لهم ، وللكتابة المسندية التي عليهما . . لكل ذلك دلالات سياسية واجتماعية وحضارية كثيرة ، يمكن للدارسين المختصين ، ان يقدم كل واحد منهم دراسة في بحث طويل كل بحسب اختصاصه ، عن كل جانب من جوانب هذه الدلالات .

اما في هذا البحث ، فنكتفي بايراد بعض نقوش المسند التي تعود الى عهد هذين الملكين ، وذلك بحسب ما تتيحه لي المصادر المتوفرة لدي ، على امل العودة الى الموضوع عند توفر المصادر اللازمة ، وقد يقوم غيري من الدارسين بوضع دراسة اعم واشمل، فيكون بذلك قد خدم هذا الموضوع واعطاه حقه من البحث والتحقيق ، وهذا هو المطلوب والمأمول .

ومن المصادر التي بيدي ، يمكن ايراد نقشين لا يتطرق الشك الى انهما يعودان الى عهد هذين الملكين صاحبي هذين التمثالين ، وذلك الى جانب النقش الاساسي وهو المدوّن على صدر التمثالين كليهما ، ومن الطبيعي ان ابدأ بهذا الاخير ، وبذلك يكون لدينا النقوش التالية : -

١ - نقش التمثالين ، وهو بالتحديد المدون على صدر الابن (ثاران) لانه اوفى واقل تلفا من الاخر المدون على صدر الاب (ذمار علي) ونص النقشين واحد رغم تفاوتهما في التلف والانطماس .

ب : النقش (إرياني/ ٦) كما جاء ضمن كتابي (في تاريخ اليمن) وهو من مجموعة القاضي علي بن عبد الله الكهالي التي نسخها من مأرب

الضابط اليمني (محسن القرعي) الذي كان مرافقا لبعثة (وندل فليبس) عام ١٩٥٢[٢] .

ج : نقش (المصْنعة - مصنعة عنس - او مصنعة ماريا ، الذي قام بنشره المستشرق الايطالي البروفسور (جيوفاني جاربيني) من جامعة (نابولي) باسمه واسمي بعنوان :

M. Al — Iryani G Garbini
ASabaean Rock —Engraved
Inscription At Mosnaa.

فاما النقش الاول الذي نبتدىء به فهو المدون على صدري التمثالين كما ذكرت ونصه بالحروف العربية كما يلي :

(نص النقش الاول)

١ - ذمر علي/ يهبر/ وبهنو/ ثاران/ ملكي/ سبأ/ وذريدن/ شمي/ ذخري/ مأدبت
٢ - يهمي/ بهل/ اخضر/ وشرح سميد/ ومجد/ بني/ ذرانح لمسود/ بيتهمو/ صنعـ. . . أما شرحه فهو كما يلي :

ذمارعلي يهبر،وابنه ثاران،ملكا سبأوذي ريدان ، رفعا ونصبا ، ما منحا ووهبا ، لاتباعهم وانصارهم ،(باهل اخضر) و (شرح سميد) و (ماجد) بني (ذرانح) ،من اجل قاعة الاستقبال والجلوس في قصرهم (صنعـ. . .) .

وهذا يعني ان الملكين قد امرا بان يصاغ لهما هذا التمثالان من البرونز ، وقررا ان يقدماهما منحة او هبة او هدية الى انصارهم ورجالهم من اسرة (بني ذرانح) ، وعلى رأسهم ثلاثة من كبار هذه الاسرة ، وهم (باهل اخضر) ، و (شرح سميد) ، و (ماجد) ، وذلك لكي ينصب هذان التمثالان على مدخل (المنتدى) او بهو الاستقبال والجلوس والمداولات (المسود) الخاص بـ (بني ذرانح) والتابع لقصرهم (صنع) القائم في منطقة (النخلة الحمراء - يكلا قديما -) من ارض (الحدأ) .

ورغم قصر هذا النقش الذي لا يزيد عن سطرين ، ولا يتجاوز عدد كلماته المفردة والمركبة عن تسع عشرة كلمة ؛ الا انه يثير تساؤلاً مهما وهو :

لماذا اهدى (بنو ذي ريدان) وعلى رأسهم كبيراهم الملكان (ذمار علي يهبر) وابنه (ثاران) تماثيلهما الى اسرة (بني ذرانح) وعلى رأسهم ثلاثة من كبارهم هم (باهل اخضر) و (شرح سميد) و (ماجد) ، وامرا ان ينصب التمثالان عند قصر (صنع) التابع لبني ذرانح) دون ان ينصبا في العاصمة صنعاء او في قصرهما (ريدان) بظفار - مثلا . ؟!!

إن هذا التساؤل بدوره يثير مناقشة سياسية واجتماعية طويلة ، تحتاج الى ايراد عدد من النقوش للاستشهاد بها من اجل التدليل على ما تطرحه هذه المناقشة من الاراء والافكار التي تحتاج الى البرهنة والتدليل .

وهذا الامر او هذه المناقشة جديرة بدراسة كاملة قائمة بذاتها ولدينا من نقوش المسند ومن الادلة والقرائن التاريخية ما يساعد على القيام بها كاملة ومفصلة في غير هذا المقام .

اما هنا فاكتفي بطرح الفكرة بصفة عامة ، وبشكل موجز على امل ان يفصلها غيري ويعطيها حقها أو أعود اليها إن شاء الله؛ والعنوان العريض

لهذه الفكـرة التي يطرحها هذا الاهداء هو (التحالف السياسي بين بني ذي ريدان وبني ذرانح في عهد الملكين ذمار علي يهبر وابنه ثاران ملكي سبأ وذي ريدان) - مثلاً -.

وقد يقول قائل : اننا نعرف (بني ذي ريدان) فهم كل اسرة من التكتل الحميري تصل الى قصر (ريـدان بظفار) ويتولى ابناؤها زعامة التكتل الحميري اما كأقيال او كملوك . فمَنْ هم اذا (بنو ذرانح) الذين اقام معهم الملكان (ذمار) و (ثاران) هذا التحالف .

والجواب على هذا السؤال هو ان (بني ذرانح) هم - في فترة من فترات تاريخنا القديـم - خلفاء اسرة (بني جرة) في تولي زعامة تكتل سياسي مهم هو كتلة (ذمرى وسمهر) هذه الكتلة التي تجاوز زعماؤها في مرحلة سابقة مرتبة (الاقيال) الى مرتبة (الملوك) .

وكـانت هذه الكتلة السياسيـة واقيـالها من (بني جرة) او من (بني ذرانح) من الاهميـة بحيـث تجاذبتها القوتان الرئيسيتان في الساحة اليمنية آنذاك ممثلتين في (سبأ كهلان) من جانب و (الحميريين) من جانب آخر .

وقد نجحت كتلة (سبأ كهلان) في اجتذاب تكتل (ذمرى وسمهر) اولا ، وقد تم ذلك في عهد (الشرح يحضب الاول ملك سبأ وذي ريـدان) وهو من اسرة (مرثد) المنتميـة الى (بكيل) ثم الى (سبأ كهلان) .

ولعل السبب في سعي هذا الملك الى اكتساب ود تجمع (ذمرى وسمهر) والتحالف معه هو انه كان من اوائل الملوك السبأيـين الكهلانيين الذيـن نجحوا في اضافة لقب (.. وذي ريدان) الى لقب (ملك سبأ ..) فاصبح لقبه هو (ملك سبأ وذي ريدان) نتيجة لتحالفاته وتوسع رقعة ملكه ، ولكن يبدو انه في اواخر عهده شعر بقوة منافسيـه وبضعف ابنه (واتر يهأمن) ولهذا سعى الاب الى محاولة تدعيـم مركـز ابنه ، فعقد قبل وفاته تحالفا متينا مع (بني جرة) الذين يكون منهم اقيال (ذمرى وسمهر) وكان القيلان لهذا التجمع وقت قيـام هذا التحالف هما (سعد شمس اسرع وابنه مرثد يهحمد من اسرة بني جرة) ولم يكتف الملك (الشرح يحضب الاول) بالتحالف ، بل انه تبنى القيلين (سعد شمس وابنه مرثد[٣]) ومن هنا فان هذين القَيْلَيْنْ بعد ان عملا فترة من الزمن عقب موت (الشرح الاول) في ظل ابنه (واتر يهأمن ملك سبأ وذي ريـدان) سرعان ما اصبحا هما الملكان (سعد شمس اسرع وابنه مرثد يهحمد ملكا سبأ وذي ريدان ابنا الشرح يحضب ملك سبأ وذي ريـدان)[٤] اما بعد وفاة (واتر يهأمن) او بعد تخليهما عنه وارتقائهما العرش مستفيدين من تبني (الشرح لهما) .

والمهم انه بعد ان اصبح هذان القيـلان الجرتيان ملكين لسبأ وذي ريدان ، فان زعامة كتلة (ذمرى وسمهر) لم تعد لـ (بني جرة) بل انتقلت الى خلفائهم (بني ذرانح) المذكوريـن في النقش الذي نحن بصدده ، وكأن التقليد السياسي كان يقضي بان الاسرة التي يصل زعيمها او اهم زعمائها الى مرتبة (الملوك) فان من بقي من ابنائها يتخلون عن مرتبة (الاقيـال) لغيرهم ، وهكـذا تخلى (بنو جرة) لـ (بني ذرانح) فاصبح الاخيرون هم الذيـن يكـونـ منهم (قيـل) او (اقيـال) تحالف (ذمرى وسمهر) بصيغة المختلفة في النقوش .[٥]

فما دام (بنو ذرانح) هم اقيال هذه الكتلة السياسية المهمة ، فليس غريبا ان يسعى الملكان (ذمار علي يهبر) وابنه (ثاران) الى كسب ودهم والتحالف معهم ، كما سعى الى ذلك من قبلهما (الشرح يحضب الاول :

ولم تحدثنا النقوش التي نملكها حتى اليوم حديثاً مفصلاً عن هذا التحالف ولكن هذا النقش القصير المدون على صدري التمثالين يشير بشكل عابر ولكنه جلي إلى وحدة الصف والتكاتف بل والتبعية من قبل (بني ذرانح) وعلى رأسهم (باهل أخضر) و (شرح سميد) و (ماجد) للملوك (بني ذي ريدان) وعلى رأسهم الملكان (ذمار علي يهبر وابنه ثاران ملكا سبأ وذي ريدان) ، فـ (بنو ذرانح) هم في هذا النقش (مأدبة) للملكين (ذمار وثاران) وكلمة (مأدبة) تعني فيما تعنيه الاتباع والمشايعين ، ولكنهم اتباع حريون بالاحترام والتقدير ، وجديرون بأن يهدي اليهم الملكان تمثاليهما البرونزيين الرائعين ، لكي ينصبا عند مدخل متنداهم الذي يستقبلون فيه ذوي مشورتهم ليعقدوا معهم جلسات المشاورات وتبادل الاراء وخاصة عند وقوع أحداث تستدعي اجتماع أعضاء السود في (مسودهم) .

هذا هو اهم ما نستنتجه من النص المسندي المدون على صدري التمثالين ؛ ومن الضروري التأكيد على النقش (ارياني/ ٥) لانه يؤكد ان (بني ذرانح) اصبحوا هم اقيال كتلة (ذمرى) وذلك في عهد الملكين (سعد شمس اسرع وابنه مرثد يهحمد ملكي سبأ وذي ريدان ابنا الشرح يحضب ملك سبأ وذي ريدان) وهما في الاصل من (بني جرة) اقيال (ذمرى وحلفائها) ولكنهما تجاوزا مرتبة الاقيال الى مرتبة الملوك ، فحل محلهم (بنو ذرانح) في المقولة على هذا الحلف ، ففي النقش المشار اليه تقول الاسطر الاولى منه ما شرحه « ان القيل شرح ايل اسأر الذرانحي - من بني ذرانح - اقيال قبائل ذمرى قد تقرب إلى الالة المقه ثهوان سيد أوم بصنم ذي ذهب معبرابه عن الحمد لقوة وقدرة المقه سيد أوام لأنه حفظ وسلم سيديه سعد شمس أسرع وابنه مرثد يحمهد ملكي سبأ وذي ريدان ابنا الشرح يحضب ملك سبأوذي ريدان .. الخ) فهذا نص واضح على أن (بني ذرانح) قد أصبح منهم اقيال تحالف (ذمري) بعد (بني جرة) وكذلك النقش (جام/ ٦٢٩ سطر/ ٤٠) وهو طويل ومهم جداً ، وآمل أن أعود إلى موضوع التحالف بين (بنى ذي ريدان) و (بني ذرانح) في دراسة خاصة .

اما الان فنترك المسند المدون على التمثالين ، واورد النقش الثاني من عهد صاحبي التمثالين : - وهذا النقش هو (أرياني/ ٦) .

(نص النقش الثاني)

١ - سعدم/ يسكر/ ويهعن/ يغنم/ وبنيهمو/ كلبم/ اوكن/ بنو/ سأرن/ ومحيلم/ اقول/ شعبن/ بكلم/ ربعن/ ذريدن/ هقنيو/ المقه/ ثهون/ بعل/ اوم/ ذن/ صليمن/ لوفيهمو/

٢ - وحمدم/ بذت/ شرح/ وهوفين/ جرب/ عبدهو/ سعدم/ بكن/ اتو/ عدي/ هجره/ مريب/ بعم/ اقولن/ بيوم/ ذكين/ بين/ اسبأن/ ولحي عثت/ كبر/ اقينم/

٣ - ولسعد/ المقه/ ادمهو/ سعدم/ ويهمن/ وبنيهو/ كلبم/ بني/ سأر ن/ وبحيلم/ نعمتم/ ومنجت/ صدقم/ وحظى/ ورضو/ مرأيهمو/ ذمر علي/ يهبر/ وبنهو/ ثأر ن/ ملكي/ سبأ/ وذريدن/ بني/ يسرم/ يهصدق/ مل// سبأ/ وذريدن/ .

٤ - ولسعدهمو/ المقه/ ناد/ اثمرم/ وافقلم/ بن/ كل/ اسررهمو/ وكبر / دثأ وخرف/ ولخرينهمو/ بن نضع/ وشصي/ شنأم/ بعثتر/ وهوبس/ والمقه/ وبذت/ وحيم/ وبذت/ بعدنم .

(شرح النقش الثاني)
(ارياني كهالي/ ٦)

١ - هؤلاهم - (سعد يسكر) و (يهعان يغنم) مع الابن (كالب اوكن) من بني (سأران ومحايل) من اقيال قبيلة (بكيل) وهم الساكنون في مقولة (ذي ريدة) ، وقد تقربوا الى الاله (المقه ، ثهوان ، سيد ، اوام) بصنم معين - هذا الصنم - وذلك من اجل سلامتهم .

٢ - كما ان هذا القربان يعبر عن - الحمد للاله (المقه) - لانه حفظ وحرس شخص عبده (سعد) حينما كان قد ذهب الى مدينة (مأرب) مع الاقيال - الاخرين - وذلك في يوم الحادثة التي كانت بين (السبأيين) من جانب وبين (لحيعثت كبير اقيان) من جانب آخر -.

٣ - ولكي يسعد الاله (المقه) بمنح عبيده (سعد) و (يهعان) وابنهما (كالب) الجميع من بني (سأران ومحايل) نعمة ، وطوالع ميمونة - امغيات حسنة - مع الحظوة والرضا عند سيديهم (ذمار علي يهبر وابنه ثأران ملكي سبأ وذي ريدان ابني ياسر يهصدق ملك سبأ وذي ريدان) .

٤ - وليسعد الله (القمه) باثمار جيدة وغلال وافرة من كل ودياتهم مع غلات (الدثأ) و (الخريف) الكثيرة ، ولكي يجنبهم و يحميهم من شر وحقد - كل عدو - حاشد ، بحق (عثتر وهوبس والمقه) وبحق (ذات حمى) وبحق (ذات بعدان) .

سبق نشر هذا النقش مع شرحه والتعليق عليه في كتابي (في تأريخ اليمن) ، اما هنا فأود اولا ان اكرر الاشارة الى ان هذا هو النقش الاول - وربما الوحيد الذي ينتسب فيه الملكان (ذمار علي يهبر) وابنه (ثأران) الى الملك (ياسر يهصدق ملك سبأ وذري ريدان) ، و (ياسر) هو والد (ذمار علي) وجد (ثأران) ولكنهما نسبا اليه بكلمة (ابني) كما هي عادة النقوش في نسبة الابن والحفيد الى الجد او الاب الاول عندما يذكران معا .

كما اكرر الاشارة الى الصلة التي يمكن ان تكون بين هذا النقش (ارياني/٦) .و (جام/ ٦٤٤) من حيث الحادثة التي كانت بين (السبأيين) و (لحي عثت كبير اقيان) وذلك لمناقشة هذا الموضوع على ضوء المعطيات الجديدة وبشكل يختلف عن تلك الاشارة العابرة التي سبقت في كتابي المذكور .

ففي النقش الاول يذكر القيل (سعد يسكر البكيلي) انه وصل مع عدد من الاقيال الاخرين الى مدينة (مأرب) في اليوم الذي كان فيه ما كان بين (السبأيين - من جانب -) وبين (لحيعثت كبير اقيان - من جانب آخر -) ولم يشر الى كنه هذه الحادثة ، ولكن بحمد الاله لانه خلص جسده او

شخصه من خطرها مما يوحي بانها كانت حادثة تتعرض فيها الحياة للخطر .

واما النقش الثاني وهو (جام/ ٦٤٤) فان صاحبه وهو (اوس ايل يضع الغيماني) قيل قبيلة (غيمان) يحمد الاله لانه نجى وسلم سيده (ياهق بن ذمار علي ذريح ملك سبأ وذي ريدان) من حركة التمرد والعصيان التي قام بها ضده كل من (لحيعث بن سمه سميع وقبيلته شداد) و (رب اوام بن شمس) مع اناس كانوا معهم ، وذلك حينما استولوا على القصور الملكية (سلحين) بمدينة مأرب وتحصنوا متمنعين فيها ، ولكن (اوس ايل) يحمد الاله لانهم تمكنوا من اخراجهم من القصر بعد الحاق الهزيمة بهم مما اضطرهم إلى مغادرة الاماكن التي تحصنوا بها من القصر وقد تركوها سليمة دون أن يلحق بها أي ضرر . ثم يتحدث (أوس ايل) عن مطاردته لهؤلاء المتمردين وما الحقه بهم من القتل والهزائم .

ووجه المقارنة بين هذين النقشين انما هو من الاموراالتي تتبادر إلى الاذهان عندقراءتهما وتقوم عليهمابعض البراهين والقرائن التي يمكن مناقشتها والعودة اليها في غير هذا المجال ، وخاصة اذا لاحظنا ان اسم الشخص الرئيسي من المتمردين هو (لحيعثت) وانما اقترن في النقش الاول بصفته الوظيفية وهي (كبير اقيان) والمراد بها على الأصح كبير الموظفين الاداريين في مأرب او في القصر (سلحين)[٦] ؛ بينما اطلق عليه في النقش الثاني اسمه واسم ابيه مع اضافة بعض من شاركوه في هذا التمرد ، والموضع كما ذكرت يحتاج الى مزيد من البحث والمناقشة حتى يتم التوصل فيه الى الحقيقة لتأكيد وجه هذه المقارنة او نفيه ولذلك مكانه المناسب له .

اما الان وبعد ان اتضح لنا من النقش (اريـاني/ ٦) ان الملكين (ذمار علي يهبر) هو ابن (ياسر يهصدق ملك سبأ وذي ريدان) وان (ثاران) هو بنسبه الكامل (ثاران يهنعم ملك سبأ وذي ريدان بن ذمار علي يهبر ملك سبأ وذي ريدان بن ياسر يهصدق ملك سبأ وذي ريدان) ، فنصل الى النقش الاخير في هذه الدراسة وهو يعود الى عهد (ثاران يهنعم) وحده اي انه يعود الى فترة توليه عرش مملكة (سبأ وذي ريدان) بعد وفاة والده .

وهذا النقش هو المعروف بنقش (المصنعة - مصنعتماريا -) والذي اكتشفته وقمت بنسخه وشرحه شرحا اوليا عام / ١٩٦٩/ وقام بتصويره الطبيب الايطالي (ا . اي . برنللو) ثم قام بتدقيقه وتحقيقه ونشره المستشرق الايطالي (جيوفاني جاربيني) عام/ ١٩٧٠/ وذلك ضمن منشوراته الهامة من نقوش المسند اليمني التي اصدرها ويصدرها عن جامعة (نابولي) بايطاليا .

وهذا النقش المدون على صخرة تقع على يسار الداخل الى(مصنعة عنس أو مصنعة ماريا) من مدخلها الغربي ، قد اصيبت بتلف شديد وانطماسات فادحة ، وذلك لانه مكشوف تماما، ومعرض لكل عوامل التعرية من مطر وشمس وريح ؛ الا ان مابقي منه يدل على اهميته الكبيرة لاسباب كثيرة اهمها الاسباب الثلاثة التالية : -

اولا : انه مؤرخ بالتاريخ (الحميري) المتعارف عليه في نقوش المسند .

ثانيــا : انه يتحدث عن عدد من الاصلاحات والانشاءات التي تمت في عهد الملك (ثأران) وعلى يد بعض اتباعه وانصاره .

ثالثا : ان الصيغة الملكية فيه هي (ثأران يهنعم ملك سبأ وذي ريدان بن ذمار علي يهبر ملك سبأ وذي ريـدان) اي ان النقش يعود الى عهد (ثأران يهنعم) وحده ، اي بعد وفاة والده وانفراده بالحكم ومع ذلك فلا يزال لقب كل منهما هو(ملك سبـأوذي ريدان)بـدون اضافة(... وحضرموت ويمنة) ولذلك دلالته الحاسمة حول الخلاف بين الدارسين والدائر حول ما اذا كان هنالك (ذمارعلي يهبر) واحد و (ثأران يهنعم) واحـد، أم أن هنـالك أربعةمـن الملوك، اثنين منهـم باسـم (ذمارعلي يهبر)واثنـين باسم(ثأران يهنعم) ، مع اختلاف اللقب الملكي فهو لكل من الاولين لقب (ملك سبأ وذي ريـدان) وهو للاخيريـن لقب (ملك سبأ وذي ريـدان وحضرموت ويمنة) . واعتقد ان هذا النقش قد حسم الخلاف لصالح من يقول انهم اربعة ، وذلك ما سأعود اليه في نهاية هذا البحث .

اما ما بقي من نص نقش (المصنعة) فهو كما يلي : -

(نص النقش الثالث)

١ - ....

٢ - ....منقلتهمو/ ..ن..ن/ منقلن/ ذشفر/

٣ - ......شعبن/ ... ومنقلهن /ذي وتر/ ومنقل/ ذعسثم/

٤ - .....ومنقلن/ ذب ؟برأمن/ ومنقلن/ ذا لهج/ ومنقلن/ ذعقر من/ و

٥ - ...وبنهو/ بلعل/ عدي/ مصرعن/ ذكر من/ ، مصرع/ هجر هم

٦ - ... موت/ منقلتن/ صربت/ خصبو/ بن اسر رهـ

٧ - ...مبن../ وحبرم/ وذنبتن/ وشبم/ ومينعتن/ وذ

٨ - .. صلين/ و.. نم/ وثيلن/ ولخم/ وعبأم/ وبن/ عرن/ وتيحم

٩ - بثتوب/ ومبرأ/ ومقيح/ ابيت/ بني/ يهفرع/ ومورتهو/ ذبهجر

١٠ - ن/ امون/ وكـون/ نصب/ ومنصف/ صربت/ وتثوب/ منقلت/ ذكرن/ ذن

١١ - اسطرن/ بقبل/ خريفن/ ذ لأربعت/ وثلثي/ واربع/ مأت

١٢ - سم/ خروفتم/ وبنهو/ لأخر/ بأخيل/ وردأ/ اليهمو

١٣ - عثتر/ ذسمعن/ وعثتر/ ذطمم/ وبمقم/ مرأهمو/ ثأرن/ يهذ

١٤ - نعم/ ملك/ سبأ/ وذريـدن/ بن/ ذمرعلي/ يهبر/ ملك/ سبأ/ وذريدن .

(شرح النقش الثالث)
مع بعض التوضيحات والتعليقات

١ - السطر الاول كله مطموس ومن الارجح انه كان يسجل اسم او اسماء صاحب او اصحاب هذا النقش الذيـن هم حسب العادة من كبار رجال الملك الذي يعملون في عهده

وهو هنا (ثأران يهنعم) ولعل اصحاب النقش هم من اسرة (بني يهفرع) التي جاء ذكرها في السطر التاسع .

٢ - السطر الثاني معظمه مطموس ولم يبق منه الا كلمات (منقلتهمو) وهي جمع (منقل) والمنقل في لغة النقوش هو الطريق العام الصاعد في الجبل ، او (النقيل) في لهجاتنا اليوم وجمعه (نُقُول) وفي المساند (منقلت - منقلات -) ثم جاءت بعد كلمة (منقلتهمو) كلمة لم يبق منها الا نونان ولعلها اسم الجمع لهذه (المناقل او النقول) ثم كلمة (منقل او نقيل ذي شفر) .

٣ - السطر الثالث مطموس من اوله ثم تأتي كلمة (شعبن - اي الشعب او القبيلة) ثم انطماس لعل في مكانه اسم القبيلة ، ثم كلمة (منقلان مثنى منقل اي نقيلان) ثم جاء الاسم الذي يطلق على كلا المنقلين وهو (ذي وتار) اي النقيلات في (ذي وتار) ولعل (وتار) اسم جبل فيه نقيلان فسميا به ، ثم جاء ذكر (نقيل ذي عسن) .

٤ - ثم انطماس في السطر الرابع جاء بعده ذكر (نقيل ذي برأمان - وفي التسمية (برأمان) شك بسبب الانطماس ، ثم جاء ذكر (نقيل ذي الهاج) ثم (نقيل عقرمان) ثم الواو حرف العطف .

٥ - ثم انطماس في اول السطر الخامس لعله كان يحوي اسم نقيل آخر بدليل حرف العطف الذي يسبقه ، ثم يقول السطر الخامس : « ومن هذا المكان او الموضع فصاعدا حتى البوابة الكبيرة المسماة (ذي كزمان) وهي بوابة مدينتهم .

٦ - ثم انطماس مؤسف قضى على اسم مدينتهم هذه فلم يبق من اسمها الا اواخر حروفه وهي (. . موت) ثم يذكر ان هذه المناقل شقت (صربت) في الصخر شقا وفي وديانهم .

٧ - ثم انطماس في السطر السابع قضى على اسماء بعض هذه الوديان التي شقوا في صخورها نقولهم، وقد بقيت في السطر اسماء بعض هذه الوديان وهي (حبار) و (ذي نبتان) و (شبام)[٧] و (المينعة - ولعلها المصنعة وحصل الالتباس للتشابه النسبي بين حرفي الياء والصاد في حروف المسند -) ثم اسم واد آخر اول اسمه (ن . .)

٨ - ثم انطماس في السطر الثامن قضى على بقية اسم هذا الوادي ثم كلمات قد تكون اسماء وديان او مواضع ، وقد تكون وصفا توضيحيا لنوع العمل الذي قاموا به في شق وتعبيد هذه (المناقل - النقول -) فتأتي كلمة (صلين - وقد تكون اسم واد معطوف على ما سبق ذكره ، وقد تكون الكلمة هي صللن اي الصلل وهو الرصيف

والتعبيـد بالحجارة المستويـة وكلمة (صلل) معروفة في النقوش وفي لهجاتنا اليوم بنفس المعنى اي التبليط والرصف بالحجارة -) ثم جاءت كلمة مطموسة لم يبق منها الا حرف العطف (و . .) في اولها ثم (. . نم) في آخرها ولعلها تعني اسم مكان معطوف على سابقه ، او نوع عمل في اصلاح الطرق ، ثم كلمة (وثيلان) وهي اما اسم مكان آخر او اسم نوع من العمل معطوف على (صلين او صلل) ومن معاني (ثيل) السيل او حجر الحمم البركـاني الذي كان سائلا ثم تأتي في نفس السطر - الثامن - كلمة (وخم) ولعلها اسم مكان آخر او اسم نوع من العمل في تعبيـد وشق الطرق ، ثم كلمة (وعبأ) اما اسم مكـان او نوع عمل ، ثم عبادة (ومن حصن وتيح) كأنه يقول عطفا على عبارة (وصاعدا حتى بوابة ذي كزمان بوابة مدينتهم . .) وكان ذلك العمل ابتدأ من (الحصن المسمى وتيـح) وعند سؤ الي اثناء نسخ النقش عن اسماء هذه الاماكن قال احد المواطنين عن السؤ ال عن حصن (وتيح) : ذلك هو حصن وتيـح ، واشار لي باصبعه الى جهة الغرب نحو جبال (عتمة) وقال ان الحصن معروف باسمه (وتيـح) الى اليوم[8] .

٩ - من السطر التاسع وما بعده ليس هنالك طمس ومن هنا يقول النقش ان كل ذلك تم « اصلاحا (تثويـب -) وترميا واكمالا وانجازا ، وذلك الى جانب ما قاموا به من الاصلاحات الزراعيـة وتقضيض بعض المـرافق في اراضي وصيـاع (بني يهفرع) بما في ذلك الممر الذي يؤدي الى مدينتهم او الى المدينة - المسماة - .

١٠ - (اموان) ثم يقول النقش : ولقد كان او تم هذا العمل الجماعي التعاوني المشترك في انجاز هذه المرافق ذات الطابع العام او في الخدمة العامة . . شقا في الصخور وترميا وانجازا لكـل هذه (المناقل - النقول) المذكورة .

١١ - في هذه الاسطر ، بمقابل او بملء عام كامل هو عام اربعة وثلاثين واربع مائة . مئت .

١٢ - ومن هذا العام فليـدم عملهم هذا الى الابد ، وقد تم ذلك بالقدرة العظيمة وبالعون الكـامل من قبل الهيهم الخاصين .

١٣ - (عثتر ذي سمعان) و(عثتر ذي طميـم - اطهام -) وفي ظل ومكـانة سيدهم (ثاران يهنعم)

١٤ - - ملك سبأ وذي ريـدان بن (ذمار علي يهبر) ملك سبأ وذي ريدان .

هذا هو محتوى (نقش المصنعة - مصنعة عنس -) مع بعض التوضيحات والتعليقات اللازمة ، وذلك طبقا لنسختي من هذا النقش التي

نسختها عام ١٩٦٩ وطبقا لما قام به المستشرق الايطالي (جيوفاني جاربيني) من جهد كبير في التحقيق والتدقيق مستعينا بصور الدكتور (ا . اي . برنللو) التي اخذها لهذا النقش ، ولا يزال هذا النص قابلا للاستكمال وقراءة بعض كلماته وعباراته المتآكلة ، وذلك لو استعان الناسخ بمنصة ترفعه الى مستوى الصخرة المدوّن عليها النقش ، مع الاستعانة ايضا ، بمنظار مكبر يجسم له الحروف .

ولعل اهم ما يمكن ان يضاف من التعليقات او التوضيحات ، هو ان هذا النقش مؤرخ بحسب التقويم الحميري الذي يبدأ في رأي معظم كبار الدارسين للكتابات المسندية اليمنية القديمة ، عام (١١٥) وخمسة عشر ومئة قبل الميلاد ، وتاريخ هذا النقش بالتقويم الحميري هو عام (٤٣٤) اربعة وثلاثين واربع مئة ، فلو طرحنا العدد (١١٥) من العدد (٤٣٤) فان الحاصل يكون (٣١٩) اي عام تسعة عشر وثلاثمئة لميلاد المسيح ، ومن ذلك نستنتج استنتاجا تقريبيا ان الملك (ذمار علي يهبر) صاحب احد التمثالين البرونزيين العائدين بعد ترميمهما قد تولى الحكم منفردا بصيغة تنص عليه منفردا كما هي عادة معظم النقوش - اي بصيغة (ذمار علي يهبر ملك سبأ وذي ريدان) وربما باضافة بن ياسر يهصدق ملك سبأ وذي ريدان ، وذلك في العقدين الاخيرين من القرن الثالث للميلاد ، او من قبل ذلك ثم حكم بالاشتراك مع ابنه (ثاران) بصيغة (ذمارعلي يهبر وابنه ثاران ملكا سبأ وذي ريدان) مع نسبتهم الى والدهما (ياسر يهصدق) كما في النقش (ارياني/ ٦) او بدونها كما في النقش المدون على صدري التمثالين كليهما اوكما في هذا النقش الذي نحن بصدده وذلك الى آخر القرن الثالث او بداية القرن الرابع للميلاد ، ثم حكم ابنه (ثاران يهنعم ملك سبأ وذي ريدان بن ذمار علي يهبر ملك سبأ وذي ريدان) وبحسب ما هو منصوص عليه في نقش المصنعة هذا ، حتى اواخر العقد الثاني من القرن الرابع للميلاد ، وربما الى ما بعد ذلك مما يمكن أن يأتي ذكره في المزيد من النقوش التي نأمل أن نكتشفها في المستقبل .

كما ا ن من التوضيحات المفيدة التي يمكن ان تضاف ، ان هذا النقش كما هو جلي مكرس للاصلاحات التي قام بها احدأوبعض كبارالقادة في عهد الملك (ثاران يهنعم) وبالتحديد في مجال المرافق ذات الطابع العام والمخصصة لمصلحة الوطن والمواطنين ، وذلك لان شق وتمهيد الطرق الجبلية في ارض اليمن ذات التضاريس الطبيعية البالغة الوعورة ، يعد من اهم اعمال الخدمة للوطن وللمواطنين عامة لما تحققه لهم من المصالح الحيوية في حياتهم اليومية وفي مختلف المتطلبات الحياتية الضرورية للازدهار والتقدم الاقتصادي والاجتماعي ولسعادة الانسان ورفاهيته . خاصة وان هذا النقش قد نص على شق وتمهيد واصلاح وترميم اكثر من عشر من الطرق الحيوية المصعدة في الجبال اليمنية الشامخة بشواهقها المنسلخة الزلاء ومنحدراته الخطيرة ذات الطبيعة الصخرية القاسية في كثير من أجزائها ، هذا إلى جانب انشاءات واصلاحات في عدد من الاماكن الاخرى .

ومما تجدر الاشارة اليه ، ان اصحاب هذا النقش ، الذين قادوا واشرفوا على هذا العمل الاصلاحي التعاوني الجماعي المشترك بين الناس بالمساهمة وبالتساوي العادل بين الجميع ، لم يذكروا إلها من الالهة ذات الطابع العام التي يدين لها بالولاء كل ابناء اليمن القديم ، مثل الاله (المقه) كبير آلهة السبأيين اولا ثم الاله ذي المكانة المقدسة العامة عند كل فرد من افراد الشعب ، او مثل الاله (عم) كبير آلة الحميريين اولا ثم الذي له نفس المكانة عند جميع المواطنين ، وانما اكتفى اصحاب النقش بذكر الهيهم الخاصين اللذين تدين لهما هذه الشريحة المعينة من الشرائح المكونة للمجتمع اليمني القديم ، ممثلة في قبيلة او في اتحاد بجماعات معينة من ابناء الشعب تجمعها منطقة او مناطق في بوتقة من المصالح المشتركة والظروف البيئية او التقسيمات الادارية التي تجعل لهذه الشريحة ملامح خاصة في ظل الكيان العام للمجتمع اليمني ودولته المركزية ممثلة في هذا الوقت بمملكة « سبأ وذي ريدان » مجسدة في شخص الملك الذي يحكم معتمدا على كبار القوم وذوي المكانة والكفاءة من رجال دولته لمختلف مناطقها ، ومثل هذه الالهة الخاصة موجودة في كل تجمع سكاني تجعل له الظروف الطبيعية الجغرافية والعلاقات الاقتصادية والاجتماعية ، كيانه ذا الملامح الخصوصية في ظل الكيان الاجتماعي العام للشعب ، وعلى مثل هذه الالهة الخاصة يكون اعتماد كل جماعة من الجماعات في كل عمل تقوم به في مناطقها ولا يكون لها الطابع العام الذي تعم مصلحته كل أبناء الشعب في كل المناطق ، أما في الأعمال ذات المردود العام والشامل لجميع فئات الشعب في مختلف مناطقه فإن العون والاعتماد فيها يكون من الآلهة العامة وعلى قوتها وصادق دعمها . وقد كان المرجع الديني الذي اعتمد عليه اصحاب هذا النقش ، هو إلهاهما الخاصان (عثتر ذي سمعان) و (عثتر ذي طميم - أو طمام -) فبفضلهما تم انجاز كل ما قاموا به من الأعمال المذكورة .

وقد نص النقش على ما نفهم منه القيام بتلك الانشاءات والاصلاحات قد تم بالمناصبة والمساهمة ، وبالمناصفة والمساواة ، بين كل القادرين على العمل من ابناء هذا التجمع السكاني المعين ، ولمصلحة كل فرد من افراده ، وهذا الامر يقدم لنا الدليل على عمق الجذور التاريخية للعمل التعاوني الجماعي على ارض اليمن وبين كل ابنائه وعبر عصوره التاريخية المختلفة ، منذ اقدم العصور . وهو ما نلمسه ايضا في عدد آخر من النقوش تؤكد ان العمل التعاوني الجماعي قديم في اليمن قدم عصوره التاريخية منذ النشأة الاولى للحضارة اليمنية . وهذا ما يفسر لنا سر انبعاث العمل التعاوني الجديد والحديث من اعماق الشعب بطريقة تلقائية بمجرد ان اتيحت للشعب اليمني الفرصة في ظل ثورته ونظامه الجمهوري، ثم ازدهار الجمعيات التعاونية في كل مكان واحتضان القيادة لها مما ادى الى رسوخ الجمعيات التعاونية

وظهور اتحادها العام ونظمها الداخلية القائمة على اسس حديثة ديمقراطية سليمة حتى تسنى لها أن تنجز الكثير والكثير من المشاريع في مختلف الجوانب الحياتية وفي كل المناطق اليمنية .

ولهذا وقبل اختتام هذا البحث نفهم ان الاصالة اليمنيـة ، وعمق الاحساس والاعتزاز بتاريخ اليمن الحضاري القديم ، وصدق الوطنية ورسوخ الايمان بحاضر اليمن ومستقبله المـزدهر المجيـد ، هي الدوافع الشعوريـة الواعيـة والتفاعلات التلقائيـة في الوجدان اللاشعوري المتحدر في الاعماق عبر تفاعلات الزمن مع البيئة والمجتمع ، هي الحوافز التي جعلت المـواطنين اليمنين يودعـون بكل اجـلال وتـكريم اجـزاء تمثالين عظيمين من اسلافهم الاكرمين حينها تقـرر ترحيلهما للقيام بالترميم واعادة التـركيب ، وهـي التي جعلتهم يستقبلون التمثالين بعد أن عادت لهما وقفة العز والشموخ ، وارتفعا من جديد كما كانا رمزاً للقوة والطموح منذ أن أمر صاحباهما برفعهما ونصبهما عند مدخل (مسود) اصدقائهما من (بني ذرانح) في قصر (صنع) في (النخلة الحمراء ـ يكلاً) من أرض (الحدأ) كرمز لعلاقات الصداقة والاخوة بين القادة المخلصين من ابناء اليمن الميمون .

فبكل الحب الصادق ، وبكل العشق لتراب الوطن ، وبكل الاعجاب بتاريخنا المجيد ، وبكـل الايمان باليمن ـ كل اليمن ـ وبماضيـه العريـق المجيـد وبحاضره الزاهر المشرئب الطموح وبمستقبله القائم من أقصاه الى أقصاه على الأسس الحضارية الجديـدة والمبادىء الديمقراطيـة العريقة والمتطورة ، وفي ظل ثورته السبتمبريـة المجيـدة ونظامه الجمهوري الخالد ، وبقيـادته النابعة من اعماق الشعب ، بإرادة الشعب ، لا بالوراثة الاسرية المقيتة ، ولا بالدم الازرق النبيل في ذاته ، ولا بالسلالات العرقية التي لا يقرها علم ولا عقل ولا منطق .. بكـل هذا نقول اهلا بعظيمين من عظماء اليمن . . . اهلاً وسهلاً بـ (ذمار علي يهبر الاول ملك سبأ وذي ريدان) وبابنه (ثأران يهنعم الاول ملك سبأ وذي ريـدان) في صنعاء اليمن عاصمة آبائهما واجدادهما ، وعاصمة ابنائهما واحفادهما ويمنهما الواحد الى الأبد .

وفي ختام هذاالبحث،نصل إلى سؤال كبير وهام ، حول عدد من نقوش المسند التي يرد في احدها اسم (ذمار علي يهبر وابنه ثأران يهنعم) ولكن بصيغة ملكية جديدة هي (ملكا سبأ وذي ريـدان وحضرموت ويمنة[9]) وفي اثنين منها يرد اسم (ذمار علي يهبر) بدون ذكـر ابنه (ثأران يهنعم) وبصيغة (ملك سبأ وذي ريـدان وحضرموت ويمنة[10]) ، وفي ثلاثة منها لا يرد الا اسم الابن وذلك بعد وفاة ابيـه بصيغة (ثأران يهنعم وابنه ملكيكـرب يهأمن ـ واحيـانا يأمن ـ ملكي سبأ وذي ريـدان وحضرموت ويمنة[11] . فهل هذان الملكـان هما نفس الملكـين السابقين. صاحبي التمثالين البرونزيين ام انهما ملكان آخران اضافا الى مجد سلفيهما او سميهما التليـد ، مجدا طارفا عتيـدا باضافة لقب (.. وحضرموت ويمنة) الى لقب (سبأ وذي ريـدان ..) فحققا بذلك وحـدة اليمـن أو اعـادا هذه الوحـدة إلى ما كانت عليه قبلهما ؟؟

ان عددا من الدارسين يرون انه ليس هنالك الا (ذمار علي يهبر) واحد و (ثأران يهنعم) واحد ، وان لقبهما الملكـي تطور من (ملكي سبأ وذي ريـدان) الى صيغة جديـدة تضيف (... وحضرموت ويمنة) وذلك بعد تطورات حدثت وادت الى هذا التطور .

أماكاتـب هذه الاسطر،فـيرى من خلال

القرائن والادلة ، ان هذين الملكين الاخيرين ، هما غير الملكين السابقين . وبذلك يكون لدينا سلسلتان من سلاسل الملوك اولاهما ليس اللقب فيها الا (ملك سبأ وذي ريدان) وهي كما يلي :

(لا نعرف من هو ابو ياسر يهصدق)

. . . .

آ ـ ياسر يهصدق ملك سبأ وذي ريدان

ذمار علي يهبر الاول ملك سبأ وذي ريدان بن ياسر يهصدق

ثارن يهنعم الاول ملك سبأ وذي ريدان بن ذمار علي يهبر

. . . .

(لا نعرف لثأران ابنا)

اما السلسلة الثانية فهي اطول من هذه كما تخبرنا نقوش المسند التي لدينا ، واللقب الملكي فيها هو (ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة) وهي كما يلي :

(لا نعرف من هو ابو ذمار علي هذا)

. . . .

ب ـ ذمار علي يهبر الثاني ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة

ثأران يهنعم الثاني ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة بن ذمار علي يهبر

ملكيكرب يهأمن (او يأمن) ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة بن ثأران يهنعم

ابو كرب اسعد (الكامل) ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة
واعرابهم طودا وتهامة بن ملكيكرب يهأمن

شرحبيل يعفر ملك سبأ وذي ريدان وحضرموت ويمنة واعرابهم
طودا وتهامة من ابي كرب اسعد

(لا نعرف لشرحبيل ابنا ولكن بعض اخوته خلفوه
بنفس اللقب الطويل ولكن في فترة ضعف)

ولا شك ان هذا الرأي الذي اقتنع به ؛ وهو ان هنالك ملكين باسم (ذمار علي يهبر) وملكين باسم (ثأران يهنعم) ، وان الاولين منهم ـ وهما صاحبا مثالي النخلة الحمراء ـ لم يتلقبا طوال مدة حكمهما الابلقب (ملك سبأ وذي ريدان) وان الاخريين هما اللذان تلقبا باللقب الطويل باضافة (.. حضرموت ويمنة) .. انما هو رأي يحتاج الى البرهنة والتدليل . وهذا الموضوع هو ما اتمنى ان اعود اليه في بحث مستقل ، وقد يقوم بمثل هذه الدراسة غيري من المهتمين فيكون بذلك من المشكورين .

دمشق ٢٨/ ٤/ ١٩٨٣

الهوامش

١ ـ النص في أحد التمثالين كامل من أوله إلى آخره ، أما في التمثال الثاني فإنه ناقص لما لحقه من تلف ، وقد ذهب من الصيغة الملكية المذكورة أعلاه أولها فلم يبق منها إلا عبارة (...... ملكي سبأوذي ريدان) كما لحق التلف ببعض أجزاء بقية النص ، ولكن الدارسين يرون أن النص واحد تماماً في صدر كل واحد من التمثالين . والله سبحانه وتعالى أعلم ، ولا ينكران العلماء والدارسين قد بذلوا كل ما في وسعهم للوصول إلى هذه الحقيقة ومع ذلك يظل العلم الكامل لله وحده .

٢ ـ لم اكن قد تأكدت من اسم ناسخ هذه النقوش عند نشر كتابي عام/ ١٩٧٢ .

٣ ـ انظرجام٥٦٨ وهو يتحدث عن هذا التحالف والتبني وانظرأيضاً جام٧٥٣الذي لم يعدفيه القيلان (سعد شمس وابنه مرثد) يعترفان بملك سبأ بعينه كسيد لهما كما هي العادة في نقوش الاقيال العاديين .

٤ ـ عن المرحلة التي كان فيها (سعد شمس اسرع وابنه مرثد يهحمد) في مرتبة الاقيال انظر النقوش / جام/ ٥٦٨ ، ٦٠٦ ، ٧٥٣ . وعن المرحلة التي اصبحا فيها ملكين انظر ارياني/ وجام/ ٦٢٦ ، ٧٢٧ ، ٦٢٨ ، ٦٢٩ ، ٦٣٠ .

٥ ـ انظر ارياني/ ٥

٦ ـ يختلف هذا الرأي عن رأيي السابق حيث قلت ان (كبير اقيان) يراد به احد اقيال (بني اقيان) اصحاب مدينة (شبام ـ كوكبان ـ) ولا يزال الرأيان صالحين للنقاش لترجيح أحدهما .

٧ ـ اعتقد ان النقش لا يعني (شبام اقيان ـ كوكبان ـ) ولا (شبام سخيم ـ شبام الخراش ـ) وبالطبع لا يعني (شبام حضرموت) واذا كان قد عنى واحدة منها فالاقرب ان تكون (شبام اقيان ، ويكون النقيل هو نقيل (كوكبان) والله اعلم .

٨ ـ ذكر ابو محمد الحسن بن احمد الهمداني (وتيح) كاسم جبل او موضع من جبلان العركبة (ـ اي ريمة وعتمة) انظر الصفة تحقيق القاضي العلامة لسان اليمن محمد بن علي الاكوع باشراف العلامة حمد الجاسم/ صفحة ١٠٦/ وصفحة ٢٧٨/ ، و(وطيح) بالطاء اسم اطم من آطام اليهود بخيبر/ صفحة ٢٦٤ .

٩ ـ هذا النقش هو (جام/ ٦٦٨)

١٠ ـ هذان النقشان هما (ارياني/ ٣١ وارياني/ ٣٢).

١١ ـ هذه النقوش هي (جام/ ٦٦٩) و (جام/ ٦٧٠) و(جام/ ٦٧١) .

■■ ■■ ■■



ذمار علي يهبر ملك سبا وذي ريدان بن ياسر يهصدق ملك سبا وذي ريدان .



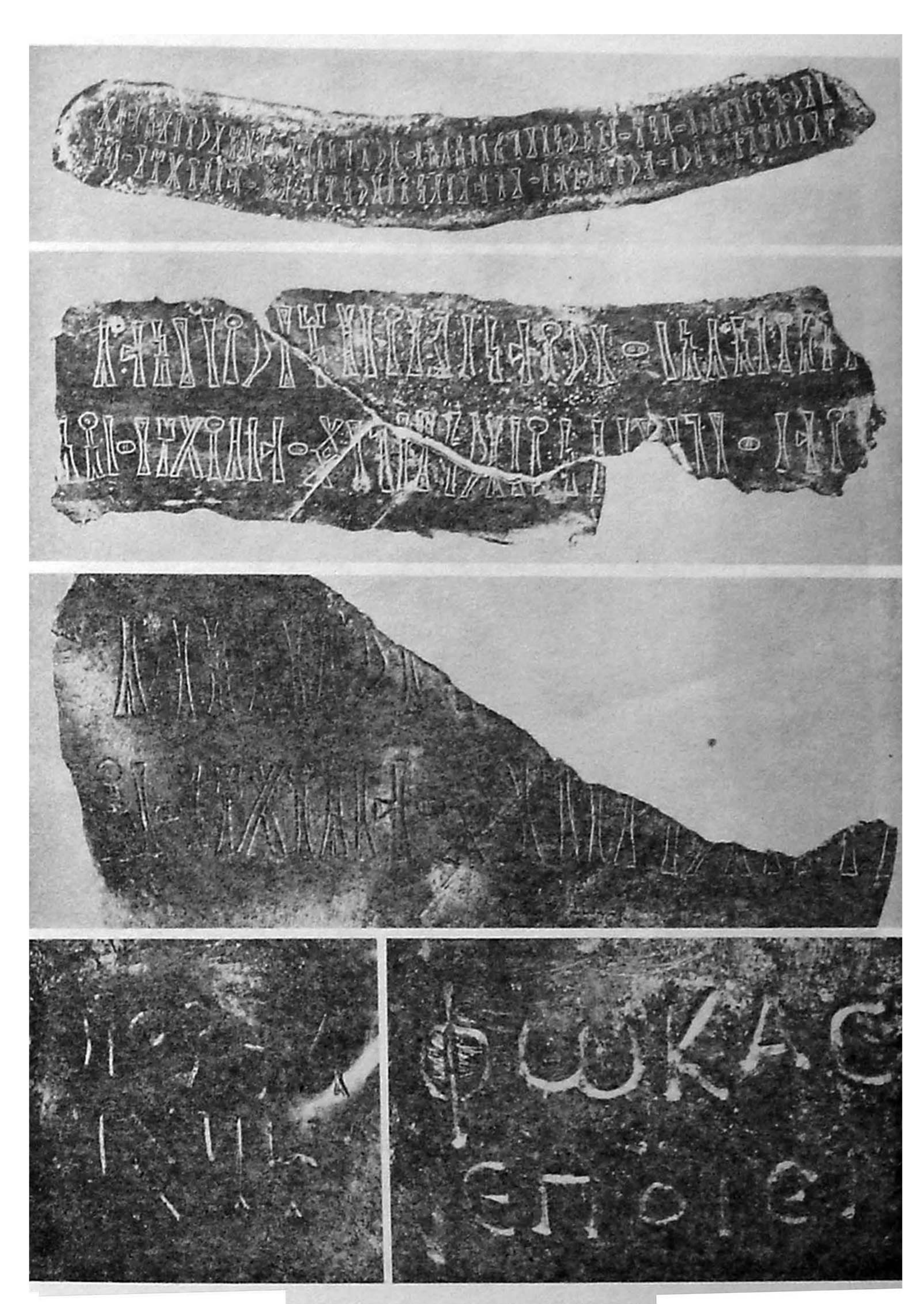
ثاران يهنعم ملك سبا وذي ريدان بن ذمار علي يهبر ملك سبا وذي ريدان .



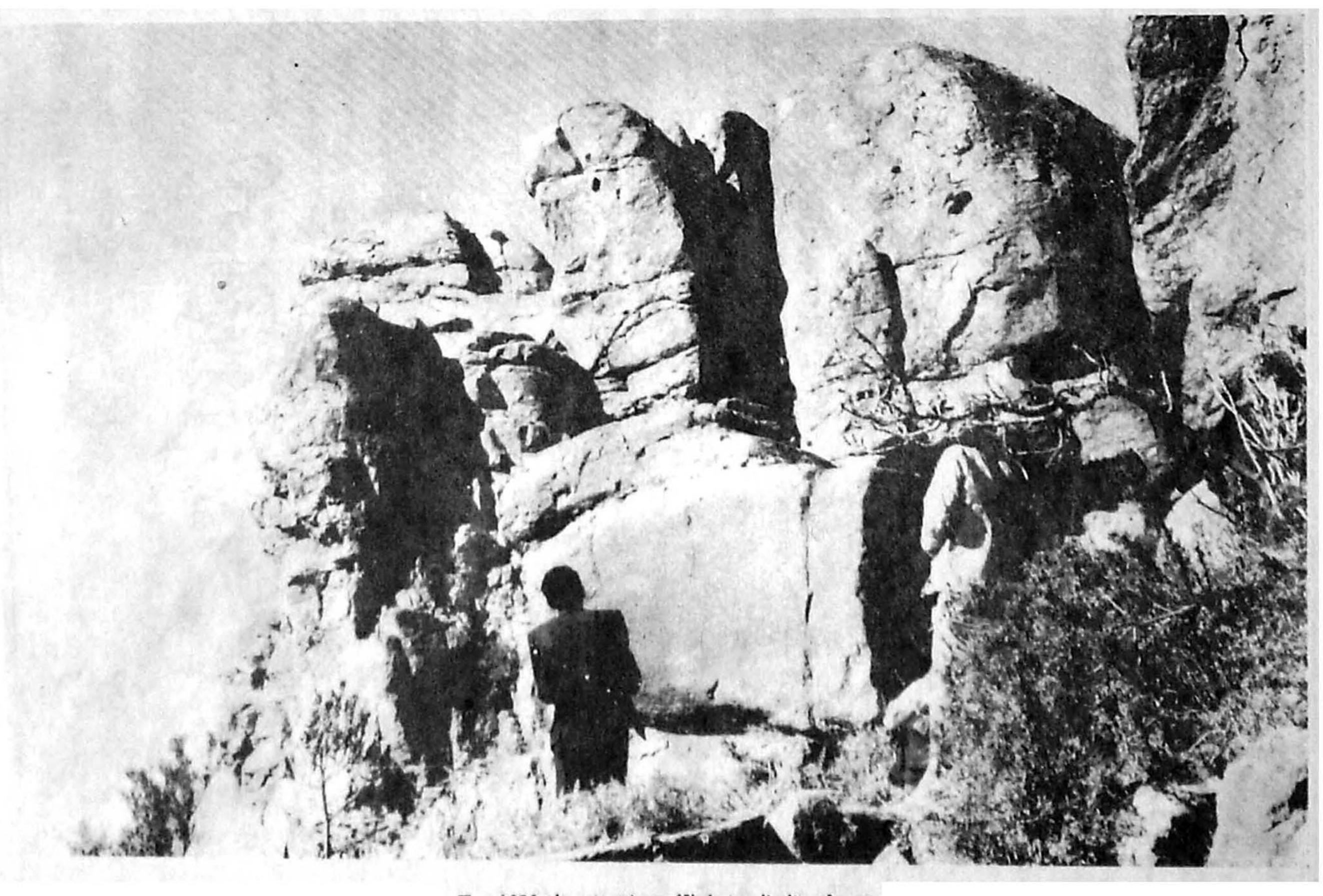
■ صورة نصفية للملك ثاران (الابن) ■



■ صورة نصفية للملك ذمار علي (الأب) ■



■ نقش المسند المدون على صدر احد التمثالين ■



■ مطهر الارياني ينسخ نقش مصنعه عنس عام ١٩٦٩ م ■

رحلة أحمد وصفي زكريا إلى اليمن وزيارته صنعاء

أحمد غسان سبانو

بقي اليمن في عزلة عن العالم لمدة طويلة وقد بقي اتصال اليمن مع الدول الاجنبية عبر التجار والتجارة ، اما داخل اليمن فقد كان اسطورة بعيدة . .

في اواخر القرن الثامن عشر بدأ بعض المغامرين والرحالة والعلماء والاثريين بمحاولات للوصول الى اليمن والتجول في اراضيه سواء بالطرق الرسمية او بطرق خاصة[1] .

اما بالنسبة للعرب ابناء الامة العربية فقد تأخرت زيارات العلماء والرحالة والمختصين الى اليمن إلى مطلع القرن العشرين حيث كانت أول زيارة (معروفة) إلى اليمن قد تمت من قبل الصحفي (عبد المسيح الانطاكي) صاحب مجلة العمران الصادرة في مصر ١٩٠٧ وقد نشر رحلته إلى الخليج العربي والسعودية واليمن على حلقات في مجلته (العمران) .

كذلك قام السيد نزيه المؤيد العظم السوري بزيارة اليمن بصحبة المستر شارلز كرين الامريكي وبعدها قام بعدة رحلات واصدر كتابا عن رحلته نشر عام ١٩٣٦ وفيه صورة وحديث خاطف عن احمد وصفي زكريا ونشاطه في الزراعة باليمن ، كما قامت جامعة فؤاد الاول (القاهرة) بارسال بعثة الى اليمن من اعضائها الدكتور سليمان حزين والدكتور خليل يحيى نلجي اصدر الاخير كتابا عن اللهجات اليمنية علم ١٩٤٦ .

ثم قام العلامة احمد وصفي زكريا برحلة الى اليمن تلك الرحلة التي نقدمها الان فمن هو وصفي زكريا وما هي قصة رحلته .

ولد في دمشق عام ١٨٨٩ واتم دراسته الابتدائية والثانوية فيها ثم انتقل الى استانبول والتحق بالمدرسة الزراعية العليا وتخرج منها مهندسا عام ١٩١٢ ثم تقلب في وظائف عدة في سوريا ولبنان والاردن وفلسطين الى ان تم

استدعاؤه عام ١٩٣٦ لليمن كمستشار فني زراعي ولمدة ستة اشهر كما كانت رغبة الامام يحيى وكما سنبين فيما بعد .

بعدها عاد ليعمل في العراق والاردن ، وفي سوريا حيث احيل على التقاعد عام ١٩٥٠ لبلوغه السن القانوني . وتفرغ بعدها لاستكمال ابحاثه ودراساته واصدار كتبه سواء منها المهنية الزراعية وهي (الدروس الزراعية ثلاثة اجزاء والمفكرة الزراعية والمحاصيل الحقلية (جزءان) أوكتبه التاريخية وهي (عشائر الشام (جزءان) والريف السوري (جزءان) وجولة أثرية) .

وكان عضوا في المجلس الاعلى للعلوم والاداب . وتوفي عام ١٩٦٤ عن عمر يناهز الخامسة والسبعين .

لليمن عموما سحر على زائريه نستشفه من مؤلفات الرحالة الذين جابوا اطراف ومجاهل اليمن وذاك السحر الذي يشغل بال وقلب زائرها ويترك فيه الأثر الطيب وعشقا من نوع خاص يدفع به للعودة اليها وابقاء الصلة معها .

اصيب احمد وصفي زكريا بعارض هذا العشق ، فرغم قصر المدة التي اقام فيها هناك ورغم النشاط الذي ابداه من ايجاد مزروعات جديدة في اليمن استجلبها من بلاد الشام والعراق وايطاليا ومصر ، بما يتوافق مع البيئة الزراعية اليمنية ، وانشاء مدرسة زراعية درب بها بعض شباب اليمن ، الا انه لم يعد يفترق عن اليمن اطلاقاً . وانه لم يعد لزيارتها ثانية فقد بقي حتى آخر عمره يتابع أخبار اليمن ويدرس نشاطاتها وتطوراتها سواء في حقل الزراعة أم السياسة أم التاريخ أم الاثار .

وفي بحثي ضمن اطار اعداد هذه المقالة بين مخلفات العلامة احمد وصفي زكريا فقد عثرت على الكثير الكثير مما يخص اليمن واخبارها ومشاريع كثيرة للكتابة عنها وقد علمت ان في اليمن عدة مخطوطات تعود لاحمد وصفي زكريا سواء في حقل الزراعة ام في حقل التاريخ اليمني لكني لا اعرف كنهها .

وقد عثرت على عدة رسائل من مخلفاته تتناول استمرار سؤاله عن احوال الزراعة والحالة الزراعية هناك .

اعود للحديث عن مخلفاته عن اليمن فقد تبين لي بعض تدقيقها ان هناك بعض ما سبق نشره على شكل مقالات اعتبارا من عام ١٩٣٦ وما بعدها في صحف ومجلات مختلفة لصحف مصرية وهي تضم ستة مقالات بين كانون الثاني ١٩٣٧ وحزيران ١٩٤٠ ومجموعها ثلاث واربعون صفحة . كما نشر خلال اقامته في اليمن عدة مقالات في صحف يمنية صادرة هناك منها « الايمان » الصادرة بصنعاء و « صوت اليمن » .

ونشر ايضا في صحيفة تصدر باللاذقية باسم الجلاء .

وفي جريدة التربية الصادرة في حلب ومجلة غرفة زراعة حلب .

ونشر في الصحف الدمشقية مثل النصر والقبس والكفاح والف باء وغيرها .

ونشر في مجلة المعرفة السورية عن رحلته الى اليمن ايضا .

والقى محاضرة عثرت على نصها الكامل بين اوراقه ، وبقيت اهتمامات احمد وصفي زكريا في اليمن حتى وفاته وقد كان عاقدا النية على اصدار

كتاب عن اليمن وحول رحلته وترك مخطوطات كثيرة ارجو الله ان يهيىء لي ان اجمع شتاتها لاصدرها ككتاب عن رحلة احمد وصفي زكريا الى اليمن ووصفه له عام ١٩٣٦ .

قدراسل الكثيرين من اجل الحصول على معلومات ومصادر عن اليمن عثرت على جواب رسالة وجهها الى سفير سوريا في لندن االسيدعبد الرحمن العظم والجواب مؤرخ من لندن في ٢٩/ ١/ ١٩٦٣ ، اي قبل وفاتة بعدة اشهر وهذه صورتها :

حضرة الاخ العزيز الاستاذ وصفي زكريا الاكرم ،

تلقيت رسالتكم بسرور بالغ وبعد انقطاع اخباركم عنا مدة طويلة . ولكن ما يبهج النفس ان نسمع انكم بخير وانكم قد عزمتم على مواصلة التأليف وخدمة الثقافة العربية بالكتابة عن بلد عربي عريق ، عن اليمن . غير ان الكتب التي الفت عن اليمن خاصة نادرة باللغة الانكليزية ، واكثر ما يكتب عن هذا البلد يوجد في كتب تؤلف عن شبه الجزيرة العربية او عن الشرق الاوسط كما ان في الموسوعة البريطانية مقال ذُيل ببعض المراجع وقد ارفقت قائمة بها طيا . اما الحصول على هذه الكتب فامر صعب جدا نظرا لان طبعاتها قديمة وقد نفدت ومن الممكن استعارتها من المكتبات العامة في دمشق او في بيروت واعتقد ان المجلس الثقافي البريطاني في بيروت قد يفيدكم في هذا الشأن .

فنامل لكم التوفيق في هذا العمل القيم وان نسمع عن اخباركم السارة دوما والسلام .

لندن ٢٩/ ١/ ١٩٦٣ .

السفير

عبد الرحمن العظم

ويصف احمد وصفي زكريا اسباب الرحلة الى اليمن وموجزا سريعا عن اعماله فيها كما يلي استنادا الى مقدمة محاضرته التي نوهنا عنها فقال :

طوحت بي الاقدار في مطلع عام ١٩٣٦ الى اليمن الذي كان يوصف بكلمة (الداخل اليه مفقود والخارج مولود) وكان السبب في ذهابي ان بعض رجالات العرب الافاضل المهتمين بالقضايا القومية العربية ذهبوا ـ قبلي بسنة الى اليمن لزيارة المرحوم المتوكل على الله الامام يحيى حميد الدين الذي كان وقتئذ ملك اليمن . وكان هذا الامام شديد التمسك بقاعدة (ليس في الامكان ابدع مما كان) شديد التعلق بعقلية عصور الانحطاط الماضية فاخذ اولئك السادة خلال زياراتهم يحدثونه ويخبرونه بأن الدنيا قد تغيرت عما يعرفه هو والأمور قد تطورت وأمم ـ الشرق والغرب قد تقدمت وسبقتنا بمراحل فعلينا أن نلحقها ونحذو حذوها في ما ينفع ويضر . ونصحوه وطالبوه في جملة ما طالبوه أن يلتفت إلى اصلاح مرافق بلاده الفقيرة وموارد عيشها الضئيلة ولاسيا الزراعة التي لا مورد لشعب اليمن غيرها . على أن يرسلوا له مهندساً زراعياً يعمل في هذا الاصلاح . وبعد لأي قبل رحمه الله هذا الرأي؛ لكنه اشترط أن يتم هذا العمل المحتاج إلى عدة سنوات خلال ستة أشهر حددها ولم يزد . ولما رجع أولئك السادة وقع

اختيارهم علي وكلفوني . وبعد مداولات قبلت بهذه المجازفة وذهبت وقمت في تلك المدة القصيرة - رغم العراقيل والمثبطات التي صادفتها - بأقصى ما يمكن أن يؤتى في خدمة الزراع والغرس واستطعت أن أترك هناك أثارا خالدة من نباتات وأشجار مثمرة وغير مثمرة ما لم يكن لليمانيين عهد بها . جلبتها من سوريا وفلسطين ومصر وايطاليا وقدت تلاميذ يمنيين علمتهم ودربتهم في متابعة ما شرعت به . ثم رجعت عند انتهاء المدة المذكورة أحمد ربي على الخلاص من الامام وخلال أعمالي الزراعية المذكورة في صنعاء والاقضية والنواحي التي مكنوني من زيارتها كنت اتنسم المعلومات الجغرافية والتاريخية والعمرانية والاقتصادية وغيرها . فحصلت على نبذ منها نشرتها بعد رجوعي في بعض المجلات العلمية المصرية والسورية . وقد حفزني الى ذلك النشر وهذه المحاضرة كون اليمن لا يزال مجهولا في جملته عندنا معشر مثقفي العرب لم يكتب في اللغة العربية كتابات كافية عن جغرافيته الطبيعية والبشرية وعن احداثه وكوارثه الكثيرة التي وقعت في العهود الاخيرة . بينما الاتراك في زمن وجودهم هناك الف بعض قوادهم واطبائهم عدة كتب ورسموا خرائط . وقام قبلهم منذ مائتي سنة بعض المغامرين من الرواد الافرنج وخاصة الافرنسيين والانكليز والالمان .

ورغم ان زكريا قد عاش اكثر ايامه في اليمن في صنعاء الا انه لم يفرد لها مقالا سبق نشره او وصفا لما رآه فيها .

الا اني اثناء مراجعة اوراقه الكثيرة عثرت على بحث تحت عنوان « اوصاف مدن اليمن » تصدر الحديث فيه عن صنعاء وقد جاء حديثه من صنعاء في اربع صفحات اقدمها بما يلي بنصها الحرفي :

« صنعاء واقعة في الدرجة ١٥,٢٢ من العرض الشمالي و ٣٢,٤٤ من الطول الشرقي وهي في وسط سهل (افيح) يمتد من الشمال الى الجنوب ويحده من الشرق (جبل نقم) ومن الغرب (جبل عصر) وفصول السنة في صنعاء هي كالفصول الجارية في كل جبال (السرا) يصادف الربيع في اشهر كانون الثاني وشباط وآذار . والصيف في نيسان وايار وحزيران ، والخريف في اغستوس وايلول وتشرين اول والشتاء في تشرين الثاني وكانون الاول وكانون الثاني .

وتكون الحرارة في صنعاء - كما هي في كل بلاد الجبال - تحت دورها الحجرية في ايام الحر ٢٢ - ٢٧,٥ وفي ايام القر ١٠ - ١,٥ الى ٢٠ درجة .

ويحيط بصنعاء سور كبير ذو ابراج عديدة بني بنوع من الطين المقاوم لفعل الامطار مدة مديدة ويعنى بترميمه من حين الى آخر .

وفي صنعاء نحو ٥٠٠٠ بيت حجري و ٣٠ مسجدا او جامعا و ٢٠ حماما و ٢٠ خانا ويدعى الخان سمسره .

وسوقها كبير وذو حوانيت عديدة ولكنه عار عن الانتظام والترتيب وحوانتيه صغيرة ، ما عدا عددا قليلا بني في عهد العثمانيين الاخير وهي كبيرة واسعة ويقدر نفوس صنعاء بنحو ٢٥٠٠٠ مسلم و ٢٥٠٠ يهودي . . والمسلمون يعرفون الكتابة بالعربية كما ان اليهود يعرفون العبرانية وفي طرف صنعاء الشرقي بناء كبير كان دار الحكومة يقيم فيها

ولاة اليمن وكبار موظفيه وتجاه هذه الدار جامع (البكرية)المبني على الطراز التركي . وبقربها مدرسة للايتام ويوجد داخل (قلعة الصقر) مبان وثكنات عسكرية ومستودعات للعتاد والمؤ ن ومطحنة وجامع كان بناه (مراد باشا) حفار الابار - احد ولاة الترك القدماء .

وفي غربي صنعاء مستشفى عسكري كبير اتخذه الان الامام مقرا ومسكنا ودعاه (بدار السعادة) وفي (باب سبح) قرب هذا المستشفى مخفر عسكري . وفي (بئر العزب) دار عظيمة كان يقطنها الولاة العثمانيون وقد جعلوها الان مدرسة لطلاب العلوم الشرعية ، في قربها بناء عظيم جميل بناه (حسين حلمي باشا) باسم (مدرسة الصنائع) لا يزال مهجورا خاويا على عروشه .

وفي خارج صنعاء وفي جنوبها ثكنات عسكرية عظيمة تسع كوكبتين تدعى (الاوردو) منها ما كان للمشاة ومنها للمدفعية . وفي ذروة (جبل نقم) ثكنة اخرى .

ويمر من وسط صنعاء ماء يدعون (الغيل الاسود) يستقون منه ويروون بعض البساتين في ضاحية (شهوب)

وحدائق صنعاء كثيرة يكون فيها من اكثر اجناس الاشجار كالعنب والسفرجل والدراقن .. والخضراوات المتنوعة . .

وفي فصل الشتاء اذا وقفت خضراوات صنعاء عن الانتاج تأتيها من الاودية المجاورة البعيدة عنها نحو ٧ - ٨ ساعات في كل يوم فلا تنقطع البندورة مثلا طوال السنة .

وقد استجلب اليها الترك كثيرا من البذور والزهور والخضراوات واغراس الاشجار فنمت نموا حسنا الا ان اكثرها قد ضاع بعدهم . . .

وحول صنعاء ضواح جميلة منها (الروضة) التي تبعد نحو ثلاثة ارباع الساعة (ووادي ظهر) الذي يبعد ٢,٣٠ ساعة و (حدة) التي تبعد ١,٣٠ ساعة . ويذهب المترفون من اهل صنعاء الى القريتين الاولين ويصيفون بها .

وينسج اهل صنعاء الفوط التي يلبسها الاهلون والبزوز السوداء والملآت الخاصة بالنساء واغطية مفارش الدور .

وقد اختص اليهود ببعض الصناعات كصياغة الذهب وعمل البارود والحفر بالجص والعلب الفضية . وقد مهر البناؤ ون اليمانيون ببناء المباني الجسيمة المشهورة في صنعاء وغيرها . فهم قد حذقوا هندسة البناء ولهم مهارة خارقة في بناء الجدران والاقواس ، ونحت الاحجار ورصفها بعضها مع بعض ، ومن الغريب انهم يبنون الجدران الشاهقة وقبب الجوامع والحمامات والمآذن المرتفعة وامثالها من المباني المتناهية في العلو بدون قالب ولاصقالة ، ولا يعرفون استعمال الفادن (الشاقول) بل يقدرون استقامة المباني بالنظر بحيث انه يستحيل على الفادن ان يظهر لهم خطأ ما . وهم يستعملون نوعا من الجص يأتون به من (بني حشيش) و (بني حارث) القريبين من صنعاء ، وهو جص متين للغاية ، ولهذا تكون مبانيهم قوية .

ويحصل في النواحي السبع التابعة لصنعاء الحنطة والشعير والعدس والذرة الصفراء والحمراء والبيضاء والفول والذرة الشامية والخردل وفي بلاد (الشاب) وبلاد (الرسوس) مغارس البن .

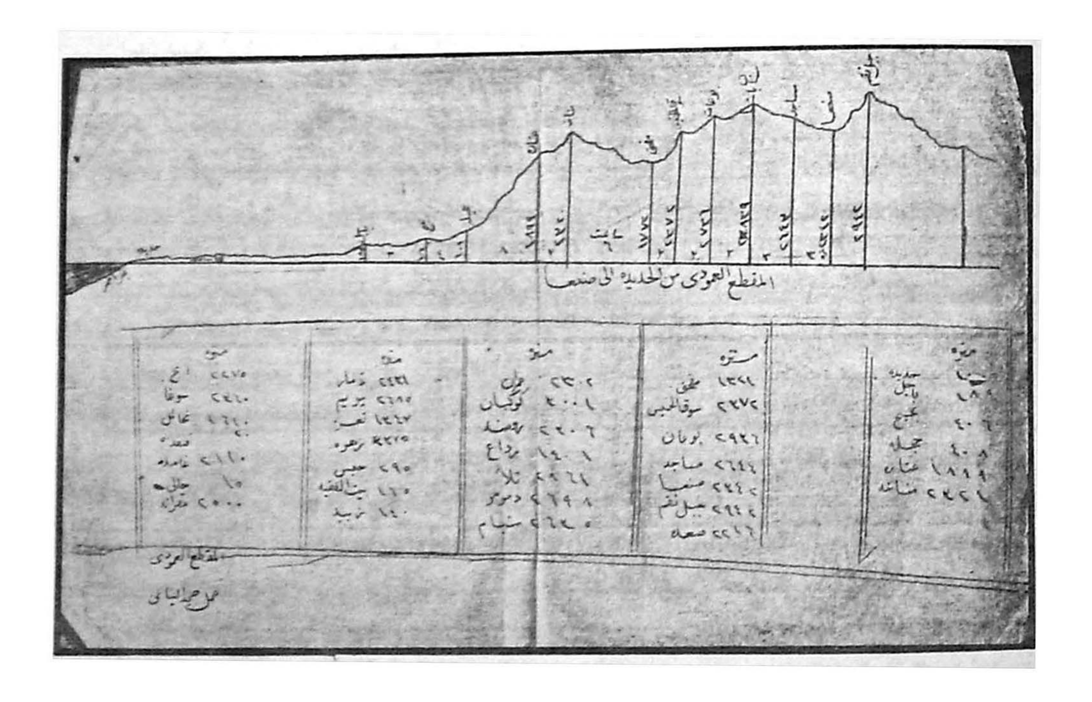
وفي صنعاء وملحَقاتها ـ كما في بلاد اليمن ـ ترى الثيران والابقار ذات السنام والجمل والحمير والغنم والماعز والدجاج ، ومن الحيوانات البرية المعز البري والغزال والارنب والثعلب والنمس . ومن الطيور القمري والحجل والغراب والعصفور والنسر .

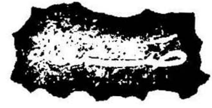
وهواء صنعاء يوافق تربية الخيل حتى انها لا تصاب هنا بمرض (الصفافي) و(الفراحة) بتاتا وتعمر من ٣٠ ـ ٥٠ سنة .

وجنس الخيل ان لم يكن كخيل العراق والشام لكنها جميلة وسريعة على كل حال . وفي انحاء صنعاء تكثر القرود ويصادف قليل من النمور والضباع .

انتهى كلام السيد احمد وصفي زكريا ونكتفي في هذا الحديث على امل نشر مخطوطات ومنشورات احمد وصفي زكريا التي جمعتها عنه في وصفه وتسجيله لمشاهداته ورحلته الى اليمن .

١ ـ راجع مقالنا عن الرحلات الى اليمن في العدد الاول من مجلة الاكليل .





المدينة العربية الإسلامية

نبذة عن تاريخها ودعوة إلى صيانتها



روي في قديم الخبر أنها لن تنقضي الليالي والأيام حتى تملأ صنعاء ما بين جبليها نقم وعيبان ويكون سوقها في بطن واديها . ومن يرى مدينة صنعاء العاصمة اليمنية ويلحظ نماءها السكاني وزحفها العمراني فكأنما يشهد مصداق ذلك الخبر وتحقيق تلك النبوءة القديمة ، والتي رواها لسان اليمن الحسن بن احمد الهمداني الصنعاني مولدا ، في كتابه «الاكليل» قبل ما ينيف عن ألف عام ، ورواها أيضا من بعده أحمد بن عبد الله الرازي في كتابه «تاريخ مدينة صنعاء» .

تقع مدينة صنعاء وسط الهضبة اليمنية على ارتفاع ٢٤٠٠ متر ، بسند السفح الغربي من جبل نقم ، وقديماً كانت دورها وبساتينها وأسوارها لا تحتل سوى مساحة صغيرة من قاع صنعاء الفسيح الذي يمتد بين جبل نقم شرقا وجبل عيبان غربا ، ولكنها تزايدت في العهود الاسلامية واتسعت دائرة سورها . وفي القرون الأخيرة استحدثت في غربها مدينة «بير العزب» التي تلاصقها وربما تفوقها مساحة ولكنها لا تضاهيها جمالاً وجلالا ، وكان للوجود العثماني اليد الطولى في انشائها . وكان بها مساكن موظفي الدولة العثمانية وحدائقهم ، وفي هذه المدينة المستحدثة أقام يهود صنعاء حيهم وكذلك بنى فيها بعض الأئمة قصوراً لهم وألحقوا بها بساتين لتكون متنزهاً لهم ولعائلاتهم .

ومنذ قيام الثورة اليمنية في عام ١٩٦٢ م بدأت مدينة «بير العزب» تشهد تغييرات هائلة واتساعاً سريعاً ، وامتدت صنعاء القديمة خارج أسوارها ، وتكثف زحفها المعماري والعمراني في جميع الاتجاهات ، وتجاوزت سبل التخطيط . . وتفاوتت أنماط عمارتها بين محاولة الحفاظ على فن المعمار اليمني الصنعاني القديم والملامح التركية المستحدثة والانماط الأوروبية الطارئة . وصار القادم من مطار صنعاء الدولي في الرحبة شمالاً يلمح شوامخ دور صنعاء القديمة ومآذنها السامقة في

الأفق ، مارا بأبنية اللبن التي تكتنفها دوالي العنب في الروضة والجراف وضواحي المدينة وهي تكاد تتصل بعضها بالبعض الاخر حتى مشارف صنعاء الحديثة ، حيث يستقر نظر القادم على مبنى شركة الطيران اليمنية العالي بنمطه الحديث الغريب - فيرسم بذلك فارقاً بيناً بين أصالة المعمار اليمني الاسلامي القديم وحداثة المعمار النمطي الدخيل الزاحف . .

علي ان التوسع الذي تشهده مدينة صنعاء اليوم هو جزء من النهضة اليمنية في شتى مجالات الحياة وامتداد المدن في اليمن جزء من مشروعات التنمية التي تهدف إلى توفير سبل العيش الفضلى للانسان ، بل ان شروط الحياة الجديدة تقتضي تعبيد الطرق الواسعة وتشييد المباني اللازمة للمدارس والجامعات والمستشفيات ودور الحكومة والمصانع والمحلات التجارية وغيرها . . ثم ادخال التسهيلات الضرورية كتوفير المياه النقية وتوصيل الكهرباء وتخطيط شبكة المجاري . فالتوسع امر ملح وحاصل بالضرورة وخاصة في العاصمة . كما أنه يصعب منع ادخال الانماط البنائية الجديدة خلال عملية النمو السريع وفي حال تقل فيها المهارات المحلية ومواد البناء القديمة ، فلا بد اذا من التخلي عن بعض شروط العمارة التقليدية لدى تشييد الأبنية المستحدثة في سبيل تهيئة ضرورات الحياة الحديثة بايقاعها السريع وميلها الى الحلول العملية .

من هنا كاد أن يكون متعذراً أن يخطط المرء لتكون صنعاء الحديثة صورة طبق الأصل لصنعاء القديمة ومعمارها الفذ الأصيل .

ولكن الذي يشغل بال علماء الآثار الاسلامية والمهتمين بالتراث اليوم - ويخشون وقوعه هو أن تصدق على مدينة صنعاء تتمة النبوءة القديمة السالفة الذكر وتقول هذه التتمة «اذا بلغت صنعاء بين جبليها . . فلا خير في سكنها لاهلها» ولعلماء الاثار والمهتمين بتراث صنعاء تفسير طريف لذلك الخبر ومؤداه : انه اذا اتسعت مدينة صنعاء وبلغت بين جبليها فلا خير حينئذ في سكناها لاهلها أي سكنى المدينة القديمة منها ، حيث يتعذر عليهم سكناها لانعدام شروط الحياة الحديثة فيها والتي ينعم بوفرها سكان صنعاء الحديثة كالكهرباء والمياه النقية والمجاري وطرق السيارات المعبدة . . وكذلك يصعب صون الدور القديمة لندرة المهارات التي تحذق فن المعمار وتتقن صيانته . فيرغب اهل المدينة حينئذ عن العيش في المدينة القديمة ويهجرونها الى احياء صنعاء الجديدة حيث يسر الحياة ودعتها وبهرجها وطيب المقام فيها ، وذلك هو مصداق تتمة الخبر ، وهو أن أهل صنعاء القديمة لن يجدوا خيراً في سكناها فيهرعون الى خارجها حيث المساكن الحديثة ويتركون وراءهم الدور القديمة تتداعى وتخرب أو تغير وتعدل أو تستبدل الأنماط الحديثة بالأنماط القديمة . وهذا هو مصدر قلق علماء الاثار الاسلامية وانصار التراث ، ان يستبدل الذي هو ادنى بالذي هو خير ونفقد بذلك معالم مركز ثقافي هام عاش فيه مجتمع عربي اسلامي مبدع ، وترك لنا مخلفات حضارية رائعة ، امتزجت بالمدينة ككل بما فيها عمائرها المدنية والدينية والحربية وبسمتها الفنية الخاصة بتخطيطها ومعمارها وفنونها . ونفقد بذلك ملامح مدينة عربية اسلامية تاريخية احتفظت عبر القرون

بأصالتها وفنها وعمارتها ليرثها الخلف عن السلف راسمة بذلك خطا بارزاً في ديمومة الحياة الانسانية والاستمرارية الثقافية للأمة العربية والاسلامية جمعاء . .

أليس من الأولى اذا ، أن تصان هذه المدينة لتبقى معلما عربياً اسلامياً ، حياً بسكانه ، شامخا بدوره نابضا بمساجده ، عاجا بأسواقه ، فخورا بأسواره ، أليس من الخير أن توضع خطة محلية وعربية ودولية ، تكفل حسن صيانتها وتيسر بعلم ودراية وفن ادخال وسائل الحياة الحديثة اليها ، ليتصل حاضرها بماضيها وحديثها بقديمها وعيبانها بنقمها ، ويعم في الوقت نفسه الخير ساكنيها .

هل يمكن حقا ان نحول دون تحقيق تتمة النبوءة ليصبح الخبر انه اذا بلغت صنعاء بين جبليها فالخير كل الخير في سكناها لأهلها ؟ ذلك هو الأمل الكبير الذي يراود علماء الاثار الاسلامية وأهل الشأن .

ماهو تاريخ هذه المدينة التي نخصها بمثل هذا الاهتمام ، فيما يلي اسمحوا لي أن اعرض عليكم نبذة قصيرة وقاصرة من تاريخها التليد . وصدقوني انني لست خير من يتحدث في هذا المجال ففي اليمن علماء أجلاء ممن ورثوا تراث هذه المدينة ويعرفون ماضيها وكذلك حاضرها معرفة مستفيضة كما أني لست من علماء الاثار الاسلامية وحسبي في هذا المجال أنني من الهواة المحبين لتراث تلك المدينة ورغبت في مشاركتكم ما لدي .

طبعت الاسطورة الاخبار الاولى عن مدينة صنعاء بطابعها ، كما طبعت الاسطورة مطالع التاريخ عموما ، بحيث يبدو تاريخها خياليا او ضبابيا كأنه غسق التاريخ وليس فجره أو صداه وليس صوته ، فيضطرب فيه الزمن وتغلف فيه الحقيقة كما أن اللقى الأثرية والنقوش اليمنية القديمة المتوفرة والأخبار الموثوقة لا تسعف على اعادة بناء الماضي وترميمه الا بمقدار ضئيل ولهذا كان لا مندوحة من أن نبدأ تاريخ مدينة صنعاء بتلك الأخبار الاولى التي قد تصلنا نهايتها بالشواهد التاريخية التي نستقي منها محاولتنا هذه وعليها كان معولنا في رسم الصورة التاريخية الممكنة لتلك المدينة العتيقة .

تروى تلك الأخبار أن «سام بن نوح اجتوى السكنى في ارض الشمال فأقبل طالعا في الجنوب يرتاد أطيب البلاد حتى صار الى الاقليم الأول فوجد اليمن أطيبه مسكنا ، وارتاد اليمن فوجد حقل صنعاء أطيبها . . فوضع مقرانة ـ وهو الخيط الذي يقدر به البناء إذا مد بموضع الأساس ـ في ناحية فج عضدان في غربي الحقل مما يلي جبل عيبان . . فبنى الظبر ـ أي الركن الذي يوضع عليه الأساس ـ فلما ارتفع ـ أي الركن ـ بعث الله طائراً فاختطف المقرانة وطار بها ، وسام يتبعه لينظر اين يسقطه . فام الطائر الى جبوب النعيم «والجبوب ما ارتفع من الأرض ودون الهضبة» من سفح جبل نقم ، فوقع بها فلما هفه ـ أي قرب منه ـ طار بها وطرحها على حرة غمدان (والحرة بلهجة أهل اليمن هي الأرض المدرجة في المرتفعات) فلما قرت المقرانة على حرة غمدان ، علم سام أن قد أمر بالبناء هناك ، فأس غمدان (أي قصر غمدان) واحتفر بئره » . .

وبنيت صنعاء - بعد ذلك - بين الجبلين نقم وعيبان .

ومثل هذه الحكاية لا تزال متوافرة في صنعاء الى اليوم ، وتحمل صنعاء اسم «مدينة سام» وفيها فندق يدعى «فندق مدينة سام» ولها اسم آخر هو «ازال» وهو اسم ورد في التوراة «أزال» وهو أحد أبناء يقطن ابن عابر بن شالخ بن ارفخشد بن سام بن نوح . وقد ذكر هذا الاسم في شعر شعراء اليمن وما زال معروفاً إلى اليوم وبه سميت مدرسة نموذجية حديثة بصنعاء .

وقيل سميت صنعاء نسبة إلى جودة الصنعة في ذاتها كقولهم امرأة حسناء ، وكان اسمها في الجاهلية أزال حتى دخلها الحبشة فوجدوها مبنية بالحجارة حصينة فقالوا هذه صنعة ومعناها حصينة فسميت صنعاء بذلك . .

ويبدو أن الرواة قد قلبوا صيغة الخبر ففي الحبشية (ازل) بمعنى (صنع) ، وفي الحالين يدل المعنى على القوة والمنعة والتحصين ، وذلك موافق للمعنى الذي ورد في الخبر ، والجذر (صنع) واشتقاقه معروف في اللغة اليمنية القديمة وفي اللهجات اليمنية المعاصرة . . فيقال في النقوش (وتصنعوا/ بوصت/ هجرن/ ذمر/) أي وتحصنوا داخل مدينة ذمار ، ويقال : (وتصنعوا/ مسلت/ مدبن/) أي واقاموا سلسلة حصون ساحل المندب بتهامة . وفي النقوش أيضا : (هجرمو/ وعلن/ تأزل/) أي مدينتهم المسماة وعلان تمنع ، صيغة على الدعاء كقولهم (يزيد) علم بمعنى فليزد الله من أمثاله أو فليباركه ، ومن أسماء ملوك اليمن قديما (يأزل بين) وهو اخو (شرح ابيل يحضب) الذي تنسب اليه الأخبار العربية بناء مدينة صنعاء . ويأزل فعل مضارع من (أزل) بمعنى حصن وقوي وصنع ، وفي لهجات اليمن اليوم يقال (مصنعة اسم لقرية حصينة في أعالي الجبال وهي كثير وجمعها (المصانع) وتصغيرها (مصينعة) وهي كثيرة أيضا .

وكما تتعدد الروايات في سبب تسمية المدينة فانها تتعدد أيضاً في ذكر مؤسسها . . فبجانب سام بن نوح مؤسسا للمدينة وبانيا لقصرها غمدان يذكر الاخباريون بعض ملوك سبأ بناة للمدينة وسورها وقصرها غمدان . يقول الهمداني في الجزء الثاني من كتابه الاكليل : ان الذي بنى غمدان هو (الي شرح يحضب)، وان (شعرم أوتر) هو الذي أوصل بنيان القصور وأحاط صنعاء بحائط . وفي شرح (القصيدة الحميرية) ان الذي بنى قصر غمدان هو عمرو ذو غمدان بن الي شرح يحضب بعد بنائه الأول . على انه من المفيد ان نذكر موافقة هذه الاشارات الاخبارية لبعض شواهد النقوش اليمنية القديمة التي اكتشفت حديثا . . فلعل أقدم ذكر لقصر غمدان في النقوش اليمنية القديمة هو ما ورد في نقش دونه الملك السبئي (شعرم أوتر) وذكر فيه كلا من قصري سلحين (مأرب) وغمدان (صنعاء) . وكان سلحين انذاك مقراً للعائلة التقليدية الحاكمة في مأرب ، ابان الصراع على اللقب الملكي اليمني : ملك سبأ وذي ريدان (أي ملك سبأ وحمير) كما كان قصر غمدان في صنعاء مقراً للملوك من قبيلة (ذي جرة) ومحلها اليوم سنحان قرب جبل كنن .

ولما كان الملك (شعـرم أوتـر) قد وحـد المملكتين فقد ادعى القصرين في نقش واحد ويحدد علماء النقوش اليمنية القديمـة تاريخ هذا النقش بنهاية القـرن الثانـي الميلادي ، ويتـكرر ذكر القصرين غمدان وسلحين معاً في نقش آخر يعود تاريخه إلى منتصف القرن الثالث الميلادي من عهد الملك (الى شرح يحضب) ملك سبأ وذي ريدان واخيه المشارك له في الحكم (يأزل بين) ويؤيد ذلك نقشـان اخـران يذكران اسـتيلاءهما على قصري غمدان وسلحين وعثر عليهما في مأرب وان كانت التسمية للقصر قد وردت بلفـظ غنـدان (بالنـون) وليس غمدان (بالميم) .

وربما عنى تكرار ذكر غمدان بعد سلحين أنه غمدان يحتل المرتبة الثانية بعد سلحين وقد نوه الهمداني بذلك حيث قال في الجزء الثامن من كتاب الاكليل : ان الملوك كانت تسكن في مأرب حيناً وحيناً في صنعاء . واستناداً إلى آثار مأرب ونقوشها يعتقد العلماء اليوم أن مقر سلحين في مأرب لم يكن يحتل المكانة الاولى فحسب وانما يحتل المرتبة الاولى في القدم أيضاً . .

على أن بناء قصر سلحين قد لا يعود الى عهد (إلى شرح يحضب) في القرن الثالث الميلادي ، بل الى عهد (شعرم أوتر) أي إلى القـرن الثانـي بعـد الميلاد ويجوز أن يكون قبل ذلك . ويميل الاستاذ مطهر الارياني أحـد الدارسين للنقوش اليمنية القديمة أن بناء قصر غمـدان لا بـد وأن يكون قد اقتضى وضع نقش له حسب ما جـرى عليه أهـل اليمن قديماً ، من وضع نقوش للبنـاء . . ولـكن هذا النقش لم يعثر عليه حتى الآن وكذلك نقوش تجديده رغم أن مثل هذا النقش قد يكون فيه الخبر اليقين عن بنـاء قصر غمـدان . واذكر انني لدى زيارتي لقصر هجرقانية ورأيت النقش المدون على بقايا جدرانه ظننت أنه نقش التأسيس . . وبعـد فترة زرت القصر فوجدت أن الأهـالي قد حفـروا وسط القصر واستخرجوا منه حجارة ومن ضمنهـا حجـر منقـوش ينبـىء عن المؤسس الأقـدم لذلك القصر . .

ويرد أقـدم ذكر لمدينـة صنعـاء في النقـوش اليمنية القديمـة في نقش من عهـد (هلك أمر بـن كرب إيل وتر يهنعم ملك سبأ وذي ريدان في حوالي سنة ٧٠ ميلادية وذكرى مع مدينة صنعـاء مدينـة شعوب وهي القسم الشمالي من صنعاء العاصمـة اليوم . . وبها سمي باب صنعاء القديمة الشمالي . واسـم مدينـة صنعـاء في النقـوش هو (هجـرن/ صنعو/) وهجر بلغة اليمن مدينة و (صنعو) مثل (قرنـو) بالـواو بدلاً من الألف والهمـزة كما تدل النسبـة حيث يقـال صنعـاوى وفي صحـراء صحراوى ، ولكن المصطلح الشائع اليوم أن يقال صنعاني . . والعجيب أن مدينة شعـوب المذكورة في النقش قد ورد ذكرها في نقوش يسبـق تاريخهـا تاريخ مدينة صنعاء نفسها . . وتذكر صنعاء بعـد ذلك في نقش من أيام الملك السبئـي (ذمـار علي حوالي ٩٠ ميلادية وفي نقش اخـر من أيام الملكين (سعد شمم اسرع ومرثـدم يهحمـد) وأيام حكم الملك (وهب أي يحوز) وينتمـي كل هؤلاء الحكام الى اسر سبئية مختلفة يقـدر تاريخ حكمهـا ما بين عام ١٠٠ ـ ١٢٠ ميلادية وبعد ذلك تذكر

صنعاء مراراً كما هو متوقع في عهد حكم الملكين (الي شرح يحضب ويأزل بين) وذلك في منتصف القرن الثالث الميلادي ، وفي نهاية القرن الثالث الميلادي يصلنا نقش يتحدث عن رجال قاموا بأداء بعض الواجبات في عهد الملكين المعروفين في التراث اليمني وهما (ياسر يهنعم وشمر يهرعش) في كل من مدينتي مأرب وصنعاء . وليس لدينا نقوش بعد ذلك تتحدث عن صنعاء سوى كسرة اكتشفت حديثا . وتذكر «الحبشة من صنعاء» مما قد يوحي بأن النقش دون بعد عام ٥٢٥ للميلاد أي بعد الغزو الحبشي لليمن ، وبذلك ينحصر ذكر صنعاء في اليمن القديم من خلال الشواهد النقشية بين الأعوام ٦٠ - ١٢٠ للميلاد ثم النصف الثاني للقرن الثالث واخر الربع الثاني من القرن السادس الميلادي . .

ولهذا فان من الممكن أن نقول إنَّ مدينة صنعاء وباسمها هذا قد عرفت في حوالي فترة ميلاد المسيح عليه السلام وان كنا لا نقطع بالحجة (ولا ننكر ايغال تاريخها في القدم ومما يؤ يد هذا الرأي هو قول المؤ رخ الهمداني أن الملك (شعرم أوتر) هو الذي سور المدينة ووصل دورها كما أن نشوء مدن القيعان في المرتفعات اليمنية ثم بعد تدهور مدن الوديا في المشرق وقد يكون من باب الصدف أن لاتذكر صنعاء بعد القرن الثالث حتى الغزو الحبشي ، ولكن من الممكن أن نستنتج أيضاً أن قيام دولة حمير الكبرى واتخاذها مدينة ظفار قرب قاع الحقل عاصمة لها قد أزاح الى الظل كل المدن اليمنية الاخرى بما فيها مأرب وصنعاء . تماماً كما طغت أهمية مدينة مأرب عاصمة سبأ على مدن اليمن الأخرى قروناً قبل الميلاد في مشرق اليمن السعيد . .

ويبدو أن صنعاء اكتسبت أهمية خاصة بعد الغزو الحبشي لليمن في عام ٥٢٥ وحلت محل ظفار عاصمة حمير والعاصمة الاولى لليمن منذ سقوط مأرب . . ويؤ يد هذا القول النقش السالف الذكر والذي أشار إلى «الحبشة في صنعاء» كما تعكس الأخبار مثل ذلك . . فقالوا كان اسم صنعاء في الجاهلية أزال حتى دخلها الحبشة . . فلزمها اسم صنعاء يومئذ . . وقالوا انه بعد أن انهزم بنو حمير والقى ذونواس بنفسه في اليم تولى بعده أبرهة الملك في صنعاء .

وهناك دلائل على أن صنعاء كانت مقراً لذي نواس وهو (يوسف أسار يثار) اخر ملوك حمير . ورغم . . ان بعض الروايات العربية تجعل من صنعاء عاصمة للحميريين ، وهو قول خاطىء إذ أن ظفار كانت هي عاصمتهم والاثار والنقوش تثبت ذلك ، إلا أن قول الرواة قد يصح في حال اخر ملوك حمير وهو ذو نواس اذ يعرف من النقوش أن نفوذ الحبشة في ظفار قد تزايد منذ مطلع القرن السادس الميلادي ، وذلك من خلال سفارتهم هناك ، وأن ملكي حمير (مرتد الن ومعدي كرب يعفر) قد ساعدا على استشراء نفوذ الحبشة . فقام ذو نواس من خارج العاصمة ظفار ليناوىء الحكم فيها . . ويبدو أنه انطلق في حملاته على الحبشة في ظفار ، ونجران ، وتهامة من مقره صنعاء ، وكان ذلك قبل الغزو الحبشي الأخير بحوالي سبع سنوات . ولما غزا الأحباش اليمن وانهزم ذو نواس في سواحل تهامة . وواصل الأحباش زحفهم حتى

وصلوا مقر ذي نواس واتخذوا مثله صنعاء عاصمة لهم ، اذ ليس لظفار منذ ذلك الحين شأن يذكر في صفحات التاريخ . .

وظل عالقاً في ذاكرة الأخباريين من معالم صنعاء في تلك الفترة أمران : قصر غمدان ، والقليس واعتبروهما من المباني العجيبة ، وربما بالغوا في وصفهما ، قال الهمداني يصف قصر غمدان :

من بعد غمدان المنيف وأهله
وهو الشفاء لقلب من يتفكر
يسمو الى كبد السماء مصعدا
عشرين سقفا سمكها لا يقصر
ومن السحاب معصب بعمامة
ومن الرخام منطق ومؤزر
متلاحكا بالقطر منه صخره
والجزع بين صروحه والمرمر
وبكل ركن رأس نسر طائر
أو رأس ليث من نحاس يزأر
متضمنا في صدره قطارة
لحساب أجزاء النهار تقطر
والطير واقفة عليها وفودها
ومياهه قنواتها تتهدر
ينبوع عين لا يصرد شربها
وبرأسه من فوق ذلك منظر
برخامة منهومة فمتى ترد
أربابه مدخوله لم يعسر

وربما لا يصدق المرء أنه كان لغمدان عشرون سقفاً ولكن تقنية البناء وجمال الزخرفة اللذين عرفا في المعمار اليمني قديماً وحديثاً لا يبعدان كثيراً عن وصف الهمداني لقصر غمدان .

وتحدث أهل الأخبار أيضا عن القليس (ومعناها الكنيسة وهي المقابل العربي للفظة اللاتينية «ايكليسيا» وربما كانت قلبا للكلمة «السامية القديمة» كنيس ومنها كنيسيت أي الجمع مثل لفظ صنم بالعربية المحضة مقابل صلم باللغة اليمنية القديمة) فقالوا : كان سقفها من الساج المنقوش مسمراً بمسامير من الذهب والفضة ولها منبر من الابنوس المرصع بالعاج المصفح بالذهب والفضة ، وبناها أبرهة الحبشي لتكون قبلة العرب ومتوجة انظارهم وليصرفهم عن الحج الى الكعبة ولو لم تكن القليس عمارة فذة لما بالغ الناس في وصفها خاصة وأن اليمن قد عرف قبل ذلك ومنذ منتصف القرن الرابع الميلادي كنائس في نجران وظفار وعدن والمخاء .

ومهما كان الأمر ، فالقصر والقليس كلاهما معلمان بارزان يحكيان قصة معمار صنعاء واليمن في التاريخ ، وإذا كان التاريخ لم ينبئنا عما حل بالقليس بعد ذلك فان لدينا اشارات تذكر اقامة سيف بن ذي يزن حاكم اليمن بعد الأحباش في قصر غمدان واتخاذه من صنعاء عاصمة له . وإلى صنعاء وقصر غمدان وفد وجوه قريش برئاسة عبد المطلب جد الرسول العربي العظيم محمد صلى الله عليه وسلم ، مهنئين (سيف بن ذي يزن) بالظفر على الحبشة . ولما تفرق أهل اليمن في مخاليفهم بعد سيف بن ذي يزن كانت صنعاء مقرا للأبناء ، وهو أبناء الفرس الذين دخلوا اليمن ، وكان منهم عمال الأكاسره . ولما دخل زمان الهجرة النبوية كان

باذن الفارسي عامل كسرى برويز الثاني في صنعاء واسلم عام ٦٢٨م .

ولم تكن صنعاء قبل الاسلام وخلال حكم الأبناء لليمن حاضرة فحسب وانما كانت محطة على طريق التجارة عبر الهضبة اليمنية . وهو الطريق الذي حل محل طريق اللبان في المناطق الشرقية . ويفترض ان مسلك هذا الطريق هو ما عرف (بدرب اسعد الكامل) الممتد من ظفار عاصمة حمير إلى الطائف او (درب اصحاب الفيل) وهو طريق يبدأ من عدن عبر صنعاء الى مكة . وهو نفسه طريق القوافل التي كانت تحضر اسواق العرب الموسمية قبل الاسلام . وكان بصنعاء (سوق صنعاء) التي تقام في النصف من شهر رمضان . وذلك ضمن مواسم اسواق العرب التي تبدأ في (دومة الجندل) بين الشام والحجاز في أول يوم من شهر ربيع الأول ثم سوق (المشقر) بهجر (الهفوف حاليا) ثم سوق (صحار ودبا) على بحر الخليج ثم سوق (شحر مهرة ، على ساحل البحر العربي ثم سوق عدن ثم سوق صنعاء ثم سوق عكاظ وهي من اعظم اسواق العرب . .

وبقيت صنعاء بعد الاسلام محطة تجارية أيضا ، وجهة كل تاجر وعالم ، وشاع عنها قول العرب :

لا بد من صنعا وان طال السفر
وان تحنى كل عود وانعقر

ولكنها اكتسبت ملامح جديدة حيث تركزت فيها التعاليم الاسلامية واستجاب ثوبها الجديد لمضمون الدعوة المحمدية . واندثرت الكنيسة ليبنى (المسجد الجامع ، وانهدم قصر غمدان العجيب ليبنى على تلته قصر جديد . ولاشك ان سوق صنعاء نالها أيضا بعض التأثير بسبب الظروف الروحية والمادية الجديدة واصبح الجامع والقصر والسوق محاور أساسية لنشاط مدينة اسلامية فريدة حافظت على ديمومة حياتها الى اليوم . .

وكان قد دخلها عدد من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ومنهم (وبر بن يحنس الخزاعي، وينسب إليه تأسيس المسجد الجامع بصنعاء . وفروة بن مسيك المرادي الذي لا يزال مسجد بصنعاء يحمل اسمه إلى اليوم . .

ويعتبر المسجد الجامع واسمه اليوم الجامع الكبير أقدم الجوامع التي بنيت في صنعاء وربما في اليمن كله . وقد تم توسيعه وجلد بناؤه مرارا ، فقد وسع مرة في زمن الوليد بن عبد الملك الأموي وجدده علي بن الربيع المداني الحارثي أحد ولاة العباسيين سنة ١٣٦هـ ، كما يفيد النقش المزبور بالخيط الكوفي والمثبت حديثا في جدار الجامع . وفي سنة ٢٦٥هـ نزل سيل عظيم خرب الجامع فقام الأمير محمد بن يعفر الحوالي بعمارته وتجديده . ورغم أنه قد زيد عليه وجدد عبر الزمن إلا أن الجامع ما زال بحال حسنة ويحوي بعض أساساته كتلك الحجارة التي قيل انها اخذت من انقاض قصر غمدان وتلك الدعائم التي نحتت نحتا فنيا متقنا ، وتحمل بعضها نقوشا يمنية قديمة وكذلك الباب المجاور للمحراب فهو من الأبواب القديمة وعليه نقوش حميرية بارزة .

أما مسجد فروة بن مسيك فكانه المشهد (الجبانة) حيث كانت تقام صلاة العيدين ويقع في الشمال الشرقي من صنعاء ، وقد هدم هذا المسجد منذ فترة قريبة وبني محله في العام الماضي مسجد فخم على نفقة دولة الامارات العربية المتحدة . وفي صنعاء كثير من المساجد ، عدها القاضي الحجري في كتابه مساجد صنعاء فبلغت المائة ولكنها اليوم لا تتجاوز النصف وذلك في صنعاء القديمة فقط . .

وفي أروقة تلك الجوامع ومرافقها تركزت التعاليم الدينية وازدهرت العلوم ، ولم يزل بصنعاء عالم وفقيه وحاكم وزاهد وكان فيها الخطباء وفيها العلماء من الأوائل كوهب بن منبه وعبد الرزاق الصنعاني والحسن بن احمد الهمداني ، والشعراء مثل علقمة ذي جدن ووضاح اليمن وعبد الخالق بن أبي الطلح الشهابي ، ومن البلغاء وكتبة الدواوين بشر بن أبي كبار البلوي وغيرهم . .

وتوفرت لصنعاء في العهد الاسلامي الشروط الأساسية لاقامة مجتمع حضري بكل أدواته من جامع ومدرسة وحمام وسوق ومعمار جميل وأدب جيد وظرف حسن وسماع مشهور عرف بعد ذلك بالغناء الصنعاني . وفي الوقت نفسه حافظت على ركانة ماضيها فانتعشت اسواقها التقليدية واشتهرت بتنوع بضاعتها وجودة صنعتها ، وحرص حكامها على مكانتها السياسية فاتخذت مقراً لهم أو حاضرة لدولهم . .

ولما كان قصر غمدان قد بقي رمزا لاهل اليمن حتى بعد تهدمه فقد اعتاد حكام صنعاء على بناء قصر في اعلى مكان من صنعاء من جهة الشرق ، وكانوا يسمونه قصر غمدان وقد يعرف بقصر صنعاء أو القصر فقط . وكان ذلك القصر مقرا للحاكم وقلعة حصينة بابراجها ومرافقها ، خاصة في فترات حكم ال مهدي والايوبيين والعثمانيين والأئمة . على ان بدر الدين حسن بن علي الرسولي قد بنى هو ايضا قصرا كبيرا عام ٦١٨هـ . في المكان نفسه . وفي العهد الحديث سمي قصر غمدان بقصر السلاح تمييزا له عن القصر الجمهوري وما زال قائما الى اليوم كما ان سوق صنعاء احتفظت بدورها الاقتصادي وتحولت من سوق موسمية في دورة اسواق العرب الى سوق نشطة على طريق الحج الممتد من عدن الى مكة .

ورغم قلة المعلومات عن سوق صنعاء فقد تمكن (والترد وستال) من تتبع خطة سوق صنعاء في كتابه الذي نشره عام ١٩٧٩ ، بعنوان (سوق صنعاء) منذ القرن الحادي عشر الميلادي وقرر ان خطة السوق الحالية هي نتيجة تغيرات بنائية ومكانية عبر التاريخ وتعكس تلبيته دوما للحاجات المستحدثة كالاسلحة النارية والقات او ازدهار التجارة بوجه عام . وفي كتاب (صفة جزيرة العرب) للهمداني ذكر لحقل صنعاء (وعجائبه) وعدد انواع ثماره كالعنب باصنافه الكثيرة والخوخ والتفاح واللوز والكمثري واصناف البقول وانواع الحبوب والوان الطعام والخبز والحلبة . وذكر ضمن (عجائب) اليمن العسل والسمن والمن واللبان والورس والتمر ، كل ذلك وغيره مما يفترض وجوده في (سوق صنعاء) مولد الهمداني ومقر اقامته زمنا . وسوق صنعاء اليوم بشكله

القديم وحركته الدائبة وما زال يعكس ماضي السوق وخطته ولكل حرفة أو بضاعة هامة سوق خاصة بها ضمن خطة السوق الأصلية . فهناك سوق البز وسوق البقر وسوق الحب ، وسوق الحرير ، وسوق الزبيب ، وسوق العلف ، وسوق الفتلة ، وسوق الفضة ، وسوق النحاس ، وسوق الملح . . وغيرها ويذكر الرازي في كتابه تاريخ صنعا٫ ٢٣ سوقا وذلك في القرن الحادي عشر الميلادي أما في القرن الثامن بكثير . ومن يزور متحف صنعا٫ اليوم لا بد وان يشاهد نحتا جميلا لرجل منذ عهد سبأ وهو يتحلى بجنبية جميلة (خنجر) لا يبعد شكلها كثيرا عن تلك التي يشتريها المرء اليوم في سوق صنعاء القديمة .

وليست حوانيت سوق صنعاء ذات شكل معماري متطور خاص وانما يتجلى معمار مدينة صنعاء في تلك الدور التي تحيط بالسوق . قال صاحب كتاب (اليمن ارض البناة) اذا صح القول ان حضارة اليمن تنعكس في معمارها فان مدينة صنعاء ولا ريب هي مثلها الاروع . . (ودور صنعاء ليست موغلة في القدم ولكن طابعها الانشائي متطور ويتسم بمستوى راق) من الرفاه والجاذبية والجمال وبملائمة ذكية للشروط المناخية المحلية ، كما ينبىء عن تقاليد صنعاء القديمة والمستمر في البناء . بل ان سكان صنعاء قد نجحوا في ان يجعلوا من دورهم بنايات اثرية . ولا يكاد يوجد بقعة اخرى من العالم مثل هذه النسبة العالية من المساكن الحضرية ذات التقليد القديم .

ويبلغ ارتفاع بعض دور صنعاء اليوم ثمانية ادوار ويصل بين كل دور واخر زنار (حزام) من الخارج ويعمل من مادة البناء نفسها وباشكال هندسية رائعة الزخرفة . وكل دور مستقل بمرافقه . ويسمى (الحبشي) . ويستعمل الدور الارضي عادة مخازن وحظائر للماشية والدور الأول دواوين متسعة للاجتماع في المناسبات كالولادة والعرس والموت ، والدور الثاني خاص بالنساء والأطفال . والأدوار العليا ينفرد بها الرجال . وللقاضي اسماعيل الأكوع حديث منشود بهذا الشأن . وفي معظم الدور حجرات في أعالي البيوت تدعى الواحدة منها (مفرج) والجميع (مفارج) ، وهي مستطيلة الشكل ذات نوافذ واسعة منخفضة ليرى الجالسون فيها أثناء القيلولة (وفي عصرنا خلال مقيل القات) حقول صنعاء وبساتينها كما يراعى في تصميم المفرج امور عدة منها تقلبات المناخ .

ولا يبين نسيج المدينة المعماري المتجانس وتبرز فيه مفارقة الحديث والقديم اليوم ، دون ذلك السور الذي ما زال جزء كبير منه يكتنف المدينة . فلقد كانت صنعاء حتى وقت قريب محاطة تماما بسورها ، وذلك منذ ان سورها ووصل حيطان دورها الملك السبئي (شعر اوتر) كما سلف الذكر . والتاريخ يروي ان ذلك السور تعرض مرارا للخراب وكان ممن اصلحه واداره بالحجر والجص وركب عليه سبعة ابواب الملك علي بن محمد الصليحي في القرن الخامس الهجري . ويذكرلنا الحسن بن علي الخزرجي في كتاب (المسجد المسبوك) كيف خرب السلطان علي بن

حاتم الهمداني درب صنعاء عام ٥٧٠ هـ وكسر خنادقه واستأصل مآثره ، وذلك لدى سماعه قدوم (توران شاه الايوبي) الى صنعاء . وقد اعاد بعد ذلك بناء سور صنعاء (طغتكين الايوبي) في اواخر القرن نفسه . وفي حوالي عام ١٠٣٦ هـ اصلحه الوالي محمد باشا وذلك عندما عاين السور وقد سعى فيه الخراب واصبح خلق الجلباب حيث الزم العملة في الطين ، والمحسنين من المعماريين باصلاح شقوقه وصدوعه واقامته قبل حدوث وقوعه واعادته احسن مما كان عليه ايام (طغتكين). ولسور صنعاء ستة ابواب ثلاثة جنوبية وهي باب ستران وباب اليمن وباب خزيمة وبابان شماليان وهما باب شعوب وباب الشقاديف ، وباب غربي وهو باب السبحة . وكان في السور عدد من الابراج بين كل برج واخر المسافة نفسها . وكان في وسط السور ممر لفارسين يمشيان معا ثم استعمل الممر نفسه بعد ذلك لمرور عربات المدافع عند الحاجة لحماية المدينة .

وفي ايامنا هذه فتحت بعض ابواب صنعاء وتزايد هدم سورها وكادت المدينة القديمة ان تسفر ويهتك صونها .

ان هذه المدينة التي ربما كانت قد بدأت تشكل كمدينة بتلك القلعة التاريخية على سفح جبل نقم والتي عرفت بعد ذلك بقصر غمدان تطورت خطتها لتصبح مدينة يحيط بها سور دائري ، وسطها القليس قبل الاسلام ثم الجامع بعده وسوق المدينة ثم ازدهر الى جانب سورها الشمالي حي سكني كان استمراراً لمدينة صغيرة اسمها (شعوب) ورد ذكرها في نقوش اقدم عهدا من صنعاء . وهو ذلك الحي نفسه الذي اتسع بعد الاسلام وتركز حول قبر الصحابي فروة بن مسيك . ثم تزايدت صنعاء بعد الاسلام الى حوالي بضع وتسعين ومائتين من الهجرة حيث خرجت وعادت بعدها الى ما كانت عليه قبل خرابها .

ويذكر الرازي والخزرجي في كتابيهما ان صنعاء استكملت عمارتها في الاسلام ، وكثر ريفها والخير فيها والاتيان من جميع النواحي اليها ، حتى بلغ عدد دورها مائة الف دار وعشرين الف دار ، وعدد مساجدها عشرة الاف مسجد وبها سقايا جمة . وعدوا مساكن ربع صنعاء فبلغت سبعين الف مسكن وذلك في خلافة هارون الرشيد اي سنة ١٧٠ هـ وقالوا ان صنعاء تلاشت بعد ذلك في أيام احمد ابن قيس الضحاك وذلك سنة ٣٨٠ هـ وقالوا ان صنعاء تلاشت بعد ذلك ومن الصعب تصديق عدد الدور والمساجد في صنعاء كما ورد في روايتي الرازي والخزرجي . اذ ان بغداد نفسها حاضرة الخلافة الاسلامية انذاك ربما لم يتجاوز سكانها مائتي الف نسمة ، فما بالك بدورها .

ومن طريف ماروي عن المبالغة في مثل هذه التقديرات هو تعليق احدهم لما قرأ تقدير يزدجرد (ت ٣٢٠هـ) في كتابة «فضائل بغداد» ان عدد حماماتها ستون الفا حسب تقديره الشخصي وليس أكثر من ذلك ، فقال : جعلت كل حمام عشرين ذراعا في عشرين ذراعا ، وضربت ذلك فوجدت بغداد كلها حمامات ، ثم طلبت بغداد فلم اجدها . وربما كانت الرواية التي تقول ان دور

صنعاء بلغت في أيام جزرها اربعين داراً والف دار أقرب الى التصديق ولا ريب انها تجاوزت ذلك الرقم في ايام مدها والله اعلم .

ومن الفترات التي توسعت فيها مدينة صنعاء عهود الدولة الهمدانية في القرن الحادي عشر الميلادي (السادس الهجري) والدولة الايوبية في القرن الثاني عشر الميلادي حيث انشيء حي (النهرين) الى غرب المدينة ، واقيم على طرفه الجنوبي مقرا للحاكم عرف وما زال (ببستان السلطان) . وفي العهد العثماني الاول اي في المائة العاشرة للهجرة استحدث حي جديد في الجانب الغربي ايضا يدعى (بير العزب) وكان معظم من يسكنه هم موظفو الدولة العثمانية . وطابع البناء فيه يختلف عن بناء بيوت المدينة القديمة . وكان هذا الحي اكثر اتساعا في شوارعه واكثر عدداً في حدائقه وكان لكثير من البيوت بساتين وفي البستان مفرج وامامه نافورة (شذروان) وتظللها اشجار مثمرة وتحيط بها عرائش الاعناب .

وفي أواخر القرن السابع عشر الميلادي استحدث في الجانب الغربي من (بير العزب) الحي المعروف (بقاع اليهود) . وفي القرن الثامن عشر أنشأ الامام المتوكل القاسم عددا من القصور ومسجدا وحمامات وحديقة في الطرف الغربي من المدينة . وفي أيام الوجود التركي الاخير بنيت في جنوب سور المدينة ثكنات عسكرية ذات طابع معماري غريب ، ومازالت تشاهد الى اليوم قرب باب اليمن على يسار المسافر الى تعز . كما لصنعاء القديمة سور يحيط بها كان لبير العزب ايضا والمنطقة المستحدثة سور أقل شأنا وبأبواب عديدة .

وليس لدى الباحث وثائق أو خرائط تحدد معالم تطور مدينة صنعاء بدقة عبر الزمن ، سوى شذرات قليلة هنا وهناك حاولنا جمعها في هذا الحديث . ولكن لدينا بعض الخرائط منذ القرن الثامن عشر مثل خارطة (يبور ١٧٦٣) وخريطة (مانزوني ١٨٧٩) وخريطة نيبور راثينزوفون فيسمن ١٩٢٩) واخيرا خرائط تخطيط المدينة اليمنية الحديثة . وتشير هذه الخرائط بالاضافة الى تلك النبذ التاريخية الى ان عمارة صنعاء قد مرت بأطوار تغيير وتجديد يتعذر اليوم تتبع ملامحها بدقة ، خاصة وان فن البناء اليمني قد اتسم بالتواتر والتجديد معا كما ان مواد البناء تكاد تكون دوما متجانسة . غير ان الثابت هو أن هذه المدينة العريقة قد استطاعت ان تحافظ على ديمومة الحياة فيها . وبقيت عبر الزمن عاصمة اليمن أو مدينة هامة فيه . ومازالت الى اليوم تحمل سحنات الماضي بازقتها واسواقها وجوامعها ودورها وسورها ، بل ان معظم آثارها وبديع معمارها ما زالت قائمة ولم تفسده التيارات المعمارية الاجنبية .

وحتى يومنا هذا ما زال التزاوج بين القديم والحديث على الاجمال ، مستمرا وبايقاع مريح . كتب احد المهتمين الالمان بمدينة صنعاء في احدى المجلات واصفا انطباعاته منذ فترة قريبة فقال :

صنعاء المدينة الفاضلة هي ، حاضرة اليمن واعرق مدينة وليس بين مدن الشرق ما يضاهيها جمالا وسحرا ، مساجدها البديعة تسامق منائرها أجواء الفضاء ، أسوارها المنيعة .. التي تحصنها الابراج وتحميها الابواب ، خضرة اشجارها في فسيح بساتينها ؛ دورها الفخمة المنيفة ، التي

تنبيء طوابقها عن زخرفة دقيقة . وعندما تسطع الشمس تبدو صنعاء تحت اشعتها وكانها نسيج فني ، يبرز من خلال سورها بالوانه الرتيبة الحمراء والصفراء . دور زاهية ، نوافذها مزينة بصحاف الرخام الملونة مزخرفة اطرافها الحبرية بالوان بهيجة . ابوابها الخشبية السميكة تكشف عن صنعة بهية تتالق من خلال حفرها الثري . كل ما في تلك المدينة - الاساطير - يوحي بسحر قصص الف ليلة وليلة ؛ حتى اسواقها بمصنوعاتها الملونة امام جاذبية المصنوعات الاجنبية التي تكاد تغمرها . ومازال الاجنبي يجد امامه رغم ذلك عرضا غنيا متعدد الالوان والجوانب وفي حوانيت . ومازال منذ القدم تتدافع كل يوم افواج الزوار بين ازقة صنعاء الضيقة وتتزاحم وتتعالى اصواتها .

ومن سحيق القرون منذ حكم ملوك حمير والاحباش والفرس وولاة الخلفاء وسلاطين الترك ، وعبر الزمن شهدت المدينة حروباً وثورات وخراباً ، ولكن نجد صنعاء وفخارها مازال اكليلا على رأسها الى اليوم .

ولكن ذلك الايقاع المريح في التزاوج بين الحاضر والماضي قد بدأ يصاب ببعض الخلل . وشرع عدوان الحاضر يحدث الضرر ويشكل اليوم جرحا داميا . ويخشى أن يتسع ليهدد هذا الاثر المعماري القيم وهذا المعلم القومي الهام . . فقد هدم احد أبواب صنعاء الجميلة عام ١٩٦٦ وهو باب السبحة وبدأ سورها الذي تحدى عوادي الزمن يتهاوى تحت ضربات العابثين وكثرة الاهمال . واشتدت حركة السيارات في ازقة المدينة الضيقة الى حد انها لا تهدد هدوء ذلك الجمال فقط وانما ايضا تعمل على انهيار البنيان .

ولقد تسببت مشاريع ادخال المياه دون خطة الى المدينة في انهيار بعض مبانيها ، كما ان ادخال شبكة مجارٍ دون مراعاة ظروف المدينة التاريخية قد يسبب تلفا بالغا لا يمكن اصلاحه .

لقد صمدت صنعاء قرونا ضد الاخطار الطبيعية كالسيول والتقلبات الجوية ، وصمدت ضد عدوان الانسان كالحروب والحرائق واعمال التخريب والاهمال ؛ وبقيت الى اليوم شاهدا حيا وشامخا على حضارة عربية اسلامية اصيلة ، ذات مستوى فني رفيع مزج بين الفن التقني والجمال المعماري مستجيبة في نفس الوقت للحاجات المادية والنفسية والروحية لسكانها دوما وفقا لذلك .

ولهذا نراها اليوم نموذجا معماريا فريداً قل ان تجد له مثيلا على مثل ذلك الكمال المعماري ، نسيج متجانس وفي حالته البكر ، غني بالاثار الاسلامية كالجامع والسوق والدور . ولكن هل تقوى صنعاء القديمة حقا على مقاومة التحديث المشوه ؟ هل تقدر على مواجهة الحياة العصرية والنمو التكنولوجي والانفجار الديمغرافي ؟ هل تستطيع ان تصمد أمام الزحف العمراني الهائل والذي ينقل ملامح عاصمة اليمن بسرعة مذهلة من العصور الوسطى إلى العصر الحديث ؟

ربما كان ذلك ممكنا ان وضعت خطة للمحافظة على المدينة وفق سياسة متوازنة تتناسب والامكانات المادية والفنية المحلية والدعم العربي والدولي وفي اقرب فرصة ممكنة . وذلك لتبقى صنعاء القديمة على وضعها الراهن وفاء لابداع

الاجيال السالفة وخدمة للاجيال القادمة وتعزيزا للذاتية الثقافية وذخرا للثقافة الانسانية .

ولقد استثارت صنعاء خيال المنظمة الدولية للتربية والثقافة والعلوم وجذبت اهتمامها وشاركها في ذلك المخططون المعماريون والعلماء الاثريون وغيرهم في جميع انحاء العالم . وابدت المنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم اهتماما مماثلا واعتبرت العمارة الاسلامية بوجه عام قضية اساسية وصورة من ثقافة الامة وتجسيدا لها وان صون المدينة التاريخية هو دفاع عن التراث ، اذا ان التراث هو خير لبنة لبناء صرح الوحدة العربية .

وأدركت المنظمة الدولية انه لن يتسنى انقاذ تلك البقعة الكبيرة وصونها ضمن تلك المدينة التي تنمو سريعا على غرار مدن العالم الثالث - الا اذا نظر اليها في اطار المحيط الحضري العام وضمن تخطيط ثقافي شامل ودقيق .

وكانت ابرز الخطوات العملية واحدثها في هذا الشأن هي اللجنة الاستشارية للثقافة العربية التابعة لليونسكو في اجتماعها الذي انعقد بصنعاء من ٢٠ - ٢٤ يونيو عام ١٩٧٩ م - بصون مدينة صنعاء وكانت هذه التوصية هي المتكأ لمشروع القرار الذي تقدمت به اليمن في الدورة الحادية والعشرين للمؤتمر العام لليونسكو والذي انعقد في بلغراد عام ١٩٨٠م . وكان ان اتخذ المؤتمر العام قرارا نقتطف منه مايلي : ان المؤتمر العام :

أ - نظرا لما للتراث الثقافي الممثل في الآثار والمواقع من اهمية بالنسبة لتاريخ وحضارة البشرية باسرها وادراكا منه بضرورة الشروع في برنامج يكفل حماية هذه الاثار والمواقع وصونها وترميمها واحياءها ، يرخص للمدير العام بأن يدرج المشروعات التالية ومنها صنعاء التاريخية بالجمهورية العربية اليمنية .

ب - بأن يجري بالتعاون مع الحكومات المعنية وفي حدود الاعتمادات المتوافرة ، الدراسات الفنية اللازمة لاعداد خطط عمل تفصيلية للمشروع ولتحديد طرائف الترويج له في صورة حملة دولية .

ومبلغ العلم انه قد وصل الى صنعاء مبعوثان من اليونسكو في اواخر عام ١٩٨٠م لاعداد خطط العمل والتشاور مع الحومة . وقد لقيت زيارتها تماما خاصا لدى المسؤولين ، وصدى طيبا لدى المهتمين من علماء صنعاء ورجالها . وفي الشهر الماضي وصل الى صنعاء المدير العام لليونسكو لمتابعة الموضوع وفي سبيل توجيه نداء عام للمجتمع الدولي نحو صيانة مدينة صنعاء . وكان مما قاله آنذاك في مقابلة تلفزيونية : انه من المتعذر صيانة المدينة دون تعاون حقيقي من أهلها ، وتذكرت حيذاك ما ورد في قديم الخبر أنه لن تنقضي الليالي والايام حتى تملأ صنعاء ما بين جبليها . . واذا بلغت ما بين جبليها فلا خير في سكانها لأهلها .

أجل أجل أهل مكة ادرى بشعابها ، واهل صنعاء هم الذين سيتخذون القرار الاخير . وكلنا أمل أن يكون قار أهل صنعاء ومن يسندهم من المهتمين عربيا واسلاميا ودوليا مصداقا لخبر قديم اخر يروي ان صنعاء لن يصيبها مكروه فهي من القرى المحفوظة .

دار العلوم

«المدرسة العلمية»

عبد الله البردوني

كانت الجوامع ودواوين الشيوخ : هي المدارس التي تخرج أنجب التلاميذ ، لكي يصبحوا شيوخاً ، وكلما تطورت العلوم واستجدت كتب ، أضيفت إلى المقروءات المقررة في الجوامع والدواوين ، وذلك بعد أن كانت المساجد من منتصف السنة الأولى للهجرة أمكنة عبادة ومنابر وعظ وحلقات تعليم ديني خالص ، وكانت حلقات التعليم تعنى بالقصص التاريخي : عن مصارع الملوك ، وتداول الدول .. وكان هذاالضرب من القصص التاريخي يتغيّا التذكير بالموت ومصائر الأولين التي ستؤول إلى مصائر الآخرين ، حتى تفنن الكثير في هذا الفن القصصي ، فطرأت عليه لمحات من التخيّل ، لمزيد من الترغيب في الثواب والترهيب من العقاب ، وكان يهتدي هذا القصص بالقصص القرآني : كإغراق قوم نوح ، واهلاك قوم عاد ، والخسف بقوم فرعون .. فكان القصص القرآني هو قدوة قصاصي المساجد : كقصة العبد الصالح في سورة الكهف ، ورواية يوسف وامرأة العزيز في سورة يوسف ، وولادة مريم تحت جذع النخلة صبياً تكلم في المهد وجاء بدون زواج ولا بغاء كما قصت سورة مريم .. وكانت آيات القرآن تعبر عن القصة بحرفها الدال على اسمها وغاياتها :

[نحن نقص عليك أحسن القصص] [إن هذا لهو القصص الحق المبين] .

وعبارة أحسن القصص تنطوي على إشارة إلى أسوأ القصص ، والقصص الحق المبين تستثني القصص الباطل وغير المبين .. لأن قاعدة الفقه الاسلامي : «أن الثناء على أمر قدح لضده ، فاذا ذكر الحق بالدعوة اليه ، فان الدعوة اليه تتضمن الدعوة الى اجتناب عكسه وهو الباطل .. فالقَصَص القرآني يؤكد على أنه الحق والاعتبار ، وعلى أن سواه هو الباطل والضلال .. وهذا يبرهن على فنون قصصية كانت تستهدف الإغواء أو مجانبة الرشاد : كأسمار ملوك الروم ، وكمجلة لقمان

الذي نهى النبي ثم الخليفة عمر عن التجمع حول قُرائها . كما في قول الرسول : لقد أبدلكم الله خيراً منها وهو القرآن .

إذن فقد كان أول تعليم في المساجد : هو هذا القصص المهتدي بالقصص القرآني ، وإخبار الآيات عن القرون الأولى لقصد اعتبار الأحياء بمصارع القرون الأولى .

وكان أشهر رجال هذا الفن : سعيد بن جبير ، مالك بن أنس ، الحسن البصري ، وهب بن منبه ، الثعالبي ، ثم اتسع تعليم المساجد فاستزاد تفسير الآيات وسيرة النبي وصحابته ، ثم قواعد اللغة . وتطور هذا التعليم حتى شمل رواية الأشعار ، لتأكيد صحة اللغة ومعرفة اختلاف ألْسُن القبائل ، ولما اتسعت الفتوح واختلط العرب بسائر الأمم ، اهتم اللغويون ورواة الشعر بما عند الاعراب من سوائر الشعر وقواعد الفصاحة ، فأصبحت الكتابة عن البداوة ومضارب البدو مُرتاد اللغويين وأساتذة مدوني الشعر ومقعدي اللغة .

فكان التعليم الشفوي والكتابة عن البداية أهم روافد شيوخ الحلقات في المساجد ، وفي دواوين الشيوخ . . الى جانب القصص الذي تفردت به حلقات ، حتى طورته الى فن تخيلي وسير شعبية واكبت التدوين والمدارس المساجدية والنظامية حتى أصبحت الكوفه والبصرة مدارس لغوية ودينية متعددة المذاهب متشعبة فن القصص ، برغم اتهام القصاصين بإشاعة الاسرائيليات والفلسفات الشعوبية . ومن القرن التاسع الميلادي تراءت مدينة «صعده» اليمنية رابعة الكوفة والبصرة وبغداد ، في قراءة التاريخ والدين وعلم الكلام وسائر مذاهب الجدل . والقصص الذي تمحور مصارع أهل البيت ، وبالأخص استشهاد الحسين . فأصبح الجامع «الهادي» هناك عامراً بحلقات الشيوخ وبالتلاميذ من المدينة ومن قاصديها من سائر المدن والقرى .

تسبب هذا الجامع وما أخرج من التلاميذ إلى تعدد الجوامع ، ولما ظهرت فائدة هذه الجوامع ، وتكاثر عدد شيوخها وتلاميذها تكاثرت الأوقاف على هذه الجوامع ، فكان يوقف الرجل الغني بعض مزارعه للجامع الفلاني أو الجامع الفلاني لتأثيثه وإنارته . . ثم نشأت فكرة بناء «المنازل» حول كل جامع تقام فيه حلقات ، وكانت تلك «المنازل» عبارة عن غرف صغيرة تؤاوي الذين وَفَدوا من المناطق النائية للدرس في جوامع : «صعدة» و«شهاره» و«حوث» و«صنعاء» .

وأصبحت الآية الباهرة لكل إمام وملك هو : زيادة انتشار الجوامع ، وكثرة شيوخها وتلاميذها ، ووفرة السكن للوافدين من طلابها ، وكان يسمى هؤلاء الوافدون بالمهاجرين ، تشبيهاً لهم بالصحابة الذين هاجروا مع النبي وعلى إثره من مكة إلى المدينة . وكانت الكتب قد توفرت ، فحلت محل القصص الوعظي والاملاء الشفوي لقواعد اللغة ، وذلك بفضل تتابع التدوين وتزايد المؤلفين في كل فرع من فروع المعرفة مثل : كتب النحو ، ومؤلفات البلاغة ، وعلم الأحاديث ، والمجموعات الشعرية ، وأصول الدين ، وأسفار الفلسفة والطب والفلك .

وكان بعض الشيوخ موسوعيين يدرّسون مختلف الفنون ، وكان بعضهم يحقق بعض الفروع ويلم بغيرها ، إلى أن تبدّى شبه تخصص لكل فن : فهذا أقدر على تدريس اللغة ، وهذا محقق في الفقه ، وهذا أميل الى تعلم المنطق وتعليمه .

إلا أن تعليم الجوامع كان خاضعاً لما تتعرض له السياسات من استقرار وقلاقل ، فكانت تنجم فترات خوف تقطع السبل بين الطلاب ومواضع العلم ، بل كانت تتعرض مدائن التعليم للاجتياح القبلي أحياناً وبالأخص [صنعاء] فيضطرب التعليم ويتراوح بين الاتصال والانقطاع ، سواءً جوامع الشمال في «صعده» و«شهاره» و«حوث» و«كوكبان» ، أو جوامع تهامه ، أوجامع جبله وإب . . وفي ظل الحملتين التركيتين كانت هذه الجوامع ـ بانقطاع التعليم واتصاله ـ أحصن الملاجىء لتعليم العلوم العربية عامة والمؤلفات اليمنية خاصة ، فتعددت عواصم التعليم في شمال الشمال لبعدها عن القبضة التركية .

ولما وجد الأتراك هذا التعليم اليمني يعزز الوطنية ، أراد ولاة الحملة الثانية بناء مدارس بصنعاء يغلب عليها النظام التركي ، فافتتح «حسن تحسين حلمي» بصنعاء «المدرسة الرشدية» لتخرج الموظفين ولاعداد الراغبين في الترقي الى «دار المعلمين» . وكانت تقع المدرسة الرشدية في حارة «خُضَيْر» كما كانت «دار المعلمين» قائمة في شمال «البكيلية» وكانت المدرسة «الرشدية» مخصصة لأبناء الذوات من الأتراك واليمنيين . . أما «دار المعلمين» فقد أراد الوالي أن يتخذها بديلاً عن حلقات الجوامع . فكانت تدرس فيها مقادير من الفقه السنّي إلى جانب النظام التركي ، وقد خرّجت المدرسة الرشدية عدداً من الكتبة والمحاسبين ، كما أخرجت دار المعلمين عدداً من أساتذة الابتدائية ومن الشيوخ ، واتصف بعضهم بحسن التعليم الابتدائي مثل : (سيدنا) محمد زيدان ، (سيدنا) محمد دلال ، (سيدنا) محمد تقي . . كما أخرجت من الشيوخ : المؤرخ عبد الواسع الذي كان من أوائل شيوخ دار العلوم : [المدرسة العلمية] بعد جلاء الاحتلال التركي .

* [دار العلوم] *

عندما دخل الامام يحيى صنعاء من مدينة شهارة عام ١٩١٩ م ، متوجاً بالظفر على الأتراك وبالامامة على شمال اليمن ، كان من أول أعماله هدم دار المعلمين التركية كإيذان بمحو ذلك العهد وتشييد عهد الاستقلال ، وفي جملة الحملة على دُور الأتراك ومراكزهم وتحويلها إلى أملاك يمنية ودور حكومية ، حوّل الامام دار استراحة الوالي بميدان شراره الى [المدرسة العلمية] ، وافتتحها في حفل حافل سنة ١٣٤٤هجرية ، فأصبحت المدرسة العلمية أول دار علوم تنفق عليها الدولة وتمنهج دراستها ، فتبدت أول مَعْلَم في مرْحلة الاستقلال ، وتحمس أغنى المزارعين لها فوقفوا عليها أعداداً من المزارع في كل منطقة ، وتشكلت لهذه الأوقاف إدارة تسمّت بنظارة [الترب والخوالي]* وأضيفت الى هذه الوقفيات مواريث الذين يموتون ولا وارث لهم .

* الذين يموتون ولا وارث لهم وذلك لخلوها من أي وارث .

بهذا تكونت لدار العلوم موارد مالية تساعد على استتباب التعليم وتطويره . .

فهل كانت دار العلوم شبيهة لسمياتها في القاهرة أوسوريا أوتونس ؟

لقد كانت دور العلوم نقطة وسط بين الجوامع والجامعات ، ولكن مع الاختلاف بين كل شعب وآخر في التطور الاجتماعي والثقافي ، فدار العلوم بمصر مثلاً بين الأزهر وجامعة فؤاد يومذاك ، كذلك دار العلوم بصنعآء كانت نقطة وسط بين الجامع الكبير بصنعآء وجامعة صنعاء اليوم ، رغم المسافة الزمنية بين دار العلوم الأربعينات وبين جامعة صنعآء التي فتحت في مطلع السبعينات . ويمكن المسافة الزمنية ان تصنع فروقاً بطبيعتها ، ولكن في شكل المناهج وليس في نفسية التلاميذ ، قد يكون منهاج جامعة صنعآء أحسن تقسيماً ، لكن منهاج دار العلوم كان أجدى حصيلةً ، لأن الرغبة في التحصيل كانت اقوى من الطموح الى الشهادة الجامعية .

منهج [دار العلوم]

تشكلت دار العلوم من ثلاثة صفوف ، كل صف أربع شعب ، إلى جانب شعبة تسمت بـ «الشعبة التحضيرية» أي : التي تعد الطلاب لدخول الشعبة الأولى ، وكان طلاب التحضيرية من خريجي ابتدائيات المدائن اوكتاتيب الأرياف ، فكانت التحضيرية بمثابة المتوسطة ، أما الذين يتخرجون من المتوسطة أو الثانوية فيلتحقون باحدى الشعب على حسب تقدير هيئة الامتحان التي تحدد الشعبة والصف الذي يلحق بها الطالب . . وكان الترقي على حسب امتحان سنوي شفوي ، تحضُره مجموعة من العلماء المحققين في الفقه واللغة وأصول الدين وعلم البلاغة . إلى جانب أساتذة الدار فقد كانت دار العلوم تتكون من ثلاثة طوابق تضم اثنتي عشرة شعبة ، تسمى الشعبة الأخيرة [الغاية] . وكان أغلب الخريجين يتعينون قضاة شرعيين أو مدراء مناطق أوكتاب محاكم ، وقلّ منهم من يتقلد وظيفة حسابية أو جمركية . وكان البعض يعود مدرساً في نفس الدار إذا سبقت له ممارسة الاعادة بعد الشيوخ أو التدريس في الشعب الأولى أيام طلبه ، وكان التخرج من هذه الدار مضمون الوظيفة غالباً ، لأن الدولة هي التي انفقت على الطلاب وضمنت لهم الكسوة والسكن إلى جانب الطعام مدة اثني عشر عاماً هي مدة الدراسة .

أما الوافدون من الجوامع : كجامع صعده ، وحوث ، وثلا ، والمدرسة الشمسية بذمار ، فكانوا يلتحقون بالصف الثاني أو الأول على مقدار تحصيلهم في تلك الجوامع التي كانت تشبه «منهج دار العلوم» وبالأخص الفقه واللغة والبيان . . وهذا يقودنا إلى تفصيل المنهج الدراسي ، في دار العلوم كان ترتيب دراسة النحو على الوجه التالي :

السنة الأولى: اجرومية دحلان وهي موجز القواعد النحوية .

السنة الثانية : نصف قطر الندى وبل الصدى .

السنة الثالثة : إتمام القطر مصحوباً بكتاب قواعد الاعراب وهو أكثر تركيزاً على إعراب الجمل

وتبيين أسميّتهاوفعليتها ومعربها ومبنيّها، ومحليتها من الاعراب او عدم محليتها . وهي أربع عشرة جملة سبع لها محل من الاعراب وسبع لا محل لها وذلك بعد أن فصلت الأجرومية والقطر إعراب الأسماء المفردات وبيّنت مبنيها والمعرب بالحركة والمعرب بالحركات المقدرة : كالأسماء والأفعال المقصورة والمنقوصة ، ثم الاعراب بالحروف لبعض الجموع وبالحركة لبعضها الآخر .. يلي قطر ابن هشام وقواعد الاعراب شرح ابن عقيل على ألفية ابن مالك ، وتستغرق دراسته أربع سنوات ، وهو توسيع لقواعد النحو ومذاهب النحاة وبداية الصرف . يليه كتاب المناهل في الصرف الخالص ، ويلي كتاب المناهل كتاب «مغني اللبيب» وهو توسع في إعراب الجمل وتخصص الحروف أو تناوبها وصحة التناوب أو عدمه، وكان كتاب المغني مسبوقاً بشرح الأشموني ثم استغني عنه تخفيفاً للمنهج النحوي،هذه درجات كتب النحو على الترتيب ، مثلها الفقه :

في الشعبة الأولى : يدرّس الأزهار مَتْناً بلا شرح ، وانما يشرحه المدرس من فحوى نص كل مسألة ، ويسمى هذا الدرس : «مفهوم منطوق» وتستغرق دراسته عامين : العام الأول من كتاب الطهارة الى كتاب الحج ، العام الثاني : من كتاب النكاح إلى سيرة الامام ..

من الشعبة الثالثة : يبدأ شرح هذا الكتاب المسمّى : شرح الازهار ، وتمتد دراسته أربع سنوات ، يليه أصول الفقه ويواكبه من قبل سنة كافل لقمان ، ثم كافل الطبري في أصول الفقه لأن هذين الكتابين علم استنباط الأحكام الشرعية والمنطق الصوري للفقه ، ويختتم أصول الفقه بكتاب «الغاية» ومدتها ثلاث سنوات من الشعبه العاشرة الى الثانية عشرة . . . وكان كتاب المنهاج يسبق دراسة الغاية ، بل كان مقرراً قبل «الغاية» بعد افتتاح الدار ثم حلت الغاية محل المنهاج ، وهمس في هذا التغيير بعض الشيوخ وردّوه إلى سبب سياسي ، لأن «الغاية» من تأليف الحسين بن القاسم ، ولم يرها الشيوخ في مستوى [المنهاج] أو [العَضدُ] وإنما قرروا كتاب الغاية تعصباً عائلياً .

ومثل ترتيب كتب النحو والفقه وأصوله كان ترتيب كتب أصول الدين .

أو[علم الكلام] اذ كان الترتيب كما يلي :

أولا : «العِقد الثمين في معرفة رب العالمين» ، تليه الثلاثون المسألة ، يتبعها الينابيع ، وأخيرا الأساس .

اما في المنطق ، فكان الكتاب الوحيد الذي يُدرَّس هو كتاب [الايساغوجي] ولما ألغي من المنهج كان يدرُسه يحيى العنسي في مسجد الرحمة .

أما دراسة كتب أصول الدين (علم الكلام) فكانت تبدأ بباب معرفة الله . ثم النظرات الكونية وما هو فيها إلهي وما هو كوني . وكانت تتكون من عشر مسائل :

اولها : معرفة الله . وآخرها : مسألة الإمامة . (وهي المسألة العاشرة في كل كتاب من كتب اصول الدين المقررة في دار العلوم)

اما ترتيب كتب البلاغة فكما يلي

أولا : الجوهر المكنون ، ثم الشرح

الصغير ، ثم المطول . يتخلل هذه الكتب كتاب الفرائض من الشعبة الرابعة الى السادسة ولم يتبعه كتاب أكثر تفصيلاً في علم القسمة .

أما الأحاديث : فتبنى المنهاج ثلاثة كتب مرتبة على النحو التالي : الشفاء للأمير الحسين ، وأمالي أبي طالب ، وشرح مجموع زيد بن علي الموسوم بالروض النضير .

كان يواكب دراسة الغاية في الثلاث السنوات الأخيرة .

وكانت دراسة البلاغة في مراحلها الثلاث تترتب على النحو التالي :

أولاً : علم المعاني - لصلته بالنحو . (كالمسند والمسند إليه) . وهو يهتم بالفصاحة في المفردات وفي التركيب .

ثانياً : علم البيان - مبتدئاً بالتشابيه ومنتهياً بالمجازات الثلاثة . وهو يهتم ببلاغة المعاني .

ثالثاً : علم البديع ، الذي يعتبره البيانيون أعلى جماليات الأدب . لأنه في رأيهم زينة لتركيبه المتجانس ولاستخدام التورية والكناية بدلاً من المباشرة .

رابعاً: كتاب آيات الأحكام ، وهي [٥٠٠] آية ، والكشاف للزمخشري ، وهذا التدرج كان يراعي ترقي ذهن الطالب على مقتضى زيادة محصوله ، اذ كان كل كتاب يمهد لخلفه ، كما كانت ترشح كل شعبة للتي تليها ، أما تجويد القرآن فكان يمتد ثلاث سنوات : التحضيري ، الشعبة الأولى ، الثانية . .

[مكتبة دار العلوم]

كانت الدولة ملتزمة بتوفير كل كتب المنهج الذي كان يحتوي على ستة دروس في اليوم ، وكانت هذه الكتب كلها من مقتنيات مكتبة دار العلوم ، توزع في أول العام الدراسي شهر شوال وتعاد في آخر العام شهر رجب .

والى جانب الكتب الدراسية ، كانت تضم المكتبة مقادير قليلة من الكتب الثقافية ، أغلبها تراثية من أمثال : نهج البلاغة ، شرح نهج البلاغة لابن أبي الحديد ، تاريخ الطبري ، مروج الذهب للمسعودي ، الأغاني للأصفهاني ، ديوان الحماسة لأبي تمام ، الاتفاقيات التي عقدها الامام يحيى مع الدول . . ومن مطلع الخمسينات الى ثورة سبتمبر ٦٢ تكاثرت كتب المكتبة ، اذ أمر الامام أحمد بمصادرة ما كانت تضم مكتبات الدستوريين وضمها الى مكتبة دار العلوم ، فأضيف الى المكتبة : ديوان شوقي ، ديوان البحتري ، نظرات المنفلوطي ، حاضر العالم الاسلامي ، حياة محمد ، سيرة ابن هشام . . وامثال هذه الكتب .

[موقع دار العلوم]

تقع دار العلوم في قلب ميدان التحرير الذي كان يسمى [شرارة] ، وكانت في ضاحية صنعاء قبل عمارة بشر العزب ، ثم أصبحت تتوسط صنعاء .

بعد افتتاح دار العلوم بست عشرة سنة دخلت عليها تحسينات واضافات : اذ بنيت

رتها ومدخلها الواسع عام ١٣٦٠ هـ في أيام وزارة سيف الاسلام عبد الله على المعارف ، وقد أرخ سيف الاسلام علي بناء هذا المدخل الجديد بالطريقة الأبجدية ، وهذا نص الأبيات التي ما تزال مكتوبة على المدخل :

إن هذا محل دار العلوم
ورياض المنطوق والمفهوم
شاده من حوى المفاخر
عبد الله سيف الاسلام زاكي الخِيَم
ثم تنضيده فأرخ لمن يسأل
هذا مجاز دار العلوم
١٣٦٠ هـ

[شيوخ دار العلوم]

كان شيوخ دار العلوم صنفين : أحدهما موظف يتقاضى مرتباً ، وثانيهما كان مكلفا بالتدريس الى جانب عمله الوظيفي .. وهذا التطوع أو التكليف برهان على قلة الشيوخ في أيام افتتاح الدار وعلى تحمس القادرين على التدريس .. فمن الذين درّسوا تطوعاً : زيد بن علي الديلمي ، يحيى بن محمد الارياني ، قاسم بن إبراهيم ، عبد الله السرّحي ، حسين ابو طالب ، . . . أما المنقطعون للتدريس فهم : أحمد الكحْلاني ، علي فضة ، عبد الواسع الواسعي ، عبد الوهاب الشماحي ، لطف الفسيل ، محمد علي الشرفي ، علي الدُّبْ ، عبد الله الرضي ، حسين الكبسي ، عبد العزيز ابراهيم ، احمد عبد الله الكبسي .

ومن فترة الى فترة تزايد الشيوخ وكان أغلبهم من خريجي الدار : كمحمد العمراني ، غالب الدرّة ، محمد فضة ، محمد البهلولي ، حسين الظفري ، أحمد البهلولي ، ثابت بهران ، حسين القرماني ، اسماعيل الزبيدي .

[مدير و دار العلوم]

من افتتاحها الى عام ١٩٦٢ تعاقب عليها المديرون : وهذه اسماؤهم بالترتيب : عبد الواسع الواسعي ، لطف العمري ، عبد الخالق الأمير ، محب العمري ، عبد الرحمن السياغي ، محمد الزهيري ، عبد الله العمري ، حسين فايع ، أحمد الواسعي ، يحيى النهاري ، محسن الأمير . . وكان بعض المديرين يجمع بين التدريس والادارة ، وكان بعضهم يعاني من شغب الطلاب وينتهي بالطرد من قبل الطلاب ، حتى تضطر السلطة الى ابداله .

وبعد ثورة ١٩٦٢ م تحولت دار العلوم الى مدرسة الوحدة ثم حملت المدرسة المجاورة لها هذا الاسم فاصبحت دار العلوم الآن سكناً للطلاب الذين لا سكن لهم في المدينة وما تزال .

[مرتبات المسئولين والشيوخ]

كانت تتراوح مرتبات الشيوخ من ١٦ ريالا الى ٣٠ ريالا ، كما كان يتراوح مرتبهم من الحبوب من قدحين الى أربعة أقداح . أما مرتب الطلاب فكان اسبوعيا يبدأ من خمس بقش وينتهي الى ريال الا ربع ، حتى يتوظف الخريج أو يتقرر له مرتب ريثما يجد له عملاً ، ويتراوح هذا المرتب من عشرة ريالات الى خمسة عشر ريالاً إلى جانب الصرف اليومي من المدرسة والسكن فيها . وكان مرتب

المدير كأعلى الشيـوخ ، أما المـراقبون فكـانوا يتقاضون من ٨ الى ١٠ ريـالات الى جانب الخبز كالطلاب وقدحين من الحبوب ، أما الفراشون فكانوا كالجنود في المرتب ٦ ريالات الى جانب الخبز المخصص للجنود الى عام ١٩٤٨ ثم ١٠ ريالات من ١٩٤٨ الى ١٩٦٢ م .

هذه هي دار العلوم كما يسميها البعض ، او المدرسة العلمية كما يسميها البعض الآخر ، وقـد كانت البؤ رة الضوئية في الثلاثينات والأربعينات ، اذ أنجبت علماء وادباء مرموقين من امثال : حسين الكبسي ، عبد الله العزب ، عبد الكريم الأمير ، زيـد الموشكـي ، محمد حسن البريمي ، أحمد المضواحي ، أحمد الخزان ، عبد الرحمن عبد الصمد ، حسن بن ابراهيـم ، عبد الله الشماحي ، علي الشماحي ، عبد الله المـداني ، محمد حمود الصرحي ، علي الخربي ، عبد الله الخربي . . هذه المـامة سريعة بتأريخ دار العلوم ومكـانتها في العهد النهضوي الاستقلالي ، وأساسيتها في مد عهد الثقافة اليمنية ووصلها بثقافة عصر الثورات .

***

ذكرى رمضان في صنعاء



مثلت في الذكرى هواك وفي الكرى
والذكريات صدى السنين الحاكي

أنا الآن في الغرفة رقم ٦٦ من فندق الحياة وسأنتقل منها قريبا الى غرفة ٧٧ .

عجائب شاهدت من نوافذ هذا الفندق وغرائب وما من نافذة اطلت منها الا وفتحت عيني على شيء جديد .

دعوني أتذكر غرفة ١٦ من هذا الفندق التي نزلتها عندما كنت غضا ساذجاً اتطلع على كل شيء واعجب بكل شيء وأتأثر بكل شيء .

عندما تفتحت للحياة بشوق الوردة للتفتح وتبسمت لها تبسم الروض للصباح وتشوقت لها تشوق الأغصان للطل والنسيم ساقني قدري الى «صنعاء» من البادية عن غير قصد ولا تخطيط . اختطفني من شظف العيش الى ما يعتبر في ذلك التأريخ بحبوحة النعيم وما كدت اسمع منشداً بعد فترة من بقائي في صنعاء ينشد :

صنعـاء يا دار الحضـارة والعُلى
ومقـام كل سميدع ومليك
باريس دونـك في الجمال ولندن
وعواصـم الرومـان والأمريك

حتى آمنت إيماناً صادقاً بوصفه . آه ما أحسن الايمان بشيء وما أبشع ان يتزعزع هذا الايمان . لقد وصلت في رحلة حياتي الى باريس والى عواصم الرومان والأمريك ، وصعدت الى برج «ايفل» في باريس بعد ان ثارت «صنعاء» وكسرت طوق عزلتها . . وبعد ان عانت ما عانت من التخلف والجهل والفقر والحرب الأهلية . تذكرت وأنا على قمة برج ايفل صنعاء وقارنت بين جمالها وجمال باريس وتذكرت الشاعر وشعره وهل قاله عن معرفة ام عن عاطفة أم غير ذلك ؟ وأذكر

اني أنشدت يومها خمسة أبيات أو ستة ارتجالاً على الوزن والروي اذكر منها :

قد قالها متكلفا متملقا
مستجدياً بالدجل من حكموكِ
صنعآ ويبكيني ويجرح مهجتي
ما أنت فيه فكيف لا ابكيك
كم محنة منها خرجت لمحنة
ولكم تحكم فيك غير بنيك

عفوا كدت أن أخرج عما أريد الكتابة حوله والحديث يجر الى الحديث . ولو سمحت للقلم لجمح بي كما يجمح الحصان . . كانت قفزة هائلة قفزها بي قدري الى صنعاء ، صنع معي خيرا وأسدى الي جميلاً فقد فتقت صنعاء مداركي وصقلت مواهبي اذلوبقيت في الباديةلكانت حياتي غير ما صارت اليه . وكم كانت دهشتي عظيمة بعادات صنعاء وتقاليد صنعآء وكل ما في صنعآء . وكما يصعب طمس الحضارة في امد قصير ويصعب طمس التخلف كذلك في أمد قصير ويصعب أيضا طمس العادات والتقاليد . انها تعيش في الشعوب طويلا وتقاوم كل التغييرات . وقد تتطور وتتهذب ككل شيء في الحياة ودعوني اذكر لكم عادات رمضانية من عادات صنعآء . وها قد مضى ما يقرب من نصف قرن منذ اول ما عرفتها . ولنفرض : الأن أننا في أواخر شعبان ١٣٥٢ هجرية إن الناس يسالون في أكثر من مكان هل سيكون شعبان ناقص العدد أي (٢٩) أم كامل العدد (٣٠) . التعليمات صدرت بمراقبة بزوغ هلال رمضان وما من لزوم لهذه التعليمات .

فالناس متلهفون بطبعهم وعادتهم . العيون في كل اليمن لا في صنعآء وحدها متجهة بعد غروب شمس يوم (٢٩) و (٣٠) الى الأفق ، لترى ذلك الوليد الذي يشبه قلامة الظفر المرماة على طرف بساط . ذلك الوليد الذي يبدو على صغره سيقلب حياة الناس رأساً على عقب من لحظة مشاهدته ويستقبل بالمدفعية في صنعاء واخواتها من المدن ترحيباً بقدومه كما لو كان رئيس دولة . والأطفال يهتفون :

اهلاً اهلاً يا رمضان
يا شهر التوبة والغفران
مرحبا شهر السعادة
مرحبا شهر العبادة
والشياطين الملاعين
صفدوا يا خير عادة

وتصدر التعليمات من صنعآء «برقياً» الى المراكز ان تبت بشهادة العيان من مركز قضاء كذا أو ناحية كذا رؤ ية هلال رمضان وعليه يتحتم الصيام من تأريخ رؤ يته . .

ومما تنوقل في هذا الصدد وما اذكره للتسلي وليس على سبيل النكتة انه في الخمسينات بالتاريخ الهجري وكان القاضي محمد راغب التركي الأصل والذي عمل مستشاراً للأمام يحيى واكتسب لقب قاض تمشياً مع الظروف وكان داهية وسياسيا محنكا ولديه عدة لغات قد لا يجيد بعضها اجادة كاملة . شغل ذات مرة بالنيابة عن السيف عبد الله رياسة المواصلات . وكان لسيف الاسلام سكرتير يدعى السيد محمد الحكيم فجاءت البرقية اشعاراً بثبوت

رؤ ية هلال رمضان من محكمة أحد المراكز ، جاءت في وقت متأخر من الليل وكان القاضي راغب غارقا في نومه خالياً من التفكير في هلال رمضان فكان ايقاظه ، فقد قال حامل البرقية انها هامة جداً جداً . ففتح غلاف البرقية وقرأ : لقد ثبت انسلاخ شعبان وثبوت رمضان من يومنا بشهادة فلان وفلان . وكان من تثبت لديه الشهادة متحذلقاً فقد اضاف : ويعتبر شعبان ناقصاً وعليه يبدو أن الوقوف في عرفة سيكون في مثل هذا اليوم من شهر الحجة ، وقد قيل يا صائمين رمضان هو يوم وقوفكم بعرفة بهذه الصياغة او ما يقرب منها تلقى القاضي راغب البرقية وهو التركي غير المتعمق في العربية وقد قيل له انها هامة . فكتب عليها ما نصه :

الى السيد محمد الحكيم أوضحوا ما علاقة شعبان برمضان . وما علاقة الاثنين بحجة . وبالجملة فإنني لم أفهم شيئاً . لأن في مفهوم القاضي راغب ان شعبان اسم رجل ورمضان اسم رجل . ووقع على ذلك وعاد لنومه وكان الحكيم ذكياً ولبقاً فسارع للتبليغ واطلقت المدفعية .

رمضان والمدفعية :

جبل نُقُم المطل على صنعآء من الجهة الشرقية ومن قلعته التي كان لا يصل اليها أحد غير حراسها او القاضي عبد الله العمري كبير وزراء الامام يحيى يطلق منه مدفع رمضان ، كان يحشى المدفع بالبارود وخرق بالية من القماش يطلق عند الاشعار برؤ ية هلال رمضان ثلاث طلقات حال الاشعار في أي وقت كان . اما اذا كان شعبان كاملاً ففي مغرب أول يوم من رمضان . ومنذ ٢٩ شعبان والآذان مصغية ومترقبة . وكانت صنعاء لا تخلو من ظرفاء يزعجهم الصوم ، ربما لظروف صحية ، وعدم تحمل فينزعجون لمدفع رمضان ويسبون متبرمين من الصوم وعاداته . مثلا كان هنالك «الآنسي» وكان نزقا . كان يقول لو كان رمضان مريحا لما اقيم عيد عقب مضيّه وقال له احدهم : ان رمضان كريم . فقال في نزق : خذه بيتك وارحني منه . وكان الناس يتناقلون فكاهة الآنسي وسخريته برحابة صدر مقدرين تبرمه وضجره ومعاناته . ويستمر المدفع طيلة رمضان ، فثلاث طلقات عند السحور ، ثم عند الامساك ، ثم أول دخول وقت كل فريضة من الفرائض الخمس . وأكثر الأوقات اصغاء للطلقات هي طلقات الافطار . يكون تلقيها بفرح وبهجة . أما طلقات الامساك ربما عند البعض بالعكس .

رمضان والدوائر الرسمية :

في صنعآء على الخصوص وفي كل أنحاء اليمن يتغير الدوام بل وقد تتوقف بعض الدوائر . اما في النواحي فلم يكن هنالك ما يسمى دائرة كذا بالمعنى المفهوم . فالقاضي يقضي في بيته او تحت شجرة ومثله غيره . كان ينام الناس في صنعآء عادة من بعد صلاة الفجر . ولا تزال هذه العادة جارية والبعض قد يستقيظ عند الظهر ، والبعض قد يستمر الى العصر . تبدأ الحياة وتدب الحركة من بعد ظهر كل يوم وتزدهر من بعد العصر وتسكن سكوناً تاما بعيد صلاة المغرب عند تناول العشاء ثم تعود . وكما يقال «ان ليل رمضان نهار» . وكانت صنعاء كصورة وفي تعارف كامل من في شرقها ربما

بكل افراد كل اسرة يعرف من في غربها . ومن في جنوبها يعرف من في شمالها والعكس .

مساجد صنعاء في رمضان :

مساجد صنعاء تبدأ باستقبال المصلين عند ظهر كل يوم من ايام شهر رمضان بأكثر مما هو في غيره وتستمر وكأنها خلية نحل يا لروعة الايمان ، ويا لروعة الذكر . الناس يتصافحون بحب . ويرحب البعض بالبعض الآخر متحابين متعاطفين . هكذا كان يبدو لي وكنت المس ذلك . وكنت اسمع تبادل الحديث بينهم : (جعلنا الله ممن صام رمضان فغفر له ، جعلنا الله ممن شملتهم رحمته ، أعاننا الله على أداء واجباته ، اعاننا الله على صيامه وقيامه) وكان البعض يكثرون من الاعتكاف في المساجد واغلبية من يغشى المساجد يتهجدون ويتلون كتاب الله . المصاحف في أكثر المساجد متوفرة وكالجامع الكبير ، وقبة المهدي ، وطلحة مصاحف اثرية بخط فني ونساخة جيدة . وجميعها من وقف الأوائل ، لا تخرج الا في شهر رمضان او في أيام الجمع حينما تدخل الى اي مسجد كمسجد الفليحي الذي له أكبر الأثر في حياتي وتعليمي . ترى الناس عكفاً وسجوداً وعلى المصاحف يتلونها متدبرين وهم بلحاهم وعليهم الجلال والوقار . لم تكن حلاقة الذقون قد انتشرت كما هي اليوم . كانت شفرات الحلاقة غير موجودة وماكينات الحلاقة غير معروفة . وكان حلق الذقن خروجاً ومروقاً ، واذا وجد واحد في النادر جداً فهو من بقايا الأتراك . وكان اذا عاتب صديق صديقه يقول : «حمى ذقنك» . يعني أن من كانت لحيته كلحيتك لا يعمل ما عملت . فاللحية علامة شرف وجلال . والآن لا تزال هذه الجملة تقال في العتاب . ولكن اللحى قد ذهبت وحلقت وحلق معها كثير من الوفاء والصدق والبساطة . وكان يوجد في علماء الفقه من يتلو عشرة أجزاء من القرآن الى عشرين في اليوم والليلة ومن القراء من يتلو القرآن عن ظهر قلب ويناقش مناقشون حول القراءات السبع . ويقول ما زاد على ذلك فهو شاذ . . كان الاهتمام بأمور الآخرة أكثر من أمور الدنيا . . اما الآن فالعكس على أكثر احتمال وأحسن ظن .

وقت الافطار :

يطلق المدفع طلقاته ويرتفع صوت المؤذن للافطار وصلاة المغرب . ترى الناس حين ذلك مزدحمين في المساجد التي كانت في ذلك العهد تربو في صنعاء على خمسين مسجدا وكلهم على طهر ووضوء وكل واحد قد أعد ما يجرح به الصيام او ما يسمى بالفطور ، فهذا قد أعد تمراً ؛ وفي الغالب تكون فتة التمر هي الأكثرية لاستحسان افطار الصائم بالتمر لما ورد في الأحاديث الشريفة وتطبيقاً للسنة . وكان مما حفظت :

والفطر بالماء لفقد التمر
وغسل من أجنب قبل الفجر

والبعض قد أعد زبيباً ولوزاً وهذا مما أثار دهشتي. كانوا يحضرون الى المساجد «الحُلْبة الحامضة» مع الفجل وبعض الخبز كان الخبز يصنع في البيوت ولا يباع مع الملوج الا نادراً. وفي باب اليمن للمسافرين وكانت صنعاء محصورة هادئة لا

ضجيج ولا غبار كما هو اليوم . وكانت المعلبات معدومة نهائيا لا معرفة للناس بها . واعود لذكر الافطار حين المغرب يتحلق الناس في المسجد والبعض معتدلون في جلوسهم متمتمون . وجوههم نحو القبلة . وقبل ان يفطر أي واحد يلتفت الى من حوله فيوزع عليهم مما عنده وقد يتقايضون زبيباً بزبيب وتمراً بتمر وقطعة رغيف بقطعة .

والدعوات على لسان كل واحد : (اللهم لك صمت وعلى رزقك افطرت ، تقبل الله صيامنا وصلاتنا ، غفر الله لنا ، ربنا اعنا على شكرك وذكرك) . وكثير وكثير من هذا القبيل . ثم تقام الصلاة وغالبا ما ينطبق على امامهم الحديث الشريف «صلى بهم صلاة أخفهم» هذا في المغرب فقط ومن يطيل بهم صلاة المغرب فلأهل صنعآء عليه اعتراضات وقصة : «ما ربحناه في الفاتحة خسرناه في ولا الضالين» معروفة . وذلك أن واحداً غادر مسجد حارته إلى مسجد آخر لأن إمام الصلاة يقرأ الفاتحة تجويداً مطولا . وفي المسجد الآخر وجد أن الامام يسرد الفاتحة سرداً . فسر بادىء ذي بدء . ولكن الإمام عندما وصل الى آخر الفاتحة ومد ولا الضالين مداً لازماً مطولاً فقال هذا الواحد المؤتم «ما ربحناه في الفاتحة خسرناه في ولا الضالين» فذهبت مثلاً .

وقال أحدهم لماذا نزلت سورة «الكوثر» قيل له لصلاة مغرب رمضان .

بعد صلاة فرض المغرب وسنته ينفرط الجمع ويذهب كل واحد في ازدحام وعجلة الى بيته .

العشاء الرمضاني في صنعاء :

العشاء الرمضاني في صنعاء له اهتمام فيها أكثر من غيرها . «فالقشمي» : الفجل ، و «الحلبة الحامضة» أمران أساسيان وكذلك «الشفوت» ، والشربه ، وهذه الأصناف يبدأ بها عادة ثم يأتي دور أصناف أخرى يكون نهايتها «السلته» . وتكاليف شهر رمضان تفوق غيره من الشهور ويتهور البعض بحشو بطونهم اكثر مما يلزم بسبب حرمان يوم كامل وهذا أمر شايع عند الأكثرية . . بعد تناول العشاء لم يكن شائعاً تناول أي فاكهة بل «قهوة القشر» وفناجيناتها قد تكون مبخرة ببخور «المستكي الصلطاني» وتكون كعد الماء قد اعدت من عصر كل يوم مبخّرة وبردت في ما يسمى «بالشربه» والشربه نافذة ذات هندسة معينة خارجة عن بناء البيت بارزة في اكثر طوابقه يتخللها الهواء وتكون عادة في الواجهة الشمالية من بيوت صنعاء الشهيرة بارتفاعها وغرابة زخرفتها وهندستها . وبعد الفراغ من تناول العشاء والقهوة يهرعون إلى المساجد لأداء فريضة العشاء .

تقام الصلاة جماعة ويقيم المتأخرون جماعة ثانية وثالثة . ثم لا يخلو أي مسجد من متنفلين وقانتين يذكرون الله قياماً وقعوداً . ويؤ دون الوتر . ويذهب التجار الى دكاكينهم وآخرون الى مجالس القات .

القات في رمضان :

آه من القات . إن الكتابة عنه وعليه ومنه وإليه قد لا تنقطع الا بانقطاعه . أهو شركله ؟ هذا ما اعتقد ولي حرية الرأي . أفيه خير ؟ ليكن

ذلك ولكن إثمه اكثر من نفعه ، أقول هذا وليس هنا موضع بحثه . السهرات الرمضانية أوقاتها مبهجة ومهدئة للأعصاب بعد يوم من الامساك . في هذه السهرات يتبادل الناس الحديث كسائر جلسات القات في القطر ، ولكنها تختلف ، فلها نكهة خاصة وتسودها عواطف ايمان وتقوى وتتميز بنعومة الكلمات وشفافة الإحساس وهي أي الجلسات القاتية أقصر منها في الفطر . ولها خصوصياتها في الذكر وفي الإنشاد أحيانا . وقد يتداول فيها كتاب من كتب الحديث أو الفقه أو التفسير يقرأ كل يوم منه فصل في وقت محدد . ويناقشون ما يسرد من ذلك وما يترتب عليها . وعندما ينفرطون تعود الاكثرية الى المساجد يصلون ويدعون في ابتهالات وخشوع حتى تنطلق المدفعية ايذاناً بتناول السحور وأقلية جداً هم الذين ينامون ساعة أو بعضها في الليل . وبعد تناول السحور يذهبون لأداء صلاة الفجر جماعة وهكذا تؤدى كل الفرائض جماعة (ولاصلاة لجار المسجد الأ في المسجد) . ويستمر الذكر والتهجد عند البعض الى حين وقت السجود . والسجود لا يخلو من «الحلبة البيضاء» وهي تختلف عن حلبة (السلته) والسائد انها تلين المعدة وتذهب (باليبوسة)

الرسائل الرمضانية :

لا تكاد تخرج من صنعاء رسالة أو ترد إليها ، منذ النصف من شعبان الى كل فرد ومن أي فرد لم يكن فيها ذكر شهر رمضان ، وليس في صنعاء وحدها بل في كل انحاء اليمن . فبعد الديباجه وإهداء التحية ، يقال قبل حلول شهر رمضان : والله يجعل الشهر الكريم قادماً بالخير والبركه والبشر والسعادة ، وعند حلوله يقال : مبارك لكم بحلول الشهر الكريم جعله الله مطهراً لذنوبنا ومكفراً لسيئاتنا . ومن هذا القبيل . وفي النصف الأخير منه يقال : جعله الله مرتحلاً بذنوبنا وجعلنا من عتقائه وطلقائه من النار . وكل ماذهب اسبوع منه يزداد الناس التفاتاً إلى الله ويزدادون حباً . كان الإنسان الصنعاني يحب جاره ويعطف عليه . وكان احترام المرء للمرء لفضله وعلمه وزهده ونفعه . لم يكن كما هو اليوم لمركزه أو ماله أو نفوذه أو خشية ايذائه .

أولاد الحواري في رمضان :

الصبية في صنعاء يفرحون بقدوم الشهر الكريم وما يكاد يحل حتى يخرجوا في الأماسي أفواجاً بفوانيسهم الصغيرة يمرحون ويغنون . ولهم أهازيج معينة يطوفون على أبواب البيوت ينشدونها ويسمونها «مسّاء» .

وهذا نوع منها :

يامسّا جيت أمسي عندكم
يامسّا كثّر الله خيركم
يامسّا جيت أمسي من خبان
يا مسا راجوني بالكبان
يامسا جيت امسي من يريم
يامساء بالغراره والشريم
يامسا جيت امسي عندكم
يامسّا زوجوني بنتكم

الشريم : المنجل
العس : العيدية

يا مسّا جيت أمسي من ذمار
يامساه بالغرارة والحمار .

وأصواتهم مطربة ورقصاتهم مرحة وعلى صاحب البيت أن يدفع مقابل ذلك «المِسَّايهْ» «بقشه أو بقشتين» وياويحه اذا تجاهل الأمر ولم يدفع إليهم فقد ينتهون من إنشادهم وينتظرون الرد وهم يصرخون : جواب وإلاّ صواب والا . . على الباب . وقد ينفذون تهديدهم ويفعلون فعلتهم على الباب .

القَدْقَدهوالبقبقة الرمضانية

هذا عنوان غريب ولكن على من لا يعرف صنعاء ولم يعش فيها . إنهم في النصف الأول منه يقولون قد مضى منه يوم . قد مضى يومان . قد مضى اسبوع قد مضى نفسه . هذه يسمونها «القدقده» وبعد النصف على سبيل المثال بقي منه ١٤ يوما ، بقي ثلاثة عشر ، بقي بقي . . وهكذا الى اخره وهذه يسمونها البقبقه لكثرة ما ترد بقى وبقى . . ولهذا يقولون : أوله (قد قده) واخره (بقبقه) .

خواتم رمضان

ان خواتم رمضان لها اهتمام اكثر من أوله . لياليها ليالي العتق واللجوء إلى الله بالحاح . وفيها ينتظرون ليلة القدر وفي خواتمه يستعد الناس لاستقبال العيد . وتكون الأسواق اكثر ازدحاماً والحركة التجارية انشط . فان استعدادهم بملابسه سواء لهم او لمن يعولون يغنيهم عن الشراء في عيد عرفه . لانه ما يكاد ينقضي عيد الفطر حتى يحتفظوا بها لعيد الأضحى . وفي حواتم شهر رمضان يستعدون لأداء زكاة الفطره عن نفوس طيبه راضية كريمة وتؤدّى بوقتها والاّ فإن الصوم سوف يبقى معلقاً بين السماء والأرض . ويتصايح الأولاد في حواتم رمضان : (مودع مودع يارمضان ياشهر محمد عليك السلام ويرددون جملاً ومقاطع ملحنة ويحل عيد الفطر المبارك وتطلق المدفعية بطريقة تشعر بحلول العيد . وتستمر ايام العيد عند دخول وقت كل فريضة مدة ايام العيد . ولي حديث في مكان آخر عن الأعياد في صنعاء وعاداتها وتقاليدها و«العسب» فيها . اي مايسمونها في مصر «العيدية» ، والتهاني وتبادل الزيارات .

***

صنعاء دمشق

بقلم: عيسى فتوح

هي قرية كانت بين المزة ودمشق ، محاذية لما كان يقال له «تل الثعالب» الذي بني في موضعه مسجد «خاتون» المشرف على باناس والمرج الأخضر ، وهي - كما يقول العلامة محمد كرد علي في كتابه «غوطة دمشق» صفحة ٤١٢ - ٢١٥ من القرى التي نزلها اليمانيون وسموها باسم عاصمة بلادهم اليمن .

ويقول المؤرخ محمد أحمد دهمان في تعليقاته على القرى المتاخمة لدمشق أو التي اندمجت فيها : ان صنعاء دمشق كانت غربي اللؤلؤة الكبرى والصغرى وشرقي قينية ، ومنذ القرن السادس أصبحت صنعاء دمشق مزرعة ، وهي اليوم بساتين .

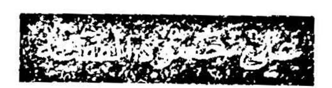
ويذكر ياقوت الحموي في كتابه «معجم البلدان» : ان هناك عددا من قرى غوطة دمشق قد اندثرت وتحول الى مزارع ، كبيت الآبار ، وبيت أرانس ، وبيت أبيات ، وصنعاء دمشق ، دون أن يحدد موقعها بالضبط .

ويبدو أنه كان يغلب على أهل صنعاء دمشق رواية الحديث الشريف ، وكان لعلم الحديث أكبر قسطمن عنايتهم ، حتى انهم ألفوا فيه كتابا يقع في مجلدين ضاع في جملة ما ضاع من الكتب المخطوطة ، أو اندثر بعد تفرق سكان هذه القرية ، واختلاطهم بأهل دمشق او بغيرهم من سكان قرى الغوطة .

لقد اندثرت قرية صنعاء دمشق ، نتيجة لسلسلة طويلة من الفتن والحروب التي حدثت في دمشق في عهد الأمويين والعباسيين ، اشترك فيها أهل الغوطة ، وقاتلوا وقتلوا ، وخربت قراهم ومزارعهم ، من أهمها تلك التي كانت تجري بين اليمانية والقيسية ، ودامت قرونا متعاقبة . ومما ساعد على تخريبها أن القرى كانت تبنى من الطين والخشب لندرة الحجارة في الغوطة ، ولاتقاء الزلازل التي كانت تتكرر في العصور الماضية ، ولأن كلفتها أقل .

ويؤكد اندثار هذه القرية ما قاله أحمد وصفي زكريا في كتابه «الريف السوري» من أنه كان في الغوطة قرى عامرة أكثر من الآن دثرت ولم يبق منها الا اسماؤها فقط في بطون الكتب ، والا آثارها وأطلالها من تلال وغيرها ، قد تدل على محالها ومواضعها ، واستحوذت القرى الكبيرة على أراضي القرى الداثرة .

أخبار تاريخية عن صنعاء



كثير من الاجانب والمعنيين بشؤ ون التاريخ كتبوا عن مدينة صنعاء ومنهم من اعجب بها أشد الاعجاب لعراقة الطراز المعماري التليد الذي يتميز عن غيره من الفنون المعمارية . وهنا نحاول أن تسجل ما وصفته أقلام هؤ لاء الكتاب . . ففي الجزء (١) ص ١٠٧ عن صفة صنعاء قال أمين الريحاني . «أي صنعاء مثلك لنا التاريخ فكنت قبله الزمان ومثلك لنا العلم فكنت يوماً ربة العرفان ومثلتك لناالأساطير فكنت سيدةالجن والجان» إلى أن قال «وقفنا عند كنوزك طفنا حول قصورك وسمعنا الشعراء ينشدون الشعر في دورك واليوم ومطيتنا غير الخيال نشاهد مايثبت المقال ويحقق الآمال . هذه بيوتك العالية وقصورك الشاهقة فما كذب التاريخ ، وهذا جمالك الطبيعي وبهاؤك العربي مماكذب الشعر وفي خزائنك الكتب النفيسة والمخطوطات، فما كذب العلم، وهذه كنوزك وسحر قصورك بل سحر الاسماء فيك فما كذبت الاساطير وكنا نظنها أسماء ابتدعها الشعراء لعرائس الجن والخيال ولكنها في الحقيقة في أعلى مكان . . أجل إن صنعاء في محاسنها لا تخيب للزائر أملاً وكلما دنوت منها وهو عكس الحقيقة في أكثر المدن ازداد رونقها وازداد إعجابك بها هي في مقامها الطبيعي فريدة عجيبة . فيها الهواء أعذب من الماء والماء أصفى من السماء فهي أجمل من حلم الشعراء وفيها البرد وقد علت تسعة آلاف قدم عن البحر يستحيل لقربها من خط الاستواء دفئاً وهي قائمة في قاع سنحان تزينها من جهة الروضة وفيها البساتين والكروم ، ومن جهة أخرى حدة وسناع وفيها الاشجار والأثمار والسواقي تحيط بها الجبال : نُقُم المطل عليها شرقاً وبعده عصر وهو يظلل المروج في الاصيل وفيه الاشجار والاثمار . ومن نقم تجري المياه إلى المدينة[1] وفيه تلغراف المرايا يوصل أوامر الإمام من فينة إلى أخرى وهذا «عشار» وفيه الرخام والمرمر وذاك آنس في الجنوب وسعودن دونه شرقاً ؛ وفيهما معادن الطلق وهناك رضراض وفيه معدن الفضة وهناك شبام شمالاً بقرب وفيه من الحجارة الكريمة الجزع والعقيق . . - أنتهى كلامه - ثم قال عند وداعها في صفحة

٢٠٤ : مدينة عجيبة كان لها من أسباب المجد والشهرة والعمران ما لأكبر مدن العالم المتمدن اليوم . لها تأريخ غابر مجيد لها مدنية قامت بين شمس المجوس وكواكب الأوثان وتعددت فيها الأسرار والكهان وعزت عندها آمال الانسان فكانت ملكة سبأ ، وكان حمير وقحطان ثم التوحيد وشوكة قريش وعدنان وما تقدمه وتبعه من علماء وشعراء ونوابغ في فن البناء ناهيك بما خصتها الطبيعة مما لا يزول أبداً ولا يحول . فهي على علوها لا تعرف الثلج وهي على دنوها من خط الاستواء لا تعرف من قيظة غير نزوات وهنات وفيها من الماء القراح وغزارته ما تقدم ذكره . فلو عمرت إليها الطرق الصالحة للعربات من الغرب ومن الشمال واتصلت بها عدن والحديدة بسلك الحديد لتقاطر إليها الناس صيف شتاء من كل النواحي حولها ومن البلدان العربية والافريقية الشرقية كلها لغدت في أقل من عشرين سنة باريس البحر الاحمر أي صنعاء .. إلى أن قال : يا صنعاء ونستودعك الله قد اكلنا من ثمارك وشربنا من مائك ونمنا تحت سمائك وانتعشنا بعليل هوائك ..

صفة أبنية صنعاء :

ويقاس عليها سائر مدن اليمن بيوتها عالية . بعضها يرتفع الى ست طبقات ونادراً إلى سبع طبقات . بناؤها أكثر إتقاناً وأجمل هندسة لأن الاسلوب العربي فيها لا يشبه شيئاً من بناء الأجنبي هندياً كان أو أوربياً وهي مبنية من الحجارة البيضاء والسوداء وتسمى في اليمن فتح الحاء المهملة مع الياء الموحدة ثم شين معجمة وبعد طبقتين أو ثلاث طبقات بالأحجار .. وخارج صنعاء بعض بيوت المزارع يبنون بالطين أو اللبن وبين كل طبقتين حزام .. أي زنار في غير اليمن وهو منقوش بأشكال هندسية . ويسمى الحزام في أصل اللغة النطاق وفوق كل نافذة كوة . في اليمن يسمونها كوة وتسمى الطاقة نشباكاً . إلا أن أبوابه مخرمة بأشكال هندسية وينظر منه الى الخارج من الأطواق وفوق هذه الطاقة الشباك لوح من الرخام تشديد الصفاء يكاد في صنعاء كالزجاج رقيقاً شفافاً ويسمى الرخام في اليمن القمرية لأن ضوء القمر بالليل يدخل إلى المكان بسبب صفاء هذا الرخام وهو أمتن من الزجاج وأجمل وهو معدن يوجد بجبل الغراس في الشمال الشرقي من صنعاء وأكثر البيوت في أعلا الطبقات يبنون غرفة جميلة مربعة تنظر من نوافذها أكثر الجهات إلى البرية والجبال تسمى المنظر بفتح الميم وسكون النون وفتح الظاء المعجمة وناس يسميها المكان بحيث أن الجالسين في المكان يشاهدون البر والجبال . وإذا كان هذا المكان صغيراً سموه الجرف وهذا المكان الذي في أعلى البيت يجعلونه لوقت إستقبال الزائرين ، وفي أيام الاعياد والأفراح ويفرشونها بالسجاجيد التي تسمى بالمفارش والطنافس والمساند والوسايد المزركشة .. والطنافس توضع فوق المساند وهي الوسايد الكبار وتجد الوسايد ثلاث طبقات . المساند ثم الوسايد ثم الطنافس وتسمى البنات أي بنات الوسايد . وكل واحد منها وله لون من القماش الملون أو الجوخ أو الحرير المطرز أو المقصب وفي الأركان الأربعة يعرضها فوق يوضع فيها الأنية الجميلة التي تستعمل في الأفراح والولائم للأكل والشرب مثل الاطباق

الصيني الملونة المنقوشة ويسمى الطبق الصحن والفناجيل الكبار في الصيني البلور والخوافق جمع خافقية على أشكالها وهي التي تسمى في مصر السلاطين جمع سلطانة وبالشام زبادي جمع زبدية . . وآنية النحاس الملونة المنقوشة باشكال هندسية .

أبواب صنعاء وسورها

كان لصنعاء ستةأبواب وسور يحيط بها من جميع أطرافها وتدعى هذه الابواب البلقة ، الشقاديف، اليمن أو عدن ، شُعُوب، خزيمة الروم[٣] ، وأجمل هذه الأبواب وأتقنها صنعاً وأكثرها عرضاً وترتيباً (باب عدن) . وأما سورها فمبنى من جدران سميكة معمولة من الطين واللبن. «الآجر غير المشوى» ويوجد في هذا السور على أبعاد متناسبة بروج «كركونات» خاصة بالجنود الموكول إليهم حراسة البلد. وهذه البروج قائمة على مسافات هندسية متساوية من الابواب وفيها رمايات كرمايات المنجنيق وأماكن خاصة للمراقبين يقف فيها الحراس ليل نهار : ولهم في الليل نظام خاص يتأكدون بواسطته من تيقظهم وإنتباههم وذلك بواسطة الصياح بعضهم على بعض. وترديد بعض العبارات المعروفة عندهم . ويبتدىء بالصياح عادة الحارس القريب من السراي فينادي بعبارته المعروفة فيرددها في الحال حارس المخفر القائم إلى جانبه وهكذا دواليك إلى أن يردد جميع الحراس بالمخافر هذه العبارة ويصل الدور إلى حارس السراي فينادي بعبارة أخرى فيرددها الجميع وأحياناً زيادة في الحرص وفي ظروف خاصة يستعملون الابواق في تبليغ الاوامر العسكرية وفي إبلاغ بعضهم إلى بعض وقت الصلاة أو الساعة الى غير ذلك من الامور المهمة .

صنعاء قطعة من جنة عدن :

يصف مؤلف كتاب «رحلة في بلاد العربية السعيدة من مصر إلى صنعاء» وصوله إلى قصر الأمام فيقول : أما حديقة الدار فتشبه في كثير من الاحوال بساتين وادي النيربين في أرض الصالحية بدمشق ففيها من كل فاكهة زوجان وقد رأيت «أي المؤلف» شيئاً كثيراً من شجر التفاح والمشمش والخوخ والسفرجل والدراق والكرمة والرمان والأجاص ومن النباتات والخضر شاهدت القرنبيط واليخنة والكرنب والسبانخ والسلق والقرع والفاصوليا والجزر والبصل والثوم إلى غير ذلك ، وقد جلب الترك معظمها من سورية فوافقتها الأقاليم وصارت من جملة الخضروات الوطنية .
وأول شيء إسترعى نظر المؤلف عند دخوله الدار من باب الحديثة هوالشادروان القائم في وسطها والشادروان هو البحرة في المنزل يجري إليه الماء من نوافير جميلة . وقد ذكر المؤلف هذه النوافير بنوافير الربوة بدمشق ويقال لهذا الدار دار الزيدي ويدخل إليه من بوابة خشبية كبيرة تشبه أبواب الحدائق وفيها باب صغير يدخل منه الناس والباب الكبير خصص لدخول الحيوانات بما فيها الجمال وخلف البوابة هو منزل عامل الحديقة «الجنايني الموكول إليه حراستها وغرس حديقتها عبارة عن غرفتين أرضيتين فوقهما غرفة صغيرة من حوش كبير يسكن هو وعائلته فيها. . والى جانب منزل الجنايني يوجد صالون كبير خصص للزوار ، وخلفه غرفتان خصصتا لخدم الضيوف الذين

ينزلون بهذه الدار ، الى جانب هذا الصالون الكبير توجد حديقة كبيرة قائمة في وسطها دار جميلة على الطراز التركي من الحجر الأبيض والاسود . وكان أول ما يسترعي نظرك في صنعاء النواعير والمياه الجارية فيها ، والمياه تجلب إليها من مسافات عالية حيث تجمع من مياه الأنهر ، وأما النوافير فماؤها يأتيها من خزانات «برك» مرتفعة وتملأ هذه الخزانات من الآبار بواسطة الحيوانات كالحمير والبقر والجمال ، إذ يربطون دلواً كبيراً من الجلد يسع نحو أربع تنكات «صفائح» ماء إلى بكر ويدلونه في البئر يربطون حبل البكر إلى حيوان ويمشي في حافة البئر مسافة مساوية لعمق البئر إلى الأمام فيسحب الدلو من قعر البئر الى سطحها حتى إذا وصل الدلو الى سطح البئر يفرغ ماؤه من الخزان ، فيعود الحيوان أدراجه نحو البئر يسقط الدلو بالبئر رويداً رويداً وهلم جراً . . ومتى إمتلأ الحوض الذي يختلف حجمه باختلاف مساحة الحديقة التي تشرب منه استعملوا ماءه لسقاية الاشجار والخضروات . ويوجد في صنعاء مئات من المنازل فيها حدائق على هذه الصورة تشرب من ماء الشادروان ويوجد فيها أيضاً حدائق كثيرة تشرب من ماء الغيول ـ والغيول جمع غيل : أي قناة الماء الصغيرة . ويسوق الحيوانات على البئر في أكثر الاحيان أولاد صغار لا تتجاوز اعمارهم الثانية عشرة ولهم في ذهابهم وإيابهم مع الحيوانات غناءٌ وأناشيد خاصة ينشدونها طيلة النهار ، اما موسيقى هذا النشيد فهي صوت إحتكاك الحبال على البكر . وفي الحقيقة تتولد من غناء الأولاد وصوت الحبال انغام لطيفة لا يسمعها الانسان في غير صنعاء فقط بل وفي مناطق أخرى . . ومطلع الاغنية :

بالله عليك يا طالعي من البئر . . البنت شمعة والولد قنديل

بالله عليك يا طير يا رمادي . . . . صف الجناح وردني بلادي

وفي وصف الكاتب لحدائق القصر الذي نزل فيه يقول : إن مشاهدته وحديثه مع الجنايني حيث كان يكلمه وهو يقلع بعض الاعشاب الغريبة التي كانت تنمو بكثرة بين الخس ، وقد لاحظت «أي الكاتب» أن المعول الذي كان يستعمله لقلع الاعشاب بسيط جداً مصنوع في صنعاء . وهو طويل مصبوب من حديد ويده الخشبية قصيرة للغاية وطول الحديد فقط يقال له «مغرس» للحفر والردم ولكل شيء في الحديقة . وليست سائر الادوات الزراعية أفضل من المغرس . فالمحراث لا يبلغ طول القسم الحديدي منه ـ أي المسكة التي تدخل في الارض بضعة سنتيمترات . وفي اغلب الاحيان تصنع السكة من الخشب عوضاً عن الحديد .

انتشار زراعة الفواكه والثمار في صنعاء :

بالرغم من عدم الاعتناء بالاشجار إعتناءً فنياً وبالرغم من تركها على حالة من الاهمال فهي تأتي بالثمار جيدة وشهية . وكل ذلك عائد إلى جودة المناخ وطبيعة الارض . ولا نشك أنه لو اعتني بها عناية فنية لزادت ثمارها زيادة كبيرة . . وقد جلب الأتراك أنواعاً مختلفة من الأشجار والطعوم والبقول وجربوها في صنعاء وغيرها من البلاد ، فبعضها وافقها الهواء والتربة فنمت

وازدهرت وعمت زراعتها ، وبعضها أحرقتها الشمس الحارة فماتت لرقتها .

غيل الاف والغيل الاسود والابار :

الغيل يعني الجدول وماؤه الآن قليل لقلة الأمطار ولكنه يزداد بموسم المطر كثيراً ويسقي معظم حدائق بئر العزب . وبعض الاراضي الزراعية بأطراف صنعاء ونبعه في الجبال على مسافة بضع ساعات من صنعاء وكان يوجد بصنعاء غيل آخر غير هذا الغيل وأكبر منه ويمر بباب (شراره) ويدخل حديقة سراي الدولة ويستعمل الأهلون ماءه للشرب ، ولري المزروعات وهو صغير أيضاً بالنسبة لأنهر دمشق ويقال له الغيل الأسود

وفي الحقيقة لا يوجد باليمن أنهر كبيرة بالمعنى المفهوم من النهر ولكن يوجد بعض الأنهر التي تعادل أنهر بلاد الرافدين، وتزداد أيام الأمطار زيادة متناسبة مع الأمطار . وفي وقت المطر تسيل سيول عظيمة في الشعاب والوديان بشدة لعدة ساعات أو أيام ثم تشح وتنشف عقيب انتهاء الأمطار ، وهذا ما حدا بالحميريين في العصور الاولى لبناء سدود وخزانات عظيمة .

حي بئر العزب :

كان بئر العزب ولايزال قسم منه (قاع العلفى حاليا) عبارة عن زقاق ضيق لا يبلغ عرضه أكثر من مترين وأرضه غير معبدة وتقوم الى جانبه جدران بنيت من اللبن والطين على طراز بناء «دكوك» حدائق دمشق على علو متر ونصف ، أو مترين . ويوجد خلف هذه الدكوك حدائق غناء ، ومنازل جميلة على شكل فيلات مكشوفة الاطراف إلا من سور في آخر حدائقها .

قاع اليهود :

سمي محل اليهود بالقاع «العلفى حاليا» لأنه واقع في سهل واسع وكان يسكنه اليهود اليمنيون حيث كانت منازل اليهود في داخلها نظيفة وأنيقة للغاية رغم صغر حجمها ولكنها من الخارج غير داخلها ويوجد بالقاع عدة أسواق فيها جميع أنواع البضائع .

الدور في اليمن :

تبنى الدور في صنعاء وفي معظم مناطق اليمن على شكلين : الاول من الحجارة فقط يضعون بعضها فوق بعض ولا يستعمل في بنائها الطين بل تبنى بشكل يركب معه الحجر الواحد فوق الحجر الآخر والشكل الثاني : يبنى من الحجارة فقط أو من الحجارة والآجر والطين العادي يسمى في اليمن «خلب» أو الطين المضاف إليه شيء من الكلس وتبيض المنازل بمادة تسمى «القص» وهو يشبه الكلس ويصنع من حجر خاص يجلب من مكان واقع في الشرق يقال له الغراس وهو المكان الذي يوجد فيه هذا الحجر يجلب منه الى صنعاء ويحرق كما تحرق الاحجار الكلسية في أفران خاصة ثم تخرج ويطحن طحناً فيصبح جاهزاً للعمل ، وتُجلب أحجاره من الجبل الشرقي نقم وهي بيضاء وتجلب أيضاً أحجار من جبل الجراف غربي الروضة وهي سوداء وتجلب أيضاً احجار بركانية سوداء من عصر الواقع غربي صنعاء ، وهي

أصلب من حجارة الجراف . ومعظم البنائين في صنعاء كانوا من اليهود وكانت أدوات البناء بسيطة للغاية تصنع في نفس صنعاء باليد : بطرق بدائية من الحديد والخشب ولكن البناء قوي جداً ويبقى قائماً مئات من السنين .

كنيسة القليس :

كنيسة القليس تقع في حفرة كبيرة وبضع شجرات ويقال لهذه الحفرة في الوقت الحاضر «غرقة القليس» بفتح القاف وكسر اللام وسكون الياء وآخرها سين مهملة ، وهي الكنيسة التي بناها أبرهة بن الصباح الحبشي وأراد من بنائها أن يصرف الناس عن الكعبة إليها ، وقد قال في وصفها السيد صارم الدين بن إبراهيم الوزير المتوفى سنة ٩٢٤ م ما خلاصته :

القليس كنيسة أبرهة الحبشي سميت بذلك لارتفاع بنائها وكان ابرهة قد حاول إذلال أهل اليمن واخضاعهم فلما عزم على عمارة هذه الكنيسة أمرهم بنقل ما في قصر بلقيس من أحجار منقوشة بالذهب والفضة ورخام مجزع ، ثم جد في بنيان الكنيسة وجعلها مربعة وبناها بتلك الحجارة منقوشة لا تدخل الابرة في أطيانها وجعلها ملونة : واحجارها من الاخضر والاحمر والابيض والأزرق والأسود وجعل دائرها مفصلاً على هذه الصفةثم فصل فوق الرخام بحجارة سود لها برق جلبهامن جبل نقم المشرف على صنعاء ، وكان عرض الحائط ستة أذرع والمدخل منه الى بيت في جوف الكنيسة طوله ثمانون ذراعاً في عرض أربعين ذراعاً عوده من العاج المنقوش وفيه مسامير الذهب والفضة ثم يدخل من ذلك البيت الى ديوان طوله أربعون ذراعاً عن يمينه وعن يساره عقود عاجية تتلألأ ككواكب الذهب والفضة ثم ذهب جدرانها وسقوفها ونصب منها صلباناً من الذهب والفضة ومنابر من العاج وغيرها فصارت تلتهب التهاباً . وجعل فيها قناديل من الذهب والفضة والبلور توقد بأطيب الأدهان وجعل أبوابها من العاج المصفح بالذهب والفضة فلما هلك أبرهة ومزقت الحبشة كل ممزق أقفر ما حول هذه الكنيسة وكثرت حولها الحيات فلا يستطيع أحد ان يأخذ منها شيئا وكان الاعتقاد ان من هم بشيء من ذلك لأخذ شيء منها أصابه عمى ولم تزل هذه الكنيسة كذلك في زمن الصحابة رضي الله عنهم وأيام بني أمية إلى زمن أبي العباس السفاح فذكر له أمرها فبعث العباس بن الربيع عاملاً على اليمن فوصل معه أهل الحزم والجلاده ولم يلبث أن أمر بخرابها فخاف الناس . . ثم أن قوماً تقدموا فخربوها على وجل ورعب شديد فاجتمع منها مال عظيم حمل الى السفاح وقد نزلت بالذين خربوها ضروب من الالام من جنون وجذام فازداد الفاعلون تطيراً بذلك ثم عفى رسمها وانقطع خبرها .

ياقوت وكنيسة القليس :

قال ياقوت في معجم البلدان عن القليس ما مختصره : إنها الكنيسة التي بناها ابرهة بن الصباح بصنعاء اليمن سميت القليس لارتفاع بنيانها وعلوها ، ومنه القلانس . لأنها في أعلى الرؤ وس ، وأنه بناها ابرهة ونقشها بالذهب والفضة والزجاج والفسيفساء والوان الاصباغ وصنوف الجواهر وجعل فيه خشباً له رؤ وس كرؤ وس الناس وكلها بأنواع الأصباغ وجعل

خارج القبة برنساً فإن كان يوم عيدها كشف البرنس عنها فيتلألأ رخامها من الوان صباغها حتى تكاد تخطف البصر وكان ابرهة قد استذل أهل اليمن في بناء هذه الكنيسة وحمّلهم فيها أنواعاً من السخر وكان ينقل إليها آلات البناء كالرخام المجزع والحجارة المنقوشة بالذهب في قصر بلقيس صاحبة سليمان عليه السلام ، وكان في موضع هذه الكنيسة على فراسخ بقايا من آثار ملكهم فاستعان بذلك على ما أراده في بناء هذه الكنيسة ونصب فيها صلباناً من الذهب والفضة وبناء من العاج والأبنوس وكان يريد أن يرفع بنيانها حتى يشرف منه على عدن .

وكان حكمه في العامل إذا طلعت الشمس قبل أن يأخذ في عمله أن يقطع يده ، فتأخر رجل منهم ذات يوم حتى طلعت الشمس فجاءت معه أمه وهي امرأة عجوز فتضرعت إليه تستشفع لابنها فأبى إلا أن يقطع يده فقالت : اضرب بمعولك اليوم فاليوم لك وغداً لغيرك وكما صار الملك إليك من غيرك فكذلك سيصير منك إلى غيرك ، فأخذته موعظتها وعفا عن ولدها وعن الناس من العمل فيما بعد وكتب على بابها بالمسند «بنيت هذا لك من مالك ليذكر فيه إسمك وأنا عبدك» ولما هلك ابرهة ومزقت الحبشة كل ممزق وأقفر ما حول الكنيسة ولم يعمرها كثرت حولها السباع والحيات وكان كل من أراد أن يأخذ منها شيئاً اصابته الجن فبقيت من ذلك العهد بما فيها من العدد والآلات من الذهب والفضة ذات القيمة الوافرة والقناطير من المال لا يستطيع احد أن يأخذ منه شيئاً إلى زمان أبي العباس السفاح نذكر له أمرها فبعث اليها خاله الربيع بن زياد الحارثي عامله على اليمن وأصحبه رجالاً من أهل الحزم والجلد حتى استخرج ما كان فيها من الالات والأموال وخربها حتى عفى رسمها وانقطع خبرها . . .

---

١ ـ هو الغيل الاسود الذي يخرج من جنوب الجبل ويشق طريق صنعاء خارجاً إلى شعوب . . لم يعدله وجود في الوقت الراهن .

٢ ـ باب خزيمة والروم والبلقة والشقادين وشعوب وعدن لم يبق من هذه الابواب سوى باب الحرية «أي باب اليمن» .

المصادر : تأريخ اليمن : المسمى فرحة الهموم والحزن في حوادث وتأريخ اليمن) تأليف العلامة الشيخ عبد الواسع بن يحيى الواسعي اليماني . القاهرة ١٣٤٦ هـ ـ المطبعة السلفية ومكتبتها

٢) ـ الاكليل (الجزء الثاني) نبيه أمين فارس ـ برنستن ١٩٤٠ م .

٣) ـ (رحلة في بلاد العربية السعيدة من مصر الى صنعاء) بقلم نزيه قويد العظم ١٣٥٥ هـ ،

٤) ـ (تاريخ مدينة صنعاء) ـ تأليف أحمد بن عبد الله الرازي ـ عنى بالتحقيق ووضع الفهارس حسين العمري .

فقرات من نقوش صنعاء

أحمد ناجي ساري[1]

متحف صنعاء

كانت صنعـاء ولا تزال عاصمة اليمن وحاضرتها منذ أكثر من ثلاثة آلاف سنة ، وبما أنهـا عاصمة لليمن في عصـر الاسلام ، فهي لا تحتاج الى ايضاح أو تعريف : فكتب التاريخ تعطيها حقهـا كاملاً ، وكل النـاس يعرفـون الحقبـات والعهود التي توالت عليهـا ، ومن استعملها كعاصمة من أئمة وسلاطين وملوك ٠٠ الخ ٠

ولكن قليلاً مـن الناس لا يعرفون أنهـا كانت عاصمة لليمن لعصر ما قبل الاسلام ، وما زال كثير مـن المؤرخين العـرب لا يتطرقون لتاريخ صنعاء قبل الاسلام ما عدا القليل منهم مثل الهمداني وجرجي زيدان ٠٠ أما الهمداني فقـد ذكر صنعـاء وكتب وصفاً شاملاً لهـا ولقصـر غمـدان في « الاكليـل » ٠

ومما يؤكـد أهميـة صنعـاء في عصـر ما قبـل الاسلام ورود ذكرها في عدد مـن النقوش السبأية المكتوبـة بالخط المسـند ، وأهم هذه النقوش : النقش الوثائقي الكبير الذي كتبه الملك آلشرح يحضب على حجرين كبيرين من (البلق) ٠ الحجر الأول ١٦ سطراً ، والحجر الثاني ١٩ سطراً ، وهذا النقش موجود في بيت القاضي بالجوبه ٠

وقد جاء ذكر صنعاء في هذا النقش ست مرات كما في السطر الثالث من الحجر الأول ٠

وننقل هنـا فقط ما يتعلق بصنعـاء :

[illegible]

هنا يقول الملك آلشرح انه نهض مـن مدينـة مأرب الى مدينة صنعاء ليقوم بحملة على شامرذي ريدان ، بعد أن أخل بالمواثيق التي بينهم في وقت السلم : وليس المقصود هنا الترجمـة ولكن المقصود ذكر صنعـاء ٠٠٠

وفي السطر الخامس جـاء :

[illegible]

وهـذا ترجمتـه :

« ويعود الملك آلشرح يحضب ٠٠٠ الى مدينـة صنعاء بعافيـة وخـير كثـير » ٠

وفي السطر الحادي عشر جـاء ما يلي :

[illegible]

وترجمتــه :

« ونصرهم ويحاربهم في وادي نجـران وياتو عبر سيدهم وملكهم الى مدينــة صنعاء بعــافيــة وخــير » .

وفي السطر السابع عشر من الحجر الثاني

« وحفدهم ومدينة مأرب وصنعاء وتشق.. » .

وفي السطر العاشر مــن الحجر الأول :

[كملوا] وعادوا الى مدينة ناعط(*) ومن ناعط رجعوا الى مدينة صنعاء بانتصار عظيم وتقتيــل مــن الأعــداء .

هذه الفقرات من هذا النقش تبين مدى أهمية مدينة صنعاء قبل الاسلام . ونستطيع أن نقول انه لا توجد أية مدينــة في العــالم عاشت هذه المدة كلها مزدهرة بسكانها وشهرتها حتى عصرنا هــذا ، وهي ما تزال محتفظة بفنها المعماري الأصيل والفريد من نوعه في العالم .

(*) اصلح الأستاذ مطهر بن علي الارياني هذه القراءة هكذا (نعض) بدلا من (ناعط) .

احمد ناجي ساري

في ١٩٨٢/١١/١٠

* * *